الرسالة الحميدية

في

حقيقة الديانة الإسلامية وحقية الشريعة المحمدية

للمرحوم نادرة زمانه ، وعلامة دهره واوانه
استاذ العصر ، و نادرة الدهر مولانا الشيخ حسين
ابن محمد الجسر الطرابلسي المتوفى سنة ١٣٢٧ هـ

مصدرة بنبذة من تاريخ حياة المؤلف بقلم نجله صاحب السماحة
الأستاذ الشيخ محمد الجسر رئيس مجلس نواب لبنان

نشرها بعد التعليق عليها باذن ورثة المؤلف سنة ١٣٥٢ هـ

إدارة الطباعة المنيرية

[illegible]

درب الأتراك رقم ١

ترجمة وجيزة لمؤلف هذا الكتاب العلامة الكبير الشيخ
حسين الجسر الشهير رحمه الله مأخوذة من المجموعة
المسهبة التي وضعها نجله صاحب السماحة
الشيخ محمد الجسر في جزئين

﴿نسبه﴾ هو الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن الحاج مصطفى الجسر ، وينتهي نسبه من جهة والده الى آل المائي من ابناء مدينة دمياط في القطر المصري ، هاجر والد جده الى البلاد الشامية حوالى عام ١١٧٨ هجرية فقطن دمشق مدة قليلة ثم تركها الى طرابلس الشام فاستقر فيها واتخذها وطنا له . وفي طرابلس الشام نمت أسرته ولا تزال مقيمة فيها . وقد عرفت أسرة المائي في دمياط بانتسابها الى السلسلة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية، ورأس أسرة المائي في دمياط هو السيد محمد المائي الصيادي المدفون في قبة السيد عثمان الصيادي ⁕ (١)

وينتهي نسب صاحب الترجمة من جهة والدته السيدة خديجة كريمة السيد علي بن محمد رمضان الذي كان سكبان باشي أي رئيس الجند لدى عبد الله باشا والي عكا ، أما بنو رمضان فاسرة قديمة في بيروت هاجرت اليها من بلدة اطنه عام ٩٧٠ هجرية حينما استولت الدولة العثمانية على تلك المقاطعة وأزاحت الدولة الرمضانية عن كراسي الحكم فيها بعد أن حكمت دولة بني رمضان مائة وتسعين عاما من سنة ٧٨٠ — ٩٧٠ هجرية (٢) ولا تزال أوقاف بني رمضان معروفة في اطنه ⁕

﴿ مولده ﴾ — ولد صاحب الترجمة في دار والده في حي الحدادين

---

(١) كتاب عقد اللآل في ترجمة الآل ⁕

(٢) دائرة المعارف للبستاني جزء ٩ صفحة ٢٢٩ — قاموس الاعلام تأليف شمس الدين سامي ج ٣ صفحة ٢٣٠٠ طبع الآستانة .

من أحياء طرابلس الشام، وكانت ولادته ليلة الأربعاء في ٢٣ رمضان سنة ١٢٦١ هجرية الموافق ٢٥ أيلول سبتمبر سنة ١٨٤٥ ميلادية، وتوفي والده في ٢٣ جمادي الثانية سنة ١٢٦٢ وعمر صاحب الترجمة تسعة أشهر. وتوفيت والدته وعمره عشر سنوات فكفله عمه الشيخ مصطفى الجسر ٭

﴿ نشأته في طرابلس ﴾ — نشأ رحمه الله يتيما عائلا فان والده الشيخ محمد الجسر قدس الله سره الذي يعرف في الأقطار الشامية والفلسطينية بأنه ولي من أولياء الله. ولا يزال قبره في مدينة الله معروفا يزار ويقصد الى يومنا هذا — لم يترك له بعد وفاته شيئا من حطام الدنيا — وانه على ذلك نشأ نشأة طيبة صالحة في حضانة والدته وكانت على قسط وافر من التهذيب والتقوى كما كان عمه وكافله، فرباه تربية عائلية صحيحة وقرأ القرآن الكريم على الحافظ المجيد الشيخ أحمد عبد الجليل أحد قراء طرابلس المشهورين، ثم لازم حلقة الدروس اللغوية والدينية على الشيخين الجليلين عبد القادر الرافعي. وعبد الرزاق الرافعي رحمهما الله، ثم انتقل الى حلقة الدروس في مدرسة الشيخ أحمد أعرابي أحد مشاهير العلماء في طرابلس فحصل على قسط وافر من العلم والأدب وتعلق بالشعر وهو بعد يافع في السابعة عشرة من عمره على ما وجدته بخط يده في مجموعة شعرية له ٭

﴿ هجرته الى مصر ﴾ ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره تاقت نفسه الى التبسط في العلم ومالت الى السير على خطة أبيه من قبله فغادر طرابلس في شهر شوال سنة ١٢٧٩ قاصدا الى مصر فبلغها في أواخر الشهر المذكور وانتظم في سلك طلاب العلم في الأزهر الشريف. وأقام في غرفة من غرف رواق الشوام وانصرف الى الدراسة واجتناء ثمار العلم الشرعي والأدبي والفلسفي بجد واجتهاد وتواصل ولم يترك الأزهر ولم يزر بلدته مدة خمس سنوات الى ان اضطر الى مغادرة ثغر الاسكندرية في ١٨ ربيع الأول سنة ١٢٨٤ الموافق

٢٠ تموز سنة ١٨٦٧ عائدا الى طرابلس لما بلغه اشتداد المرض على عمه وقد ترك الجامع الأزهر على نية العودة اليه ولكن وفاة رب العائلة وعمادها اضطره الى البقاء فى طرابلس وهكذا انقطع حبل امله من البقاء فى تحصيل العلم مدة أطول من المدة التى قضاها ، فثابر على اتمام ما كان يصبو اليه من العلم الصحيح والدراسة العميقة لا يثنيه عن ذلك ثان الى أن بلغ سن الشيخوخة *

﴿شيوخه فى الأزهر﴾ قرأ فى الأزهر الشريف على أساتذة اعلام ، منهم الشيخ حسين المرصفى صاحب الكلمات الثمان وكان جل قراءته عليه فكان تلميذه الخاص يلازمه فى حلقة دروسه وفى داره ويقرأ عليه دروسا خاصة أدبية وفلسفية وقرأ على الأساتذة المثقفين الشيخ سليمان الحانى . والشيخ عبد القادر الرافعى الكبير مفتى الديار المصرية السابق . والشيخ عبد الرحمن البحراوى . والشيخ مصطفى المبلط وكان هذا من أساتذة والده الشيخ محمد الجسر ، وقرأ على الشيخ أحمد الرافعى . وعلى الشيخ حسين منقاره الطرابلسى *

﴿خلقه﴾ كان صاحب الترجمة حسن القوام ، أميل الى الطول منه الى الربعة ، رقيق الجسم ، خفيف اللحم ، قوى العضل والعصب ، سبط الذراعين والانامل ، متوسط حجم الرأس مائلا بشكله الى الطول ، واسع الجبهة ، مستطيل الوجه ، ازج الحاجبين مقوسهما من غير قرن ؛ واسع العينين أشهلهما اشم العرنين ، اقنى الأنف ، أسيل الخدين ، وسيم الفم ، رقيق الشفتين ، رقيق شعر الشاربين ، ذا لحية لا يزيد طولها عن قبضة اليد ذات شعر ناعم كستنائى ، واسع الصدر ، عريض ما بين المنكبين ، مستوى البطن ، مشربا بالبياض ، مستطيل الاظافر املسهما *

وكان رحمه الله معتدل المزاج تغلب عليه العصبية الدموية ، جيد الصحة غير ذى علة *

﴿خلقه﴾ كان رحمه الله ذكيا ، فطنا ، وقاد الذهن ، ثاقب الفكر ،

حسن الفراسة ، ربع الانتقال ، فصيح اللسان من غير ذلاقة ولم يكن خطيبا مكثارا ، جوادا بموجوده ، وفيا بعهوده ، لا يقابل أحدا بما يكره ، كبير العقل ، شديد الحزم ، والعزم ، ثابت الجاش ، أبى الضيم ، صبورا على نوائب الدهر . ونوازله ، كثير الحلم ، قليل الغضب ، تستفزه الوقيعة فى الدين ، صدوقا ، وفيا ، لا يسأل عما لا يعنيه ، بعيدا عن الضرر ، معتزلا بدينه وعلمه عن مخالطة الناس ، أنوف النفس ، عف اللسان ، مبالغا فى اجتناب مواقع التهم ، مترفعا عما يسعى إليه غيره من الشيوخ من التملق للأغنياء والكبراء والتزلف للحكام .

((عمله العلمى)) ولما اضطر الى البقاء فى طرابلس الشام التزم خطة آبائه من قبله فتابع جهوده العلمية متمما دراسة العلوم وخصوصا الفلسفة الدينية منها وملقيا دروسه الخاصة على عصبة طيبة من الطلبة والمريدين فعقد حلقات الدروس على مختلف أنواعها للخاصة وللعامة ولم يترك مع ذلك الجهة الثانية التى اشتهر بها والده وهى المسلك الروحانى ، بارشاد المريدين على الطريقة الخلوتية وعقد حلقات الذكر والعبادة فى داره الخاصة وهكذا ظل الى آخر حياته لا ينقطع يوما عن المطالعة والدراسة والتأليف .

((عمله العصرى)) وحينما أحس رحمه الله بحاجة ابناء دينه ووطنه الى تلقى العلوم الدينية والعصرية فى زمن بدأت فيه البعثات العلمية الأجنبية تعمل عملها أسس فى طرابلس مدرسة عصرية جمعت بين العلوم الدينية والعصرية واللغات الأجنبية دعاها المدرسة الوطنية. وقد انجبت نخبة طيبة من شبان هذا العصر ولولا الحسد والضغينة لظلت زمنا طويلا تخرج للبلاد السورية علماء أعلاما جمعوا بين العلم الدينى والعلم العصرى ، ثم ترأس المدرسة السلطانية التى افتتحتها جمعية المقاصد الخيرية فى بيروت فاحسن ادارتها وأسلكها منهجا قويما ، ثم عاد الى وطنه طرابلس *

《تآليفه وآثاره القلمية》 ولما أخذت الافكار تتجه نحو المنشورات الصحفية ما بين مطبوعات حديثة . ومجلات علمية جارى التيار الفكرى وأخذ يعمل الى جانب عمله اليومى بالتأليف تارة وبالكتابة فى صحيفة أوجدها فى بلدته وسماها طرابلس دون أن يذكر اسمه فيها ، وقد جاهد فى هذا السبيل جهادا عظيما وظل مثابرا على التاليف حتى أواخر حياته ولكنه انقطع عن الكتابة فى جريدة طرابلس بعد عشر سنين من ظهورها *

《الرسالة الحميدية》 وأول كتاب ظهر من تآليفه العلمية هو الرسالة الحميدية ولما أتم طبعه تلقاه العالم الاسلامى بافال لم يكن منتظرا فى ذلك العهد (منذ ٤٥ عاما) فتناولته الصحف والاقلام على اختلاف نزعاتها ولغاتها بالتقريظ والاطراء وخصه الكاتب التركى الشهير المرحوم أحمد مدحت افندى بعدة مقالات نشرها فى جريدته «ترجمان حقيقت» فى الاستانة وقد بلغت احدى هذه المقالات ثمانية عشر عمودا بالحرف الصغير ، وترجمت الرسالة الى التركية بقلم العالم الكبير اسماعيل حقى افندى من مشاهير علماء الاستانة ومن اعضاء مجلس الشيوخ فيها وأعيد طبع الرسالة الحميدية مرارا وترجمت الى اللغة الاوردية فى الهند وكذلك أعيد طبعها أكثر من مرة فى قازان من البلاد الروسية وفى غيرها من البلدان ٠

ولقد توهم بعضهم أن صاحب الترجمة أراد التقرب من السلطان عبد الحميد والزلفى اليه فنسب الكتاب اليه بتسميته «الرسالة الحميدية» والحقيقة أن الحكومة العثمانية كانت تمنع طبع الكتب قبل تصديقها من مجلس كان يسمى «مجلس تدقيق المؤلفات» وكان فيه من الأتراك الذين يعرف العلم من لا يعرف كلمة من اللغة العربية ، وقد غلب عليهم أن يمنعوا طبع أى كتاب لا يفهمون مضمونه فخشى المرحوم صاحب الترجمة أن يمنع طبع كتابه ؛ فلما استشار أعضاء مجلس المعارف فى بيروت أشار واعليه أن يطلق عنوان رسالة على كتابه حتى يكون فى وسعهم اعطاء الاذن بطبعه فقد كان موسوما

لهم الترخيص بطبع الرسائل وأن يطلق اسم السلطان على رسالته كي يمنع الوشاة والحساد من وشايتهم به الى وزارة المعارف وهكذا كان، فاجاز مجلس المعارف في بيروت طبع الكتاب وخشي الوشاة الايقاع بمن سهل طبع الكتاب *

(مذهبه السياسي) كان صاحب الترجمة يأبى الدخول في الوظائف، يأنف من التقرب الى الحكام وقد الح عليه السلطان عبد الحميد بالاقامة في الآستانة بالقرب منه فاعتذر وفضل الاقامة في بلدته، لقد كانت له آراء سياسية تثبتها الوثائق الخطية التي دارت بين أصدقائه وقد نشر بعضها في الصحف باسم مستعار وارسل بعضها بل باقيها الى من يثق من الفطن بهم في حينه . وتتلخص خطوطها الأساسية في ما يلي:

١ - - المحافظة على الخلافة الاسلامية في بني عثمان على أن يكون بينها وبين ملوك العرب وأمرائهم عهود وولاء ومواثيق تجعلهم كتلة واحدة *

٢ - - ربط البلدان الاسلامية بعضها ببعض بخطوط حديدية . وقد أشار الى وصل البلاد عاصمة السلطنة العثمانية بخطين حديديين أولهما يمر بالشام وينتهي بمكة والثاني يمر بالبلاد الأناضولية وينتهي بخليج البصرة وذلك قبل أن بدىء بهما بعشر سنين أو أكثر (يراجع الأعداد الأولى من جريدة طرابلس) الصادرة عام ١٣١٠ هـ - ١٨٩١ م)

٣ - اصلاح الحالة الاسلامية في الحجاز وجعل ادارتها منتظمة كبقية الولايات العثمانية والعناية بتحضير القبائل فيها تحضيرا اسلاميا *

٤ - - الاصلاح الديني وإبطال البدع المنتشرة بطريقة الاقناع لا بطريقة الجبابرة والعنف *

((تآليفه وشعره)) كتب صاحب الترجمة عدة تآليف طبع بعضها وبقي سائرها مخطوطا وقد أحصيت عدد هذه التآليف التي كتبها في شتى العلوم والفنون فبلغت سبعة وأربعين مؤلفا بلغ عدد صفحاتها ٥٥١٥ صفحة بحجم مختلف بين كبير ومتوسط على ان العبرة ليست في عدد هذه المؤلفات وصفحاتها على كثرتها وانما العبرة في المواضيع والبحوث التي طرقها صاحب الترجمة رحمه الله وفي اختلاف أنواعها وانصراف أهل العلم الشرعي عن الاشتغال بها في عصره *

(وسنذكر اشهر مؤلفاته المطبوعة والتي لم تطبع في آخر هذا الكتاب ان شاء الله تعالى)





الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين * أما بعد فيقول الفقير إلى عفو مولاه حسين ابن محمد الجسر الطرابلسي : انى فى هذه الأثناء وجدت فى جرائد بلادنا الشامية بعض مقالات مترجمة عن جرائد أورباوية منسوبة لبعض أحبار الانكليز المدعو اسحاق طيلر قد حاول فيها التوفيق بين معتقد الاسلام ومعتقد المسيحيين وإقامة الدلائل على تقاربهما وتشابه كتبهما ، وان الاختلاف بين الطائفتين ليس إلا فى أمور غير جوهرية ، وذكر فى إحدى تلك المقالات أنه أتى البلاد المصرية لمخالطة الاسلام واستكشاف حقيقة دينهم لبلوغ هذه الغاية ، وكلامه وإن كان صريحا بهذا المقصد ولكنه يشف عن استحسان الدين الاسلامى ويرنو الى دفع اعتراضات يوردها بعض أحبار بلاده على المسلمين فيعارضهم بورود أمثالها عليهم ويدعوهم للنصفة ولاعتبار الدين الاسلامى أول مساعد على تمدن الامم المتوحشة التى يدعون حرصهم على تمدنها مستدلا بأن الذى شوهد فى افريقيا ان تلك الأمم هناك أسرع قبولا للدين الاسلامى من سواه . وهو أفعل فى تهذيب أخلاقهم وتعزيز أنفسهم من كل ما عداه ، وما ذاك إلا لمطابقته لصريح العقول وسهولته للأفهام عليها ، وقد انتشر هناك فى هذه السنين انتشارا غريبا مع عدم المبشرين به والداعين اليه ، ومع ذلك كله فالناظر فى كلام هذا القس لا يقطع بحقيقة مقصده وان كان يتخيل للفكر ان بحثه فى هذا الشأن للتوصل إلى كشف الحقيقة لبنى جلدته واقناعهم بالصواب ، أعانه الله تعالى على قصده الذى

يرضى الله تعالى وبلغه مقصده فيه، وبلغنى أيضاً أن بعضا آخر من رجال الانكليز المتضلعين فى اللغات والفنون قد سعى هذه الأيام ببناء معبد للاسلام فى البلاد الانكليزية وانه يباشر هناك بنشر جريدة عربية ليكون جل مقصدها البحث عن حقيقة الدين الاسلامى واشهار فضائله لدى غير العارفين بها وقد رغب الرجل بواسطة أحد أذكياء المسيحيين اللبنانيين الموجود الآن فى لندن من بعض فضلاء بلدتنا أن تقدم بعض مقالات للجريدة المذكورة فى هذا البحث الرفيع ، وفقه الله لما فيه خير العالم الانسانى وما يرضى مولانا جل وعلا، وقد خطر لى حيث وجدت مجالا للكلام وسميعا للنداء أن أحرر رسالة يستبان منها حقيقة الدين الاسلامى وكيفية تحققه لمتبعيه على أسلوب جديد سهل الفهم لا تمله الأنفس ولا تستوعره الأفكار ، يروق العقول الحرة ويعجب الأذهان المطلقة عن قيود التعصب ان شاء الله تعالى ٭

وحيث أن الحامى للدين الاسلامى والمؤيد لشعائره ، والمحافظ على أوامره هو حضرة مولانا أمير المؤمنين ، وخليفة رب العالمين حامى حمى الاسلام، ومشيد أركان شريعة المصطفى عليه الصلاة والسلام السلطان الأعظم والخاقان الأفخم السلطان ابن السلطان السلطان (الغازى عبد الحميد خان) ابن السلطان الغازى عبد المجيد خان أدام الله أيامه ، ونشر أعلامه وامده بالامدادات الالهية والتوفيقات الصمدانية فكان من كمال حظ هذه الرسالة وطالع سعدها الأكبر أن تكون لاسمه الكريم منسوبة ، وفى صحائف حسناته مكتوبة إذ هى حسنة من حسنات عصره السعيد وقطرة من بحار تقدم رعاياه فى منهج المعرفة والتسديد فسميتها (الرسالة الحميدية فى حقيقة الديانة الاسلامية وحقية الشريعة المحمدية) فاسأل الله تعالى التوفيق لطرق الصواب وهداية قلوب ذوى الألباب للنظر فى عاقبة يوم المآب انه قريب مجيب ،

وهذا أوان الشروع بالمقصود بعون الملك المعبود *

فاقول قام رجل بين جماهير بلدة وهو من أول نشأته قد عرف بينهم بالصدق والأمانة ولم يعهد عليه تزوير ولا احتيال باطل كما انه معروف لهم بأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب فضلا عن اقتداره على تقليد خط سواه ولم يسبق له معاناة بوضع قوانين الملوك ونظامات الامم المتكفلة بصالح الرعايا فنادى بأعلى صوته بين أولئك الجماهير، وقال يا أيها الناس انى رسول ملككم اليكم أمرني أن أبلغكم رسالته وأشرح لكم قوانينه التي سنها لكم الآن وهو يأمركم بالسير على مقتضاها والعمل بفحواها ، وقد كان فيما مضى من الزمان أرسل اليكم رسلا غيري بلغوكم عنه قوانين كانت مناسبة لذلك الزمان الماضي فالآن يأمركم بترك كثير من تلك القوانين القديمة حيث أن الزمان الذي كان يناسبها وتناسبه قد انقضى ويوجب عليكم اتباع هذه القوانين الجديدة التي أرسلني بها كما يوجب عليكم أن تهجروا العوائد التي أخذتموها عن أسلافكم أو ابتدعتموها باهوائكم ولم يكن أمركم بها وقتا من الأوقات وانما هي عادات قبيحة يأباها العقل ويمجها الطبع وترجع عليكم بالضرر وكثير منها هو لنعم الملك كفران وعلى ضعفاء رعيته عدوان فعليكم بتصديقي وسلوك طريقي حتى أبين لكم ما يرضي الملك وما يغضبه فاجابوه بأجمعهم وقالوا له : مهلا أيها المدعي مقاما عظيما ومنصبا جسيما لقد كلفتنا بدعواك هذه سلوك طريق يصعب علينا سلوكه وتنفر منه نفوسنا وتشمئز عقولنا وتضطرب من تصور احتماله أفكارنا إلا اذا تحققنا ان ملكنا المغدق علينا النعم والمستأسر أرواحنا بالكرم هو يأمرنا به ويرضاه لنا فانا حينئذ لا يسعنا الا الانقياد والتسليم اليك والتصديق برسالتك والاقبال على اطاعتك لما لملكنا علينا من الأمر النافذ والسلطان القاهر ، ولعلمنا انه لا يختار لنا الا ما فيه صلاحنا

حسا ومعنى فهل لصحة دعواك من برهان وهل معك دليل يضطرنا الى الخضوع لك والايمان ، فقال ذلك الرجل : نعم ياذوى الألباب وهل يليق بالعاقل التصديق بدعوى الا بدليلها المرشد الى الصواب ان معى كتابا من الملك بخطه وختمه وانشائه المعلومة لديكم يقول فيه أن فلانا وهو أنا حامل كتابى هذا المتحلى بالعلامات الملائية الظاهرة فيه للعيان هو صادق فى كل مايبلغكم عنى وهو رسولى اليكم ليشرح لكم القوانين التى سننتها لكم لتعود بالنفع عليكم فامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه فقالوا له ابرز لنا هذا الكتاب الذى تدعيه حتى يتميز الصدق من المين وتزاح الشبهة من البين فحينئذ أبرز لهم كتابا والقاه بين أيديهم واجتمع للنظر فيه قاصيهم ودانيهم فنظروا باجمعهم فيه وقرأوه وفهموا معانيه فاذا هو طبق ماالرجل يدعيه مشتمل على خطاب الملك لأولئك الجماهير بأن هـذا الرجل الحامل كتابى المتحلى بالعلامات الفلانية الظاهرة فيه هو رسولى اليكم وهو صادق فيما يبلغكم عنى من دقيق وجليل فامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه وخذوا عنه القوانين التى سننتها لكم الى آخر ماادعى ذلك الرجل من وظائفه التى فوضها الملك اليه ، وقد كان أولئك الجماهير فى قوة المدارك ومعرفة طرق الاستدلال متفاوتين ومفترقين عدة طوائف اذ من المعلوم أن العلم لايوجد جميعه عند واحد ؛ ولكنه يوجد عند الجميع ٭

((فطائفة)) منهم كانوا يعرفون خط الملك حق المعرفة ولا يشتبهون فيه ويعلمون انه لا يقلد فعندما نظروا ذلك الكتاب قالوا هذا خط ملكنا فهذا كتابه بلا ارتياب فنحن قد أذعنا لما فيه ، وصدقنا هذا الرجل فيما يدعيه ٭

((وطائفة)) منهم كانوا يعرفون ختم الملك أتم المعرفة ويعلمون أنه لايقلد أيضا فحينما نظروا اليه قالوا هذا ختم ملكنا الذى لايقبل التزوير

فنحن أيضا قد صدقنا هذا الرجل بلا نكير *

﴿ وطائفة ﴾ منهم كانوا يعرفون انشاء الملك وأساليبه الملوكية وخطاباته السلطانية التي يقصر عن بلاغتها سواه فقالوا : نعم ان انشاء هذا الكتاب هو انشاء ملكنا المعلوم لنا اختصاصه به وهذا الخطاب خطابه الذى نعهده منه فى مخاطباته رعاياه فنحن أيضا قد صدقنا هذا الرجل فيما ادعاه *

﴿ وطائفة ﴾ منهم لم يكونوا يعرفون شيئا مما تقدم ولكن كانوا يعرفون ان عند الملك أنواعا من التحف والذخائر التى لا توجد عند سواه من أكبر الأغنياء وأعظم الملوك فقالوا لذلك الرجل : ان برهان صدقك عندنا أن تحضر لنا من عند الملك التحفة الفلانية والتحفة الفلانية من تلك التحف المختصة بخزائنه فقال لهم : أفعل ان شاء الله تعالى وبعد مدة وجيزة أحضر لهم ما طلبوه ونظروا اليه وتحققوه وهم يعلمون انه لا يمكن احضاره الا باذن الملك وارادته اذ هو محصن بخزائنه غاية التحصين فعند ذلك صدقوا ذلك الرجل فى دعواه على أكمل وجه *

﴿ وطائفة ﴾ منهم قالوا : ان ملكنا كان فيما مضى من الزمان قد ارسل لنا رسلا وأصحبهم بقوانين تناسب ذلك الوقت وتكفى احتياجاته وقد برهنوا على ارسال الملك اياهم بما أثبت دعواهم وكانوا يقولون لنا : ان الملك مزمع على ارسال رسول اليكم يأتى بعد زمان من أيامنا هذه ويصحبه بقوانين تتكفل باصلاح شؤونكم وتناسب الزمان الذى يرسله فيه وتقوم باحتياجاته وان ذلك الرسول توجد فيه علامات هى كذا وكذا وذكروا لنا علامات كثيرة لا يصدق العقل بوجودها باجمعها فى شخص فنحن الآن نتأمل فيما جاء به هذا الرجل وادعى انه من عند الملك فان كان موافقا لما قاله أولئك الرسل

ووجد فيه تلك العلامات التى ذكروها لنا نعلم انه صادق فيما يدعيه وان كان الامر بخلاف ذلك رفضنا دعواه بلا ارتياب فعند ماتأملوا قوانينه التى يدعى انه مرسل بها وجدوها طبق ماأخبرتهم به الرسل المتقدمون وبحثوا عن العلامات التى قالوا : انها توجد فيه فوجدوها موجودة ظاهرة فيه بلا تمويه فعند ذلك صدقوه بدعواه أيضا واتبعوه اكمل الاتباع .

﴿ وطائفة ﴾ منهم قالوا : الاحوط أن نتروى وننظر فيما يأمرنا به ذلك الرجل وما ينهانا عنه وفى تلك القوانين التى يدعى انها من عند الملك فان كان يأمرنا بما نعهده مطابقا لرضى ملكنا وينهانا عما نعهده خلاف رضاه ورأينا القوانين التى جاء بها هى طبق مانعهده أيضا من قوانين الملك متكفلة بخير الوطن رافعة عن الناس شرور المحن لاسيما اذا رأينا ذلك الرجل لايأمر بشىء يعود عليه بصالح خاص به بل مطالبه عائدة بالنفع العام لجميع الشعب نعلم انه صادق فى دعواه وان كان الأمر خلاف ذلك كله نعلم انه كاذب بمدعاه فعند مانظروا الى أوامره وجدوها طبق مايعهدونه مرضيا لملكهم ، ورأوا قوانينه كذلك متكفلة بخير البلاد ونجاح العباد ورفع الفساد ولاصالح له خصوصى فى كل مايأمر به وينهى بل هو مشتمل على ما يجلب الخير ويدفع الضير محتو على تعليمهم شكر الملك على انعاماته عليهم وبالحقيقة ذلك الشكر عائد بالمنافع اليهم فعند ذلك جزموا بصدق ذلك الرجل بما يدعيه وخضعوا له أتم الخضوع .

﴿ وطائفة ﴾ منهم قالوا لاشك ان جميع مايدعيه هذا الرجل بيننا وما ينشره من القوانين وماهو عازم على اجرائه من التصرف باحوال من يتبعونه من رعية ملكنا لابد ان يعلم به ملكنا ومن المحال أن لايعلمه لظهوره علنا بين الخاص والعام ومثل ذلك لايتم كتمانه ولو عن أقصى البلاد فان

كانت دعواه صحيحة أقره الملك على أعماله ولم يرسل اليه من يكذبه ويقبض عليه وعلى من يتبعه ويعاقبهم اشد العقاب وان كان كاذبا فى دعواه مزورا على الملك خطه وختمه ومتلاعبا فى رعيته حسب هواه فلا شك ان الملك فى أسرع وقت بعد مايعلم خبره يرسل من يكذبه بمدعاه ويقبض عليه وعلى اتباعه وينزل بهم النكال الشديد لأن هذا الافتراء لايكون حقيرا عند ملكنا الحكيم الحازم بل هو أمر من أعظم الأمور يستحيل أن يعفو عنه أو يتساهل فيه فصبر اولئك القوم مدة من الزمان كافية لأن يعلم الملك خبر ذلك الرجل ومضت الليالى والأيام التى لايصدق العقل معها انه يخفى على الملك خبره ومع ذلك لم يرد من جانب الملك من يكذب ذلك الرجل ويقبض عليه وعلى من يتبعه وينزل بهم النكال ويمنع الناس عن العمل بقوانينه التى نشرها بينهم فى جميع الشؤون والأحوال بل لم يزل ذلك الرجل يزداد اتباعا يوما فيوما ويعلو شأنه حينا فحينا فعند ذلك جزم أولئك الطائفة بصدق ذلك الرجل واتبعوه أكمل الاتباع ٠

﴿ وطائفة ﴾ منهم لم تسبق أفكارهم الى تلك الأدلة التى وصلت اليها أفكار أولئك الطوائف السابقة وانما تأملوا فى شأن هذا الرجل وفى متابعه أولئك الطوائف له وفى الوجوه والدلائل التى حملتهم على تصديقه والتسليم اليه فقالوا : ان هؤلاء الأقوام الذين اتبعوا هذا الرجل لاشك انهم عقلاء وأصحاب آراء سديدة ومستعدون للاستدلال على الحقائق والتوصل للصواب ونراهم قد تركوا عوائدهم المألوفة لهم والموروثة عن آبائهم وهجروا اكثر قوانين ملكهم التى قد سنها فى الزمان الماضى كل ذلك بسبب تصديقهم هذا الرجل ، ولا شك ان هجر مثل تلك العوائد المذكورة يصعب عليهم جدا وانهم يعلمون قطعا ان تركهم لكثير من القوانين التى كان سنها لهم الملك ان لم

يكن بأمره ورضاه يستحقون انتقامه الشديد فتصديقهم هذا الرجل لابد أن يكون ناشئا عن تحرير أدلتهم التى اعتمدوها فى تصديقه ولولا انها أدلة قاطعة أوصلتهم الى الصواب لما كانوا جروا بمقتضاها ولما هجروا مألوفاتهم وتعرضوا لانتقام ملكهم ولكانت عقولهم السليمة تمنعهم أن يقدموا هذا الاقدام ويخاطروا هذه المخاطرة اعتماداً على دليل ضعيف أو هوى نفس وخيم العاقبة فاتفاقهم جميعا على تصديق هذا الرجل مع تنوع أدلتهم لاشك انه حجة أخرى مستقلة تثبت دعواه اذ ان من المحال الذى لا يصدقه العقل ان يكون ذلك الاتفاق من أولئك القوم العقلاء وتوفر تلك الأدلة التى وضحت لهم حاصلا بوجه المصادفة ولا يقول بالمصادفة فى ذلك الا مكابر ، فنحن اعتماداً على جميع ما تقرر لدينا على هذا الوجه المشروح وهو اتفاق هؤلاء الجماهير بهذه الكيفية التى لاتكون بوجه المصادفة ولا تنشأ الا عن تثبت وتحقيق تام من أولئك العقلاء قد صدقنا هذا الرجل فيما يدعيه وامتثلنا جميع ما يأمرنا به مقرين بأنه رسول ملكنا بلا اشتباه ٥

((وطائفة)) منهم كانوا عن أغفلهم أمر معاشهم واستغراقهم فى لذاتهم فهم لا يعلمون ان للناس ملكا متوليا عليهم وان حقيقته انه كبير له السلطة التامة على شؤون جميع الناس بحيث يتصرف فى أحوالهم بموجب العدل حتى يمكنه أن يجمع الاموال الكثيرة منهم التى لا يتوفر جمعها لغيره وانه يمكنه أن يقتنى التحف الفاخرة التى يمتنع على سواه أن يقتنيها لانفراده بانقياد الناس اليه مادة وأدبا فيمكنه جمع قواهم الحسية والمعنوية الى قوته فيبلغ بذلك مالا يبلغه غيره ٥ وكانوا أيضا من غفلتهم يظنون أيضا ان أمور الناس وجرى أحوالهم ومعاملاتهم بمقتضى القوانين التى بين أيديهم كل ذلك ليس بتدبير ملك واختيار متصرف متسلط بل يتوهمون ان ذلك جميعه جار على طريق

الاعتياد ومقتضى تقلبات الزمان وطوارق الحدثان حتى صار ذلك ناموسا مألوفا جاريا بلا تخلف ألفته الطباع وخلافه عندها لا يستطاع، فهم بالاحرى أن لا يعرفوا رسلا للملك وكيفية ارسالهم ووضع القوانين من جانب الملك وانها باختياره وان له تبديلها بسواها، فهؤلاء القوم لما سمعوا دعوى ذلك الرجل التى ادعاها فى بلدتهم على رءوس الاشهاد ونظروا الى شؤون أولئك الطوائف معه وانهم كذبوه أولا وحاوروه ثم انقادوا اليه وصدقوه تنبهت أفكارهم واستيقظت ألبابهم ومن يسمع يخل فقال بعضهم لبعض: ان هذا الامر مهم جدا فان كان يوجد للناس ملك متسلط عليهم غاية التسلط وشأنه فى تلك السلطة ان يتصرف فى أحوالهم وان يجمع اليه قواهم ويتحلى بغناهم وهو الآن مرسل هذا الرجل ويأمرنا باتباعه وبقينا نحن فى غفلتنا هذه لا نمتثل له أمرا ولا نرفع له ذكرا فلا شك أن عاقبتنا تكون وخيمة علينا اذ لا بد ان هذا الرجل يبلغه حقيقة حالنا وعدم التفاتنا اليه فينتقم منا أشد الانتقام ولا يعذرنا بجهلنا وغفلتنا عن سلطانه فالصواب لنا ان نتأمل فى كلام هذا الرجل ودعواه وفى شؤون هؤلاء الجماهير الذين خالفوه ثم اتبعوه حتى نتوصل الى حقيقة الحال أهو صادق فنتبعه ام كاذب فبالتكذيب نصدعه فاخذوا يتأملون فى ذلك مع كامل التحرى وأتم البحث فبعد تأملهم الصحيح وتحريهم الكامل وبحثهم التام عن حقيقة الصواب نتج لهم ما ملخصه اننا وان كنا لا نعرف ان فى الكون ملكا ولا نعرف خطه ولا ختمه ولا انشاءه ولا شيئا من قوانينه حتى نقابل بها ما جاء به هذا الرجل ولا نعرف أخبار الرسل المتقدمين فى شأنه ولا العلامات التى علموه بها فلا أقل من اننا نعتبر شهادة هؤلاء الجماهير الكثيرة الذين قالوا: انهم يعرفون تلك الأمور جميعها ويتحققونها وقد اتخذوها عمدتهم فى تصديق هذا الرجل وسلوكهم

فى سبيل يصعب عليهم سلوكه لولا تيقنهم بصدقه فاتفاقهم على ذلك وهم عقلاء وتصريحهم بشهاداتهم انهم يعرفون تلك الأدلة ولا يرتابون فيها وانها كافيه للتصديق وسلوك هذا الطريق الذى فارقوا فيه مألوفاتهم وبعض ما أمرهم به الكبير الذى دعوه باسم الملك هو دليل لنا كاف على صدق هذا الرجل فيما يدعيه فان ذلك كله لا يكون ناشئا بطريق الصدفة أو عن عبث أو هوى نفس أو مداهنة تحمل أولئك الاقوام على الأمر الخطير واذا أهملنا هذا الاستدلال وقطعنا النظر عن شهادة هؤلاء الأقوام فى شان هذا الرجل وعن جميع ما أجروه معه فلا يمكننا أن نهمل النظر فيما أحضره من التحف الفاخرة التى طلبت منه وشهد له طلابها بانها من عند الملك ولا توجد عند سواه ولا يمكن احضارها الا باذنه ونحن كذلك نرى انه ليس من شأن هذا الرجل قطعيا ان يوجد عنده مثل هذه التحف بل بمقتضى شأنها وعزتها وقلة أمثالها تجزم عقولنا بانها لا توجد الا عند من له السلطة التامة والتصرف المطلق فى أموال الناس قادر على جمع قواهم الحسية والمعنوية الى قوته حتى تبلغ درجة يمكنه معها أن يقتنى مثل هذه التحف النفيسة فاحضار هذا الرجل لها عندما طلبت منه هو دليل كاف على وجود كبير متصف بتلك الصفات السامية يسمى ملكا وانه هو الذى أرسل ذلك الرجل الينا وصدقه فى دعواه بتسليمه له تلك التحف عند ما طلبت منه فاعتمادا على ذلك كله قد جزمنا نحن بوجود ملك للناس وبارساله هذا الرجل الينا وخضعنا له أتم الخضوع وانقدنا اليه كامل الانقياد »

هذا وقد كان يوجد بين أهل تلك البلدة من كل طائفة من الطوائف المتقدمة أناس أخذتهم عزة النفس وعتو الأنفة . والتهالك على ما اعتادوا عليه موروثا عن آبائهم فتصوروا ان هذا الرجل اذا سلمنا له دعواه فلا

بد ان يصير هو الآمر علينا ونحن المأمورين له وكثير منهم قد كانوا أمراء بين أقوامهم متميزين على اقرانهم فصعب عليهم تصديقه والخضوع له بسبب تلك الوساوس فاصروا على تكذيبه ظاهرا وقلوبهم مملوءة بتصديقه ولكنما غلب هواهم العاجل على عقولهم وهان عليهم انتقام الملك الآجل بما سكنت اليه نفوسهم من اختيارها الباطل وهكذا يوجد من الحمقاء من تراه عند انفعالاته النفسية من نحو عزة النفس أو الغضب أو الغيرة أو التعصب الباطل يغمس الحق وينصر الباطل ويهون عليه الخطر العظيم ثم يندم بعد ذلك حين لا ينفعه الندم ، ثم اخذ أولئك المعاندون يؤولون كل دليل من الأدلة التي اعتمد عليها سواهم من أولئك الجماهير تأويلات واهية وتمحلات ساقطة ويصرفون كلا منها عن دلالته بطرائق فاسدة لا يقبلها صريح العقل ولا يشهد بها الضمير الحر ، وتارة يغالطون أولئك الاقوام في استدلالاتهم بغير سند يعتمد عليه وغفلوا عن أمر لا يغفل عنه الا البليد الجاهل بطرق الاستدلال ولا ينكره الا متجاهل مكابر يدعي جواز وقوع المحال ، وهو أنه لو سلم لهم بالفرض ومجاراة الخصم تأويل كل دليل على حدته لا يسلم العقل السليم والضمير الحر انه بطريق الصدفة قد توفرت تلك الدلائل لتصديق ذلك الرجل وتيسر له أن يصورها مع فسادها بصور الأدلة الصحيحة ويموهها على أولئك الجماهير حتى اقتنع أفكارهم بتصديقه وأخرجهم مما ألفوه إلى غير ما ألفوه على ان بعض تلك الدلائل لم يكن ذلك الرجل مقيما لها عليهم ، ولا ساعيا بتدوينها لديهم وانما أوصلتهم اليها عقولهم بعد التأمل والاستبصار ولا صنع له فيها البتة ووجود العلامات التي قالت الرسل قبله انها توجد فيه لا يصدق العقل أيضا أن يكون في قدرته احداثها في نفسه وأحواله ، وقد جهل هؤلاء المؤولون ان الأشياء المجتمعة لها حكم غير

حكم كل فرد منها على انفراده ، فلها من القوة ما ليس له وهـذا مسلم فى المحسوسات والمعقولات فشهادة الفرد غير شهادة الأفراد الكثيرة المجتمعة ، وهذه تفيد ما لا تفيده الأولى وتعطى من القوة ما لا تعطيه ، وكذلك الأدلة الكثيرة المجتمعة على نتيجة واحدة تقنع الضمير وتبعده عن الركون للتأويل ما لا يفعله الدليل الواحد والدليلان ، فاذا سلمنا ان ذلك الرجل تيسر له تقليد خط الملك فكيف يصدق العقل انه مع ذلك تيسر له تقليد ختمه وانشائه وموافقة القوانين التى سنها الملك سابقا واحضار التحف التى لا توجد إلا عند الملك ولا يمكن احضارها إلا بارادته وكيف اتفق مع ذلك أن توجد فيه العلامات التى كانت الرسل المتقدمون ذكروا انها توجد فى الرسول الذى فى عزم الملك أن يرسله بعد حين ، وكيف خفى أيضا أمر دعواه على الملك بعد اشاعته فى البلدة ومرور مدة كافية لبلوغ خبره للملك ، ولم يرسل اليه من يكذبه ويعاقبه وبالحق أنه لا يصر على القول بتلك التأويلات واعتقاد الصدفة بتلك الموافقات إلا مكابر جامد على هواه وتعصبه الأعمى يستحق اهمال كلامه وعدم الالتفات اليه .

وقد وجد ممن كذب ذلك الرجل فرقة لم يعملوا فكرهم فى الاستدلال على صدقه أو كذبه فغاية ما كان منهم انهم بقوا متمسكين بما ألفوه من قديم الزمان موروثا عن أسلافهم وقالوا : اننا لا نترك ما نحن عليه ولا نفارقه الى سواه تمسكا أعمى وتعصبا أعشى ، وهؤلاء القوم لو قيل لهم : ان هذا الرجل اذا كان صادقا فى دعواه يخشى عليكم من انتقام الملك بسبب عدم اتباعه لم يكن لهم من الجواب الا قولهم : انه كذاب ونحن لا نصدقه فيما يدعيه فهذا غاية ما عندهم من الجواب الناشىء عن الجمود البارد والفكر الخامد ، فهؤلاء

الخاملون هل يظلمهم الملك بانزال انتقامه بهم لا والله لأنه لو قيل له عند ارادته عقاب من كذب رسوله : ان هؤلاء معذورون فى تكذيبهم اياه لعدم ظهور دليل لهم على صدقه كان له أن يقول : لو كنت أراهم عديمى العقول فاقدى الادراك فى أمر معاشهم لكنت عذرتهم وعفوت عنهم ، ولكنى أراهم فى أمور معاشهم وصوالحهم الخاصة بهم ذوى عقول وتنبه تام وتيقظ كامل كاف لبلوغهم مآربهم فكان عليهم أن يوجهوا هذه القوى التى يستخدمونها فى تعيشهم وصوالحهم الى التأمل فى دعوى ذلك الرجل والاستدلال بواسطتها على صدقه أو كذبه كما يستعملونها فى استدلالهم على اخصامهم عند منازعتهم فى اغراضهم فاذن هم عندى غير معذورين بل تهاونهم فى الالتفات الى كلام رسولى والتأمل فى دعواه هو الذى اعمى عين بصيرتهم واوقعهم فى خطأ تكذيبهم إياه وبذلك يستحقون انتقامى وسلب انعامى فانا أنتقم منهم بهذا الوجه الظاهر الجارى على موجب العدل .

ثم ان ذلك الرجل المدعى ارسال الملك إياه بعد اتباع أولئك الجماهير له لم يزل مهتما باقناع الذين لم يصدقوه وهم الفرقة المكابرة المتمحلة عليه بالتأويلات الواهية والفرقة المكذبة له بدون التفات الى الدلائل فجعل دائما يقدم لهم النصائح ويوضح لهم الأدلة ويوقظ أفكارهم لما فيه صلاحهم وهم مع ذلك لا يزدادون الا نفورا ومكابرة وجمودا ، فلما أعياه أمرهم وتحقق انه لا ينجع فيهم عمل البرهان ورآهم قد انتصبوا له ولاتباعه اعداء الداء يترقبون الفرص للاضرار والأذى جرد لهم السيف وناصبهم الحرب بامر الملك الذى أرسله :

اذا المرء لم ينجع به النصح لم يكن له رادعا الا العصا فوق رأسه

فاستعان بمن أطاعه على من عصاه ، وقامت بين الفريقين الحرب على

قدم وساق، وحاصل الامر بعد ما استمرت الحرب بينهما سجالا سنة الله فى خلقه اذ جعل الامر دولا انه انتصر ذلك الرجل على مخالفيه والعاقبة للمتقين فقتل بعضهم اذ لا دافع لأذاهم إلا القتل واتلاف المؤذى أمر معقول مقبول وبقتلهم سلامة المدينة من الدمار:

وقطعك العضو المريض ان يكن   به حياة المرء عين الواجب

واستأسر بعضهم كسرا لشوكة أذاهم بضرب الاسترقاق عليهم وجزاء لمخالفتهم رضاء ملكهم، وأخضع بعضهم لامتثال بعض أوامره التى تكف بأسهم عن الاضرار به وباتباعه ، وشرط عليهم ان لا يجاهروا بتكذيبه وان كانوا باطنا مكذبين حفظا لابهته وحذرا من انصداع أفكار متبعيه ، وأن يدفعوا اليه من مكاسبهم ما يكون عونا على تدبير شؤون البلدة وأبقى مجازاة تكذيبهم له الى حضور الملك يفعل بهم ما تقتضيه حكمته ، والبعض منهم خرج من البلدة والتجأ الى المعاقل والجبال ، وهؤلاء ايضا لم يهمل محاربتهم كلما أمكنته الفرصة أملا فى رجوعهم الى تصديقه وحذرا من كرهم عليه وعلى أتباعه بالأذى عند قدرتهم عليه وقد أنذرهم بانه وان تخلصوا من انتقامه بتحصنهم فلا يخلصون من انتقام الملك متى حضر وظهر عليهم فانه يفعل بهم حينئذ ما يستحقونه بمقتضى العدل والحكمة ،

والبعض منهم الجأهم الخوف أو الطمع الى التصديق ظاهرا واضمروا فى قلوبهم التكذيب فالحقهم ذلك الرجل باتباعه وعاملهم معاملة اشياعه لأنه كان يقول : انى مامور من الملك أن اعتبر ظاهر من يتبعنى لأن البحث عن بواطنهم ربما أفسد على كثيرا منهم بعد أن يكون صادقا ويفتح لأعدائى بابا أن يقولوا عنى : انى مرتاب فى اتباعى وغير مطمئن لهم ، وهؤلاء القوم المتلبسون متى انكشف حالهم للملك فيما بعد واطلع على بواطنهم وانهم لم

يتبعوا رسوله الا خوفا أو طمعا وهم يبغضونه أشد البغض ويترقبون الفرص لأذيته وأذية أتباعه الصادقين فلا شك انه ينزل بهم أشد النكال ويذيقهم الأهوال اذ هم أعظم ضررا من سواهم ولا يؤمن في جميع الأحوال اذاهم ٥

والبعض منهم الجاهم الخوف أو الطمع بما في أيدي ذلك الرسول وأيدي اتباعه من الأموال التي يجمعها لاصلاح شان المدينة إلى التصديق والخضوع ظاهرا وهم في الباطن مكذبون ولكنهم بعد ما خالطوا ذلك الرجل واختبروا أحواله وفهموا حقيقة القوانين التي ادعى أن الملك أرسله بها وشاهدوا معاملته مع اتباعه بكل استقامة وانه لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشر انشرحت قلوبهم لتصديقه ظاهرا وباطنا فصدقوه كذلك وصاروا من خيار أتباعه وأكرم أنصاره ٥

إذا أحطت خبرا بجميع ما حررناه وفهمت رموزه وخفاياه ظهر لك في شأن هذا الرجل إن العقل الحر السليم الخالي عن الهوى والتعصب الاعمى المطلق من قيود التقليد وخجل الخروج عن الخطأ الذي اعتاد عليه يحكم بصحة دعواه وإنه رسول الملك بلا اشتباه لأن اتفاق تلك الدلائل لا يكون بوجه المصادفة عند كل لبيب عاقل ، فاعلم ان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه الصلاة والسلام قد نقل لنا بالتواتر أي نقل لنا الجماهير الكثيرة الذين لا يحصى عددهم ويحيل العقل تواطئهم على الكذب كاحالته مثلا تواطىء الناس جميعا على الاخبار بوجود مكة وهي غير موجودة عن الجماهير الكثيرة كذلك وهلم جرا عن الجماهير الكثيرة كذلك الذين شاهدوه ونظروه رأى العين وأحاطوا بأحواله وبما جرى له في مدة حياته مع الامم حتى تم له تصديق الألوف من اتباعه بكل ماجاء به انه بعد ما مضى له من العمر أربعون سنة بين قومه وقد عرفوه بالصدق والامانة حتى دعوه محمد الأمين

ولم يجر له فى تلك المدة تعلم القراءة والكتابة ولم يجتمع مع أهل هاتين الخطتين اجتماعا تمكنه معه أن يتعلمهما منهم ويؤهله ذلك لاكتساب جملة من معارف الأمم. وشرائع الأقدمين وقوانين الممالك ولم يعثر عليه فى تلك المدة بمعاناة شىء من ذلك قام بين جماهير العالم من العرب والعجم مع قلة ذات يده وقلة أنصاره وأعوانه وعدم سبق سلطنة فى أجداده قد ترى فيظن به أنه يريد استردادها بالتحيل على الرآسة فادعى ان الله سبحانه وتعالى إله العالم أرسله إلى الناس كافة لأجل أن يبلغهم شرعه الذى شرعه لهم ليتكفل بنجاحهم فى الدنيا والآخرة وان هذا الشرع يناسب زمانه الذى بعث فيه إلى انقضاء هذا العالم وانه ينسخ به كثيرا من أحكام شرائع الرسل الذين بعثهم الله تعالى قبله فيما مضى من الزمان الذى كان هذا المنسوخ يناسبه وانه ينهاهم عن عوايد وأخلاق قبيحة مضرة بصوالحهم ورثوها عن آبائهم أو زينها لهم الشيطان وأقبح شىء منها عبادة الأوثان والنيران والأحجار والأشجار ، وانه يأمرهم بتوحيد الله تعالى واعتقاد اتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقصان وانه يعلمهم كيفية شكرهم لخالقهم على نعمه التى أنعمها عليهم ، وبالحقيقة ذلك الشكر عائد بالمنافع اليهم الى غير ذلك من كل ما يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الضير مما حوته شريعته المرسل بها ، فعندما سمع منه أولئك الجماهير عاليهم ودانيهم وسلاطينهم وجبابرتهم هذه الدعوى العظيمة نفروا من قبول دعواه وعادوه أشد المعاداة وهجره منهم الأهل والخلان وكذبه الشيوخ والشبان وتحول له الأوداء أعداء والموافقون أخصاما الداء ثم أخذوا فى مجادلته ومحاولته وجرهم منهج المجادلة إلى طلب حجته وصار كل منهم يطلب برهانا على صدق دعواه ويتمحل له التعجيز فى كل ما يراه وهو عليه السلام ينصب لهم الدلائل ويجيب فى المقترحات كل سائل ، ومن أعظم الحجج التى استند فى اثبات دعواه اليها

وجعل معظم اعتماده عليها ماتلاه عليهم من مجموع كلام عربي يسميه قرآنا ويقول : انه من عند الله تعالى أرسله به اليهم وهو مشتمل على التصريح بأنه رسول الله تعالى إلى الناس كافة وأنه صادق في كل مايبلغ عنه سبحانه وهو متكفل ببيان الشريعة التي شرعها الله تعالى له وقد جعل عليه السلام يتحداهم باقصر جملة منه يسميها سورة بمعنى أنه يستدل على انه من عندالله تعالى بعجز فصحاء اللسان العربي منهم وبلغائه بأجمعهم عن الاتيان بما يساوى أقصر سورة منه فى فصاحتها وبلاغتها وأهل ذلك اللسان هم أمراء هاتين الخطتين وفطاحل هاتين الصنعتين وفيهم من بلغ فيهما أعلى المراتب التي يعجز عن بلوغها كل من سواهم من البشر ولا توجد فوقها مرتبة يمكن استيلاء القوة البشرية عليها ووصول العقل الانساني اليها ثم بعد الأخذ والرد والاقبال والصد أخذ أولئك الجماهير ينضمون إلى محمد عليه الصلاة والسلام ويخضعون لديه ويدخلون فى دينه أفواجا ويمتثلون أوامره أفرادا وأزواجا مسلمين له بالرسالة من عند الله إلا من لم يرد الله تعالى أن يتولاه ، وإذا أردنا أن نمثل أحوال أولئك الأقوام وشئونهم معه عليه السلام حسب ماتدل عليه الأخبار الصحيحة والآثار الثابتة وحسب الامكانات العقلية التي لو فرض وقوعها تكون نتائجها كما سنقرره فى هذه الرسالة أوصلنا التأمل الصادق الى تمثيل شئونهم معه عليه السلام بأنهم كانوا فى شأنه على طرائق مختلفة ومناهج متنوعة سلكوها حسب استعدادهم وسمو أفكارهم وخمودها ، فطائفة منهم وهم أهل الفصاحة والبلاغة العربيتين الرائج فى ذلك الزمان بين الأمة العربية سوقهما فكانتا أشرف علومهم وأكرم مفاخرهم وهم امراؤهما العالمون بأساليبهما ، الحاملون أعلامهما والمحيطون باسرارهما وبما هو فى طوق البشر من مراتبهما وبما هو ليس فى طوقهم من ذلك أصحاب الخطب الطنانة والقصائد

الرنانة لما تحداهم عليه السلام باقصر سورة من القرآن الذى جاء به وادعى عجزهم عن معارضته ووصفهم بالضعف والقصور عن بلوغ تلك المنقبة ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، منوها بذلك فى كل محفل مشهراً له فى كل جحفل ومع ذلك يسفه أحلامهم فى عاداتهم وعباداتهم ويطعن فى معبوداتهم التى عبدوها بضلالتهم أخذوا يتأملون فى ذلك القرآن ويسبرونه بمسبار التبيان ويقلبونه ظهرا لبطن ويتدبرونه تدبر الناقد البصير فظهر لهم أن هذا القرآن بلغ مرتبة فى الفصاحة والبلاغة لا تدركها القوى البشرية ولو أن بعضهم كابر وعارضه لجاء بالغث البارد ، وأصبح سخرية عند الصادر والوارد لأن كل أمر قوبل بما يفوقه ويفضله بدرجات سامية تظهر للعقول دناءته وتتضح للافكار خساسته وتنحط فى الأنفس منزلته ولو كان فى نفسه سميا فتحقق عندهم عجزهم عن معارضته ولو بأقصر سورة منه فاقروا بعجزهم بل بعجز البشر وبان ذلك دليل على انه من عند خالق القوى والقدر فصدقوا جميعا دعوى محمد عليه الصلاة والسلام بالرسالة واتبعوه فيما جاء به من عند الله على ما يرام*

﴿وطائفة﴾ منهم كانوا من أهل الخبرة فى نقد الكلام ومعرفة الصفات الفاضلة فيه وتدبر أساليبه التى تروق ذوى الألباب ومشتملاته التى تأتى بالعجب العجاب فظهر لهم بعد التأمل الصادق فى ذلك القرآن أنه وجدت فيه خواص كاملة لا يمكن فى العقل اجتماعها فى مجموع كلام مهما تأنق فيه واضعه واتسع اطلاعه على الماضى والحاضر والمستقبل وأحوال الأمم فى شئونها أجمع والاحاطة فى جميع الفنون والآداب والحكم والسياسات وتحرى فيه عدم المضاربة والتناقض وحسن الأسلوب مع الانفراد عن الأساليب المعهودة عند العرب إلا أن يكون القائل هو الله تعالى القادر على ذلك كله

وعلى جمعه فى كلام يريد جمعه فيه ، وذلك انهم وجدوا هذا القرآن يخبر عن غيوب مستقبلة تأتى طبق أخباره كوعده اتباع محمد عليه السلام بدخول مكة آمنين فجاء الأمر كذلك ، ويخبر عن قصص الأولين وسير المتقدمين كما هى حكاية من شاهدها وحضرها ويخبر عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك من أصحابها بقول أو فعل كما يعلم من حوادث حدثت لبعض أتباع محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام ولبعض أعدائه (كما فى التفاسير وكتب الحديث) وهو مع اتساع مجاله فى كل فن من أخبار وأحكام ومواعظ وأمثال واخلاق وآداب وترغيب وترهيب ومدح الأخيار وذم الفجار وتحذير من قبائح السجايا ومواقع الدنايا وتدبير السياسات ومراعاة الأوداء ومدافعة الأعداء ومجادلة الأخصام وتبكيت الطغام وإقامة الدلائل على وجود البارى تعالى وتوحيده وعلى الحشر والنشر ودفع الشبه وإزالة الريب ووصف دار النعيم وأحوال سكانها ودار الجحيم وأهوالها ، ووصف عالم السموات وما فى العالم العلوى من الآيات من كواكب وأمطار ، وسحائب وبروق ؛ ورعود وعجائب ، ووصف الارض وجبالها وسهولها وبحارها وينابيعها وأنهارها ، وما اشتملت عليه من نباتات وحيوانات ، ومعادن وأزهار ، وأثمار وأشجار وأطيار وظلمات وأنوار حتى يصح أن يقال انه لم يبق علما من علوم الأوائل والأواخر إلا صرح به أو أشار اليه على أساليب متنوعة وطرائق مبتدعة لم يقع فيه تناقض ولم يتخلله تضارب خاليا عن جميع العيوب خارجا بحسن نظمه عن مشابهة كل أسلوب ليس له مثال يحتذى عليه ولا امام يقتدى به فلا هو من نوع القصائد العربية ، ولا من الأراجيز البدوية ولا من الخطب القسية ومع ذلك فهو فى العقول مستحسن وفى النفوس مستملح ، وفى الأذواق مستعذب ، وفى القلوب محبوب وللاسماع مألوف كلما تكرر حلا

ومن أي الأفواه سمعته علا وغلا ولايصح بصر الله تعالى في العقل السليم أن تجتمع كل تلك الصفات فيه اتفاقا، ولا يصدق بالمصادفة في ذلك الضمير الحر ، وقالوا : ان الذي ظهر لنا وتحققناه من اجتماع تلك الصفات في هذا الكلام البديع انه كلام تعجز عنه قوى البشر ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فاتيان محمد عليه السلام به وهو أمي - ومن المحال عادة أن يأتي به أكبر العلماء واحذق الفلاسفة وأعظم المؤرخين وأكبر السياسيين - دليل واضح على انه من عند الله تعالى أرسل محمداً به ليكون معجزة له تدل على تصديقه إياه فنحن قد صدقنا دعوى محمد عليه السلام بالرسالة من عند الله وآمنا بجميع ما جاء به فاصبحوا من اتباعه وأكرم أشياعه»

«(وطائفة) منهم لم يكونوا من أصحاب الفصاحة والبلاغة ولم يكن عندهم قوة النظر والاحاطة بالصفات التي اشتمل عليها القرآن الدال اجتماعها فيه على انه ليس من مصنوعات البشر ولكنهم رأوا محمداً عليه السلام ادعى الرسالة من عند الله وادعى ان هذا القرآن من عند ربه وانه يتحدى أهل الفصاحة والبلاغة باقصر سورة منه ويدعي عجزهم عن معارضته ويشافههم بذلك في كل مجمع ويقرعهم بقصورهم عنه على مرأى من عموم الناس ومسمع ورأوا أن البعض من أهل الفصاحة والبلاغة الحائزين قصب السبق في ميادينهما قد أقروا بالعجز عن معارضته وفارقوا دين آبائهم وقديم عاداتهم واتبعوا محمدا عليه السلام في دينه وسلكوا معه سبيلا يصعب عليهم سلوكه لولا تيقنهم بأنه عليه السلام رسول الله تعالى يأمرهم بسلوك هذا الطريق ورأوا أن بعضا آخر من اهل الانتقاد والبصيرة ، ومعرفة الصفات الفاضلة للكلام قد شهدوا له باجتماع صفات فاضلة شريفة في ذلك القرآن لا يمكن اجتماعها في كلام إلا أن يكون من عند الله تعالى فصدقوا محمدا

لأجل ذلك أيضا وفارقوا ماهم عليه واتبعوا سبيله ، ورأوا بعضاً آخر من أهل الفصاحة والبلاغة المشهود لهم بالسبق في هذين الفنين من جمهور أهلهما قد أحجموا عن المعارضة لذلك القرآن مع تحديه لهم عليه السلام بأقصر سورة منه ومناداته بين الملأ العام بعجزهم عن معارضته وتقريعهم في كل ناد بذلك العجز ومع ذلك لم يظهر منهم إلا الاصرار على ماهم عليه والالتجاء الى مكافحته عليه السلام بالحرب فتعرضوا لسفك دمائهم ونهب أموالهم وسبى ذراريهم وتخريب ديارهم وهجر أوطانهم فلو كان في قدرتهم معارضة ذلك القرآن ولو بمقدار أقصر سورة منه كما تحداهم به لما كانوا أحجموا عن المعارضة وتعرضوا للبلاء العظيم فكان يمكنهم ان يؤلفوا مقدارا من الكلام الفصيح البليغ مساويا فى الفصاحة والبلاغة لأقصر سورة من القرآن ويقولوا لمحمد عليه السلام : هانحن قد عارضنا قرآنك وأبطلنا برهانك فسقطت دعواك بعجزنا عن المعارضة وتبين أن الاتيان بمثل هذا القرآن في استطاعة الانسان فلا وأبيك مافعلوا ذلك ، ولو فعلوه أوجاءوا بما يقارب المساوى لنقل الينا لتوفر دواعيه كما نقل الينا جميع شئونهم معه عليه السلام من هجوله وقذف وسفه عليه وعنف ومعارضة شعراء أمته وخطبائهم ، وانما التجؤا الى ذلك البلاء العظيم والخطر الجسيم وهم بلا شك أصحاب عقول تمنعهم أن يتركوا السبيل السهل المستطاع ويختار أوعر المسالك وأصعب المناهج فأى عاقل يفعل ذلك ويسعى فى إتلاف نفسه وماله وولده وتخريب دياره وهجران أوطانه بلا ضرورة تلجئه إلى اختيار الأشق ، وارتكاب الصعب نعم :

اذا لم تكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وحيث لااضطرار فأى شيء حملهم على تجشم الأخطار ماحملهم إلا

عجزهم عن المعارضة والتعصب الأعمى الذى أشقاهم فاولئك القوم لما تأملوا في أحوال هؤلاء الفرق الثلاث وتبصروا فيها تبصر الناقد البصير قالوا : ان شئون هؤلاء الفرق من اقرار الفصحاء البلغاء منهم بالعجز عن المعارضة غير متهمين بالمداهنة وانقيادهم إلى التصديق واقرار أهل المعرفة منهم بلوغ القرآن الدرجة التى لا تنال فى الصفات الكمالية واذعانهم أيضا بصدق محمد عليه السلام وظهور عجز بعضهم من أهل الفصاحة والبلاغة عن المعارضة باحجامهم عنها والتجائهم إلى الصعب الاشق هو دليل كاف لنا على صدق محمد عليه السلام فى دعواه الرسالة فنحن آمنا به وصدقناه .

أقول : كأن هؤلاء الطائفة قد كوشفوا باستدلال الجاحظ رحمه الله تعالى فى بعض كتبه على صحة دعوى محمد عليه السلام الرسالة من عند الله بعجز العرب عن معارضته فى القرآن الكريم ولننقل لك هنا كلامه فى ذلك كلاما يأخذ بمجامع القلوب ويدفع الريب عن كل محجوب قال رحمه الله تعالى : بعث الله تعالى محمدا عليه السلام أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا وأحكم ما كانت لغة وأشد ما كانت عدة فدعا أقصاها وأدناها الى توحيد الله تعالى وتصديق رسالته فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبه وصار الذى يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباح مساء الى ان يعارضوه ان كان كاذبا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة فكلما أراد تحديا لهم بها وتقريعا لعجزهم عنها تكشف حيلة ولا حجة قالوا : لك أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف فلذلك يمكنك مالا يمكننا قال : فهاتوها مفتريات فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع

فيه شاعر ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه ، ويزعم انه قد عارض وقابل وناقض فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستفحال لغتهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته لان سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله وأفسد لامره وأبلغ فى تكذيبه وأسرع فى تفريق أتباعه من بذل النفوس والخروج عن الاوطان وانفاق الاموال ، وهذا من جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى والعقل بطبقات ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ولهم الاسجاع والمزدوج واللفظ المنثور ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم فمحال أكرمك الله أن تجتمع هؤلاء كلهم فى الامر الظاهر والخطاب المكشوف البين مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز وهم اشد الخلق انفة ، وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم ، وقد احتاجوا اليه والحاجة تبعث على الحيلة فى الامر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة وكما انه محال أن يطيقوه ثلاثا وعشرين سنة على الغلط فى الامر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل اليه وهم يبذلون أكثر منه انتهى .

﴿ وطائفة ﴾ منهم وهم غالبا الذين لا سبق لهم فى الفصاحة والبلاغة ولم تسم أفكارهم الى الاحاطة بما حواه القرآن من الصفات الفاضلة التي لا يمكن جمعها فيه لاحد من البشر ولم يلتفتوا الى عجز من عجز عن معارضته من أهل تينك الخطتين واقرارهم بذلك ولا الى حال من حملهم العجز على الالتجاء إلى المقارعة كانت أنظارهم منصرفة إلى عالم الطبيعيات والى النواميس التى تجرى على موجبها حوادث الكون ويعلمون انه ليس فى قدرة البشر تغيير شيء منها قالوا : نحن

نطلب من محمد (عليه السلام) الاتيان بامور تكون خارقة لتلك النواميس أى خارقة للعادة المطردة فى هذا الكون فان جاء بذلك يكون صادقا لانه اذا خرقت العادة فى ذلك على يديه عند طلبنا ذلك منه يتبين لنا ان الله تعالى خرقها له تصديقا لدعواه الرسالة من عنده ويكون اجراء ذلك بمنزلة قوله تعالى : صدق محمد فيما يبلغ عنى ألا ترى انه لو قام رجل فى حضرة ملك وخاطب الحاضرين قائلا : ان هذا الملك يأمركم أن تطيعونى فيما آمركم به فقالوا : نحن لا نصدقك فى هذه الدعوى حتى يقوم هذا الملك الآن من مكانه ويجلس فى المكان الفلانى من هذا المجلس فلما سمع الملك كلامهم قام من مكانه فى الحال وجلس فى ذلك المكان الذى ذكروه ثم اذا طلبوا منه حركة اخرى تصدر من الملك تكون تصديقا له كنزع الملك التاج عن رأسه ووضعه على رأس آخر ففعلها الملك فى الحال ، وهكذا حركة أخرى كمشيه سبع خطوات فى المجلس ورجوعه لمكانه ففعلها أيضا فلا شك ولا ريب حينئذ ان تلك الأفعال التى صدرت من ذلك الملك على خلاف عادته بمجرد سماع كلامهم لا تكون بوجه الصدفة وانما هى بمنزلة قوله صدق هذا الرجل فيما يدعيه لديكم من انى آمركم باطاعته ومن يقل خلاف ذلك ويدعى الصدفة فى وقوع ذلك يعد من الحمقاء وان عجز محمد عن الاتيان بما نطلبه منه من خوارق العادات كان ذلك دليلا على كذبه وتكذيب الله له فاخذوا يطلبون منه عليه الصلاة والسلام اجراء خوارق للعادات الجارية فى هذا العالم باطراده

﴿ فبعضهم ﴾ طلب منه انشقاق القمر فاتى به طبق ماطلبوه ورآه رأى العين حاضرهم وغائبهم ممن ورد من أمكنة بعيدة متحدة الافق مع امكان الحاضرين فاخبر بانه رأى انشقاقه مثل مارأى الحاضرون *

وانشقاق القمر ليس إلا من قبيل مايحصل عند الزلازل من انصداع

الجبال العظيمة وانقلاب عاليها سافلها ومن قبيل مايزعمه بعض متأخرى الطبيعيين من أن الأرض وكواكب اخر منفصلات عن الشمس وسيعدن اليها يوماما وكل ذلك من الجائز عقلا الداخل تحت تصرف الآله القادر وان كان غير معتاد، سواء جعل له سبب أم لا وطول الزمان الذى يلزم أن يكون عوضا عن زيادة القوة فى احداث الاعمال إنما هو شرط فى جانب القوة الناقصة أى قوة المخلوقات لافى جانب قدرة الآله التامة وانما جعل سبحانه تلك الأزمنة والاسباب فى أعماله ذات الاعجاب ابتلاء لأولى الالباب يضل بذلك من يضل ويهتدى آخرون الى الصواب وبعضهم طلب منه ان تسعى اليه شجرة وتكلمه وتشهد له بالرسالة فجاء بذلك على وفق ماطلب منه *

وبعضهم طلب أن يكلمه الضب ويشهد له بالرسالة أيضا ففعل على وفق ماطلب منه ، وكلام ماذكر يكون بخلق الله الكلام وصدوره من ذلك وهو من الجائز عقلا الداخل تحت تصرف القدرة الالهية بناء على المعتمد ان نحو الحياة والادراك وآلات النطق ليست إلا شروطا للنطق عادية يمكن حصوله بدونها أو يكون بخلقها ، ثم صدور النطق عما ذكر بناء على انها شروط لازمة للنطق على ماقيل وهو أيضا تحت تصرف القادر سبحانه وتعالى *

وبعضهم شاهد أتباعه عليه السلام حينما أعوزهم الماء فى السفر فطلبوا منه السقيا فوضع كفه فى قليل من الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وهم يستقون منه حتى اكتفوا وهم كثيرون ، وهذا يكون بخلق الله تعالى مقدارا من الماء ينضم إلى ذلك القليل منه ويظهر للرائين انه خارج من بين أصابعه حيث يخلق هناك والله الخالق لاخالق سواه، وأيضا اذا كان انقلاب الهواء ماء هو داخل تحت تصرف قدرة الكيماويين فما بالك بقدرة خالق

العناصر والكيميا والكيماويين ، وهكذا من خوارق العادات التى جرت على يديه عليه السلام عند ماطلبت منه وقد نقل لنا ذلك بالأخبار الصحيحة التى جاء بها العدول وان يكن بعض منها على انفراده لم يبلغ حد التواتر فلا شك أن مجموعها بلغ ذلك الحد فانه بلاارتياب صح متواترا اجمالا انه عليه السلام أتى بخوارق العادات عند ماطلبت منه وهذا هو التواتر المعنوى المعتبر عند المحققين من العقلاء ، ولاينكر تواتر ذلك الامكابر لايخجل من انكار الضروريات فهؤلاء القوم حين وجدوا انه عليه السلام قد جاء بما طلب منه من خوارق العادات وخلاف النواميس الكونية التى لايقدر على خرقها الا الله تعالى أيقنوا بتصديق الله له باجرائها على يديه عند طلبها منه فآمنوا به وصدقوه واعتقدوا رسالته عليه السلام . أقول : وليعلم ان أمثال هذه المعجزات ما كانت الا لاقناع عقول من قصرت افهامهم عن ادراك المعجزات الادبية كما مر فى شأن القرآن وسيأتى فى شأن انتظام الشريعة المحمدية واشتمالها على مايدل انها من عندالله تعالى وفى انطباق العلامات المذكورة فى كتب المتقدمين على محمد عليه السلام ونرجو ممن يدعون ادراكهم للمعجزات الأدبية أن لاتكون تلك المعجزات الحسية عقبة فى طريق ايمانهم زعما انها تخالف علومهم التى درسوها فى مدارسهم وترفضها عقولهم بل الصواب فى شأنهم والحزم والاحتراس فى سعيهم أن يعلموا أن هذه الخوارق ما جاءت الا لاقناع من قصر عن ادراك تلك الأدبيات وان عليهم أن يقتنعوا بماتقبله عقولهم ثم ما لاتقبله ويرفضه البرهان العقلى القاطع يرجعون فيه الى التاويل الجامع بين النقل والعقل كما سياتى ان ذلك هو القاعدة فى الشريعة المحمدية فيما ورد نقله وظاهره مخالف للبرهان والا فيصبحون كمن يرى الشمس فى كبد السماء ويزعم ان الوقت ليل لأنه تخيل له رؤية نجم طالع فيترك

الدليل الواضح على وجود النهار و يتشبث بما تخيله من ذلك النجم الذى لم يتحقق وجوده كما تحقق وجود الشمس ثم القصور تحققه بما يكون مخطئا فى رؤيته واعتقاد وجوده لسبب من أسباب الغلط فكان عليه ان يؤل رؤيته لذلك النجم ان لم يتحقق عدمه ولا يهمل الدليل الواضح على وجود النهار وهو تلك الشمس المشرقة والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

﴿ وطائفة منهم ﴾ قالوا : ان الله تعالى قد أرسل الينا رسلا فيما مضى من الزمان مصحوبين بشرائع شرعها لنا تتكفل باصلاح شؤننا وتناسب الزمان الذى أرسلوا فيه ، وقد كان أولئك الرسل يقولون ويشيرون الى أنه سوف يرسل الله تعالى الى الناس كافة رسولا بعد حين بشريعة تتكفل باصلاح شؤنهم وتناسب الزمان الذى يرسل فيه ويوجد فى ذلك الرسول علامات هى كذا وكذا ولم يزل كثير من تلك العلامات مذكورا فى الكتب التى بين أيدينا المنسوبة لأولئك الرسل فنحن ننظر فى حال محمد (عليه الصلاة والسلام) فان كان ماجاء به من الشريعة طبق ما أخبر به الرسل المتقدمون ووجدنا فيه تلك العلامات التى قالوا : انها تكون فيه نعلم يقينا أنه صادق فى دعواه وان كان الامر بخلاف ذلك كانت دعواه ساقطة ولا يعبأ بكلامه فلما تأملوا فى حاله عليه السلام وجميع شؤونه وجدوا أن شريعته متكفلة باصلاح شؤون الناس على أكمل مايرام كما سيأتى شرحه فى كلام الطائفة التالية لهذه الطائفة ، ووجدوا فيه العلامات التى ذكرها الرسل على أظهر مايكون عند من يرفع التعصب الأعمى والتاويلات الواهية ويروم الوقوف على الحق والخلاص من سوء العاقبة والنصيحة لنفسه ولو لامه قومه وعذله بنوه وتلك العلامات لم تزل مسطرة فى تلك الكتب الى الآن ، وتفصيل ذلك انهم وجدوا انه يصدق على محمد عليه السلام كناية أشعيا بقوله (١)

ان الرب استعلن من جبال فاران ومعه ألوف الاطهار وفى عينه سنة النار
جا ان مجىء الرب من سينا فى قول أشعيا كناية عن موسى واشراقه فى
ساعير كناية عن عيسى عليهما السلام لأن جبال فاران هى مكة كما جاء
فى سفر التكوين عن اسماعيل عليه السلام انه سكن فاران (٢) وقوله معه
ألوف الاطهار كناية عن اتباع محمد عليه السلام الطاهرين من كل الشوائب
كما هو مشاهد فيهم (٣) وقوله فى عينه سنة النار كناية عن مشروعية
الجهاد فى شريعته و يصدق عليه مافى التثنية (٤) أنه يقيمه الرب نبيا من
وسط اخوتهم وليس اخوة اسرائيل الا بنى اسماعيل (٥) وانه مثل موسى
يعنى فى شريعته ومشروعية الاحكام والجهاد فيها (٦) وجعل كلام الرب
فى فمه هو ذلك القرآن الذى أتى به فى غاية الكمال ويصدق عليه مافى
يوحنا (٧) من انه الفار قليط والمعزى الذى يعلم كل شىء يعنى من الحقائق
والمعارف التى نراه يعلمها اتباعه (٨) وأنه هو المذكر بما قاله عيسى عليه
السلام يعنى من التوحيد والايمان والتزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة
(٩) وانه الذى يشهد لأجل عيسى عليهما السلام يعنى بالنبوة والرسالة
وبراءته مما قيل فيه (١٠) وانه لم يجىء حتى يذهب عيسى عليه السلام
وكان الامر كذلك (١١) وانه يوبخ العالم على الخطيئة فانا نراه يوبخ كل
ذى معصية واثم ويصدق عليه مافى المزامير وهو (١٢) كونه حسنا فانه
فى أعلى طبقات الحسن (١٣) و كون الحكمة منسكبة على شفته وذلك ظاهر
فى ذلك القرآن الذى يتلوه والحكم التى يجلوها . والمعارف التى يبرزها
(١٤) وكونه متقلدا سيفا فهو ملتزم محاربة أعداء دينه (١٥) وكونه قويا
فهو قوى الحجة متين السياسة قوى الجسم فقد صرع اشداء العرب (١٦)
وكونه ذا حق (١٧) وكونه ذا دعة (١٨) وكونه ذا صدق فهذه الصفات

الثلاث ظاهرة فيه (١٩) وكون نبلة مسنونة فاستعداده هو وأتباعه للأعداء فى أدوات الرمى أمر معلوم وهم مأمورون فى شريعته بتعلمه ومن نسيه منهم بعد ان تعلمه يحكم عليهم بالاثم (٢٠) وكون الشعب تحته فهو قد استولى على الشعب العربى تقريبا (٢١) وكونه محبا للبر (٢٢) وكونه مبغضا للاثم فكلا الامرين محقق فيه يشهد له بهما أعدى أعدائه (٢٣) وكون بنات الملوك تخدمه فهذه بنات امراء العرب يجلبن اسيرات اليه وهذه صفية بنت حى بن اخطب صارت زوجته وهى بنت ملك من ملوك اليهود (٢٤) وكون الهدايا ترد اليه من الملوك فهذا النجاشى ملك الحبشة والمقوقس ملك مصر وغيرهما يقدمون له الهدايا (٢٥) وكون الاغنياء تنقاد له فهؤلاء أغنياء اتباعه يدفعون زكاة اموالهم للفقراء بمقتضى اوامره ويصدق ما فى اشعيا ايضا (٢٦) على صلاته التى فرضت فى شريعته من انها تسبيحة جديدة لانه لم يعهد فى الشرائع الماضية عبادة تشاكلها (٢٧) وانه يعممها على سكان أقاصى الارض واهل الجزائر والبرارى فهى أول عبادة فى دينه بعد الايمان لا يستثنى منها مكلف (٢٨) وان البرية ترفع صوتها بذكره وهى الديار التى يسكنها قيدار وهو أحد أجداده فى سلسلة النسب الذى بينه وبين اسماعيل عليهما السلام وهى بلاد العرب وقد طبق ذكره تلك البلاد بل ملأ المسكونة من أغوار وأنجاد (٢٩) وانه به يترنم سالع وهو سلع من رءوس الجبال فهؤلاء أتباعه يهتفون بذكره فى رءوس الجبال وقمم الآكام فى الاذان والصلاة عليه والتسليم فى كل آن (٣٠) وانه يخبر بحمده وهو الأذان فى خمسة أوقات فى اليوم والليلة يذكر فيه اسمه ويشهد له بالرسالة (٣١) وخروج الرب كجبار هو كناية عن الجهاد المشروع فى شريعته ولما كان الاخلاص فى الجهاد مؤكدا عليه غاية التأكيد

حتى أخذ بتعريفه فقيل: ان الجهاد هو مقاتلة العدو لاعلاء كلمة الله تعالى صح ان يكنى عنه بخروج الرب تعالى كجبار (٣٢) وهو يسير العمى فى طريق لم يعرفوها وهم العرب أجهل خلق الله فى الاديان وقد سيرهم فى طريق دينه الذى لم يعرفوه (٣٣) وهو يخزى عباد الأوثان والمنحوتة فهو أشد خلق الله عليهم وقرآنه مملوء بتسفيه أحلامهم والطعن فى أصنامهم (٣٤) وهو القتول الذى خلق لاهلاك من أشرك بالله تعالى ويصدق عليه مافى متى (٣٥) من انه الحجر الذى رفضه البناؤون صار رأس الزاوية لأنه من نسل هاجر الذين كان بنو اسرائيل يحتقرونهم ويقولون عنهم أبناء الجارية ويصدق عليه مافى المشاهدات (٣٦) من انه الذى أعطى سلطانا على الامم وهو يرعاهم بقضيب من حديد لانا نراه قد أعطى ذلك السلطان كما هو مشاهد فيه فقد خضعت له أعظم القبائل أصحاب الأنفة وقضيبه الحديد هو سيفه الذى زجر وساق به من عصاه (٣٧) وهذا القرآن الذى به جاء اذا تأملنا هدايته لمنهج الخيرات فهو كوكب الصبح الذى يعطاه ويصدق عليه مافى المزامير (٣٨) ان الحبشة تجثو له فهذا نجاشيها قد آمن به (٣٩) وهذه ملوك اليمن تأتيه بالقرابين (٤٠) وهذه الامم تخضع وتدين له بالطاعة (٤١) وهو مخلص المضطهد البائس ممن هو أقوى منه لانا نراه يحرج على ظلم الاقوياء للضعفاء وينهى عنه أشد النهى ويكف الظالم عن ظلمه مادة وأدبا (٤٢) وهو ينقذ الضعيف الذى لا ناصر له فانا نرى هذا شأنه كما هو مشاهد فيه (٤٣) وهو رؤوف بالضعفاء والمساكين كما هو معلوم من حاله ولا يزال يتودد اليهم حتى يعد نفسه منهم ويدعو ربه بذلك فهو يقول اللهم احينى مسكينا وامتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين (٤٤) وهو ينقذهم من الربا فقد شدد على منع الربا شفقة على

المساكين الذين يحتاجون الاستقراض وحضا للاغنياء على عمل المعروف بالاقراض ، وقد قال فى بعض خطبه : كل ربا تحت قدمى (٤٥) وهو يعطى من ذهب سبا وهى من احدى جهات اليمن فهذا خراجها يجبى اليه (٤٦) وهو يبارك عليه فى كل يوم كما هى عبادة اتباعه فهم فى كل يوم فى صلواتهم يقولون ما ينوف عن العشرين مرة : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ويقولون ماينوف عن عشر مرات وبارك على محمد وعلى آل محمد (٤٧) ونراه هو وأتباعه مثل الزرع الكثير على وجه الأرض فى الاخذ فى النمو من يوم قام بدعواه الى الآن ويصدق عليه مافى أشعيا (٤٨) انه معضد مختار وهذا ظاهر فيه من تقدم أمره يوما فيوما (٤٩) وهو يسعى فى اظهار الدين الذى ادعاه دين الله من غير ملال ولا كلال وأظهر العلامات الجسدية فيه مافى أشعيا أيضا (٥٠) من وجود علامة سلطانه على كتفه بقدر بيضة الحمام وهو يسميه خاتم النبوة (٥١) وانه يدعى اسمه عجيبا فانه اسمه محمد لم يسبق التسمية به لأحد من أجداده واسمه احمد لم يسم به أحد قبله (٥٢) وهو مشاور الله تعالى لأن دعواه انه لاينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى (٥٣) وانه أبو العالم لأن أتباعه كالابناء له فى الطاعة وهو لهم كالاب فى الشفقة والتربية (٥٤) وانه رئيس السلام لأنه منع الحروب الجاهلية التى كانت بين العرب لا ثمرة لها الا اتلاف النفوس وجهاده لأعدائه انما كان لتثبيت الدين الذى يدعى أنه دين الله تعالى ولتقرير السلام بين العالم فهو من قبيل القتل أنفى للقتل (٥٥) وان سلطانه يكثر يوما فيوما كما هو مشاهد (٥٦) وانه يكثر سلامه لأنه كلما ازدادت أتباعه راقت الأحوال وزالت الفتن الجاهلية (٥٧) وهو راكب الجمل اذ هو من العرب ركاب الجمال كما ان راكب الحمار هو عيسى عليه السلام (٥٨) وانه بعد ظهوره

وتكسرت الأصنام والقيت إلى الارض كما فعله (عليه الصلاة والسلام) بها عند فتح مكة ودخوله الكعبة فصار يلقي الأصنام عنها فتتكسر ويصدق عليه ما في رؤيا يوحنا (٥٩) انه يدعى أمينا وهذا الاسم قد اشتهر به حتى من قبل أن يدعى الرسالة فكان يقال له محمد الأمين (٦٠) وانه يحكم بالعدل ويحارب وهكذا نرى حاله حتى انه يفرض على أمته الحكم بالعدل ولو كان المرء يحكم على نفسه أو ولده ومحاربته كذلك بالعدل لا يغدر اذا عاهد ولا يقتل فى جهاد صبيا ولا امرأة ولا عاجزا عن مباشرة الحرب وتدبيرها ولا منعزلا لما يعتقده من العبادة (٦١) والأجناد الذين يتبعونه يلبسون بزا أبيض نقيا وهكذا نرى أحب الملابس اليه البياض وأمته على اختياره ويستحب فى شريعته لبس البياض فى يوم الجمعة الذى هو العيد الاسبوعى عندهم (٦٢) ومن فمه يخرج سيف ماض لكى يضرب به الامم ينطبق هذا على القرآن الذى جاء به فانا نراه قد ضرب به الامم العربية وأعجزهم عن معارضته (٦٣) وهذه الطيور تأكل لحوم الملوك الذين يحاربونه ويقاتلهم وهو أمر مشاهد فكم جندل من ملك أصبح طعمة للطير (٦٤) وقد اجتمعت عليه ملوك الارض وأجنادهم ليصنعوا معه حربا ، وكفانا شاهدا لذلك من تجمع عليه من الاحزاب من ملوك خيبر والاعراب ، ويصدق على اتباعه ما فى المزامير (٦٥) ان معهم السيوف ذات الحدين وانهم المنتقمون من الجبابرة (٦٦) وانهم يقودون الملوك ويسوقونهم بالسلاسل والاغلال فقد فعلوا هذين الأمرين بلا ارتياب (٦٧) وانهم يبتهجون على مضاجعهم إذ من سنتهم أن يبتهجوا بذكر الله تعالى عند ارادة المنام حتى يناموا (٦٨) وانهم يكبرون فى كل وقت ، فهذه صلاتهم لا يجوز لهم الدخول فيها إلا بتكبير الله تعالى مع تكرار التكبير فى انتقالاتها وتكبيرهم فى الآذان للصلوات وفى عيد الأضحى امر معلوم ، ويصدق عليهم ما فى التثنية (٦٩) ان الله أغار بهم شعبا ،

اسرائيل أغارهم وأغضبهم بشعب جاهل إذ العرب أجهل الشعوب قبلما اهتدوا بمحمد عليه السلام لايعرفون من الأديان سوى عبادة الأوثان (٧٠) وانهم هم الذين أعطوا ولم يسألوا اذهم لم يطلبوا شيئاً من الشرائع ويصدق على بلد محمد وهى مكة ما فى اشعيا (٧١) انها العاقر لأنه لم يظهر منها نبى بعد اسماعيل عليه السلام (٧٢) وبنو الوحشة هم العرب أولاد هاجر التى هى بمنزلة المطلقة وقد وقع فى حق اسماعيل كما فى سفر التكوين انه سيكون وحشيا وبنو ذات رجل هم أولاد سارا فقد ظهر سر الخطاب لمكة المدعوة عاقراً بأن تسبح وتهلل وتنشى الشكر لأن كثيراً من أولاد هاجر الوحشة التى هى بمنزلة المطلقة أفضل من اولاد سارا التى هى ذات رجل (٧٣) وقد حصل لمكة من الوسعة بواسطة محمد عليه السلام مالم يحصل لغيرها من المعابد (٧٤) وحصل لها التعظيم بتقديم القرابين فى كل سنة مالم يحصل لغيرها أيضاً من المعابد إلا نادرا *

فلما تم لهؤلاء الطائفة المقابلة بين ما جاء فى الكتب المنسوبة للرسل المتقدمين من العلامات التى ذكروا انها تكون فى الرسول الذى وعد الله تعالى بارساله وبين شؤون محمد وأتباعه ووجدوا انها باجمعها منطبقة عليها لم يشذ عنها شىء مع بلوغ العلامات ماينوف عن السبعين وهذا العدد من الكثرة بمكان حتى شاع ذكره عند ارادة المبالغة قال بعضهم لبعض إن اجتماع تلك العلامات لمحمد عليه السلام لم يكن حاصلا لسواه من الرسل الذين جاءوا بعد ورود تلك العلامات فى تلك الكتب إلى زمن ظهوره وان وجد بعضها فى بعض الرسل الذين جاءوا قبله لكن لم يوجد فيه البعض الآخر منها ، ولا يصح أن يقال إنه وجد فيه لظهور ان صفاته تخالف ذلك وتنافيه مثلا من وجد منهم انه يحب البر ويبغض الاثم لم يوجد فيه ان تخضع له الملوك ويسوق العالم بقضيب من حديد أو هو قوى للاعداء ونحو ذلك ثم ان اجتماع تلك العلامات

فيه (عليه الصلاة والسلام) لا يصح في العقل أن يكون بوجه الصدقة مع كثرتها وتنوعها ولا يقول بالصدقة إلا مكابر متعنت، ومن العبث والعناد وعدم التحرز من سوء المعاد أننا بعد ان وجدنا انطباق هذه العلامات الكثيرة على شئون محمد (عليه السلام) ولا مانع يمنع من كونه هو المعلم بها لا عقلا ولا عرفا ولا عادة ولا شرعا أن نقول لعل المعلم بتلك العلامات هو غيره وان ذلك الغير سيأتي بعد زمن آخر ونترك اتباع هذا الشخص الذي تحققت العلامات فيه وننتظر شخصا آخر موهوما مشكوكا في مجيئه، فلو ان خادما أعطاه سيده كتابا وقال له ادفعه الى رجل يأتيك بعد حين ويقول لك: انا الرجل الذي أمرك سيدك بدفع الكتاب اليه وعلامة ذلك الرجل هي كذا وكذا وذكر جملة علامات يستبعد العقل اجتماعها في اثنين ثم لما جاء ذلك الرجل عند الخادم وطلب منه الكتاب كما قال سيده ورأى الخادم فيه تلك العلامات امتنع عن دفع الكتاب اليه واحتج على امتناعه بأنه لعل مراد سيدي غيرك أفلا يجزم كل عاقل أن ذلك الخادم قد خالف سيده واستحق عقابه وترك الامر المحقق وانتظر الامر الموهوم بلا داع يدعوه الى ذلك سوى الوسواس أو شيء آخر قريب منه فنحن ان تركنا اتباع محمد (عليه السلام) بعد انطباق تلك العلامات عليه وأقمنا ننتظر غيره - لاسيما ان مرت المئات من السنين ولم يجيء ذلك الغير - يحكم علينا العقل السليم بما يحكم على ذلك الخادم من انحرافه عن منهج الصواب بلا ارتياب فاذا كان محمد صادقا في دعواه ووجدنا فيه تلك العلامات وبعد ذلك لم نصدقه وأقمنا ننتظر غيره فماذا يكون جوابنا لربنا ؟ أنكذب ونقول لما تنطبق عليه العلامات التي علمته بها وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء؟ أم نقول له: انا لم نصدقه لاننا انتظرنا شخصا غيره يجيء فيما بعد فاذا سألنا وقال ما الذي حملكم على ذلك ولأي دليل استندتم في ترك تصديقه

وانتظار سواه؟فما جوابنا سوى أن نقول هكذا فعلنا تركنا المحقق وانتظرنا الامر الموهوم أيكون هذا جوابا منجيا عند ربنا؟لا والله فالصواب في حقنا أن نتبع محمداً ونصدقه بدعواه واذا فرض (وقد يفرض المحال للتوصل الى الحق في الاستدلال) انه غير المراد لله ولرسله بتلك العلامات واخطأنا باتباعه مع اجتماع تلك العلامات فيه كان لنا عذر وحجة عند ربنا إذ لنا أن نقول حينئذ يا ربنا أنت عليم بكل شيء وتعلم الرسل الصادقين والمدعين الرسالة كذبا ولا يخفى عليك شيء من حوادث المستقبل البتة فحيث انك تعلم انه سيأتي رجل كاذب في دعوى الرسالة وتوجد فيه جميع العلامات التي ذكرتها رسلك انها توجد في الرسول الصادق الذي ترسله لنا أفلا يكون من موجب حكمتك التامة ورأفتك ورحمتك علينا أن تنبهنا على لسان رسلك عن ذلك الكاذب وتحذرنا منه ولو بعلامة واحدة تميزه عن الرسول الصادق المراد بتلك العلامات ولا أقل أن تقول الرسل: انه يأتي كاذب متصف بتلك العلامات قبل الرسول الصادق فاحذروه فحيث يا ربنا لم يحصل لنا شيء من ذلك فحكمتك تقتضي اعفاءنا من المؤاخذة والعقاب على اتباعنا غير مرادك لأن عذرنا ظاهر ولكن حاشا ربنا من تلبيس الامر على عباده لأن التلبيس نقص في الحكمة وكل نقص في الحكمة محال على الله تعالى فالتلبيس على الله تعالى محال فلو كان المراد بتلك العلامات غير محمد لحصل علينا التلبيس منه تعالى لكن التلبيس لا يحصل منه لانه محال فلا يكون المراد غير محمد (عليه السلام) فهو المراد بها من غير شك ولا تردد فنحن اعتمادا على جميع ما قام لدينا من هذه الأدلة بكل اطمئنان قد صدقنا محمدا عليه السلام واتبعناه لأن صريح عقولنا قد حكم بصدقه بمقتضى هذه الدلائل التي ظهرت لنا .

أقول: لو أن هؤلاء الطائفة حصلت مشاهدتهم لبقية العلامات المذكورة

له عليه السلام فى تلك الكتب وظهرت فى ملك أمته بعد زمنه بقليل أو بكثير إلى وقتنا هذا لزاد ابتهاجهم بتمام علاماته وتوفرت قوة حجتهم على مخالفيهم وبيان ذلك انه صدق عليه ما فى المزامير (٧٥) ان الشعوب سقطت تحته فقد أخضعت امته فارس والروم والبربر وسواهم واستولت على ممالكهم ، ولا يقال بان السقوط تحت أمته لاتحته لأن هذا التعبير مجاز معهود استعمال نظيره فى كتب الرسل ألا ترى ان الله وعد بنى اسرائيل حين أخرجهم من مصر ان يملكهم الأرض مقدسة وانما ملكها أبناؤهم لأن نفس الذين خرجوا من مصر مع موسى عليه السلام قد ماتوا فى زمن التيه كما هو معلوم من تلك الكتب ، ونظائر هذا المجاز كثير (٧٦) وانه قامت بنوه عوضا عن آبائهم رؤساء فى الأرض فكم من ذريته عليه السلام أمراء فى اليمن والحجاز والغرب وغيرها يقوم أبناؤهم مقامهم (٧٧) وانه يذكر اسمه دورا فدورا فهو يذكر اسمه على ممر الأيام بين امته فى الاذان والصلوات وفاتحة كل خطبة وخاتمة كل دعاء (٧٨) وانه تحمده الشعوب فهذا حمده فى السن الشعوب من امته من عرب وترك وفرس وهنود وداغستان وافغان وقزاق وبربر وسودان وغير ذلك (٧٩) وانه لم يزل مباركا وهو كذلك الى هذا الدهر كيفما فسرنا المباركة باحد معانيها وصدق عليه تفسير دانيال لرؤيا بختنصر (٨٠) من انه عليه السلام أعطى السلطنة له ولاتباعه فقد تسلطوا فى مدة قليلة شرقا وغربا وعلى بلاد فارس التى كانت هذه الرؤيا فى شانها (٨١) وانه الحجر الذى انقطع من جبل وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب أى دول فارس المعلومة من كتب التاريخ فانها انسحقت من أمته ولم يبق لها باقية (٨٢) وان ذلك الحجر صار جبلا وملأ الأرض وعظم سلطان أمته كان كذلك ويصدق على شريعته ما فى متى من قوله (٨٣) يشبه ملكوت الله بحبة خردل

أخذها انسان وزرعها فى حقل فنمت وصارت شجرة كبيرة فكان أمر شريعته كذلك لأن ابتداءها كان فى غاية الضعف لانه قام بها منفردا مضاد القبائل والملوك فلم يأل جهدا فى رفع شأنها حتى نصر دينه وانتشرت شريعته ونمت نموا عظيما لاسيما بعدما شرحتها علمـــاء امته واستنبطت أحكامها وأوضحت حلالها وحرامها (٨٤) وان الملكوت نزع من غير امته وأعطى لأمته الذين يعملون أثماره فهذه شريعته لا تضاهيها شريعة من الشرائع أحكاما وعدلا وآدابا، وهؤلاء أتباعه قائمون بها اعتقادا وعملا وصدق عليه ما فى المزامير (٨٥) من أنه يملك من البحر الى البحر فقد ملكت امته من بحر الهند إلى اقصى بحر طنجة (٨٦) وانه يملك من النهر إلى أقاصى الارض فقد ملكت امته من نهر الاردن أشهر نهر عند بنى اسرائيل فى زمن داود الى أقصى بلاد العرب جنوبا وهى أقصى الارض اذ ليس بعد ذلك إلا الاوقيانوس الجنوبى ويصدق على اتباعه ما فى اشعيا (٨٧) من انه هرب اعداؤهم امام سيوفهم وقسيهم وشدة حربهم (٨٨) وانه فنى مجد قيدار وهو ابو العرب وقلت عدد قسيهم وذلك بظهور امته الذين يعتمدون فى التناصر على الدين لا على الجنسية، ويصدق عليه (٨٩) انه انفتح به أعين عمى، وآذان صم، وذلك هداية تلك الامم الجاهلية بشريعته (٩٠) وقد انفجرت فى البرية مياه وأنهار فى القفر وصار السراب أجما والمعاطشة ينابيع ماء، وذلك بما أجراه خلفاؤه فى الطريق الحجازية من المصانع والاسبلة (٩١) وصارت هناك سكة وطريق يقال لها المقدسة لا يعرفها أهل ملته الموحدون المقدسون من الشرك (٩٢) ولا يعرفها نجس لانها محرمة على المشركين (٩٣) والسالك فيها لا يضل لكثرة علائمها وآثار الحجاج الذين يمرون فيها كل عام الوفا مؤلفة (٩٤) ويسلك المفديون فيها ومفديو الرب فهم حجاج الكعبة وزوار قبر

محمد عليه السلام كل عام (٩٥) ويرجعون ويأتون إلى صهيون احدى البلاد القدسية التى كانت فى مملكة داود عليه السلام - يعنى بهم الحجاج السوريين الذين يعودون من البلاد الحجازية إلى بلادهم - ومنها صهيون وأظهر ما كان عودهم على هذا الوجه عندما كان قسم من الحجاج ينعطفون فى عودتهم من المزيريب الى البلاد القدسية كما يعلم من التاريخ ولم تزل آثار ذلك موجودة من البرك الكبيرة التى تشاهد قرب القدس وحبرون (٩٦) وهم يترنم وهو ذكرهم مولاهم على ما أولاهم من التوفيق لاداء فريضة حجهم وزيارة قبر نبيهم عليه السلام (٩٧) وكونهم بفرح ابدى هو معلوم لكل من يخالط الامة الاسلامية فانه يشاهد من الحجاج فرحا لا يماثله فرح من أى أفراحهم حتى ولا فرح الاعراس عند أكثرهم فترى السرور ملأ قلوب الحجاج عند عودتهم وقلوب أهليهم وأحبابهم وفرقوا الهـــدايا وأطعموا الاطعمة واجروا الصدقات كل منهم على قدر حاله ويدوم ذلك الفرح فى قلب الحاج إلى آخر نفس من حياته ولذلك سمى أبديا ومهما حدث عليه من المشاق فى مدة سفر الحج فلا يزال طول عمره يتلذذ بذكر ذلك السفر المبارك ويدعو الله أن يمنحه اياه ثانيا ولو بلغه ثانيا يدعو بنواله ثالثا وهلم جرا ، واذا أراد احد أن يثنى عزم الحاج عند ارادته تكرار حجه ويقول له يافلان يكفيك ما سبق لك فقد أديت فرضك يجاوبه باستغراب قائلا له وهل هذا الامر تقل فيه رغبة الانسان ويرتوى من منهله الظمآن؟ هذا والله حال الامة الاسلامية فى فرحها بزيارة الكعبة المكرمة وقبر رسولهم عليه الصلاة والسلام على رغم الاثقال التى يتحمـــلونها والحجر الصحى الذى يثقل عواتقهم ويضاعف نفقاتهم وكثرة من يموت منهم أو يقتله قطاع الطريق ينسلون من كل حدب من أقصى كشغر وبخارى وخوارزم وافغنستان وبلخستان

والهند والجاوى وداغستان والكرج والقوقاز وفارس والرومللي والانضول وبلاد الروس والعراق والعرب واليمن والسودان وداخل افريقيا ومصر والشام يتكبدون حر الهواجر ويهجرون المنام فى الدياجر، يسلكون القفار ويمتطون لجج البحار ويفارقون البنين والعيال ويهون عندهم اقتحام الاهوال ، وقد يمر على بعضهم العام والعامان حتى يعود لاوطانه ويحظى بخلانه وكثير منهم من يحج على الاقدام فى تلك البوادى والآكام كل ذلك لرضاء الرحمن وطلب الغفران فهم بكل افتخار أعظم من تمسك بالدين ودفع الوهم باليقين (٩٨) وقوله عن أولئك العائدين الى صهيون وعلى رؤسهم الابتهاج والفرح هو ظاهر فى الحجاج بما ينالونه من زيارة الكعبة المكرمة وقبر نبيهم عليه السلام فتراهم مبتهجين فرحين بما آتاهم ربهم (٩٩) وقوله ويزول حزنهم يعنى الذى كان فى قلوبهم قبل نوالهم مرغوبهم في تلك الزيارة المباركة (١٠٠) وقوله ويزول التنهد يعنى الذى كان يعتريهم أيضا قبل حجهم لقلة ذات أيديهم أو لموانع أخرى ، فهذه (٢) تمام مائة علامة تنطبق على أحوال محمد عليه السلام وأحوال أمته وبها قد ظهر الصبح لذى عينين ، وزال عن القلب الغين *

ثم أقول : لو بقيت هذه الطائفة إلى هذا الزمان أيضا لكان لهم استدلال من تلك الكتب على صدق محمد عليه السلام من أظهر ما يكون ، بيان ذلك انه ورد فيها كما فى الزبور ان طريق المنافقين تهلك (٣) وانه يهلك (٤) كل الذين يتكلمون بالكذب وان وجه الرب على الذين يعملون المساوى ليبيد من الارض ذكرهم ، وان سواعد الخطاة تكسر وانهم يهلكون وان أعداء الرب إذ يمجدون ويرتفعون يبيدون وكالدخان يفنون انتهى ، فأى ذكر باد لمحمد عليه السلام مع مرور ثلاثة عشر قرنا واسمه يذكره الألوف والملايين من

امته على المنابر وفي المآذن وفي الصلوات وكثير من العبادات في أقطار الارض من مشارق ومغارب ومدن وقرى وقفار وبحار آناء الليل وأطراف النهار ولا يذكر اسم الله تعالى في الغالب الا مقرونا به اسمه عليه السلام معظما مبجلا مدعوا له بكل خير محمودا بالالسنة محبوبا في القلوب مفدى بالارواح محفوظ المقام مرعي الجناب تسعى الى حضرة قبره الشريف كل سنة الالوف المؤلفة من ملوك وأمراء وأعزة وكبراء وأغنياء وفقراء يسلمون عليه ويطلبون الشفاعة لديه ويتبركون بلثم اعتابه ويتداوون بغبير ترابه ترفع اليه مدائح الشعراء ومحامد الفصحاء مزينة بذكر محاسن صفاته وباهر آياته ولم تزل شريعته عليه السلام معززة مرفوعة المنار موفرة الأنصار تقتبس من أنوارها الامم وتهتدي بشموسها العرب والعجم وأتباعه بفضل الله تعالى مالئون الارض متبعون ماشرع لهم من سنة أوفرض وان خالف بعضهم بعضا في فهم بعض الاحكام من شريعته عليه السلام عند ارادة توضيح المرام فهم متفقون على أصولها ذات الاحكام من التوحيد والتصديق بالقرآن والحشر والنشر ووجود دار السلام ودار الانتقام متوالون على حبه وتعظيمه على مر الليالي والأيام فأي هلاك هلكوا وأي سواعد لهم كسرت وأي فناء كالدخان فنوا غاية مايكرن أن ينالهم حظهم من الابتلاء في هذا العالم المنطبع على البلاء سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا وصورة استدلال هؤلاء الطائفة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام لو بقوا الى هذا الزمان أن يقولوا لو كان محمد وأتباعه ممن ذكر في كلام المزامير من الخطاة والكاذبين واعداء الرب لفعل بهم جميع ذلك النكال من ابادة الذكر والاهلاك والفناء كالدخان وكسر السواعد والا لزم تخلف خبر الرب على لسان داود لكنه لم يفعل بهم شيئا من ذلك فهم ليسوا مما ذكر البتة

واذا لم يكونوا ممن ذكر فيكونون من الطائعين والصادقين وأحباب الرب وحينئذ اذا نحن كذبناهم وأردنا نقض ماجاء به محمد عليه السلام نكون محاربين لله تعالى كما قال عمالائيل معلم اليهود فى حق الحواريين كما فى أعمال الرسل وان كان (يعنى رأى الحواريين وعملهم) من الله تعالى فلا تقدرون أن تنقضوه لئلا توجدوا محاربين لله تعالى انتهى ، وعندما يتغلم لاولئك الطائفة هـذا الاستدلال كنت تراهم من أكمل الناس ايمانا دافعين كل وسوسة ترد على قلوبهم قائلين قبح الله الشيطان وقبح الله الهوى ماأغنانا عن التعصب الاعمى وأسر الضمير واسترقاق الفكر أيليق بنا الخجل من الحق ؟ ايحسن بنا ترجيح العاجل الدنى الفانى على الآجل العظيم الباقى ؟ أيجمل بنا الركون الى الغفلة عن النظر فى العواقب والتقليد الفاسد والجمود البارد ؟ لا والله لا يرضى بذلك عاقل فانا لله وانا اليه راجعون، والله الهادى الى سواء السبيل ه

((وطائفة)) منهم كانوا فلاسفة أخلاق وآداب ولهم معرفة تامة فى الشرائع التى شرعها الله تعالى للامم السابقة ودقة نظر فى أسرارها وفوائدها وفطرة سليمة تميز بين الحسن والقبيح من الصفات والأفعال والسياسات والاحوال فقالوا : من المعلوم أن لكل رسول يبعثه الله تعالى آيتين تدلان على صدقه ((أحداهما)) عقلية يعرفها أولو البصائر والافهام وهى ماله من الأصول الزكية والصور المرضية والأحوال الكاملة والعلوم الباهرة والدلائل القاهرة ((وثانيتهما هى المعجزة)) التى تدركها الحواس تكون خارقة للعادة وهذه يطلبها أحد رجلين اما ناقص عن ادراك ماتقدم ذكره من الأصول الزكية وما عطف عليها فيحتاج الى مايدركه حسه لقصوره عن ادراك ذلك واما ناقص ومع نقصه هو معاند فتحسده بما

يطلبه العناد فيقول للرسول المبعوث اليه: لا أومن بك حتى تفجر لى من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب وتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء على أو تأتى بالله وبالملائكة أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن أومن لرقيك حتى تنزل على كتابا أقرأه فيقول له الرسول سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا - يعنى انى بشر عاجز - وايجاد هذه المطالب وأمثالها مفوض الى ربى إن شاء أيدنى بها وان شاء لم يفعل نعم ان منصبى الرسالة وقد بلغتك ما أمرنى الله بتبليغه فاختر لنفسك ما تشاء ونحن لله الحمد والمنة لسنا من القاصرين عن إدراك آيات الرسل التى هى من القسم الأول بل نحن من ذوى البصائر والمعرفة وقد شاهدنا فى محمد صفات فاضلة هى من شأن الرسل الذين يرسلهم الله تعالى لهداية الخلق وذلك كشرف النسب وحسن الخلق والخلق وذكاء وفطنة وقوة حجة واستقامة محجة فعلينا بعد ذلك أن نتروى فى دعواه وننظر فيما احتوت عليه شريعته التى يدعى انه مرسل بها من عند الله تعالى فان كانت محتوية على الامر باعتقاد العقائد الصحيحة التى تكون موافقة لما يعطيه البرهان الصحيح ولا يكلف الانسان بان يذعن بضد يقينه وعلى الامر بالتحلى بالاخلاق الحسنة والآداب المستحسنة والصفات الكاملة والاعمال الفاضلة والتدبيرات التى تحفظ حسن نظام هيئتنا الاجتماعية والعبادات التى تحسن تأدية الشكر لنعم خالقنا علينا وايجابها يكون لحكم ترجع بالنفع الينا كما هو سر العبادات التى تكون فى شرائع الرسل لأن الله تعالى غنى عن كل شىء وكانت مشتملة على النهى عن اعتقاد العقائد الباطلة الخرافية المكلفة للانسان الاذعان بضد ما تعطيه المشاهدة والبرهان وعلى النهى عن الاتصاف بالاخلاق الذميمة وخلع حلة الآداب والتدنس بصفات

تذم وتعاب والأخذ بأمور تخل بحسن هيئتنا وتفصم عقد نظامنا ولا تكلفنا
باعمال نزعمها عبادات تكون كفرانا لنعم ربنا مخلة بالأدب معه تعالى فهو رسول
الله تعالى بلا شك لأن هذا شأن رسله تعالى وحالة شرائعهم عليهم السلام لا سيما اذا
لم يكن فى شريعته مايرجع عليه بالنفع الخاص ويضر بالصالح العام فنؤمن
به حينئذ ونصدقه وان كان الأمر بخلاف ذلك فنرفض دعواه ونشدد له
المعاداة فتأملوا فى شريعته وما اشتملت عليه واستقصوا فى البحث والانتقاد
فوجدوا أن شريعته عليه السلام تأمر بالاعتقادات الصحيحة الحقة الخالية
عن كل خرافة وعما يكون ضد اليقين وبالتخلق بالاخلاق الجميلة والتأدب
بالآداب النبيلة والاتصاف بالأوصاف الكاملة والأخذ بالتدابير الفاضلة
التي تحفظ هيئة أمته ونظامها ، وتعود عليهم بالمنافع وتدفع عنهم المضار
وبالعبادات التى تحسن تأدية شكر النعم للخالق تعالى وهى تنطوى على حكم
ترجع عليهم بالنفع الكثير وتنهى عن العقائد الزائغة الخرافية المخالفة لليقين
الانسان وعن التخلق بالأخلاق الذميمة وخلع حلة الآداب والتدنس
بالصفات التى تعاب وارتكاب اعمال سيئة التدبير تخل بنظام الأمة وعن
العبادات الباطلة المخلة بالأدب مع الله تعالى والمنتجة كفران النعم لا شكرها
وتفصيل ذلك أنهم وجدوا الشريعة المحمدية محتوية على الامر بتوحيد
الله تعالى ذاتا وصفات وأفعالا واعتقاد أنه تعالى متصف بصفات الكمال
ومنزه عن صفات النقصان فوجب على المكلف أن يعتقد بأنه سبحانه
وتعالى موجود حى عليم أكمل العلم مريد أتم الارادة قادر أعظم القدرة
مستغن عن كل ماسواه مفتقر اليه كل ماعداه لايشابه أحدا من خلقه ولا
يشابهه أحد منهم قديم أزلى دائم أبدى ليس لقدمه بداية ولا لدوامه نهاية
حكيم يفعل الأشياء طبق الحكمة من غير وجوب عليه لايكلف العباد بما

ليس في وسعهم لاخالق سواه ولا مدبر غيره، خلق الخلق من العدم وقدر أحوالهم من القدم منزه عن الظلم ولا يتصور منه لأن الظلم التصرف بملك الغير بغير رضاه وهو سبحانه المالك الحقيقي المطلق لجميع الكائنات خلق دارين غير هذه الدار، احداهما لنعيم من أطاعه، والاخرى لعذاب من عصاه فهو يعيد الخلق بعد الفناء كما خلقهم بعد العدم ليثيب المطيع ويعاقب العاصي ان شاء والا لم يكن من الحكمة أن يتساوى بعد الموت الغني المترفه الجبار الظالم لغيره الكافر بربه مع الفقير البائس الضعيف المظلوم المؤمن وان له سبحانه وتعالى أن يتصرف بخلقه كيف يشاء لكن حاشاه أن تجري أفعاله على خلاف منهج الحكمة بل هي عين الحكمة وكل ماجاء منه فهو بحسب صدوره عنه حسن أرسل رسلا الى البشر لهدايتهم الى العقائد الصحيحة الحقة في حقه تعالى لأن عقولهم وان كانت تدل على وجوده تعالى واتصافه بالصفات الكمالية التي تستلزمها الألوهية ولكن كثيرا من صفاته العظيمة لا يمكن للعقول البشرية التوصل الى اعتقادها إلا بتوقيفه تعالى بواسطة أولئك الرسل، وكذلك في ارسالهم هداية الخلق الى مافيه صلاحهم واستكمال شؤونهم لأن حكمته اقتضت أن يخلقهم مطبوعين على أخلاق حسنة تساعدهم على انتظام حالهم وعلى اخلاق تخالفها لأجل أن يتسابقوا بها في عمار هذا الكون الذي قدر وجودهم فيه الى أجل معلوم لكن لما كان تحديد الرغبة في السبق توجب وقوف كل راغب عند حده ويأسه من مجاوزته وبذلك تتعطل حركة المسابقة لم تعدل الأخلاق في أصل الفطرة فصارت تلك الأخلاق السيئة في معرض الطغيان والوصول الى حد يصبح به ضررها أكبر من نفعها فاقتضى الحال تلطيفها وإيقافها عند حدها النافع غير الضار فبعث الرسل لتلطيفها وكسر سورتها حتى تعود لدرجة يظهر

فينا نفعها ويزول عناصرها فكأنها تعود اخلاقا حسنة بعد ان كانت سيئة وذلك التلطيف يكون من الرسل بآلتين مؤثرتين فى النفوس وهما الترغيب والترهيب مع ما يقوى تأثيرهما من اقامة الدلائل على حسن الحسن وقبح القبيح مثلا الطمع خلق سيء ولكن لولاه ما تجشم الخلق أعباء المكاسب والغرس والعمارة واذا طغى نشأ عنه منازعات الخلق وتولدت الشرور المبيدة فشريعة الرسول تلطفه وترده الى ارادة السعى والتعيش بعد ان يكون ارادة التكثر والاستئثار وبذلك تتم المسابقة فى عمار الكون بلا ضرر ولا ضرار، والى هذا الاشارة بقوله عليه السلام: بعثت لأتمم مكارم الاخلاق.

ثم هؤلاء الرسل طبعهم الله تعالى على الصفات الكاملة من الصدق والأمانة والقيام بالحق فى جميع أحوالهم مع البر والاحسان والنصيحة لكل انسان ونزههم عما لا يليق بمنصب رسالتهم من الوقوع فى المعاصى والاتصاف بسفاسف الأمور ووجود كل منفر للخلق عن الاقبال اليهم وما وقع منهم من صور المعصية وسماها الله معصية فهى أمور ظنية لا تنقص مراتبهم ولا تحط بشؤونهم وتسميتها معصية ومعاتبتهم عليها من جانب الله تعالى ليس الا بالنسبة لعلو مراتبهم وسمو مقاماتهم عليهم السلام وحكمة وقوعها منهم الاشارة الى انفراد الله تعالى وتوحده بالكمال المطلق فهم مبرؤون من كل ما لا يليق وقوعه من أحد أتقياء البشر فضلا عن وقوعه منهم وهم كمل الخلق وصفوة الناس وذلك كالزنا لا سيما بمحارمهم والتسلط على اعراض اتباعهم ومدانسة المومسات والكذب والخيانة والكفر وعبادة الأوثان حاشاهم من جميع ذلك والشريعة المحمدية تأمر بالثناء عليهم وذكرهم بالتعظيم والتوقير ولزوم الأدب معهم والعمل بما جاءوا به الا ما كان من أحكام كانت تناسب أزمنتهم فابدلت فى الشريعة المحمدية بما

يناسب زمنه عليه السلام بامر الله تعالى الذى قدر من الأزل لكل زمن ماينا سبه من الاحكام وتأمر أيضا هذه الشريعة المحمدية بتعلم القدر اللازم للانسان من العلم النافع فى تصحيح الاعتقاد والعبادات والأخلاق والآداب وبعد أمرها الامر الاولى المؤكد بالايمان وهو التصديق الجازم بجميع ماجاء به محمد عليه السلام قطعيا وبالاسلام وهو الخضوع والانقياد لجميع ماجاء به عليه السلام كذلك تأمر بالتقوى وهى اتقاء كل مضر للانسان فى دينه وبالاخلاص فى العمل لله تعالى وبالبر والاحسان فى العمل وهو ان المرء يعبد ربه كأنه يراه وبالنصيحة لخلق الله تعالى وبالصبر وهو مقاومة الآلام والاهوال وبالرضى بما يرضى الله تعالى وبالحياء وهو انحصار النفس خوف ارتكاب القبايح وبالحلم وهو الطمأنينة عند سورة الغضب وبالعفو وهو ترك المجازاة للمذنب مع القدرة عليها مالم تكن حدا من حدود الله تعالى وبالغبطة فى عمل الخير وبالسخاء والكرم والشجاعة وبالحمية وهى المحافظة على الحرم والدين من التهمة وبالنجدة وهى عدم الجزع عند المخاوف وبالايثار وبالمروءة وهى الرغبة الصادقة فى الافادة بقدر ما يمكن وبالدعة وهى السكون عند هيجان الشهوة وبالقناعة وبالوقار وهو التأنى فى التوجه نحو المطالب وبالسكون وهو التأنى فى الخصومات والحروب وبالرفق وهو حسن الانقياد لما يؤدى الى الجميل وبحسن السمت وهو محبة مايكمل النفس وبالحكمة وبالشكر وبالخوف من الله تعالى وبالرجاء منه وبالتفويض اليه والتسليم وبالألفة وهى اتفاق الآراء فى المعاونة على تدبير المعاش وبالوفاء وبصلة الارحام وبالشفقة على خلق الله تعالى وبالاصلاح بين عباده وبالامانة وبانجاز الوعد وبالوفاء بالعهد وبالحب فى الله وبالبغض فى الله وبحسن الظن وبالرشد وبالسعى وبالاناة وبالمبادرة فى عمل الخير وبالصلابة فى امر الدين

وبالانس بالله وبالشوق اليه وبمحبته تعالى وبالعفة وبالورع وهو ملازمة الاعمال الجميلة وبالاستقامة وبالشهامة وهي الحرص على ما يوجب الذكر الجميل، وبالرقة وهي التأذي من اذى يلحق الغير مطلقا، وبالنزاهة وهي اكتساب المال من غير مهانة ولا ظلم وانفاقه في المصارف الحميدة وبكظم الغيظ وبالخشوع وبالعبودية لله وبالحرية وهي تحرير النفس من ربقة الشهوات وبمحاسبة النفس وبمعاتبتها وهكذا من كل خصلة حميدة وخلة منيدة فعلى المرء أن يعالج نفسه للتخلق بهذه السجايا ويجد في ابلاغها درجة الكمال ❊

وتنهى الشريعة المحمدية عن الكفر واتخاذ الشريك لله تعالى في العبادة وعن الفسق والعصيان لله تعالى في أوامره ونواهيه وعن اتباع الهوى وعن الرياء وهو العمل لاجل رؤية الناس وعن الكبر وعن الحقد وعن العجب وهو أن يرى الانسان نفسه بعمله بل عليه أن يرى الفضل لله تعالى الذى وفقه للعمل. وعن الحسد وهو تمنى زوال النعمة عن الغير . وعن الشماتة بمصائب الخلق. وعن العداوة لغير الله وعن التهور وهو أن يهجم المرء على ما لا يكون كفوا له. وعن سوء الظن بالله تعالى. وعن الطيرة والتشاؤم الذى لا مستند له من الشرع . وعن البخل وعن الشح وعن التقتير . وعن الاسراف والتبذير . وعن حب المال للحرام وعن الكسل وعن البطالة وعن العجلة في الامر وعن المغالطة وعن غفلة القلب وعن الوقاحة وعن قلة الحياء وعن الجزع وعن كفران النعم وجحودها وعن السخط وعن الغضب وعن بغض العلماء وعن الجراءة على الله تعالى وعن الأمن من عذابه وسخطه وعن التأسف على ما فات من أمر الدنيا وعن الضعف في أمر الدين وعن الطيش والخفة وعن العناد وعن مكابرة الحق وانكاره بعد العلم به وعن التمرد والاباء وعن الشره وعن الطمع وعن الخمود وعن

الاصرار على المعاصي وعن الغضب بالباطل وعن الحمية لغير دين الله تعالى وعن القنوط من رحمة الله تعالى وعن محبة الظلمة والفسقة وعن بغض الصالحين وعن قسوة القلب بحيث تمنع صاحبها عن اغاثة المضطر وعن آفات كثيرة للسان فمنها النميمة وهي كشف مايكره كشفه وافشاء السر والسخرية والاستهزاء والاستصغار والاستخفاف بالناس واللعن والسب والشتم والتعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارة الصريحة والطعن بالانساب والمراء وهو الطعن في كلام الغير لا لاظهار الحق ، والخصومة عنادا. والخوض في الباطل والشحاذة لغير مضطر والمنافقة باللسان وكلام ذي اللسانين بين المتعادين والشفاعة السيئة والامر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وغلظة الكلام والعنف فيه والسؤال والبحث عن عيوب الناس ، والدعاء للظالم بالبقاء والكلام الدنيوي في المساجد. والمنابذة بالالقاب واليمين بغير الله وكثرة الحلف ولو على الصدق لأجل تعظيم اسم الله . ورد عذر أخيه وعدم قبوله وتفسير القرآن برأيه وقطع كلام الغير لغير مصلحة شرعية. ورد التابع كلام المتبوع ومخالفته وعدم قبوله مادام كلام المتبوع لا يمنعه الشرع والتناجي بين اثنين عند ثالث والتكلم مع الشابة الاجنبية ودلالة من يريد المعصية على طريقها والمزاح الذي يمنعه الشرع ويوصل الى الشر والكلام فيما لا يعني وافساد العبد عن سيده ، وافساد المرأة عن زوجها وكتمان الشهادة وشهادة الزور وقذف المحصنات الغافلات ، وسب الأموات وسب السلاطين وترك الدعاء بصلاحهم وكتم العلم وتعمد الكذب على الله تعالى وعلى رسوله. والكلمة التي تعظم مفسدتها وينتشر ضررها . وملازمة الفحش حتى يخاف الناس من شره ، والالحاح بالسؤال المؤذي للمسئول إيذاء شديداً ، والمن بالصدقة . وكفران نعمة الخلق المستلزم لكفران نعمة

الخالق وترك المريض اقراره بما عليه من الدين، والاقرار بنسب كاذبا أو جحوده كذلك والاستطالة فى الاعراض وانتساب المرء إلى غير أبيه وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والغيبة وهى أن تذكر أخاك بما يكره فى نفسه أو فيما يخصه وهى أكثر آفات اللسان وقوعا ومن أعظمها ضرراً وعن أفعال وأعمال قبيحة كثيرة أيضا ، منها نقض العهد وخلف الوعد والخيانة والمكر والخديعة والفتنة ، وهى إيقاع الناس باضطراب والاختلال والاختلاف بلا فائدة دينية وقتل النفس، وقتل الانسان نفسه والزنا واللواطة واتيان أحد ولو امرأته فى الدبر لأن فى هذه الأمور الثلاثة تقليل النسل ومخالفة الحكمة الالهية وفى الزنا ضياع الأنساب المؤدى لترك التناصر وغش الغير فى النسب وتمليك الأموال لغير مستحقها وضياع الولد لعدم من يربيه حق التربية إلى غير ذلك من المفاسد التى يطول شرحها ، ومس المرأة الاجنبية والخلوة بها لأن ذلك داعية الزنا وفعل مثل ذلك فى الولد الأمرد ووطء الحائض لما فيه من الاذى وسفر المرأة فى طريق تخاف فيه على بضعها وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وإظهار الجماع والتبتل أى ترك الزواج للقادر عليه ، ولا عذر له فى تركه لأن فيه تعطيل الحكمة الالهية فى تكثير النسل وعضل الولى موليته عن النكاح وافشاء الرجل سر زوجته وعكسه وخروج المرأة مزينة والدياثة والقيادة بين الرجال والنساء وشرب المسكرات لان فيه ذهاب العقل الذى هو أفضل نعمة على الانسان والسكران مستعد للوقوع فى كل معصـــــية وارتكاب كل شنيعة والنفع المزعوم به لا يوازى اضراره والمقامرة التى تعرض المال للمخاطرة وانفاق السلعة بالحلف الكاذب وبخس الكيل أو الوزن أو الذرع ومطل الغنى بالدين بعد مطالبته ، وانفاق المال فى المحرمات ، وإيذاء الجار ولو ذميا والسرقة والغصب والربا الذى يفقد معه

عمل المعروف من الدائن بالاقراض ، وسد حاجة المحتاج بالاستقراض .
وتلقى الجلب والسوم على السوم ، وخيانة احد الشريكين لشريكه واستعمال .
العارية فى غير ما أذن به صاحبها وتأخيره أجرة الاجير أو منعه منها بعد
فراغه ، ومنع الناس من الاشياء المباحة لهم عموما أو خصوصا والتصرف فى
الطريق الخاص بغير اذن أصحابه أو العام بما يؤذى ، والخيانة فى الامانات
والتصوير ووضع الصور الحيوانية فى المكان تباعدا عن التشبه بعباد الحيوانات
وصورها . والاكثار من الطعام بحيث يضر ، وترجيح إحدى الزوجات على
الأخرى ظلما وعدوانا . وتهاجر المسلمين فوق ثلاثة أيام والتدابر والتشاحن
وإضاعة المرء أولاده وعياله ، والضرب لأحد بغير مسوغ شرعى ، وترويع
أحد بسلاح من غير مسوغ شرعى أيضا . والسحر وتعليمه وطلب عمله
والكهانة والتنجيم وإتيان أصحابها والخروج على امام المسلمين بلا تأويل أو
بتأويل يقطع ببطلانه ، ونكث بيعة الامام لفوت غرض دنيوى وقبول
الامارة مع علم المتولى بخيانة نفسه وتولية جائر أو فاسق أمرا من أمور
المسلمين وعزل الصالح ، وتولية من دونه وجور ولاة الأمور . واحتجاب
ولى الامر عن قضاء حوائج رعيته المضطرين اليها بنفسه أو نائبه ، وظلم
الامراء والقضاة لمسلم أو ذمى بنحو ضرب أو شتم وقبول القاضى هدية من
أحد لم يكن له عادة باهدائها له قبل توليته القضاء وقبوله الضيافة الخاصة ،
وأخذ الرشوة من محق أو مبطل ودفع الرشوة من مبطل لا من محق اضطر
إلى دفعها والتوسط بالرشوة المحرمة ، وخذلان المظلوم مع القدرة على نصرته
وهتك مسلم وتتبع عوراته حتى يفتضح ، واطلاع المرء على دار غيره بغير اذنه
ولو من ثقب . والتسمع لحديث قوم يكرهون الاطلاع عليهم وترك الجهاد
عند تعينه وترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقتل أو ظلم أو غدر

من له أمان أو عهد أو ذمة ، وترك الرمي بعد تعلمه، وتولية القضاء من يعلم قصوره عنه بالجور أو الجهل والخصومة بباطل أو بحق مع اظهار اللدد والكذب لايذاء الخصم والتسلط عليه ، والخصومة لمحض العناد بقصد قهر الخصم وكسره وجور القاسم بقسمه وجور المقوم بتقويمه والجلوس مع الفساق . والتغوط تحت شجرة مثمرة او على ضفة نهر وترك التوبة عن المعاصي وهكذا من كل مايضر بالهيئة الاجتماعية أو النفس أو المال أو العقل أو الشرف مما لو أردنا الاحاطة به مع ذكر أدلته من القرآن والاحاديث المنقولة عن محمد عليه الصلاة والسلام لضاق لذلك المجلدات الكبيرة. ثم ان هؤلاء الطائفة تأملوا بالعبادات التي أوجبتها الشريعة المحمدية على اتباعها فوجدوها أعمالا منطوية على تعظيم الخالق سبحانه وأداء بعض شكره على نعمه التي لاتحصى مع ما اشتملت عليه من الأسرار والحكم والفوائد التي يفوز بها المتعبد وينال أعلى منازل السعادة وذلك من تهذيب[1] نفسه وتخليتها عن الاخلاق الذميمة وتحليتها بالسجايا الحميدة وتذكاره بخالقه ليأمن من الغفلة عنه سبحانه بما يستولي على قلبه من شواغل الدنيا فيحجم عن العصيان ويهجر أماني الشيطان وتلازمه المراقبة بأن عليه رقيبا مهيمنا قريبا ، ومن الاجتماع مع إخوانه في أوقات العبادات الداعي ذلك إلى الالفة معهم ، والاطلاع على شئونهم المحتاجة للتعاون والتوازر . ومن اغاثة ذوي الحاجات وتصور حالهم المحزنة ليقضي ذلك بالشفقة عليهم والاحسان اليهم ، وتذكر شئون الرسل المقدمين وآلهم الذين أدوا عبادة ربهم وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه ليكون ذلك داعيا للاقتداء بأعمالهم، والنسج على منوالهم وتجديد الثناء عليهم وعلى متبعيهم، ومن السعي في تكثير سواد المسلمين وهداية المخالفين وإعلاء كلمة الله تعالى الى غير ذلك من الثمار اليانعة، والفوائد النافعة ، والتدابير الجامعة المنبثة

في تلك العبادات ولا يعقلها إلا العالمون ، ومن نظر الى ظواهر تلك العبادات وغفل عن حكمها وأسرارها وفوائدها وأثمارها كان كمن نظر الى صدفة مملوءة بالدرر النفيسة فيحسبها قطعة حجر فلا يلقى لها بالا ولا يروق منظرها في عينه حسنا وجمالا فيفوت ذلك الجاهل أنفس نفيس ينفق في تحصيله الذهب الابريز ويفادى به كل عزيز ، وربما بعض الجهلة المطموس على بصيرته يستقبح تلك العبادات فهو كالمريض الذى ينكر طعم الماء ويحكم بمرورة الحلواء فليته اذا استصعبتها نفسه الساقطة الهمة يعتقد بها اعتقاد المريض بالدواء المر يحكم بنفعه ويتكلف تجرعه ، فقاتل الله الجهل وقبح محياه من صاحب سوء مشئوم الطالع على أهله يوقعهم بالخسران ويلعب بهم كأكرة الصبيان ،

وتفصيل بعض ماظهر لهذه الطائفة من أسرار العبادات فى الشريعة المحمدية انهم وجدوا أن تلك الشريعة قد أمرت كل مكلف من أتباعها باداء عبادة تسمى الصلاة وهى عبارة عن أقوال وأفعال مبتدأة بتكبير الله تعالى مختتمة بالتسليم يأتى بها المكلف كالمتمثل بين يدى الله تعالى ، وقد شرعت ان يدعو المنادي المكلفين اليها عند حضور أوقاتها بأفصح الفاظ مشتملة على أشرف معان فيبدأ بتكبير الله تعالى أربع مرات كأنه يقول: أيها الناس كل ماأنتم فيه من رغائبكم الدنيوية والأخروية الحسية والمعنوية فالله تعالى أكبر وأحق برغبتكم فى جنابه من كل مرغوب فيه ثم يشهد له سبحانه بانفراده بالألوهية مرتين كأنه يقول لايقضى حوائجكم الدنيوية والاخروية حقيقة الا الآله الحقيقى الذى من أخص أوصافه التى ينفرد بها استغناؤه عن كل ماسواه وافتقار كل ماعداه اليه ، والله تعالى قد انفرد بمقام الالوهية الحقة فعليكم أن تقصدوا

جنابه فى طلب حوائجكم الدنيوية والأخروية وتلتجئوا الى حضرته، ثم يشهد لمحمد ﷺ بالرسالة مرتين كأنه يقول إن هذا الرسول الذى هو الواسطة بينكم وبين ذلك الاله العظيم فى هدايتكم لمصالحكم الدنيوية والاخروية وقد علمتم بالمشاهدة أو بالدليل ما عليه ذلك الرسول من النصيحة لكم والهداية الى سبيل الخير فعليكم إذن أن تسعوا لاداء ما شرعه لكم وهداكم اليه من هذه العبادة الجليلة المتكفلة لكم بالخيرات الحسان ثم يطالب منهم الاقبال على تلك الصلاة مرتين وهو كالتصريح بما أشار اليه أولا بالتكبير والتشهد من لزوم الالتجاء إلى حضرة ذلك الاله العظيم أو هو كالنتيجة لما تقدم كأنه يقول اذا كان ذلك الاله أكبر من كل كبير ومنفرداً بالالوهية وقضاء حوائج الخلق وذلك الرسول الناصح قد هداكم إلى عبادة ذلك الاله ووعدكم ببلوغ أمانيكم بها فعليكم أن تقبلوا عليها وتدخلوا حضرة ذلك الاله الجليل، وتتوسلوا اليه وتطلبوا قضاء حوائجكم الكلية والجزئية منه عند اداء تلك الصلاة ثم يشير إلى ثمراتها وما احتوت عليه على وجه الاجمال فيقول: حى على الفلاح مرتين كأنه يقول ان فلاح المرء هو أعظم رغائبه، وأن الفلاح الدنيوى والأخروى (١) منوط بهذه العبادة لما تفيده من تهذيب الأخلاق واستحضار عظمة الخلاق، ونوال الثواب يوم المآب فاقبلوا عليها واغتنموا فلاحها. ثم بعد ذلك كله

---

(١) لو تدبر المسلمون اسرار دينهم الحنيف واحاطوا خبرا بما اشتمل عليه من المحاسن وعلموا ما فى الصلاة ـ وهى احدى شعائر الاسلام ـ من الحكم الباهرة والمزايا الجليلة لما تهاونوا فيها هذا التهاون الذى نشهد أثره ونلمس ضرره . ان للصلاة اثرا كبيرا فى تكوين الاخلاق الفاضلة فالطهارة والعطف على البائس واغاثة الملهوف والرحمة والرأفة وبذل المال فى وجوه الخير والخشية من الله اخلاق قل ان توجد الا فى نفوس المصلين هذا الى ما فى اجتماع الناس على اختلاف طبقاتهم لادائها فى المساجد من الفوائد الاجتماعية التى تكفل لهم الالفة والمحبة وهما خير مظهر من مظاهر المدنية الفاضلة *

يستدرك ذلك المنادى ويريد صرف همم المكلفين لأ كل الرغائب بأنهم إذا أقبلوا على هذه العبادة فلا يجعلوا مطمح أنظارهم إلا جناب الحق تعالى، والقرب إلى حضرته، فليكن هو المقصد الأعلى، والمرام الاسنى فى هذه الدار ، وفى دار القرار ولذلك يعيد التكبير مرتين، وافراده تعالى بالالوهية فيقول: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله *

ثم إن السامعين لذلك المنادى يقولون مثل قوله كأنهم يصرحون بموافقته على ما يسمعون منه ويقولون : صدقت فيما تقول لكن عند طلبه منهم الاقبال على الصلاة والاقبال على الفلاح لا يقولون مثل قوله لان تلفظ المأمور بلفظ آمره الذى أمره به يعد كالسخرية بل يقولون : لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم كأنهم يقولون: ان تحصيل هذا الخير العظيم من الدخول فى تلك العبادة ونوال فلاحها لا طمع لنا فيه إلا بحول الله تعالى وقوته فنحن نستعين به تعالى وليس قولهم ذلك عن قصد التكره لما دعوا اليه كما يستشكله بعض الجهلة ، ثم عند اجتماعهم فى المكان الذى يخصص لأداء تلك العبادة يعيد عليهم ذلك المنادى تلك الالفاظ المتقدمة التى دعاهم بها اولا لتأكيد تلك المعانى فى نفوسهم وليسمع من لم يكن سمع أولا بل حضر بسبب غير سماعه النداء وليكونوا على أتم الاستحضار لدخول تلك الحضرة الجليلة حيث قد قرب وقت دخولها ، ولهذا يزيد على تلك الألفاظ قوله قد قامت الصلاة مرتين أى قرب وقت قيامها ثم (١) ان هذه الشريعة

---

(١) يرمى الاسلام الى اسعاد المسلمين وانهاضهم ويعمل على رفع مستواهم حتى يكونوا خلفاء الله فى الارض حقا ، ومن حكمه الجليلة أن فرض على المسلمين طهارة ابدانهم وثيابهم واماكن عبادتهم فشرع لهم غسل جميع البدن او غسل اعضاء منه مخصوصة ليكفل لهم نشاط الدائم ويوقظ فيهم روح القوة والعزيمة فلا يتطرق لهم الوهن ولا يجد الخمول الى أنفسهم سبيلا ولا نعلم دينا يحض الناس على النظافة على سبيل الفرض احيانا والترغيب أحيانا أخرى غير الاسلام فليتامل المسلمون ذلك حق التأمل ففيه الخير والسعادة *

شرطت لهذه العبادة شروطا ، وسنت لها آدابا فشرطت له طهارة بدن المصلي وثوبه ومكانه من أعيان مستقذرة ترد من خارج البدن أو من داخله. وطهارة بدنه من أحوال اعتبارية تسمى احداثا يعتبر قيامها في بدنه عند حدوث أمور مخصوصة، وكأن في ذلك الاشارة والتنبيه للمصلي على انه عند دخوله في الصلاة التي هي بمنزلة حضوره بين يدي مولاه ودخوله في حضرته لأداء شكره . وطلب بره يلزمه أن يكون نظيف الجوارح من الاعمال الذميمة التي يكون منشؤها من ميله وشهوته أو من وساوس ترد عليه من غيره وأن يكون طاهر القلب من الاخلاق السيئة غاسلا جميع تلك الأدران بماء التوبة والندم كان من يدخل حضرة ملك من ملوك الدنيا يجتهد أن لا يقع نظر الملك على شيء منه تشمئز منه نفسه ثم في غسل الجسد بالماء تنشيط يصل أثره للروح إذ العلاقة بينه وبينها لا تنكر فكل تأثير باحدهما يظهر في الآخر، فترى الروح عند تلك الطهارة قد انشرحت وزال كسلها كأنها نشطت من عقال لاسيما عقب مباشرة النساء، وفيها من الفوائد الطبية ما لا يخفى، ثم ان الشريعة قسمت طهارة بدن المكلف من الأحوال الاعتبارية التي تعتبر قيامها في بدنه وتسميها أحداثا الى قسمين طهارة كبرى وهي غسل (١) جميع الجسد وطهارة صغرى وهي غسل اعضاء منه مخصوصة ومسح أخرى فاوجبت غسل جميع الجسد عند خروج مني ولو حكما كما في حالة الجماع بلا إحساس بانزال أو عند خروج دم الرحم بالحيض أو النفاس لان هذه الاعيان المستقذرة واردة من جميع البدن

---

(١) لايخفى ما في الاغتسال من الفوائد الاجتماعية التي تظهر آثارها في حياة الانسان العامة والخاصة خصوصا اذا علمنا ان كثيرا من الناس ربما تمضي عليهم الايام دون ان يصل الماء الى اجسامهم حتى تتراكم الاوساخ فوق المسام فلا تستطيع الاجسام حينئذ ان تقوم بافرازاتها الحيوية وبذلك تكون عرضة لجواذب الامراض وان فاتت من سماحة الاسلام ان جعل المسلمين بأمن من ذلك بما شرع لهم من الطهارتين الكبرى والصغرى

فتعتبر الشريعة بخروجها ان حالة اعتبارية تسمى حدثا أكبر قد حلت فى جميع البدن فكأنها تشير بغسله وتطهيره إلى التوبة والطهارة من الذنوب التى تنسب إلى البدن جميعه لا إلى عضو مخصوص لاسيما الأخلاق السيئة ، وأيضا أن هذه الأعيان هى مادة تكوين الولد . فالمنى مادة تلقيحه وتصوره ودم الرحم مادة غذائه ونموه، والولد الذى يحدث بسببها يحتمل أن يكون تقيا ويحتمل أن يكون شقيا ، فباعتبار النظر للاحتمال الأول يكون التسبب فى تكون الولد من الأعمال الممدوحة شرعا الموعود عليها بالثواب الجزيل للزوجين المتباشرين لاسيما ان كانت مباشرتهما على نية صالحة يقصدهما تكثير نسل الموحدين المطيعين لله تعالى، وباعتبار النظر للاحتمال الثانى تظهر الاشارة الى المكلف عند خروج هذه الأعيان منه ان هذه الاشياء المنفصلة منك المشترك فيها جميع جسدك هى مادة لتكوين ولد يحتمل أن يعصى الله تعالى أو يكفر به فتنبه بغسل جسدك الى التوبة من تأهلك لهذا الذنب الذى أنت فى معرض الوقوع فيه فكأن المكلف يقول بلسان حاله: يارب انى بمشاهدة هذه الأعيان التى خرجت منى واشترك فيها جميع جسدى تمثل وتشخص عندى انى متأهل للتسبب ببروز ولد يكون لك عاصيا فانا أغسل جسدى واجعله عنوان توبتى اليك من هذا التأهل الذى أنا متصف به، وهذا من باب التباعد عن الوقوع فى المعصية والمبالغة والتشدد فى التوبة منها ولو كانت بالقوة لا بالفعل، وأما عند خروج بقية الاعيان المستقذرة من البدن التى لم يشترك فيها جميع الجسد حقيقة كخروج دم من غير الرحم وخروج شىء من أحد السبيلين غير المنى والدم المذكور أو حكما كما عند تماس الفرجين من غير ادخال فاعتبرت الشريعة أن حالة اعتبارية تسمى حدثا أصغر حلت فى أعضاء مخصوصة من الجسد وكأنها تشير بالطهارة الصغرى المسماة وضوءاً وهى غسل بعضها

ومسح الآخر إلى التوبة من ذنوب تلك الأعضاء المخصوصة وفى تخصيصها وترتيب تطهيرها سر عجيب (١) يروق ذوى الألباب وبيان ذلك انه ليس فى البدن ما يتحرك للمخالفة أسرع من هذه الأعضاء فكأن فى غسلها التنبيه للمتعبد على الاعتناء بطهارتها الباطنة وهى التوبة من ذنوبها الكثيرة الوقوع، وأما ترتيبها فى التطهير فعلى ترتيب سرعة الحركة فى المخالفة فما كان منها أسرع فى التحرك فى المعصية من غيره أمر المكلف بغسله قبل مابعده فأمر بغسل الوجه أولا وفيه الفم والأنف والعينان فيبدأ بغسل فمه أولا لأن اللسان اكثر الاعضاء وأشدها حركة فى المخالفة لأن به التلفظ بالكفر والغيبة والنميمة والفحش وغير ذلك من آفات اللسان فبغسل الفم يتذكر أن طهارة الظاهر إنما هى إشارة الى تطهير الباطن فيتوب إلى الله تعالى ويقلع عما تكلم به لسانه ثم بالاستنشاق يتذكر كذلك ويتوب مما شم بانفه وكذلك يتوب مما نظرت عيناه مما حرم عليه نظره ، ثم يؤمر بغسل اليدين إذا تكلم اللسان ونظرت العينان بطشت اليدان أو لمستا فاذا جاء إلى طهارتهما ابتدأ بطهارتهما باطنا فيتوب عما تحركتا فيه ، ثم يؤمر بمسح رأسه وكأنه إنما أمر بمسحه ولم يؤمر بغسله لأجل أنه لم يقع من نفس الرأس مخالفة وإنما هو مجاور لما وقعت منه وهو اللسان والعينان فاعطى حكما بين

---

(١) تأملوا ايها المسلمون فى اسرار دينكم الحنيف واياكم ان تجهلوا سر بعثتكم الغراء وراءكم ظهريا فقد سبقتكم شعوب كانت تدين لكم بالسمع والطاعة، وتقدمت عليكم فى مضمار الحياة امم كان خطوها وراء خطوكم لما نكصتم على أعقابكم وعصيتم أمر ربكم فثوبوا الى رشدكم وانفضوا عنكم غبار هذه الغفلة التى ذهبت بريحكم وأطمعت بكم عدوكم فاجلب عليكم بخيله ورجله وجاس خلال دياركم وأتاكم بالموت من كل مكان ولينصرن الله من ينصره وكان حقا علينا نصر المؤمنين ه

حكمين وأمر بمسحه ولم يؤمر بغسله ، وكأنه لما كان السمع قد يطرق على الانسان فى غالب الحال وهو لايتعمده خفف أمر الأذنين فامر بمسحهما ولم يؤمر بغسلهما ، وبهذين المسحين يتذكر فيتوب ويطهر الباطن مما سمعت الأذنان ومما وقع من الرأس من مجاورة تلك الاعضاء المخطئة ، ومثل ذلك يقال فى مسح الرقبة ثم يؤمر بعد ذلك بغسل الرجلين لأن العينين إذا نظرتا وتكلم اللسان وتحركت اليد وسمعت الاذن حينئذ تسعى الرجلان فالرجلان آخر الجميع فى المخالفة فجعلتا آخر الجميع فى الغسل ، وبغسلهما يتذكر ويقدم طهارتهما الباطنية فيتوب مما سعتا فيه من المخالفة ثم كأن لتثليث الغسل للاعضاء المغسولة المباشرة للمخالفة عمدا فى الغالب سرا دقيقا وحكمة فائقة وهى المقابلة لأركان التوبة الثلاثة وهى الندم على ماوقع من الذنب . والاقلاع عنه . والعزم على عدم العود اليه فكأن كل غسلة تنبيه على ركن من هذه الاركان ، ثم بعد فراغ المتوضىء من الوضوء وتحصيل ما أمر به من تطهير الباطن بالتوبة شرع له ان يقول : اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين ، فكأن فيه إشارة له أن يسأل الله تعالى قبول ماقد أتى به من التوبة والتطهير والتفضل به عليه ثم اذا تعسر الماء على مريد الصلاة فقد عوضته الشريعة بالتيمم (١) وهو مسح الوجه واليدين بطاهر من جنس الأرض وهذه هى الأعضاء التى ينزهها الانسان عن ملامسة ذلك غالبا

---

(١) لقد بلغ الاسلام فى اليسر والسهولة المبلغ الذى ليس بعده غاية ولا وراءه زيادة لمستزيد لما كان الماء بمرض الفقدان والحاجة أو مشقة لاستعمال المعذر من الاعذار المرخصة رفق الاسلام بالمسلمين - كما هو الشأن فيه - لئلا يكون عليهم حرج فى الدين وشرع لهم التيمم بأن يضرب المصلى بيديه على الصعيد الطاهر ويمسح بهما وجهه ويديه ، وفى هذا نهاية السماحة والتخفيف

زيادة عن غيرها ففى ذلك المسح بعض الذلة والانكسار للنفس فكأن الاشارة فيه الى العبد انه اذا تعسرت عليه أركان التوبة ولم يوفق لها فلا أقل من التجائه الى الذلة والانكسار من رؤية معاصيه فقد يكون ذلك سببا لعفو مولاه تعالى كما قيل رب معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا على أن ذلك المسح بملاحظة الاشارة المذكورة حقيق باغراء العبد بتحصيل تلك الأركان ، ثم لما كانت الرجلان فى أعضاء الوضوء هما محل الاسراف بالماء ومظنة المشقة خفف الامر باباحة مسح خفيهما الملبوسين بالماء بشروط مخصوصة ولا تفوت بمسحهما اشارة التذكار للتوبة من معاصيهما ، ثم شرطت هذه الشريعة لهذه الصلاة ستر العورة، وفيه (١) من الأدب الظاهر ما لا يخفى، وفيه اشارة الى أن العبد عند دخوله فى الصلاة وتمثله فى حضرة مولاه اذا لم يتيسر له الطهارة من المخالفة بالمعاصى والاخلاق السيئة بالتوبة التامة فلا أقل من أن يعالج اضعاف تلك المخالفات واخماد سورتها حتى تبقى كالمستورة وان كان لا يخفى على علم الله شىء، وفى الستر أيضا منع دواعى الشهوة للجماع بحجب النظر عن أعضائه وما يقرب منها، ولما كان النظر الى جميع بدن المرأة داعيا لتلك الشهوة شرط لها ستر جميع جسدها الا ما احوجت الضرورة الى كشفه من الوجه واليدين والقدمين اذا كانت حرة والا فهذه الاعضاء وأعضاء أخرى تقتضى الخدمة كشفها غالبا وفى التزام سترها نوع من الحرج اذا كانت رقيقة ، وشرطت لها

(١) من رزقه الله رأيا سديدا أو نظرا بعيدا عن الهوى يدرك مبلغ ما للاسلام من فضل عظيم وحكمة بالغة فى حفظه الناس على الحشمة والوقار ، وصرفه لهم عن التهتك الفاحش الذى يعصف ببناء الاخلاق ويزلزل قواعد المدنية والعمران وان ما تعانيه الامم الغربية من جراء هذا التهتك الشائن ؛ والخلاعة المزرية لقنعا وغنية لمن ألقى السمع وهو شهيد

أيضا استقبال المصلى جهة الكعبة لأن العبد قد خلق ذا جهات ألوفا لها عند أداء أعماله وهى الامام والخلف واليمين والشمال والفوق والتحت، فلو فوض اليه أمر الاستقبال وخير فى أى جهة أراد عند أداء هذه الصلاة التى يطلب فيها حضور القلب مع الله تعالى وجمع الضمير فى خدمته تعالى لغلب على نفسه الاضطراب والحيرة فلا يدرى أى الجهات هى أقرب وأوفق لاقبال مولاه عليه واجابة دعاه فلطفا من الله تعالى وتنزلا لعقل العبد وفطرته التى فطر عليها عين له فى توجهه جهة الكعبة المكرمة التى هى بقعة من الارض شرفها الحق وكرمها، وله أن يفضل مايشاء من ملكه اذ هو الفاعل المختار والمالك المطلق وسماها بيته وهو سبحانه غنى عن المكان [المشابه] ومنزه عنه وبهذا التعيين يجتمع قلب العبد عند مناجاة ربه وتطمئن نفسه بانه استقبل أفضل الجهات وأقربها وأوفقها لاقبال ربه عليه وحظوته باجابة دعاه، فقد تبين ان الصلاة وما تحتوى عليه من نحو ركوع وسجود يقصد بها جناب الحق تعالى عند استقبال الكعبة (١) وليس المقصود بها الكعبة فان الشريعة تحكم على من يقصد بسجوده غير الله تعالى بالكفر والعياذ بالله تعالى فتوهم قصد الكعبة بتلك العبادة يعد من أقبح الجهل الفاحش، ثم أن تلك الصلاة مفتتحة بالتكبير كما تقدم وهو قول العبد الله أكبر ويرفع عنده يديه حذاء أذنيه والمرأة

---

(١) لقد منى الاسلام بقوم لا خلاق لهم ملك التعصب عليهم مشاعرهم فاصمهم وأعمى أبصارهم فلم يدعوا مثلبة من المثالب إلا ألصقوها بالاسلام افتراء من عند أنفسهم، وان من أسباب نهضة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها ودواعى عظمتهم ووسائل تقدمهم السريع أن يضطلع علماؤهم بالدعوة الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يشرحوا حقائقه للعالم بأسره شرحا شافيا ويفندوا جميع مايسند اليه من التهم الباطلة، وبذلك يقومون بواجبهم ويخدمون الاسلام أجل خدمة هم مكلفون بها

قبال كتفيها ، وفى ذلك مع تعظيم الله تعالى والاتيان بماهو بمنزلة التحية والسلام على حضرة الملك والاستئذان بالدخول عليه اشارة للعبد ان يستحضر أن مولاه الذى هو عازم على التمثل بين يديه أكبر من كل شىء ولا يدانيه شىء فى العظمة والكبرياء فعلى العبد ان (١) يطهر قلبه من كل ماسوى مولاه من علائق الدنيا ورغائب الآخرة، وأكد هذا المعنى باشارة رفع اليدين كالذى يكف يديه عن تناول ماهو حاضر أمامه كأنه يتخيل ان كل ماسوى مولاه حاضر نصب عينيه ويكف يديه عنه قائلا الله أكبر من كل شىء فلا اختار عليه سواه وهاأنا فارقت رغائبى وعزمت على الدخول فى حضرته، وفى بلوغ الرجل فى رفع يديه حذاء أذنيه والمرأة قبال منكبيها اشارة الى انحطاط رتبتها عنه فى الاقتدار على كف النفس عن رغائبها فكأن كلا منهما يترجم ويشير الى منزلته فى ذلك الاقتدار على أن اكتفاء المرأة بحذاء المنكبين أقرب لسترها اللائق بشأنها، ثم بعد ذلك التكبير يتمثل العبد قائما قيام الخادم بين يدى مولاه واضعا يديه بهيئة الادب مطرقا ناظره الى الأرض صافا قدميه لايتحرك منه عضو ولا يميل منه طرف، ثم يشرع فى الاستفتاح وهو تسبيح ربه وتنزيهه والثناء عليه وتعظيم اسمه والتنويه بعظمة سلطانه وأفراده بالالوهية وهو بمنزلة استفتاح الخطاب للملوك بذكر الألقاب التى تذكر قبل مخاطبتهم مشتملة على التعظيم والتبجيل ولله المثل الأعلى، فالتكبير افتتاح دخول الحضرة الالهية وهذا استفتاح خطاب الحق تعالى، ثم لما كان

---

(١) ان من يقف بين يدى الله فى اليوم والليلة خمس مرات خاشعا خاضعا يناجيه بكلامه الازلى القديم وقد أشعر قلبه الخشية والجلال؛ وعلم انه انما يناجى إله العالمين بديع السموات والارض لخليق أن تصفو نفسه، وتتهذب أخلاقه، وهذه هى الصلاة التى تؤتى أكلها وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى فما أجل الاسلام وما أعلى حكمه وما أرقى أحكامه

الشيطان مسلطا على العبد وحريصا على تفريق قلبه بوساوسه وتشويش مناجاته مع ربه يريد العبد أن يتحصن من ذلك العدو الألد فيقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم بعد ان يطمئن قلبه باعاذة مولاه اياه من ذلك العدو المبين ولم يبق الا التشرف بمناجاة ربه سبحانه يشرع فى قراءة الفاتحة(١)، وكأن الاشارة فى قراءتها ما يأتى وهو أنه يبتدىء بالتوسل اليه سبحانه باشرف الوسائل وهو أسمه العظيم الأعظم الذى لم يسم به سواه متيمنا بذكره وحيث يرى انه فى مقام هو فيه أحوج ما يكون الى الرحمة والاحسان بجلائل النعم ودقائقها اذ هو مقام الطلب لرغائبه ونوال أمانيه يأخذ بوصف ربه بأنه الرحمن الرحيم كأنه يشير الى أنه لا وسيلة له فى اجابة دعائه الا الرحمة العامة المطلقة من جانب مولاه ثم يستحضر عظمة الحق سبحانه وسعة انعامه على خلقه لاسيما نعمة التربية التى تلازم العبد من أول نشأته فيأخذ بالثناء عليه لذاته العلية المستحقة أسنى المحامد ولنعمه الوفيه التى من أكملها نعمة التربية بادرار الارزاق الحسية والمعنوية والامداد بابقاء الوجود ثم يلاحظ أن كثيرا لا يراعون قدر هذه النعمة ولا يوفونها شكرها، ولعل ذلك العبد من أولئك الكثير فيعود ويلتجىء الى جانب الرحمة الالهية ويصف ربه بها اشارة الى أن هؤلاء لا يسعهم الا تلك الرحمة الواسعة، ثم

---

(١) ان فى الفاتحة من أصول الاسلام، وقواعده الحنيفية مالو تدبره ذوو العقول السليمة والاحلام الراجحة لعلموا الى أى غاية يرمى الاسلام من انهاض النفوس البشرية واسعادها وتهيئتها لقبول الكمال الانسانى والسعادة الخالدة، ولايقنوا ان الاسلام هو الدين الخالد دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها، ولم يهن المسلمون — وهم الاعلون — ولم تخضد شوكتهم إلا بعد ان جهلوا حقيقته وحادوا عن سننه القويم وصراطه المستقيم

يلاحظ أن البعض منهم لا يزيده الاحسان الا بطرا ولا يصلحه الا المعاملة بالعدل والتأديب فينعطف العبد الى وصف مولاه بصفة الجلال بانه مالك وملك يوم الدين والجزاء فكما ينبغى للعبد أن يرجوه أعظم الرجاء ينبغى أن يخافه أشد الخوف؛ ثم يأخذ العبد فى عرض عبادته وخدمته على جناب ربه سبحانه التى هى بعض الشكر لنعمه تعالى، ويلاحظ أمرين مهمين الأول انه مقصر فى ايفاء تلك العبادة فيعرضها مع عبادة اخوانه الموحدين الذين كثير منهم بلغ على قدر طاقته البشرية ايفاء عبادته باخلاصه فيها لعل عبادة ذلك العبد تقبل فى ضمن عباداتهم لأنه سبحانه نهى عن تفريق الصفقة بين المتبايعين فالرجاء به سبحانه ان لا يفعل ما نهى عنه فيرد عبادة ذلك المصلى ويقبل عبادة سواه . والثانى أن المشركين أشركوا فى عبادة ذلك الاله المستحق (١) الافراد بالعبادة فيأتى ذلك المصلى فى عرض عبادته بصيغة تفيد حصر العبادة به تعالى، ثم ينظر الى حاله فيجد أنه عاجز أشد العجز عن القيام بتلك الخدمة وأداء ذلك الشكر ان لم يعنه الحق تعالى ويخلق أفعاله ويسدد أعماله ويوجد فى قلبه الباعث ويدفع عنه المانع وانه لا يقدر على ذلك سواه تعالى فيطلب الاعانة منه تعالى بعبارة تشعر بانه لا يستعين

---

(١) لقد أتى على الناس حين من الدهر وهم يرسفون فى أغلال الوثنية واصفاد الشرك والضلال ذاهبين فى ذلك مذاهب شتى وسالكين طرائق قدداً حتى عبدوا الاصنام ، وتقربوا للنيران واتخذوا النجوم المسخرة والكواكب المدبرة آلهة من دون الله كل ذلك والعقول مغلولة، والقلوب مكبلة ، والنفوس فى ربقة التقييد واسار التقليد لا تعرف للحرية سبيلا ولا تجد لها منفذا إلى أن أشرقت الارض بنور الاسلام وضياء التوحيد الخالص فانبعثت الانفس من أغلالها ، وانطلقت العقول من عقالها فالآن عرف الناس نعمة الحرية ونعيم المعرفة فالفضل كل الفضل فى ذلك للاسلام وأهله

بسواه ثم يلاحظ ان المقبول عند مولاه من الخدمة ما كان على منهج الاستقامة خاليا من كل عوج فيطلب منه سبحانه الهداية إلى الطريق المستقيم ليحظى فى عبادته بالقبول ويبلغ اسمى الوصول، ثم ان الخلق مفترقون ثلاث فرق منهم من هدى الصراط المستقيم اعتقادا وعملا ففازوا فى ذلك بنعمة الله تعالى عليهم. ومنهم من زاغ فى طريق العمل فاستحقوا اغضب الله تعالى . ومنهم من زاغ فى طريق الاعتقاد فاصبحوا ضالين عن الصواب فبعد ان طلب المصلى الهداية الى الصراط المستقيم رغب ان يكون فى ذلك الصراط رفيق الفرقة المنعم عليهم بصحة الاعتقاد وحسن الأعمال ليقتبس من انوارهم ويقتطف من أثمارهم وفيه الاشارة الى حاجة العبد الى المرشد فى طريق الحق ورغبته فى التباعد عن اهل الفسق وذوى الضلال فكأن المصلى يقول: يا ربنا ندعوك انا واخوانى الموحدون ان يكون ذلك الصراط المستقيم الذى طلبنا الهداية اليه صراط القوم الذين أنعمت عليهم بصحة العقائد وحسن الاعمال لنكون فى رفقتهم ونفوز ببركة صحبتهم لاصراط المغضوب عليهم بما جنوه من الاعمال السيئة ولا الضالين بما اعتقدوه من العقائد الباطلة فوَلاء باعدنا عنهم لئلا تسرى الينا بلواهم ونصاب بما اعتراهم ثم يختم ذلك الدعاء بطلب الاجابة لما دعا به مولاه اذ هو اكرم مسئول وأقرب مجيب فيقول آمين اى استجب لنا يا ربنا كما وعدتنا على لسان رسولك. ثم لما كان المريض عند طلبه من الطبيب المعالجة يأمره باخذ الدواء ويعده بالشفاء وهو عليه ان يمتثل ويستعمل ذلك الدواء. صار الحال كان العبد فى طلبه الهداية من مولاه تعالى الى ذلك الصراط المستقيم يطلب الدواء الكافى لشفائه من امراض الاعمال والاعتقادات السيئة فيقول الله تعالى له : خذ دواءك من كلامى واتل شيئا منه (١) فهو الدواء الوحيد الشافى الكافى لجميع الامراض من الفسق والشرك

---

(١) ان الحياة التى ينشدها المسلمون والحرية التى يبغون سبيلها والاستقلال الذى

والرياء والكبر والحسد والحقد وغير ذلك إذ فيه الدلائل الوافية والمواعظ الكافية فبتلاوته تجد دواء دائك وشفاء بلوائك فيأخذ المصلى بتلاوة شيء من القرآن غير الفاتحة التى كانت كشكوى المريض للطبيب واشارة الطبيب بالدواء المفيد، ثم بعد أخذه ذلك الدواء وهو تلاوة شيء من كلام الله تعالى ينظر إلى عجزه وضعفه واحتياجه الى مولاه فى هدايته لذلك الدواء وحصول الشفاء ويتصور أنه لاقادر على ذلك سوى مولاه الذى انتهت اليه الرغائب فيخر المصلى حينئذ راكعا ممثلا صورة عجزه مكبرا مولاه تعالى ، ثم يسبح مولاه العظيم الذى استغنى عن كل ماسواه وافتقر اليه كل ما عداه ، وهذا غاية العظمة . ثم بعد تمثيله لعجزه واقراره بافتقاره وتنويهه بعظمة مولاه الذى انتهت اليه الحوائج ينهض من صورة ذلك التمثيل لأداء الحمد والشكر لمولاه الذى من عليه بالدواء الشافي من الداء ويوطن نفسه بأنه وان يكن هو فى غاية الضعف ونهاية الحقارة ومولاه فى غاية العظمة والكبرياء فهو سبحانه سميع مجيب يسمع حمد من يحمده فلذلك يقول تأنيسا لنفسه : سمع الله لمن حمده، ثم يعرض حمده ويقول: اللهم ربنا ولك الحمد ثم يرى ان نعم مولاه عليه لاتحصر وهو عاجز عن أداء عشر معشار شكرها ولو قطع الأبد طاعة وخضوعا فكأن لسان حاله غداعند ذلك يقول: يارب إنى عاجز عن أداء شكر نعمك وأنت غني عن كل شيء فاى عمل يكون مكافأة لعظيم أفضالك وانت الكبير المتعالى فما عندى إلا جهد المقل وهو أنى أضع أشرف أعضائى وأعزها على وأكرمها لدى وهو وجهى على الارض تعظيما لجلالك وتنويها برفيع كمالك وهذا غاية

يودونه الوداد كلها لن يصلوا اليها ولن يتفيئوا ظلالها الا اذا التفوا حول راية القرآن واعتصموا بآدابه الكبرى وأخلاقه العظمى وحينئذ يرون أن أبواب الحياة مفتوحة وسبل الحرية معبدة والفوز بالاستقلال غير بعيد المنال ٭

اقتدارى ونهاية استطاعتى على ان ذلك لا يزيد فى عظمتك وكبريائك شيئاً إذ أنت أكبر من كل كبير فيخر ساجداً معظماً مولاه قائلا الله أكبر ويضع جبهته على الارض وفى ذلك السجود يرى نفسه قد بلغ غاية الخضوع وانه ما فعل ذلك إلا لتعظيم مولاه الأعلى فوق كل على فينطلق لسانه قائلا سبحان ربى الأعلى ثم يرفع من سجوده لاستحضاره عجزه عن استيفاء تعظيم معبوده ولو قضى عمره ببذل مجهوده قائلا الله أكبر كأنه يشير الى أنه لا يدرك شأو عظمته وكبريائه تعظيم المعظمين وتكبير المكبرين ثم بعد رفعه من السجود كأنه يجد ان تلك الحالة السجودية هى غاية شرفه وأكمل مجده وانه لم يقض أربه من ذلك المرام السامى ويتذكر أن ابليس امتنع لشقائه عن السجود مرة واحدة فيعود فيسجد ثانيا داخلا تلك الحضرة السجودية معظماً مولاه بالقول والعمل والطوية مخالفا الشيطان فى حميته الشيطانية ثم يرفع من ذلك السجود الثانى لأداء بقية ما أمره مولاه به من أنواع أخرى من العبادات ويجرى فى اكمال الصلاة على المنوال المتقدم لحكم وأسرار يطول شرحها حتى يتم ما فرض عليه مولاه فيها من الأقوال والأفعال المشتملة على الفوائد التى فى سواها لا تنال ثم يجلس جلوس العبد على ركبتيه متهيئا للخروج من تلك الحضرة والرجوع الى حالته التى كان عليها قبل دخوله فى هذه الخدمة لتحصيل ضروراته التى فطر على السعى فى طلبها وللتفرغ لعبادات أخرى مدعو اليها فيأخذ بتقديم التحيات وعرض الصلوات والطيبات لدى مولاه رب الأرض والسموات مثل ما يسلم المفارق لحضرة سلطانه عند خروجه من ديوانه ثم كانه يتذكر فضل من كان سبب هدايته لدخول تلك الحضرة وتشرفه بتلك الخدمة وهو (١) رسول الله

---

(١) أنه لما يفتت القلوب ويكلم النفوس ان نرى السواد الاعظم من أبناء المسلمين الذين هم معقد الأمل ومحط الرجاء لا يعلمون كثيرا ولا قليلا عن حياة سيد البشر ورسول

(عليه السلام) فيسلم ويترحم ويبارك عليه قائلا السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ثم يرغب إلى الله تعالى بالأمان له ولاخوانه المتعبدين على ما أنعم به عليه وأولاه من أنوار هذه العبادة وفوائد تلك الخدمة فيقول السلام علينا ثم يتذكر اخوانه الذين كان في اول تلك العبادة عرض عبادته مع عبادتهم رجاء القبول فصار عليه لهم حق خصوصي معقول فيدعو لهم بالأمان على نعم مولاهم عليهم ويقول : وعلى عباد الله الصالحين ثم كانه يتمثل لديه مشاهدة ان المنعم الحقيقي هو الله تعالى وان الواسطة العظمى لبلوغ هذا الخير هو محمد رسول الله (عليه السلام) فيشهد من صميم قلبه بتفرد الله بالالوهية ويشير برفع احدى أصابعه المسماة بالمسبحة الى ذلك التفرد حتى يكون موحدا اعتقادا وقولا وعملا، وفي ذلك الاشارة الى أن المتفرد بالالوهية هو المنفرد بالانعام، ثم يشهد باكمل المراتب وهي العبودية لله تعالى وباشرف المناصب وهي الرسالة لمحمد رسول الله ﷺ ويقول أشهد أن لا إله إلا الله واشهد ان محمدا عبده ورسوله ثم ينعطف للدعاء لهذا الرسول الكريم الذي كان الواسطة بذلك الخير العظيم فيطلب له الصلاة والمباركة عليه وعلى آله جزاء هدايته للمؤمنين كما صلى وبارك ربه على ابراهيم وعلى آله جزاء هدايته للامم السابقين ثم يلحظ ذلك المصلي افتقاره لمولاه في كل ضروراته الدنيوية والاخروية فيعيد الدعاء والتضرع فيطلب لنفسه جميع ما يحتاج اليه ثم لما لم يبق الا الخروج من تلك الحضرة لأداء ما كلف به من

الرحمة لسيدنا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم وجهاده المتواصل وبلائه الحسن في سبيل اعلاء شأن الانسانية ورفع مثواها الاجتماعي والخلقي ولا عن تاريخ عظماء الاسلام في الحرب والسياسة والعلم والفلسفة وهم لو علموا ذلك التاريخ المجيد لكان لهم فيه خير قدوة وأعظم أسوة تبعث فيهم روح التضحية والاخلاص

بقية الطاعات والسعى فى احتياجاته المعاشية التى كلفه الله تعالى بها حسبما رتب
فى هذا الكون من ربط المسببات بالأسباب يفارق تلك الحضرة بتحويل
وجهه مع بقاء قلبه على توجهه كأن لسان حاله يقول لولا الضرورة لما تجرعت
ألم هذا الفراق وبارحت تلك الخدمة الشريفة والضيافة المنيفة التى قد حوت
ألوان العبادات من ذكر ودعاء وتعظيم الحق تعالى وسجود وركوع وتذلل
وخشوع واشتملت على طرائف أسرار وبواهر انوار فيطل بالتفاته على
عالمه الذى كان فارقه ويتوجه الى اخوانه من مؤمنى الانس والملائكة
ويقول : السلام عليكم ورحمة الله ثم يأخذ بعد ذلك فى أداء تكاليفه وتحصيل
احتياجاته ، ثم لما كان الانسان عند قيامه من منامه يصبح كالمبعوث بعد
الموت لأن النوم موت الادراك والاحساس فيجد ان الله تعالى قد أحياه من
بعد تلك الحالة النوميه الشبيهة بالموت وقد عوض عليه بهذا المنام ما كان
خسره من جسده وقوته بسبب حركات أعضائه فى أعماله وجولان
أفكاره فى همومه فاصبح مرتاحا نشطا بعد ان كان تعبا كسلانا وقد حماه
مولاه فى تلك الحالة النومية من أذى المؤذيات وشرور العاديات وأتم
هضم طعامه الذى رزقه اياه وجعله غذاءه بدورة عجيبة وحركة غريبة وتدبير
يحار فيه الفكر وهو لايدرى ماهو جار هنالك ولا بما جلب له من المنافع
ودفع عنه من المضار غاية ما سعى هو فيه انه دفع ذلك الجسم الطعامى فى معدته
وفاز بلذته وربما لا يخطر بعد ذلك فى فكرته الى غير ذلك من النعم التى
يعجز عن حصرها اللسان والقلم فكان عليه بطريق الحتم لأداء الشكر أن
يبادر عند يقظته الى خدمة الصلاة المذكورة فيصلى صلاة تدعى صلاة الفجر
ثم بعد ما يمضى عليه نصف النهار ، وقد وجد نعم الله عليه عظيمة المقدار من
إنارة الكون لهدايته لسبل معاشه وامداده بحواسه التى يميز بها النافع من

الضار وبالقدرة والاستطاعة على مقاصده وقد فتح له باب الكسب ورزقه حاجته من الغذاء الى غير ذلك من النعم المستحيلة الاحصاء ، فكان عليه أن يعود الى أداء بعض الشكر فيصلي صلاة تسمى صلاة الظهر ثم عندما يجد النهار قد قارب الزوال وقد تواردت عليه فى ضمنه نعم عظيمة المثال وقد عزم على عوده لمسكنه بطينا بعد مافارقه خميصا تحتم عليه العود الى تلك الخدمة بل النعمة فيصلي صلاة تسمى صلاة العصر ثم عندما ولى النهار وأقبل الليل الصالح لسكونه وراحته ولم يكن النهار سرمدا لايجد فيه الى السكون والراحة سبيلا بل انقضى مملوءاً بالنعم ولطائف الكرم كان عليه الرجوع الى تلك العبادة بل السعادة فيصلي صلاة تسمى صلاة المغرب ثم حينما حوم الظلام ولم يبق الا المنام ووجد ان النعم التي تواردت عليه من الصباح الى ذلك الآن يعجز عن شكرها وجميع ما أداه من العبادة ماقام بمقابلة عشر عشرها ورأى أن ايجاد هذا الوقت الصالح لراحته مع أمنه من المخاوف وايوائه فى مسكنه على الفراش الوارف من جملة النعم التي لاتحصى بادر الى أداء صلاة تسمى صلاة العشاء قياما ببعض الشكر الذى يعجز عن إيفائه مدة العمر لأنه لو دام آناء الليل ولحظات النهار فى خدمة مولاه لم يكن الا مقصرا ولا يدعى الا عاجزا ثم ان تلك الصلوات الواجبة لأداء الشكر جعلت فى الحضر عشرين ركعة عشرة نهارية وعشرة ليلية وردت فى السفر للتخفيف الى أربع عشرة ستة فى النهار لأنه محل حركة السفر وثمانية فى الليل لأنه محل قرار المسافر وسكونه وقد ضمت للصلوات الخمس صلوات أخرى غير واجبة تدعى سننا لتكميل ماعسى ان يطرأ من النقص فى الصلوات الواجبة ، ثم للعناية برمضان شرع فيه عشرون ركعة أخرى تسمى التراويح لزيادة التكميل لصلواته ، هذا واذا تأملنا فى هذه الصلوات الخمس وجدنا فيها فوائد وحكما

لاتحصى من تهذيب النفوس لاسيما نفوس الجبابرة والمتكبرين الذين يأنفون من مس الأرض لأذيالهم فضلا عن جباههم ومن تمرينها على الخضوع ومن تذكير الغافلين والمنهمكين فى هموم الدنيا بخالقهم والرقيب عليهم اذ لولا انقيادهم الى تلك الخدمة والقيام بين أيدى رب النعمة لمرت عليهم الأيام بل الأعوام والرجل منهم لايخطر فى باله أن له إلها عليه حسيبا رقيبا، وناهيك ما فى هذه الغفلة من التأهل لارتكاب كل مخالفة وتجشم كل شر (هـــذا وما فكيف لو) ومن تجديد التوبة فى كل وقت صلاة، ومن هنا يظهر سر كون الصلاة وصلة بين العبد وربه وكونها تنهى عن الفحشاء والمنكر كما جاء فى القرآن الشريف ، ثم فى صلاة الجماعة واتباع المصلين لامامهم فى جميع أعمال الصلاة (١) تمرين النفوس على الاطاعة والانقياد الى الرئيس كما نرى رؤساء الجنود يمرنونهم على أعمال يعلمون أنهم لايمكنهم مراعاتها وقت الحرب وانما القصد منها ألفة نفوس الجند للاطاعة والانقياد لأمر الرئيس (وقد ادرك هذا السر رستم قائد جيش الفرس عند مارأى الصحابة يصلون خلف أمامهم

---

(١) لايتمالك كل من عرف حقيقة الدين الاسلامى ونفذ شعاع بصيرته الى أعماق غاياته ولباب آياته أن يقضي منه العجب وتستولى عليه الحيرة والدهشة حينما يرى المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها قد أخلدوا الى الذل واستمرؤا طعام الهون والصغار بما مكن للامم الغربية السلطان عليهم وأتاح لها أسباب الغلبة والظفر بهم حتى ملكت عليهم الارض والسماء والماء والهواء ولم يبق لهم من ذلك المجد الباذخ والعز الشامخ الا ذكرى تتردد وأنفاس تتصعد ودموع تتبدد : ولا نرى لذلك من سبب معقول أو تعليل مقبول الا ماهم عليه من التقاطع والتدابر والتفرق شيعا وأحزابا مع أن دينهم يحضهم على الالفة والتعارف والمحبة واجتماع الكلمة وهل شرع الله الجماعات وأوجب الجمعيات وفرض الحج الى بيته المحرم الا لتوطين النفوس على اجتماع الكلمة واشراب القلوب حب الالفة والاتحاد

ويتحركون لحركته ويسكنون لسكونه فقال فى حق سيدنا عمر ما قال مما هو منقول فى كتب التاريخ) وفى صلاة الجماعة أيضا اجتماع المسلمين مع بعضهم فى أوقات تلك الصلوات كما فى غيرها من العبادات وذلك أنه على أهل كل محلة أن يجتمعوا (١) فى اليوم والليلة فى مسجد محلتهم خمس مرات فى جماعة هذه الصلوات، وعلى أهل البلدة أن يجتمعوا فى الأسبوع مرة فى صلاة الجمعة، وأهل البلدة وما جاورها يجتمعون غالبا فى العام مرتين فى صلاة العيدين كما ان على أهل الاقطار أن يجتمعوا فى العمر مرة من استطاع منهم فى أداء الحج كما سيأتى عند الكلام على فريضة الحج، وقد شرعت الشريعة المحمدية لاتباعها فى بعض هذه الاجتماعات أن يخطبهم أمامهم بالخطب المشتملة على المواعظ والزواجر والتذكير بما جاء به رسولهم وأوجبت عليهم الاستماع لتلك الخطب والانصات فتراهم جاثين على الركب مطرقين الرؤوس منصتين مستمعين لاتبدو منهم حركة كأن على رؤوسهم الطير لايظهر منهم تصفيق استحسان ولا تصفير استقباح علما منهم أن جميع مايتلوه عليهم خطيبهم هو وفق شريعة رسولهم نعم لو فرض خروجه عن حدودها (وهذا لايكون) كان

---

(١) لقد قدر المسلمون فى العصور الاولى للاسلام هذه الاجتماعات حق قدرها ولمسوا بايديهم نتائجها وآثارها فازدادوا بحبلها استمساكا وبعروتها اعتصاما فكان لهم أن أثلوا ملكهم العظيم وبسطوا الوية سلطانهم على وجه البسيطة ونشروا أجنحة العدل بين الامم والشعوب فالقت اليهم مقاليدها واسلمتهم أزمة شؤونها ثم خلف من بعدهم أبناؤهم فلم يستنوا بسنتهم ولاساروا على سننهم ولم يؤتوا ماأوتى اسلافهم من علو همة ومضاء عزيمة ونزوع الى مواطن الخطار فى سبيل المجد والفخار استغنوا بالقشر عن اللباب ولم يتبعوا ماجاءهم من سنة وكتاب فدارت عليهم الدوائر ونزلت بساحتهم الاخطار وهم بين الحياة والموت لااحياء فيرجون ولا أموات فيبكون ه

عليهم أن يردوه اليهـا يباح ذلك لـكبيرهم وصغيرهم ، ثم لـكثرة فوائد هذه الصلاة فى الشريعة المحمدية شددت النكير على كل من يتركها ووصفته باشد الاثم وحكمت عليه بالنكال الشديد فى الدنيا والآخرة حتى جعلت تركها عنوان الـكفر كما جعلت المواظبة عليها عنوان الايمان، ومن هنا يظهر جهل من يتساهل فى أمر هذه الصلاة ممن أحاط به الـكسل أو استولى الشيطان على قلبه، وانطمست عين بصيرته فراح ينظر القشر وفاته نظر اللباب حتى أن بعض الجهلة من تاركيها يعتذرون عن تركها بخرافات واهية ويقولون: ان ربنا غنى عن المداهنة ولا حاجة له بهذه الصلاة فقل لهؤلاء الاغرار نعم أن ربنا غنى عن كل شيء ولكن أنتم يا ضعفاء العقول لستم باغنياء عن الفوائد التى تشتمل عليها الصلاة وقد اوجبها الله عليكم لا لحاجة بها الا انه والله شيئا منكم ، أأنتم أغنياء عن التهذيب والتذكير بربكم وتجديد التوبة والتمرين على الاطاعة وثمرات الاجتماع مع اخوانكم الداعى فى ذلك إلى الالفة والتعاون إلى غير ذلك من فوائد الصلاة؟ لا أخالكم تدعون الاستغناء عن ذلك وان أفضى بكم الجهل والعناد إلى ادعاء هذه الدعوى، فلا أراكم حينئذ إلا حمقاء تستحقون الاسقاط والاهمال من عداد الرجال فانتم بعد ذلك كالمرضى الذين يأمرهم الطبيب الناصح بتناول الدواء النافع وهم يمتنعون عن تناوله ويقولون للطبيب: انت غنى عن تناولنا هذا الدواء. نعم أن الطبيب غنى عن ذلك ولكن هل هؤلاء المرضى غنيون عنه لا يكون صدور ذلك القول منهم إلا من هذيان المرض الذى تعتع عقولهم، ثم قل لهؤلاء الظالمين لانفسهم بحرمانها فوائد الصلاة لأى داع تتركون الصلاة ان كنتم تتركونها جحوداً أو استقباحا لها بعقولكم الفاسدة، فاعلموا أن الشريعة المحمدية قد حكمت عليكم بالكفر وخلع ربقة الايمان فلا كلام لنا معكم حينئذ فى شأن الصلاة إذ ليس بعد الكفر ذنب ، ولكن علينا أن ننصحكم بتجديد ايمانكم،

م توبتكم من الكفر وان كنتم تتركونها كسلا فما أبرد ذلك الكسل وما أسمجه في النفوس ، تأملوا يا جهلاء ان اليوم أربع وعشرون ساعة تمرحون فيها بشهواتكم وملذاتكم والسعي على مآربكم الدنيوية والاوقات التي تلزم لاداء هذه الصلوات اذا جمعت تبلغ الساعة أو الساعتين أيكون من الانصاف وسداد الرأي وحسن التدبير أن تنشطوا لنوالكم تلك الشهوات الزائلة والمآرب الفانية اثنين وعشرين ساعة وتكسلوا عن نوال تلك الفوائد النافعة الدائمة قدر ساعة أو ساعتين اقل من عشر اليوم أهذا نصحكم لانفسكم؟ أهذا نتيجة عقولكم التي تدعون انها عقول سليمة تهتدون بها في مناهج الصواب؟ من يتأمل فيكم الخير بعدما غششتم أنفسكم من ينتظر عدلكم اذا كنتم لنا حكاما ، من يطمئن لامانتكم اذا كنتم بيننا تجارا من يحسبكم من عداد اخوانه المسلمين وقد هدمتم ركنا من أعظم أركان الدين الاسلامي ، ما عذركم عند ربكم في ترك هذه الصلاة وقد أمركم باقامتها المرار العديدة في كتابه العزيز اما تخجلون من رسولكم الذي كانت قرة عينه عليه الصلاة والسلام في الصلاة والله أني لاعجب ممن يتركونها وهم يدعون الدين الاسلامي ويظهر من محاوراتهم ان لهم عقولا وآراء سديدة في أمر الدنيا ولكن عندما تذكر لهم الصلاة أراهم عمي البصائر عن ثمراتها تنقلب عقولهم كعقول الأطفال فلا تأويل لذلك عندي الا أن معهم الخبل المفرد في شأن هذه العبادة وهو نوع من الجنون ، والجنون فنون ، وتالله اني لأخجل عندما أرى بعض هؤلاء ممن ينسب للعقل والفطنة والمروءة جالسا في مجلسه معرضا عن الصلاة مع اخوانه الذين قاموا لاداء الصلاة في ذلك المجلس اعراض الثور عن كيان الذهب الابريز فيا للعار ويا للخجل من أفعال السفل ، أما يعلم ذلك البهيم ان كل من شاهده في هذه الحالة من اخوانه المؤمنين يعتقد به الفسق ان لم ينسبه للكفر وتنحط منزلته

من قلبه ويتصوره ضعيف الدين واهى اليقين مرذول المقام بين اخوانه المسلمين مساوب العدالة مردود الشهادة، أما يحس ذلك الجاهل بالم الخجل فى نفسه من تلك الحالة السافلة؟ نعم انه يحس ولكن الشقاء غلب عليه والشيطان لعب به ، وليعلم ذلك الغر أن اخوانه المسلمين وان لم يصرحوا له بقبيح حاله لمانع من الموانع (١) فترجمة حاله فى نفوسهم هى من أقبح التراجم فاقل كلمة يذكرونها عند سنوح فرصة للتصريح قولهم (تارك صلاة قليل الدين) فانا لله وإنا اليه راجعون ، ﴿ثم وجد هؤلاء الطائفة﴾ ان الشريعة المحمدية أوجبت أيضا على من كان غنيا من اتباعها الزكاة (٢) وهى أداء جزء من أموالهم فى كل سنة الى فقرائهم قياما بحق الشفقة والرحمة وشعائر الانسانية وتطهيراً لنفوسهم

---

(١) ماجلب للمسلمين المصائب ولا أوردهم موارد الهلكة والدمار الا سكوتهم عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولو انهم عمدوا الى المعوج فقوموه والناكب عن الجادة فهدوه سواء السبيل لبقى الاسلام بينهم غضا طريا لاتنتهك محارمه ولا تستباح مآثمه

(٢) ان مشكلة الفقر والبطالة كانت ولا تزال من مشاكل الحياة الكبرى ومعضلاتها المستعصية ، وان شبحها المخيف ليطل على أغنى الشعوب وأرقى الامم فى عصرنا الحاضر فينغص عيشها ويقض مضاجعها ويبشرها بسوء العاقبة ووخامة المغبة والمصير ، فالاسلام الذى هو دين الخلود دين الانسانية الحية حينما يفرض على المسلمين زكاة أموالهم لتدفع الى فقرائهم ويجعلها ركنا من أركانه التى لا يقوم الا بها ولا يرتفع الا عليها انما يريد ان يسمو بالانسانية الى اوج الرفعة وحظيرة الامن والسلام وان ينتشلها من مخالب الفوضى التى تهدد كيانها وتسود وجه عمرانها ويمهد لها مدنية ثابتة تقوم على دعائم العدل وقوائم الاخوة والمساواة ، فما أجل الاسلام وما اسمى مبادئه

من رذيلة البخل ومع ذلك وعدتهم بالثواب الجزيل على أداء ذلك القدر القليل وقد عين مقدار ما يجب عليهم على وجه لا يظهر به نقص في اموالهم ، واذا أكملوا أداءه لا تجد بينهم فقيراً يعوزه أمر كفايته، ثم أن هذه العبادة مع حصول هاتين الفائدتين وهما سد حاجة الفقير وتطهير نفس الغني والفة نفسه للعطاء الذي هو من أكرم الأخلاق يسيرة بها مقدار حب المزكي لله تعالى في إخراج محبوبه -وهو المال- من يده ابتغاء لمرضاته عز وجل، ومن هنا ينتبه المؤمن الى أن التحيل في اسقاط الزكاة عنه غير مقبول عند الله تعالى لان في التحيل فقد المنفعتين المذكورتين ، فأي سد حاجة للفقير في التحيل ولم يصل ليده ما يغني فقره ؛ وأي تطهير لنفس الغني من داء البخل ومحبوبه لم يخرج من يده؟ *

ووجد هؤلاء الطائفة أيضاً أن الشريعة المحمدية أوجبت على المتكلفين من اتباعها (١) صيام شهر واحد من السنة أي امتناعهم نهاراً فيه عن الاكل والشرب ومباشرة النساء ، وفي ذلك ثمرات جمة من أجلها تهذيب نفس الصائم بكبحها عن شهواتها إطاعة لخالقه تعالى فيتسلط عقله على نفسه بعد ان كانت مسلطة عليه ويظهر لها انها صارت محكومة بعد ان كانت حاكمة فتيأس من اطاعته لها فيما

---

(١) ان النفوس البشرية لا تسمو الى معالي الامور ولا تنزع بعرق الى غايات الكمال الا اذا خلص سرها وصفا جوهرها وانى لها ذلك ما دامت مسترسلة في شهواتها جانحة الى ملذاتها تؤثر اللذة الفانية على السعادة الدائمة والمتاع الزائل على النعيم الآجل، وحيث لم يكن في طوق طاقتها ولا في مقدور احتمالها ان تنصرف بالكلية عن طيبات ما أحل الله لها من الرزق كان من حكمة الاسلام الجليلة ان فرض على المسلمين صيام شهر رمضان فكان لذلك من الاثر في تهذيب النفوس وصفائها وشحذ العزائم وصقل الهمم ما جعلهم قادة الامم وسادة الشعوب ومصابيح الحضارة وينابيع العرفان *

حرمته الشريعة من المضار وكأنها تقول اذا عجزت عن التسلط على عقل صاحبي عند صيامه في تناوله الطعام والشراب النافعين المملوكين له وفي مباشرة زوجته الآمن ضررا يحصل بمباشرتها فكيف يمكنني التسلط عليه في تناوله طعام الغير أو شرابه بغير رضاه وذلك يقبح كل القبح أو في تناوله الشراب المسكر المذهب للعقل والمخل بالشرف أو في مباشرة غير زوجته التي يحصل بمباشرتها اضرار كثيرة من معارضة الناس وخلط الأنساب وضياع الذرية وادخال الحقوق على غير أهلها. ثم قالوا: لو تأملنا في حالة اتباع محمد ﷺ عندما يجلسون في شهر صيامهم قبيل الغروب وأمامهم طعامهم وشرابهم ونفوسهم تائقة اليهما وهم ينظرون اليهما من طرف مشوق ومع ذلك لو رغب الواحد منهم سيما الاتقياء باعظم الرغائب على أن يتناول من الطعام ذرة أو من الشراب قطرة لم يفعل إلا أن تغرب الشمس لقلنا انهم من أقدر الناس على كبح نفوسهم في طاعة مولاهم ومن هنا يتبين ان من لم يأت بهذه العبادة الصومية ممن غلب عليه شقاه واسرته شهوته لا يحق له أن يعد نفسه من الرجال أصحاب العزم والحزم بل يعلم أنه ضعيف القوة العقلية ساقط الهمة عبد بطنه ورقيق فرجه وان عقل المرأة الصائمة أقوى من عقله وهمتها أعلى من همته وعندها من شهامة النفس ما ليس عنده منه ذرة؛ ومن أجل فوائد الصوم أيضا تصور الصائم حالة الفقير المحزنة عندما يحس بألم الجوع فيرق قلبه اليه ويعطف بالتصدق عليه، فان الغني المترفه لولا معاناته الصوم لربما كان يمر عمره ولا يتصور ألم الجوع فاذا وقف الفقير الجائع بين يديه وطلب منه الاحسان وشكى له ألم جوعه لا يدري ما حقيقة هذا الألم فاي شفقة تكون عنده عليه فبالصيام يعلم ما في الجوع من الآلام فيبادر بالصدقة على الفقراء والأيتام؛

ثم وجد هؤلاء الطائفة أن الشريعة المحمدية أوجبت أيضا على المستطيع

من اتباعها عبادة الحج (١) وهى زيارة الكعبة المشرفة وأماكن تجاورها بافعال وأقوال مخصوصة ، وفى ذلك من الأسرار والحكم ما يعجز عن حصره حكماء العرب والعجم ، فمنها اجتماع المسلمين ألوفا مؤلفة فى تلك الأماكن فى كل سنة وذلك يدعو الى التعارف والتآلف فتراهم هناك أنواعا منوعة من عرب وترك وفرس وهنود وداغستان وقزاق وافغنستان ومغاربة وبربر وسودان وجاوى وغير ذلك من أمم البشر كلهم على دين واحد ومقصد واحد وهو طلب الغفران من الرحيم الرحمن ، ومن حكم الأفعال التى يكلفون فى اجرائها فى تلك الاماكن تذكار ماجرى لرسل الله المكرمين وعباده الصالحين فى تلك البقاع المشرفة كتذكار ماجرى لسيدنا آدم أبى البشر وزوجته حواء عليهما السلام هناك بعد هبوطهما من الجنة وما الهمهما الله تعالى من الالتجاء اليه حتى تاب عليهما ، وكتذكار ماجرى أيضا هناك لسيدنا

---

(١) تتبارى الامم فى مضمار الحياة فتعلو امة امة أخرى وتحرز قصب السبق عليها حتى تشرأب نحوها الاعناق وتطمح اليها الابصار وتنقطع دونها الامانى والآمال بما تنتجه من ثمار القرائح فى العلوم والفنون والآداب وما تخلفه من آثار شاهدة بعظمتها ناطقة بلسان حالها عن خطير فعالها وليست تبلغ هذه المرتبة وتتسنم ذروة ذلك الشرف الا بمقدار مايتاح لها من اجتماع الكلمة وانتظام السلطان واطراد الالفة والوداد فى قلوب أبنائها ، لذلك نرى الدين الاسلامى حريصا الحرص كله على أن يجعل كلمة المسلمين واحدة مهما اختلفت السنتها وتجافت أمصارها وان ينشىء منهم صفا واحدا لا تلين قناته ولا تفل صفاته *

وآية ذلك ماشرع للمسلمين من فريضة الحج ونحوها فترى المسلمين ينسلون من كل حدب وصوب ويجتمعون فى صعيد واحد لغاية واحدة لا يزيدهم تنائى الديار الا قربا ولا تجافى الامصار الا حبا

ابراهيم الخليل وولده اسماعيل عليهما السلام والسيدة هاجر عليها الرضوان مما يدل على ما لهم من الاطاعة لمولاهم والصبر على ما به ابتلاهم فلم يحيدوا عن كل ما يستوجب رضاه وناهيك ما ابتلى به سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام من أمره بذبح ولده وثمرة كبده فاطاع ذلك الوالد الشفوق ورضخ للحكم ذلك الولد البار مسلما بازهاق روحه وسكنى ضريحه . وطرد الشيطان عنه لما حاول أن يوسوس فى وادى منى فباء ذلك اللعين بالخسران فانعم الله على الوالد والولد بالفداء وأبدل حزنهما بالهناء الى غير ذلك من الأعمال المرضية من أولئك الكاملين وما أنعم عليهم رب العالمين فبتذكار أعمال أولئك الاخيار وبمحا كاتها فى تلك الديار تنبعث الأنفس لتذكار بقية أفعالهم وعاداتهم وسجاياهم واطاعتهم لمولاهم فتشتاق للاقتداء بهم والتخلق باخلاقهم فى كل مرضى لخلاقهم . وترغب فى الثناء عليهم والدعاء لهم على ما سنوا وشرعوا من الأعمال المرضية وما هدوا اليه من سبيل التوبة وطرق الانابة ومكارم الأخلاق من الصبر والرضى والتسليم والآداب مع رب الأرباب . ثم ان أعمال الحج فضلا عن التذكار موضوعة على وضع عجيب وترتيب غريب فيه التنزل من حضرة الحق تعالى لافكار البشر وعقولهم والمراعاة لما الفوه من العوائد مع ملوكهم وأمرائهم عند ما يرفعون اليهم شكواهم ويلتجئون إلى حماهم ممن سطا عليهم وأذاهم وحينما يطلبون احساناتهم وادرار انعاماتهم وبذلك التنزل تطمئن نفوس الحجاج عندما يجرون تلك الاعمال التى وعدهم الله تعالى عليها الغفران بأن الله تعالى يغيثهم من جيوش ذنوبهم وعاديات سيئاتهم ويقبل شكواهم ويتفضل عليهم بنوال مناهم ، وبيان ذلك أن البشر اعتادوا على أنه اذا دهمهم عدوهم وعجزوا عن مقاومته او جارت عليهم حوادث الزمان من قحط وجدب وأعوزهم

طلب معاشهم التجئوا الى منازل ملوكهم فوردوا عليها شعثا غبرا حفاة
عراة على قدر ما أثرت بهم الحوادث مستغيثين ضارعين محترمين فى طريقهم
كل ما ينسب إلى ملوكهم ومنازلهم من خدم وحشم وغير ذلك حتى الحيوانات
والنباتات فعند وصولهم إلى تلك المنازل يأخذون فى الطواف حولها
والتردد على أبوابها حتى يؤذن لهم بالدخول على الملك والتمثل بين يديه وبث
الشكوى اليه متوسلين اليه بأكرم الوسائط منوهين بالثناء عليه وذكر ماله
عليهم وعلى أسلافهم من عظيم الاحسان والرحمة والشفقة يعم بذلك قاصيهم
ودانيهم واذا سمح لهم بتقبيل يده قبلوها بكل رغبة وأدب ووجدوا أن ذلك
من علامة قبولهم ونوال مأمولهم وبعد ذلك يعدهم الملك باجابة دعاهم ودفع
بلواهم، ولاجل تمكين ولائهم لسلطانه وتثبيت عبوديتهم لعظمته وتطمين
نفوسهم بأنه من عادته اغاثة رعاياه والاحسان اليهم فيذكرهم بما أجراه مع
آبائهم وأسلافهم عندما وردوا قديما الى أبوابه واستغاثوا بجنابه وأجروا هناك
فى حضرته خدما وأدر عليهم نعما فيأمرهم بمباشرة تلك الخدم التى سلفت
من آبائهم فى حضرته وباجرائهم تلك الخدم تنطبع نفوسهم على العبودية
له والولاء لجنابه كما هى العادة من ألفة النفوس للجرى على سنن الآباء
والتخلق باخلاقهم، ثم بعد ادائهم تلك الخدم ينزلهم فى منزلة الضيافة ويدر
عليهم انعاماته الوافرة ويزيل شعثهم ويخلع عليهم الخلع، ثم يقومون
ببابه ويتوسلون اليه بنجاز وعده الكريم بالاغاثة مما دهمهم فتصدر أوامره
بذلك ويغيثهم من اعدائهم ويدفع عنهم أسباب أذاهم ويبلغهم مطلوبهم
ويمنحهم مرغوبهم ويأذن لهم بالرجوع الى أوطانهم ومساكن خلانهم
فيعودون للتشرف بمنزله العظيم للقيام بما عليهم من الثناء والتعظيم، ويقبلون
يده الكريمة ويفارقون حضرته ودموعهم من ألم الفراق ديمة،

فالله سبحانه فى تنزله لعقول البشر ومجاراتهم على ما اعتادوا عليه مع ملوكهم عند الالتجاء اليهم من مصائبهم خصص بقعة من الارض وفضلها وسماها بيته — وهى الكعبة المكرمة — وهو سبحانه منزه عن المكان وغنى عن البيت ، وسمى حجرا اسود فى أحد أركانها يمينه — وكلتا يديه يمين — ويداه ليست كأيدى الخلق بل هما على مايعلمه ووصف به نفسه ، وشرع سبحانه فى الشريعة المحمدية لاتباعها حيث لابد أن تدهمهم جيوش الذنوب وتجور عليهم عاديات الخطايا ويفتقروا الى احسانات الحق تعالى أن يرد المستطيعون منهم الى ذلك البيت شعثا غبرا تاركين لبس المخيط هاجرين الطيب وتنعمات تطيب كاشفين رءوسهم مستغيثين بربهم من ذنوبهم وخطاياهم ضارعين اليه بنوال مناهم محترمين حمى ذلك البيت لا يقطعون حشيشه ولا أشجاره ولا يقتلون وحشه ولا أطياره حتى اذا بلغوا ذلك البيت المعظم والمنزل المكرم طافوا حوله طواف المستغيث وتشبثوا باستاره تشبث المستجير ، ثم قبلوا ذلك الحجر المبارك المسمى يمين الله تعالى مع اعتقادهم أنه حجر لاينفع ولا يضر وانما الضار النافع (١) هو الله

---

(١) من الاصول الجليلة التى ارتفع عليها بناء الاسلام وتهدلت عنها أغصان دوحته الوارفة التى أظلت المشرقين وأفاءت المغربين أن يعتقد « المسلم » ان كل مايصيبه من خير أو شر وما يناله من نفع أو ضر انما هو من الله سبحانه وتعالى صادر عنه وحده جل شأنه بمحض الارادة والاختيار ، ولقد وجدت هذه العقيدة الراسخة من قلوب المسلمين الطاهرة ونفوسهم الصافية تربة صالحة لبذور الخير والفضيلة فنبتت نباتا حسنا وأثمرت ثمرا يانعا يملأ الكون فخرا واعجابا »

ومن آيات ذلك أن ترى المسلم الذى امتلأ قلبه ايمانا بالله وثقة بحسن عقباه تحدق به الاخطار وتنزل بساحته الاهوال وتأخذه ذات اليمين وذات الشمال فلا تهن عزائمه ولا تطير نفسه شعاعا بل لايزيده مراس الحوادث وصراع الكوارث إلا ايمانا وتسليما وثقة ورجاء

كما قال عمر بن الخطاب عندما قبله ما معناه: انى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولو أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك تنبيها منه رضى الله عنه للافكار على حقيقة الاعتقاد فى شريعة المختار ه

ثم بعد ذلك ينصرفون الى أعمال هناك عديدة (١) هى تذكار لاعمال أسلافهم المتقدمين من سيدنا آدم وزوجه حواء والسيد الخليل وولده اسماعيل وأمه هاجر عليهم السلام من نحو السعى بين الصفا والمروة والوقوف فى عرفة ثم فى مزدلفة ثم النزول لمنى ورمى الجمار الممثل اخزاء الشيطان عندما تعرض لولد خليل الرحمن إلى غير ذلك من الأعمال التى من جهل أسرارها من ذلك التذكار والاقتداء فى الخدمة بأولئك الأبرار اضطربت افكاره لطلب حكمتها والسؤال عن فائدتها ، ومن فهم ذلك باشرها مطمئن القلب منشرح الصدر راغبا فى حصول ثمراتها متشوقا الى الفوز بفوائدها فى ميقاتها فايجاب الحق تعالى على الحجاج تلك الاعمال بعد وصولهم للكعبة المكرمة والطواف بها الطواف الأول هو بمنزلة صرف الملك رعاياه المستغيثين به إلى أداء الخدم التى باشرها أسلافهم فى حضرته لأجل تثبيت عبوديتهم وولائهم وطبع نفوسهم

---

(١) ان للاسلام فى سياسة النفوس ورياضة الاخلاق والطبائع أساليب حكيمة ومسالك رشيدة وأحكاما عجيبا وتدبيرا غريبا فهو كالطبيب الماهر والنطاسى البارع يضع يده على الداء ويصف له أحسن الدواء ، ولقد مضت سنته المثلى أن يقص على المسلمين أحسن القصص وأبلغ العبر مما جرت به الاقدار واختلف فيه الليل والنهار من أحوال الانبياء والمرسلين مع أممهم الخالية وقبائلهم الماضية ليكون لهم فى ذلك ذكرى تأخذ بمجامع القلوب فلا تزل قدم بعد ثبوتها ولا تجمح نفس بعد رسوخها الى سبيل الرشد ومحجة القصد ولقد تدرج فى هذا الباب فبلغ من ذلك الغاية وأتى بما لا يتصوره عقل حكيم ولا يخطر على قلب فيلسوف فشرع فى عبادة الحج للمسلمين أعمالا تضاهى أعمال الرسل وصالحى المؤمنين وبذلك تنطبع فى نفوسهم الذكرى ولا تمحى من لوح خيالهم الموعظة والعبرة ه

على التخلق بأخلاق آبائهم ، فالحجاج فى تلك الأعمال التى يجرونها فى تلك الاماكن المكية تتمكن من نفوسهم العبودية لرب البرية جريا على سنن آبائهم الأخيار وساداتهم الأطهار ، ولقد سميت تلك الأعمال تعبدية لا لأنها خالية عن الحكم والأسرار بل لأنها بظواهرها يكون الآتى بها كالممتثل أمر مولاه بغير منفعة تغشاه تعبدا واطاعة على أنه لو فرض خلوها عن الحكم فالامتثال بادائها يشف عن غاية الخضوع والعبودية لله تعالى كأن لسان حال العبد يقول عند أدائها يارب انى أمتثل ماتأمرنى به وان لم تظهر له ثمرة خضوعا لعظيم سلطانك وتعظيما لعلو شأنك، وهذا شأن العبد المطيع يمتثل الامر ولا يسأل عن الحكمة والسر ، وهذه الحالة هى المقصد الأعلى والمقام الأسنى الذى تبتغيه الشريعة المحمدية لاتباعها فى جانب مولاهم جل وعلا وهو الحال الذى يعده صاحب هذه الشريعة عليه السلام من أشرف أوصافه وأكمل نعوته ويقول ما معناه : انى عبد أجلس كما يجلس العبد، ونهى عن الاطراء فى مدحه فقال ما معناه باختصار : لا تطرونى ولكن قولوا عبدالله ورسوله ، وقد وصفه ربه بوصف العبودية فى أشرف مقام ذكره فيه فقال تعالى : (سبحان الذى اسرى بعبده) فكان له فى ذلك أكمل المبرة وأوفر المسرة . ومن هنا يتبين للعاقل اللبيب سقوط ماينسب لبعض الأغرار كالمعرى من الشعر الذى قاله فى أعمال الحج المذكورة فانه لو ثبت عنه لسلبه اسم العاقل فضلا عن الفيلسوف الذى لايخفى عليه حكم الشرائع وأسرارها .

ثم بعد أداء الحجاج تلك الخدم ينزلون فى دار ضيافة مولاهم بوادى منى ويزيلون شعثهم فيلبسون الثياب ويتمتعون بالاطياب ويزيلون زوائد الشعور ويستبيحون جميع ما كان فى تنعمهم من المحظور

ويقضون أيام العيد السعيد بأكل وشرب وتضحية الضحايا التى تملأ لحومها الاودية والجبال ويشبع منها الوحوش والأطيار فضلا عن الفقراء ذوى الاضطرار فهنالك ضيافة الحق تعالى إذ هو الرزاق وصاحب الملك الحقيقى والاموال بايدى الخلق بطريق العارية لامالك سواه ، ولهذا حرم صيام يوم العيد لأن صيامه اعراض عن ضيافة الله تعالى ثم بعد تمام تلك الخدم وقضاء الوطر من تلك الضيافة المباركة يرجعون للطواف بالبيت المعظم وهو كطلب اكمال التفضل بالاحسان ونوال الغفران والغوث من جيوش الذنوب وعوادى العصيان وكطلب الاستئذان بالرجوع الى الاوطان وعند ذلك يأذن لهم بالرجوع الى أوطانهم وهذا الاذن هو عنوان الاجابة وقبول التوبة والانابة والتفضل عليهم والاحسان بالرحمة والغفران واغاثتهم من عوادى العصيان كما بشرهم بذلك رسولهم ﷺ فيوجهون العزم الى الانصراف الى ديارهم وعندهم أنهم قد نالوا المنى وزال عنهم العنا لكنهم قبيل المسير ينعطفون لوداع البيت المعظم ويطوفون به طواف الوداع وأداء الشكر لما وجدوه من النعم فى تلك البقاع ويفارقونه ودموعهم منسكبة وأفئدتهم للفراق مضطربة شاكرين مولاهم على ما أولاهم داعين من هداهم بكمال مناهم راجعين القهقرى وعليهم من أسف الفراق ما يذهب بالكرى ، ثم عند ورودهم بلادهم تمتلىء قلوبهم بالفرح الابدى (الذى ذكر فى المزامير) لما نالوه من نعم الغفران والاحسان والامان من عادية العصيان ؛ ولو أردنا أن نستقصى جميع أسرار الحج المندرجة فى مفردات أعماله لاستغرق ذلك مجلدات وضاقت عن مطالعته الأوقات ، فما ذكر شذرة من عقد نحر ونقطة من ماء بحر ، والله الهادى الى سواء السبيل *

ثم نظر اولئك الطائفة فوجدوا أن الشريعة المحمدية أوجبت على

أتباعها قتال من خالفهم فى الدين عند سنوح الفرصة ليدينوا بدينهم أو يخضعوا لسلطانهم وتسمى ذلك القتال جهادا (١) وقد أجرته على موجب العدل كما قيل عن محمد عليه السلام فى الكتب السالفة انه يحارب بالعدل فنهت عن قتل الصغير والمرأة والهرم والمنعزل لما يعتقده عبادة إلا اذا كان أحد هؤلاء مشتركا فى الحرب أو فى تدبيرها ، والقصد من ذلك الجهاد إعلاء كلمة الله تعالى وهداية المخالفين لذلك الدين حتى إذا دخلوا فيه ساواهم المسلمون فى جميع الشؤون والحقوق والأحوال لا يميز فى جميع ذلك عربى على عجمى بل الكل اخوان متناصرون وكل فرد منهم بالنسبة لبقية اخوانه المحمديين كالعضو الواحد من الجسد اذا تألم اشتكى له الجسد كله ، وذمتهم واحدة ومقصدهم واحد وهو توحيد الله تعالى وأفراده بالعبادة وطلب رضاه وإذا

---

(١) بزغ فجر الاسلام فى مكة وانبثق نوره من أرجائها ومازال يعلو رويداً رويداً وينتشر قليلا قليلا حتى عم ضياؤه وسطعت شمسه فى سائر الافاق ، وهنا يدعى اعلون بم انتشر الاسلام وسطعت شمسه وأشرقت سماؤه ولا أخالهم الا ظانين ان الاسلام إنما قام بالسيف وانتشر بين الامم بالاكراه والغلبة وهم فى ذلك يخطئون خطأ كبيراً ويجنون على الحقيقة ويكابرون العدل والانصاف

ألا فليعلموا وليعلما ينفذ الى صميم أفئدتهم ويتغلغل فى سويداء قلوبهم أن الاسلام ما قام الا بالدعوة وما قارع الا بالحجة والبرهان وما انتشر الا بمحض الرغبة والاختيار وما شرع الجهاد الا لحماية الدعوة وحسما لمادة الفتنة وقطعا لدابر البغى والفساد ودفعا لاعتداء المعتدين على الحق واهله الى ان يأمن الاسلام شرهم ويضمن السلامة من غوائلهم *

اوليس الاسلام هو الذى يقرر بقول جلاء ان (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى * وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) اى ورب ولكنها الاهواء تعمى وتصم هدانا الله سواء السبيل *

لم يهتد أولئك المخالفون لارغبة ولا رهبة قاتلهم المسلمون حتى يرضخوا لاحكامهم فيحكمون عليهم بما يعود على الهيئة الاسلامية بالنفع ودفع المضرة ويدخلونهم فى ذمتهم بمعنى أنهم يحافظون على دمائهم وأموالهم وأعراضهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ويتركونهم وما يدينون ويفوضون حسابهم فى الآخرة الى الله تعالى ، فهذا الجهاد لو قيس بالجهاد الذى ينسب لبعض الشرائع السابقة لوجد انه قد احتوى على تخفيفات كثيرة قد خلت عنها تلك الشرائع لأن الشريعة المحمدية لم تأمر باستئصال جميع الاعداء حتى الاطفال الصغار كما كان فى تلك الشرائع ومن يعلم أحكام الشريعتين فى الجهاد يظهر له الفرق ويحكم بان جهاد الشريعة المحمدية فى غاية العدل (١) *

وهكذا تلك الطائفة استقصت عبادات شريعة محمد ﷺ جميعها فوجدتها على أتم مايرام من كونها أعمالا مشتملة على تعظيم الخالق ورحمة المخلوق

---

(١) حسبنا فى هذا المقام ان نسوق وصية أول خليفة فى الاسلام رضى الله عنه لجيش أسامة حينما اراد انفاذه الى الشام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وهى

لاتخونوا ولاتغدروا ولاتغلوا ولاتمثلوا ولاتقتلوا طفلا ولاشيخا كبيرا ولاامرأة ولاتعقروا نخلا وتحرقوه ولاتقطعوا شجرة مثمرة ولاتذبحوا شاة ولابقرة ولابعيرا الالمأكل ، وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له وسوف تقدمون على قوم فحصوا اوساط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا * وأين هذا مما فعلته الامم الاوربية ولايزال الى يومنا هذا تفعله مع المسلمين مما يقطع نياط القلوب ويستنزف ماء الشؤون . الم تنشر الصحف السيارة ان جنود ايطاليا فى حربهم مع عرب طرابلس كانوا يحملون العرب بالطيارات الى بعد شاسع ويلقونهم منها على الارض ولربما تلقونه بالسلاح الماضى فلايصل الى الارض الا وهو شهيد الوطنية دع ما يفعلونه بالنساء والشيوخ والاطفال من التمثيل وخطفهم من ثدى امهاتهم ١٢

ومنافعها عائدة الى المتعبد لا الى المعبود لأن الحق تعالى لا يناله نفع من خلقه إذ هو الغنى المطلق عن كل ماسواه ٭

ثم تأمل هؤلاء الطائفة فى أحكام هذه الشريعة وماسنته من الضوابط الكلية لتأمين ذوى الحقوق على حقوقهم ودفع التعديات من الأشرار وذوى الاطماع على أحد من الأمة أو أهل الذمة فوجدوا ذلك على أكمل وجه وأقوم سبيل ٭

وكذلك وجدوها قد سنت أحكام الزوجية على أكمل نظام (١) فبينت حقوق الزوجين على بعضهما عند الاجتماع وعند إرادة الافتراق وأجازت لهما الافتراق لدفع ماعسى أن يحصل عليهما من الضرر أن منعا منه من نحو النفور الشديد لأسباب كثيرة مشاهدة بين كثير من الأزواج ومن ارتكاب الزنا والوقوع فى الديانة إذا غلبت الشهوة على أحدهما مع نفوره من الآخر ومن حرمان النسل لأحدهما إذا كان العقم من الآخر وجعلت سلطة الفراق بيد الرجل لتميزه عن المرأة بالتثبت وسعة البال ووفور تحمل الأثقال يعلم ذلك من سبر أخلاق النساء والرجال ولأن الرجل هو المكلف بالانفاق على المراة فلا يسمح بفراقها وضياع ما أنفقه إلا إذا اضطر غاية الاضطرار ولا عبرة بمن يشذ من الحمقاء الاغرار وفرضت على الزوج النفقة لأنه أقدر على الكسب من المرأة بحسب تركيب بنيته وقبوله لتجشم أعباء المكاسب واستحسنت لها القيام بمصالح البيت الداخلية وتربية الأولاد كما على الزوج أن يسعى فى مصالحه الخارجية

---

(١) جاء الاسلام ليتمم مكارم الاخلاق ويحيى من سنن الفضيلة دارسها ومن اعلام الهداية طامسها ولما كان الزواج بالمحل الاسمى والمقام الاعلى والمنزلة التى لا تبارى من منازل العفاف والشرف فقد احكم الاسلام عقد أواصره ومشتبك وشائجه بما يضمن

وحيث اصبحت بذلك غير مضطرة للخروج من بيتها وهى محل الشهوة ومطمح نظر الرجال ، فلاجل سد باب الفتنة وكف دواعى الزنا الممقوت شرعا وعقلا امرتها بالحجاب (١) والستر وكان ذلك من اشرف نعوتها واكرم مفاخرها تتباهى به كلما استكمل فيها فالحجاب صيانة ومحافظة عليها كالشيء النفيس الذى يضن به على الانظار ويحجب بالحجب والاستار وليس هو كما يظن بعض الجهلاء أنه لظن السوء بها فان ذلك يقال : لو امرت بكف بصرها عن رؤية الرجال فى كل حال وامرت الرجال بالحجاب عن النساء. وليس ايضا كما يزعم بعض الاغبياء ان حجابها هو حبس وتضييق عليها وملاشاة لحريتها فان المرأة المسلمة تشب على الحجاب من أول نشأتها وتألفه من بادى فطرتها فتجده كاللازم لطبيعتها وتعتاده اعتيادا محبوبا مألوفا وتعير من يتساهل فيه من النساء وتنسبهن للطيش والوقاحة وقلة الحياء على انها تقبله بانه حكم الشريعة الالهية فترجو به الثواب ونوال الاجر من الملك الوهاب ؛ فكيف بعد جميع ما ذكر يقال : ان المرأة فى الشريعة المحمدية

للاسرة المسلمة السعادة والهناءة ويجعل منها دعامة راجحة من دعائم الأمه وعضوا حيا من اعضاء المجتمع الانسانى ۞

(١) ما اجل حكمة الاسلام وما اعظم مزيته وأجلى حجته واوضح محجته اذ يشرع لنساء المسلمين الحجاب وينهاهن ان يبدين زينتهن الا لبعولتهن ومحارمهن فهو بذلك انما حسم الداء واجتث اصول الشر ورأب متباين الصدع . لقد بلغ التهتك اليوم مبلغا عظيما يندى له وجه الفضيلة حياء وخجلا ويحمر له جبين العفاف والمروءة، وآلت الاخلاق الفاضلة ما لا تحمد عقباه ولا تطيب مغبته . وان اولى لكل ذى نفس ابيه وفؤاد شهم وشعور حى ودم طاهر ان تتخطفه الطير او تهوى به الريح فى مكان سحيق من ان يشهد مذبحا من مذابح الاعراض ومصرعا من مصارع الفضيلة والحياء ۞

حقا ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم اعظم الرسل وان دينه أعلى الاديان وان شريعته أكمل الشرائع على الاطلاق ۞

مظلومة او محبوسة حاشا لله ما عليها من الحيف ادنى شيء بمقتضى احكام هذه الشريعة والصواب ان يقال انها فى هذه الشريعة محفوظة مصونة من انظار الفسقة واميال الفجار والسنة السفهاء يغار عليها من مرور النسيم على انه لا يخلو الامر من وجود امرأة غير كاملة فى الآداب والتدين فبالحجاب لا ترتاب النفوس باماناتها على نسب ذريتها ولا يدخل الشك على زوجها فيعلم ان من تلده هو ولده مطمئن القلب لذلك ليس للشيطان عليه سبيل فى الوسوسة التى يتوصل اليها فيما لو كانت المرأة تخرج غير مستترة وتخالط الاجانب ومع ذلك كله فالشريعة المحمدية قد اجازت للمرأة الخروج لبعض امور ضرورية من زيارة ارحامها والتعلم لاحكام دينها اذا لم يعلمها الزوج ونحو ذلك مع التستر الذى يمنع نظار الفساق وتهيج النفوس المغتلمة للتعرض لها بما يشين العرض والدين والذى يحكم به العقل السليم الخالى عن التعصب الدنىء ان الحجاب للمرأة من احسن الاحكام وانفع الوسائل لصالح الزوج والمرأة بل لعموم الامة يقطع مادة الفساد من البلاد ومن هنا ترى البلاد التي تحتجب نساؤها لا يهتم رجال السياسة فيها بتخصيص اماكن للزوانى يردها الفساق لان شهوات فساقها غير مهيجة برؤية النساء ولا طامحة لمنازعة اهل العرض فى نسائهم واما البلاد التى لا تحتجب نساؤها فترى رجال السياسة فيها يرتكبون تخصيص اماكن للزوانى ولا يمنعون الفساق عنهن حتى صار والعياذ بالله تعالى الاولاد الغول يقاربون فى العدد اولاد النكاح هناك ويحتج اولئك السياسيون لارتكاب هذا الامر الفظيع بانه حصن للحرائر فلولا خشيتهم وخشية اهل العرض على نسائهم من منازعة الفساق الذين تهيج شهواتهم برؤية النساء المتبرجات وخوفهم ان يغلبوهم عليهن لما ارتكبوا ذلك الامر القبيح فياللعار ويا للشنار على أولئك السياسيين الذين يسوسون بلادهم

ويحصنون نساءهم باعمال البهائم ، فلو اخذوا بحجاب النساء لكان يغنيهم عن ذلك الامر الممقوت ، فقد ظهر ان خروج المرأة غير مستترة ضرر عظيم ولو سلم ان الحجاب ضرر عليها لكان عدمه اضر وارتكاب اخف الضررين هو الموافق للمعقول وللمنقول فما بالك وقد ظهر انه لاضرر عليها فى الحجاب كما يحكم به ذوو الالباب *

ثم نظر اولئك الطائفة فى أحكام المعاملات (١) فى الشريعة المحمدية من نحو البيع والشراء والاجارة والشركة والمداينة وقسمة التركات على طريق الحكمة من ترجيح من هو اشد حاجة وامس قرابة وادخل فى التناصر فظهر لهم ان جميع ذلك موضوع على اكمل نظام واتم ترتيب من كل مايسير بهذه المعاملات فى منهج العدل ويرفع المنازعات *

ثم نظروا الى القصاصات والحدود والعقوبات والتعازير التى وضعتها تلك الشريعة لحفظ الأنفس والأموال والاعراض والعقول فوجدت

(١) لايسع الباحث المنصف الذى يجعل الحق قائده والعدل رائده والحكمة ضالته يلتقطها حيثما يجدها الا ان يخشع اجلالا للدين الاسلامى واكبارا لمامهد للانسانية من اسباب السعادة ووسائل الرقى والحضارة *

وان اول مايملأ قلبك روعة وجلالا ويشرح صدرك للاسلام ويملك عليك مشاعرك حينما تسرح نظرك فى انظمة الاسلام الخالدة واوضاعه العالية ان تراه قد عمد الى علاقة الانسان بخالقه فابدع نظامها واعلى منارها وابرز عبادة الانسان لربه من صلاة وصوم وحج ونحوها على وجه بديع وترتيب عجيب ، ثم عمد الى علاقة الانسان باخيه الانسان فقدرها احسن تقدير ودبرها اكمل تدبير فاحكم علاقة المرء بامه وابيه واخته واخيه وفصيلته التى تؤويه وتناول سائر المعاملات من بيع وشراء ورهن وخيار وشركة واجارة ونحوها فقرر اصولها وفصل فروعها بمايقر الناظر ويسر الخاطر *

وصفوة القول ان الاسلام دين عام خالد صالح لكل عصر يرشد الانسان الى ما فيه تمام السعادتين وكمال الحياتين *

جميع ذلك على وفق (١) الحكمة متكفلا بالصيانة والامن ، وكأنها والله اعلم تشير بذلك الى ما يأتى من الحكم، وبيانها ان من يعلم أنه اذا قتل غيره قتل به يمتنع عن قتله فيحيا الاثنان، ولذلك ورد أن فى القصاص حياة ، ومن يعلم أنه اذا سرق تقطع يده الخائنة يمتنع عن السرقة فيأمن كل ذى مال على ماله وما أحسن جواب بعضهم عن قول بعض الملحدين .

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت فى ربع دينار

وهو

عز الامانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة البارى

ولما كان الزنا مع ما فيه من القبائح هو قتل للولد الذى يتولد منه لأنه يكون عديم النسب فاقد النصرة من العشيرة وكثيرا ما يموت لعدم وجود من يربيه جعلت الشريعة جزاء الزانى اذا كان محصنا بالزواج القتل بالرجم حتى ترد العقوبة على كل عضو من أعضائه التذ بقضاء تلك الشهوة التى تعم الجسد ، واذا لم يكن محصنا عذرته بعض العذر فاكتفت بضربه مائة جلدة تفرق على اعضائه المشتركة بلذة تلك الشهوة الا ما كان من عضو يتولد بضربه الموت أو تشويه الخلقة وكانت الجلدات مائة إشارة إلى ان الولد الذى كان يمكن أن يتولد منه وقد تعرض لقتله بالزنا يجوز أن يعيش مائة سنة وهو العمر المتأهل له الانسان بحسب تركيب بنيته وبطوء نموه كما قاله بعض الأطباء ولكن

(١) فطر الله النفوس البشرية وجعلها لحكمة يعلمها جل شأنه وتقدست اسماؤه مستعدة لقبول الخير والشر متهيأة لاكتساب الكمال فترقى الى اعلى عليين والنقصان فتهوى الى اسفل سافلين ذلك ما طبعت عليه نفوس البشر وجفت به فى الازل اقلام القدر ، ولما كان الاسلام انما جاء لهداية النفوس الى سبل الخير وسنن الرشاد حتى يصفو عنصرها ويخلص جوهرها كان من باهر حكمته ان شرع للناس من الحدود والعقوبات ما يضمن للنفوس سلامتها والاعراض صيانتها والاموال حفظها على اربابها ووضعها فى نصابها اهـ

تعرض عليه أسباب الموت من حوادث المعيشة فيموت باجله الذى قدر له قبل بلوغ تلك المدة وقد تكون هى أجله المقدر فيبلغها فكأنه جعل فى مقابلة كل سنة متأهل ذلك الولد أن يعيشها جلدة لذلك الزانى الذى أضاعه ، ثم لما كان الانسان متأهلا أن يعيش المائة ، ومن المعلوم أن عقله قبل بلوغه خمس عشرة سنة سن البلوغ غالبا فى أول عمره لا يكون معتبرا فى التكاليف الشرعية لعدم كماله كما انه يضعف جدا فى آخر عمره بمعدل خمس سنوات لو عاش المائة فيكون عقله المعتبر الكامل القوى متوفرا له مدة ثمانين سنة فاذا تعرض لاخلاله بشرب الخمر الذى يعرضه للذهاب أو الضعف وهو أكبر نعمة يعطاها الانسان بعد الايمان تحكم عليه الشريعة بضرب ثمانين جلدة فكأنها جعلت فى مقابلة كل سنة من السنين التى تتوفر فيها نعمة العقل جلدة واحدة وتشير اليه بذلك العدد بان النعمة التى تتوفر عليك أيها الشارب للخمر فى تلك المدة قد تعرضت لزوالها فلذلك جوزيت بهذا الجلد. ثم ان الانسان قبل سن بلوغه وهو خمس عشرة سنة لم يكن مكلفا فلا يشان فى أمر العرض كما يشان البالغ فى السنين الخمس الاخيرة من عمره فيما لو بلغ العمر المتاهل له وهو المائة نظرا لانحطاط شهوته وقواه فلما ترتاب فيه النفوس فى أمر الفاحشة فيستبعد ان يشان فى عرضه ايضا فى تلك المدة غالبا فبقيت مدة كمال المحافظة على شرف العرض هى ثمانون سنة من عمر الانسان الذى هو متاهل أن يعيشه ، فلذلك جعلت الشريعة حد من يقذف غيره فى شان العرض ثمانين جلدة كأنها تشير بذلك العدد الى المدة التى يكمل فيها محافظة المرء على عرضه وكأنها تقول للقاذف انك تعرضت لشين عرض المقذوف الذى تكمل محافظته عليه فى تلك المدة من عمره فجوزيت بذلك الجلد بمقابلة كل سنة بجلدة ، ثم ان الشرائع المتقدمة على الشريعة المحمدية بعضها حكم بالقصاص

فى القتل وبعضها حكم بالعفو، والشريعة المحمدية جمعت بين الحكمين فاجازت لولى المقتول أن يقتص من القاتل او يعفو ورغبته بالعفو بانه اقرب للتقوى ، وهكذا تراها فى كثير من الاحكام جمعت ماتفرق فى الشرائع المتقدمة ولخصت زبدها وما ذاك إلا لأنها خاتمة الشرائع فجعلها الله جامعة لمحاسنها، ثم نظر هؤلاء الطائفة الى الآداب التى جاءت بها الشريعة المحمدية فوجدتها مكملة فى كل باب فقد استوفت آداب الاكل وآداب الشرب. وآداب المنام. وآداب الكلام وآداب الجماع. وآداب قضاء الحاجة. وآداب المجالسة. وآداب الحضر. وآداب السفر وآداب الزوجية وآداب ذوى الارحام مع بعضهم وآداب الجيران وآداب الأصحاب وآداب جميع المسلمين مع بعضهم وآدابهم مع أهل ذمتهم الى غير ذلك مما يعرف من البحث والتمعن فى تلك الشريعة ، ثم أخذ هؤلاء الطائفة فى انتقاد سياسة محمد صلى الله عليه وسلم والبحث عما اذا كان يأمر بشىء يعود عليه أو على ذريته بصالح خصوصى أم لا فبعد التنقير والبحث عن ذلك بكل دقة لم يجدوا منه عليه السلام أمرا ولا فى شريعته حكما يترتب عليه صالح خصوصى له أو لذريته وما كان ظاهره ذلك تبين لهم بعد التدقيق أن باطنه مبنى على حكم تعود بصالح العموم مثلا الصفى الذى كان يأخذه من الغنيمة قبل قسمتها انما يخصص به نفسه ظاهرا فى أول الامر تنويها بمنصب رياسته ، وهذا معهود مألوف بين الاتباع والمتبوع وهو مما يمثل فى النفوس عظمة المتبوع وأبهته وهو مقصود من مقاصد سياسة البشر، ثم آخر الأمر كان عليه السلام يصرفه فى حوائج الفقراء فكان اظهار اختصاصه به أولا لتحصيل تلك الابهة للرياسه ولكف ايدى الاغنياء عنه وإيصاله للفقراء وتوسعهم به على وجه لا يجعل فى نفوس الاغنياء ضغينة على الفقراء بترجيحهم عليهم وانفاقه ذلك ، بل جميع ما كان يرد عليه على

الفقراء والمساكين الاقدر الكفاف له ولعياله أمر أمتواتر عنه حتى خرج من الدنيا ولم يورث عياله درهما ولا ديناراً بل انفق فى الصدقة كل منقول ووقف فى سبيل الله ما كان له من عقار ، وقد ساوى بين عياله وعيال أصحابه فى النفقة الضرورية من خزينة المسلمين ولم يوص بالخلافة عنه لأحد من ذريته وانما فوض ذلك لرأى المسلمين ولو شاء أن ينص على ذلك لما خالفه فى ذلك مخالف إلى آخر الدهر، وأعظم من ذلك كله انه لم يزل يوصى اهله وجميع اصحابه بالتحرز من ولاية الاحكام والغرور بمناصب الدنيا وزخارفها *

ثم ظهر لهؤلاء الطائفة أنه عليه السلام مادام رسول الله ومعصوما من الظلم والجور وقادرا على العدل بين الزوجات مهما كثرن فقد أباحت له شريعته أن يتزوج منهن ماشاء من العدد (١) كما كانت الرسل قبله كداود وسليمان وغيرهما عليهم السلام ، ولكن لما كان من شأن البشر غير الرسل العجز عن العدل بين الزوجات متى كثرت حجرت شريعته

---

(١) ليس بخاف على كل ذى بصيرة ما لتعدد ازواجه الطاهرات صلى الله عليه وسلم من سر جليل وحكمة باهرة تنقطع معها ألسنة اولئك المتمرسين الذين يخوضون فى هذا الحديث على غير هدى ولا كتاب منير ، وان تعجب فعجب ان يغيب عن هؤلاء ما للمصاهرة من أثر كبير فى تأليف القلوب النافرة واستمالة النفوس المتألبة وحقن الدماء ودفع العداوة والبغضاء *

ولقد نعلم ان الحيين من احياء العرب ربما كانت تغلى فى قلوبهم مراجل العداوة وتلتهب نار البغضاء ثم لا تلبث ان تنعقد بينهم أواصر المصاهرة وتشتبك وشائج القرابة فتندمل الجراح وتموت الاضغان وتذهب بالاحقاد فاذا هما بعد ذلك اخوا صفاء وسلما لاوفاء وقريبا خلة ورضيعا اخوة ، ولعلك بعد الذى قلناه آنست قبسا من ضياء الحقيقة وشعاعا من اشعة تلك الحكمة فتكون ممن يسعى نورهم بين ايديهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا

تزويج اتباعه فوق الاربع ، وكأنها والله أعلم أباحت لهم أصل تعدد الزوجات لأن الذكور فى معرض النقص عن عدد النساء لتعرضهم لمخاطر الاسفار والحروب ومشاق الارتزاق فلو منعوا من التعدد لبقى العدد الزائد من النساء معطلات عن النسل ، ثم ان الرجل مستعد لاداء النسل من سن بلوغه الى آخر عمره ولو عاش مائة سنة والمرأة تيأس من سن الخمسين أو الخمس والخمسين بقطع مادة الحيض وفقد البزور من مبيضها لطفا من الله تعالى بها حيث أن الحمل والولادة والارضاع تضعف قوتها فمقدار استعدادها للنسل من سن البلوغ الى سن الاياس خمس وثلاثون سنة غالبا فلو منع الرجل من التعدد لربما عطلت المرأة عليه أداء نسله مقدارآ عظيما من عمره فاباحة التعدد له تخلصه من غائلة هذا التعطيل ، ومن هنا يظهر سر جواز الطلاق حتى لا تتعطل عليه مدة من استعداده للتناسل فيما لو أيست زوجته أو كانت عقيما وهو لم يقدر على التعدد فيستبدل بزوجته غيرها وان كان العقم منه لا يتعطل عليها نسلها ـ وقد مرت حكمة كون الطلاق بيد الزوج فارجع اليها ـ وكأن حكمة حصر التعدد بالاربع لمقابلة كل واحد بنوع من أنواع المكاسب التى يرتزق منها الانسان وينفق على زوجته وهى التجارة والصناعة والفلاحة والامارة وقد تكون احداها وافرة فتقوم مقام البقية وشرطت فى الأربع العدل أيضا حتى لو خاف الرجل الجور بين اثنتين تحظر عليه الجمع بينهما وتبيح له الواحدة ولو خاف الجور على الواحدة بنحو ظلمها أو عجزه أو قصور يده عن الانفاق عليها تحجر عليه أن يتزوج الواحدة أيضا ، ولما كانت الرقيقات بجاوبات البلاد ليس فيها ذكور بمقابلتهن لعدم تمكن الأرقاء من نكاحهن لشغلهم بالخدمة أباحت للمالكين لهن التسرى بما فوق الأربع منهن لئلا يتعطل نسلهن ولم تبح للمملوك أن يصير زوجا لمالكته لأن ملكها له يقتضى ولايتها

وتسلطها عليه وصيرورته زوجا لها يقتضي ولايته وتسلطه عليها وذلك من التناقض السياسي في المعاشرة بمكان يقتضي عدم انتظام أمر الراحة والوفاق بينهما وهذا خلاف مقاصد هذه الشريعة العادلة ٭

ثم وجدوا أن شريعته عليه السلام قد حرمت نكاح أزواجه من بعده ولدى التدقيق ظهر لهم ان ذلك لحكم جليلة ٭

أولا تعظيم شأنه عليه السلام وتعظيم شأن الرسل بين أتباعهم أمر معهود في الشرائع المتقدمة ولزوم أدب معه وهو مستحسن أيضا فان الأنفس البشرية تأبى نكاح ازواجهم من بعدهم ولم تجعل لغيره هذه المراعاة من علماء الأمة وكبرائها لئلا يضيق امر التناسل ، ثانيا سد باب التداخل في أمر الخلافة من غير مستحقيها فانه لو أبيح تزوج أزواجه من بعده عليه السلام لكان من ينكح واحدة منهن ولو غير أهل للخلافة يستولي على نفوس العامة ويخدع عقولهم بان معي زوجة رسولكم ولي بذلك الحق في الخلافة والتقدم على غيري . ثم يسند اليها كل ما يروج مقاصده عند العامة الهمج كما شوهد نظير ذلك في تقلبات الدول ممن نكح نساء الملوك بعد موتهم واستند بذلك في التداخل في أمر الملك كما يعلم من التاريخ ، ثالثا لو أبيح ذلك لانفتح به باب الفتنة بين أتباعه من بعده لأن كل واحد منهم يرغب أن تكون معه زوجة رسوله يتبرك بقربها ويتيمن بذريتها ويحوز أسنى الشرف ويفاخر بذلك الاقران ويتعلم منها ما خفي على كثير من ذوي العرفان ، وبهذا يقع التغاير وتقوم الفتنة بينهم على قدم وساق فسدا لهذا الباب حجرت الشريعة هذا الامر على وجه الصواب ، رابعا لاشك أنه يلحق زوجاته عليه السلام بنكاح غيره من بعده ما يزري بمقامهن من انحطاط الرتبة والقدر وتسقط عظمتهن من قلوب الامة جميعا لأن المرأة التي كانت مع رسول الله ثم تقترن

بسواه ولو أنه أعظم رجال الأمة تكون كالمنحطة من الأوج الى الحضيض وبذلك تنفر منهن النفوس وترتاب بحديثهن لدخولهن تحت كنف من لم تجب له العصمة فيتخيل للعقول أنهن يجرين على هواه فى أقوالهن وأعمالهن ويروجن أفكاره بما ينقلن عن رسول الله ﷺ (حاشا حضراتهن من ذلك وانما هو شيء تتخيله العقول عند ذلك وترتاب من أجله) وحينئذ تفقد الامة ثمرات كثيرة من علومهن التى نقلنها عنه عليه السلام المفيدة لأحكام شرعية جليلة أخذت من أقواله وأفعاله بنقل تلك النساء المخالطات له فى أكله وشربه ونومه وجميع شؤنه فى خلواته ومباشرة نسائه الى غير ذلك وان غالب هذه الأحكام لاتعلم الا من جهتهن ولو اقترن بغيره من بعده لانحطت عظمتهن فى الأنفس كما قدمنا وضعفت الثقة باخبارهن كما قررنا ففاتت تلك العلوم كما أوضحنا إلى غير ذلك من الحكم والاسرار المنطوية تحت الحكم بذلك التحريم فضررهن الخاص بمنعهن من النكاح بعده عليه السلام لايقوم بمقابلة تلك الاضرار العامة فليس ذلك الحكم لغاية نفسية أو لأفكار منحطة دنية كما أوضحه البحث والتدقيق حاشاه عليه السلام من ذلك ماهذا الحكم إلا محض تشريع من الله تعالى لأسرار عالية وحكم سامية »

فلما تم انتقاد هؤلاء الطائفة لشريعة محمد ﷺ ولسياسته وظهر لهم جميع ماتقدم من حسن الانتظام وبدائع الحكم العظام قال بعضهم لبعض: الحق أحق أن يتبع لاشك ان ماجاء به محمد ﷺ هو شريعة من عند الله تعالى والا فان محمداً رجل أمى ناشيء بين الامة الجاهلية لم يفارق أوطانه الاأشهراً قلائل فى سفر قريب لاتصلح مدته لتحصيل أقل القليل من العلوم ولم يجتمع على أحد من أهل المعارف فى مدة حياته فى بلده ولم يعثر عليه انه عانى تعلم شيء من الشرائع أو قوانين الدول فمن أين له أن يستنبط عقله

هذا الترتيب الغريب العجيب الذى أحاط بكل حكمة باهرة واحتوى على كل خصلة حميدة فاخرة وتكفل بانتظام حال البشر وصالح أحوالهم وطهارة نفوسهم وعمار ديارهم وكف أشرارهم وبكل شىء يعود عليهم بالخير ويدفع عنهم الضير مع تلك العقائد فى حق رب البرية السالمة من كل خرافة ودنية وفى حق الرسل الاخيار هداة الأنام عليهم الصلاة والسلام؟ ولو كان محمد من أعقل الخلق وأحذق البشر وأكبر الفلاسفة وأعظم السياسيين العالمين بوضع نظامات الأمم لما صح فى العقل امكان التصديق باقتداره على الاحاطة بجميع ماجاء به إلا أن يكون مرسلا من جانب الله تعالى وهو الذى هداه الى جميع ذلك وأطلعه عليه وأفهمه أسراره وأمره بتبليغه فانا نرى أكبر الفلاسفة مهما بلغوا فى المعرفة والاحاطة فى الفنون انما ينبغون فى فن أو فنين فهذا جالينوس نبغ فى السياسة البشرية . وأرسطو فى الحكمة النظرية والآلهيات . وابقراط فى الطب. واقليدس فى الهندسة وفلان بكذا وفلان بكذا ، وأما ان واحدا منهم أحاط بكل فن أو بمعرفة كل ماهو صالح للبشر فهو شىء لم يكن البتة وأما محمد ﷺ فشريعته قد أحاطت بجميع ما يتكفل بخير البشر لم تغادر منه شيئا كما تقدم لنا بيانه ، فما كان أمس حاجة وأشد لزوما فصلته وشرحته على أكمل بيان وما كان أقل فى الاحتياج اليه وليس من الضروريات المعاشية أو التهذيبية رمزت اليه وأشارت الى طرق تعلمه من أربابه وسهلت السبيل اليه من نحو الفنون الحسابية والهندسية والصناعات ونحو ذلك يعلم هذا الأمر منها من اطلع عليها اطلاع الناقد البصير لا من نظر اليها بعين البغضاء أو لحظها بطرف العجلة وأطل على بعض مباحثها فظن أنه أحاط بها احاطة الجفون بالمقل وهو لعشر معشارها مافهم ولا عقل، فصدق هؤلاء الطائفة محمدا ﷺ فى جميع ماجاء به وآمنوا برسالته من عند الله وأصبحوا

من أشياعه الاخيار وأصحابه الأنصار *

أقول : ان هذه الطائفة قد فتحت باب الاستدلال على صدق (١) محمد صلى الله عليه وسلم يبقى مفتوحاً الى يوم القيام ، فلكل من كان يأتي بعد عصره الى آخر الزمان أن يستدل كما استدلت فيتضح له الطريق كما اتضح لها فاذا غاص في بحار هذه الشريعة المحمدية ونظر فيها نظر الناقد البصير المطلق من أسر الضمير عاد وهو بها مؤمن وبصدق صاحبها مستيقن ، ولقد اتسع ذلك الباب لمن جاء بعد الاعصر المديدة من بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم سيما من جاء بعد مرور ثلاثة عشر قرناً فانه فضلاً عن اتضاح الحق لديه بما في تلك الشريعة من المزايا الدالة على انها من عند الله يجد أنها لم تزل محفوظة الموارد مطردة القواعد لم تختل منها قاعدة فيحكم العقل بان هذه القاعدة لم تبق مناسبة لهذا الزمان ولم تتخلف ثمراتها ولم تطمس آياتها

---

(١) ليس برتاب كل من سرح نظره في سيرة هذا النبي الكريم وطالع تفاصيل حياته المجيدة واحاط علماً بما اشتملت عليه نفسه العالية من آداب تبهر العقول بجلالها وتأسر النفوس بجمالها في صحة نبوته وصدق رسالته . ولست احاول في هذه الكلمة الوجيزة ان اعدد الشواهد واقيم الدلائل الناطقة على صدق نبوته فقد بلغت تلك الادلة مبلغاً لا يأخذه الحصر ولا يلحق بغايته الفكر .

والذي اقوله ان للكنائس اثراً كبيراً في حجب ضياء الاسلام ان ينفذ الى قلوب كثير من الامم الغربية فقد ابرزت الاسلام بصور شتى مشوهة بما الفت من كتب ووضعته من اغان واناشيد .

وماذا عسى ان اقول في قوم اعمى التعصب ابصارهم وامات ضمائرهم واعبث الاهواء في عقولهم وقلوبهم فضلوا فلا يهتدون سبيلاً .

لقد بلغت بهم عداوتهم الشديدة للاسلام ورسول الرحمة والسلام ان زعموا هذا الرسول صنماً من ذهب وان المساجد الاسلامية معابد للأصنام مملوءة بالتماثيل والصور وهذا قليل من اسرافهم وبهتانهم وقد أضربنا صفحاً عن كثير من الترهات إجلالاً للعيون ان تقذى بقراءتها ولعلنا نكون الآن اكثر ايماناً واشد يقيناً بحاجة الاسلام الى رجال يضطلعون بكشف حقائقه وابراز حسناته في ذلك اجل خدمة للاسلام ونصيحة للمسلمين *

كما هو مسلم عند ذوى العقول السليمة من داء التعصب والاختبار أقوى دليل على ما نقول، ولو كانت من وضع البشر لاختلت وفسد نظامها كما تختل نظامات البشر بمقتضى اختلاف الزمان *

ولا يهولنك (١) ما يهذى به بعض الحمقاء حتى ممن ينتسب الى هذه الشريعة وهو فى الحقيقة مارق منها مروق السهم من الرمية قد طمس على بصيرته وعمى قلبه جاهل بحقيقة شأنها وعلو مكانها لم يعلم منها الا الاسم فتسول له نفسه الخاملة ويخيل له عقله الفاسد ان الزمان قد صار محتاجا لبعض قواعد خلاف قواعدها وضوابط خلاف ضوابطها وانها ما بقيت كافية لحاجة هذا الزمان فيلتجىء للاخذ ببعض قواعد لبعض الامم اما هى قاصرة المنفعة واهية الاحكام ان أسندت من جهة مالت من جهات، وأما هى فى الحقيقة من أصل قواعد تلك

---

(١) لقد كان لتأخر المسلمين فى العلوم والمعارف وتقاعسهم عن انشاء معاهد علمية اسلامية تساير روح العصر الحاضر فى دراسة العلوم الكونية والفنون الحديثة مع بقائها محتفظة بصبغتها الاسلامية وعلومها الدينية أسوأ الآثار فقد اخذ كثير من ابناء المسلمين يولون وجوههم شطر معاهد التبشير فتغذوهم بلبان الالحاد وتشرب قلوبهم البغض لدينهم الحنيف وتعمل جهدها على زلزلة عقائدهم واخلاء ضمائرها من كل عاطفة تتصل بالاسلام،

ولا اكون مغاليا اذا قلت ان امضى سلاح اشهرته أوربا على الاسلام هى هذه المدارس التى جعلت من اجل غاياتها ان تعمل على ايجاد هوة سحيقة بين المسلمين وبين الطبقة الناشئة من ابنائهم وانك لتلمس الضرر العظيم الذى لحق بنا معاشر المسلمين حينما ترى ان اغلب المتعلمين تعلما حديثا لا يدينون بما فرضه الله علينا من العبادات كالصلاة والصوم والحج والزكاة ونحو ذلك ولو فتشت عن قلوبهم لتجد اثر الايمان بالله وملائكته ورسله واليوم الاخر كنت كالراقم على الماء

هذه ولاشك حالة مؤلمة تحزن قلب كل مسلم غيور على دينه ولابد من ملافاة هذه الحالة وعلاجها بان يكون التعليم الدينى الصحيح اجباريا فى المدارس الحكومية وتتضافر المسلمون على انشاء مدارس تجمع الى التعليم الاسلامى التعليم العصرى الحديث

الشريعة الكاملة أخذها أولئك الامم والبسوها حلة غير حلتها الاسلامية فيظن ذلك الجاهل المغرور انها شيء جديد اخترعته تلك الامم وضمنته بدائع الحكم، ولو كان من أهل المعرفة فى الشريعة المحمدية التي انتسب اليها لظهر له ان فى هذه الشريعة قواعد فاضلة كاملة وافية باحتياج هذا الزمان وكل زمان لا تذكر عندها تلك القواعد القاصرة ولا يعبأ بها عند مقابلتها أو لظهر له ان القواعد الكاملة عند أولئك الامم هى من جملة القواعد التى اشتملت عليها الشريعة المحمدية غاية الامر انهم أبرزوها بصورة غير صورتها الاسلامية واذا كانوا لم يأخذوها من الشريعة المحمدية فقد صادف وصول عقولهم اليها لانها من مستحسنات العقول مع ان الشريعة المحمدية تشتمل عليها أيضا فكان يحكم ذلك الجاهل ان قواعد الشريعة المحمدية تغنى الامة عن الاخذ بسواها الا أنه يحتاج فى ذلك المعرفة فى الشريعة المحمدية والتبحر فى أبوابها ولا يكفى مجرد اللمح من طرف ضعيف ، فمن أراد أن ينشر قواعد مفصلة مشروحة قريبة لفهم العامة لتصلح شأنا من شؤونهم فعليه ان يكلف علماء الشريعة المحمدية المتبحرين فيها أن يجمعوا له منها مايقوم بمطلوبه ويفى بمرغوبه فيجيئونه بالمطلوب الكافى الوافى من تلك الشريعة طبق المراد لصوالح العباد كما جرى ذلك عندما طلب السلطان (١) الاعظم نصر الله دولته جمع كتاب مجلة الاحكام العدلية فى المعاملات الجارية بكثرة بين الناس من العلماء يكون سهل الفهم على الحكام

---

(١) انقدار الفلك دورته ودالت دولة آل عثمان وقامت على انقاض ملكهم حكومة جمهورية يرأسها مصطفى كمال ولاتسل عما احدثه هذا الرجل من محدثات وماجلبه من شرور ومصائب فقد اقام القانون السويسرى مقام مجلة الاحكام الشرعية وابدل الاحرف العربية بالاحرف اللاتينية وترجم القرآن الى التركية واوجب الصلاة باللغة التركية والغى الاوقاف الاسلامية والمعاهد الدينية وابطل العمل بالمواريث الشرعية ودعا النساء الى ان يخرجن سافرات الى غير ذلك من المنكرات التى تقشعر لها الابدان وتسيل لها العبرات ٭

والاخصام فاتوا بما يفى بالمراد من ذلك *

ولا(١) يهولنك أيضا أن بعض من ينتسب الى هذه الشريعة تراهم مختلى النظام فاقدى الآداب فاسدى السياسة عديمى التدبير فربما يتخيل لمن لم يعلم حقيقة حالهم وما جنوه على أنفسهم من مخالفة شريعتهم أن يقول كيف ان المسلمين يدعون أن الشريعة المحمدية تقوم بمصالح من يتبعها وتهذبهم غاية التهذيب وان نرى هؤلاء القوم قد انغمسوا فى الشرور وتراكمت عليهم أنواع الشقاء مع انهم منتسبون لهذه الشريعة فاين اصلاحها وتكفلها بانتظام حال أتباعها فاقول له: ياقليل الانصاف من ادعى منا أن الشريعة المحمدية تكفلت باصلاح حال من ينسب اليها بالاسم ويخالفها بالاقتداء والعمل فلا يجرى على احكامها ولا يتحلى بآدابها ؟ كلا والله لم تتكفل هذه الشريعة الا باصلاح من تمسك باحكامها وتخلق باخلاقها وجرى على آدابها كما صرح القرآن الكريم بذلك والاحاديث النبوية ؛ وقد أخبرت تلك الشريعة أن من خالفها فى تلك الامور تتوارد عليه

---

(١) ان الحياة مضمار تتسابق فيه الامم الى معالى الامور وغايات الكمال ؛ هيهات ان تبرز امة فى حلبة المجد وميدان الفخار الا اذا رسخت فى نفوس ابنائها ملكات الاخلاق الفاضلة والصفات النبيلة.

فهى التى تحدو بها الى المغامرة وركوب الاخطار فى سبيل ملك تبنيه ومجد تعليه وحضارة ترفع بنيانها وتشيد اركانها وكلما ازدادت هذه الملكات رسوخا ازداد تقدم الامة وعلو شأنها فاذا ماتقدم عليها العهد وطال بها الامد اخذت تذهب منها تلك الصفات الموروثة رويدا رويدا حتى يذهب غبرها ويندثر سلطانها . وهذا ما نشاهده فى الامة الاسلامية فانها لما تمسكت بعرى الدين ورسخت فى نفوس المسلمين مكارم الاخلاق التى جاء بها الدين الحنيف واستحصفت اسبابها وقويت مرائرها وتأكدت اواخيها تقدمت الفتح ونشر دينها الحديد بنفوس وثابة وهمم غلابة ورجال يحرصون على الموت فتحرص عليهم الحياة حتى اذا ملكها الشرق والغرب واوتيت فى سرعة الفتح ونشر الاسلام معجزة لم تؤتها امة قديما وحديثا ثم لم يزل سعدها فى اقبال وملكها فى اعتدال حتى ضعف فيها وازع الدين وانتكثت مرائر اخلاقها وتجذمت عرى آدابها ورثت حبالها فاذا هى كان لم تغن بالامس *

أنواع الشقاء وأصناف البلاء حتى انه يجد من ذلك مالا يجده غير اتباعها المنتسبين اليها تبديلا لانتقام الآخرة بانتقام الدنيا للردع عن المخالفة وللتذكار بالرجوع الى التوبة ولتمحيص ذنوب من يريد الله به اللطف لشفاعة بعض صفات حسنة ترافق تلك المخالفة فتكون واسطة لتكفير الذنوب بورود تلك البلايا الدنيوية العاجلة، وانا أضرب لك مثلا لمن يخالف الشريعة المحمدية ممن ينسب اليها فلا يجد من ثمراتها شيئا فاقول: هو كرجل عنده مكتبة عظيمة مشتملة على الكتب النفيسة المحتوية على الآداب والاخلاق الجميلة والاعمال الفاضلة وهو لا يفتح منها كتابا ولا يستفيد منها فائدة أيتصور في العقل أن يصير ذلك الرجل مهذبا فاضلا سعيدا بمجرد وضع تلك الكتب في داره وتصفيفها في مكتبته وتذهيب جلودها وترقيع أوضاعها؟ لا والله لا يكون ذلك الرجل الا كمثل الحمار يحمل أسفارا لا يدري ماهو حامل ولا يستحق الا اسم الجاهل.

فان قال قائل: انا نرى بعضا ممن يعده الناس من علماء الاسلام غير مهذب الاخلاق ولا كامل الصفات بل هو متهافت على الدنيا وأدرانها أكثر من الجهلاء متكالب عليها تكالب كلاب البيداء مضر للبشر متجاهر بالضرر فاي تهذيب حصل لهذا الشرير من تلك الشريعة وأي ثمرة اكتسبها بل لو لم يعد في صف العلماء لقصرت يده عن كثير من الشرور، فاقول ان هذا المذكور لم يدرك من الشريعة المحمدية الا القشور وفاته اللباب وثمرات الآداب فاذا حققت أمره تجده قد أتقن شيئا من علوم اللغة العربية التي جاءت هذه الشريعة فيها من نحو صرفها ونحوها وبيانها مما هو وصلة الى فهم الشريعة لاهو عينها، ومر مرورا على كتب الشريعة بمقاصد ساقطة ونية زائغة، وهو مصمم على الاطلاع على ما للشريعة من أحكام ليتوصل بها الى رضى الحكام والى أكل المال الحرام من العوام الذين لا يفرقون بين الضياء والظلام وقد حفظ من آداب

الشريعة المحمدية ومواعظها ما يزين به زخارف الكلام لالان تكون
دواء لدائه وشفاء لبلوائه فلا يتخلق باخلاقها الرفيعة ولا يتأدب بآدابها
البديعة ولا ينزجر بمواعظها عن أحواله الشنيعة فغاية مقصده نوال ما رغبت
فيه نفسه من تلك المقاصد الدنية فمثله كطبيب يعلم تشخيص الأمراض
وأدويتها ومعالجتها ولكن لا يلتفت الى تشخيص دائه العضال ولو التفت اليه
لا يأخذ دواءه ولا يصبر على معالجته بل همته مصروفة الى جلب الاموال
من ذوى الأمراض ولا له إلى مرضه أدنى التفات فبالله عليك كيف يشفى هذا
الطبيب من دائه العضال وهو بهذا الحال من الاهمال ، أيكون بمجرد معرفته
علم الطب كافيا لشفاء دائه؟ لا والله أيصح عند ذلك أن يقال ان علم الطب لا ينفع
فى شفاء الامراض حيث ان هذا الطبيب لم يشف من دائه مع علمه بالطب
وتركه المعالجة؟ لا أخال أن أحداً يتجرأ على ذلك القول الفاسد إلا أن يكون
مختل العقل ، وليعلم ان من كان بتلك الحال ممن يعد فى وصف علماء الاسلام وقد
تهتك بمخالفة الشريعة المحمدية بين الانام هو وأمثاله تدعوهم هذه الشريعة
بعلماء السوء وهم أضر على المسلمين من أجهل الجهلاء بل من ألد الأعداء قلل الله
من بين المسلمين أمثالهم ونسخ ظلالهم وأبدل المؤمنين بهم علماء فضلاء أتقياء
قادة للحق هداة للصدق متصفين بالصفاة الكاملة متخلقين بالأخلاق الفاضلة
محافظين على آداب الشريعة متابعين رسولهم فى كل ما سنه لهم من المناهج البديعة
فهؤلاء كثر الله من أمثالهم وأثابهم على اعمالهم وجزاهم عن الأمة المحمدية أحسن
الجزاء فهم علماء الآخرة الذين خصص الله تعالى خشيته بهم وأثنى عليهم فى
كتابه الكريم وعلى لسان رسوله عليه من الله أسنى الصلاة والتسليم ، وهؤلاء فى
استقامة أحوالهم ونجاحهم فى أقوالهم وأعمالهم من آثار اتباعهم للشريعة
المحمدية لم يتركوا للمعارض مجالا ولا للخصم مقالا كما لا يخفى على

ذوى الألباب *

ثم أقول لمن اغتر بعلماء السوء فظن انهم علماء الشريعة الذين يرجى صلاحهم واصلاحهم : انى ياصاحبى أعذرك فى اغترارك بهؤلاء الشياطين الذين يزينون ظواهرهم بما حفظوه من العلوم الرسمية والفاظ الأحكام الشرعية ولكن ان كنت نبيها فلا أخالك تغتر بفرقة أخرى أصبحوا فارغين من كل معرفة خالين من كل استقامة انما هم جهلاء أغرار تزيوا بلباس العلماء وتحلوا بشعار الاتقياء حيلة على الدنيا وشبكة لاصطياد حطامها فترى عليهم عمائم كالأبراج وجببا كالاخراج والعلم عند الله فشأنهم (تغيير شكل لأجل الأكل) وقد يتجرؤ بعضهم على مناصب العلم من التدريس والافتاء والقضاء ويغتر بهم همج العامة الذين لا يعلمون الأرض من السماء فانا لله وانا اليه راجعون، فاياك أن تحتج فى مناقضتك أيها الخصم بهؤلاء الملبسين فان آلة تلبيسهم ضعيفة جدا وينكشف حالهم بكلمة واحدة فيظهر بها انهم كالأنعام بل هم أضل، هذا وقد بقى من الملبسين قوم قد يضرون أهل الدين الاسلامى أشد الضرر ويروج تلبيسهم على العامة فيفسدون عقائدها وهى لا تشعر بل تظن بزخارف هؤلاء الدجالين انها قد وصلت الى حقائق الأمور وفازت على العلماء الأعلام فى المعرفة وهى فى ضلال مبين، وحقيقة هؤلاء الدجالين أنهم يدعون وصولهم إلى معرفة علوم وأسرار فى الشريعة المحمدية تخفى على العلماء الاعلام وان الله خصهم بها بسبب الوسائط الفلانية ويترجمون عن تلك المعارف والاسرار بعبارات هى محض كفر وضلال بمقتضى قواعد الشريعة المحمدية لكن تلك العبارات تشابه بعض الكلام الذى ورد عن بعض العارفين من علماء هذه الشريعة المشهود لها بصحة العقيدة واستقامة الحال على منهج الدين

المحمدى وقد أطلعهم الله تعالى بواسطة تقواهم واقتفائهم آثار رسول الله ﷺ على معارف وأسرار فى هذه الشريعة لم يطلع عليها غيرهم ممن لم يعمل كعملهم ولم يستقم كاستقامتهم وهى فى الحقيقة لا تنافى الشريعة المحمدية فى شىء بل هى من الشريعة تؤخذ من رموزها وتفهم من اشاراتها غاية الأمر أن بعض تعبيراتهم عنها كانت موهمة لمخالفة الشريعة وما كان ذلك إلا لضيق الألفاظ اللغوية عن الافصاح عنها فاصبح التعبير فى أدائها موهما ما يخالف الشريعة، وليس الحال كذلك، ولثبوت استقامة هؤلاء العارفين التزم العلماء تأويل ما يوهم من كلامهم وتطبيقه على قواعد الشريعة المحمدية بما يدفع عنهم الريب فى عقائدهم، وأما أولئك الملبسون الحائدون عن منهج الاستقامة فى الشريعة الساعون على تحصيل شهواتهم وبلوغ مآربهم الفانية فقد ادعوا مناصب هؤلاء العارفين وأصبحوا يتكلمون بكلمات تشبه كلامهم وهم عنهم بمعزل ما عندهم من تقواهم ذرة، ولا من معارفهم قطرة فالحذر الحذر من الركون الى كلام هؤلاء الملبسين الضالين المضلين، وقد كثر عددهم فى هذه الأيام فكم أفسدوا من عقائد وكم أحلوا من حرام؟ فعلى كل مؤمن متبع للشريعة المحمدية أن يعتقد ما جاء به صريح القرآن والسنة الصحيحة ويعتمد فى كل ذلك كلام العلماء الأعلام المسلم بمعرفتهم واستقامتهم من الخاص والعام ويهجر ما سوى ذلك من وساوس الأوهام، والله يتولى هدانا اجمعين بحرمة سيد المرسلين اللهم أمين*

﴿وطائفة﴾ من اولئك الجماهير لم تسبق أفكارهم الى تلك الاستدلالات التى وصلت اليها أفكار الطوائف السابقة ولكنهم تأملوا فى حال محمد ﷺ وفى متابعة أولئك الطوائف له بعدما كانوا مخالفين وفى الوجوه والدلائل التى حملتهم على تصديقه والانقياد اليه فقالوا: إن هؤلاء الطوائف الذين

اتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم لاشك أنهم عقلاء وأصحاب آراء سديدة وعندهم الاستعداد للاستدلال على الحقائق والتوصل إلى الصواب ، ونراهم أولا قد نفروا من تصديق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم غاية النفور وكذبوه أشد التكذيب حتى خلانه وأقاربه من أعمامه وأولادهم وعشيرته أجمعين، ولاسيما منهم من يعتقدون بأديان الرسل المتقدمين وبين أيديهم كتبهم المنسوبة إلى أولئك الرسل وأخذ جميعهم بتوبيخه وتقريعه على هذه الدعوى التي ادعاها وحاولوه بالرجوع عنها والكف عن تسفيه أحلامهم والطعن بأصنامهم واعتقاداتهم واحتالوا عليه باطماعه بأنهم يشاركونه في أموالهم ويزوجونه أكرم بناتهم اذا هو رجع عما هو فيه ، ثم انهم بعد جميع ذلك النفور وكل ذلك الامتناع أخذوا يتركون عاداتهم المألوفة لهم والموروثة عن آبائهم ويرفضون اعتقاداتهم لاسيما منهم من يعتقدون بأديان تنسب الى الرسل المتقدمين فان هؤلاء بعدما تشددوا في النفور غاية التشدد تمسكا بما لديهم من الدين السماوي والكتب الالهية عادوا فاقبلوا على تصديق محمد أحسن الاقبال اعتماداً على ماظهر لهم من شهادات الكتب التي عندهم بصدقه عليه السلام وانطباق العلامات المذكورة فيها عليه ، وقد تركوا كثيرا من أحكام الشرائع التي يعتمدونها عندما أخبرهم محمد بأن شريعته ناسخة لها ولا شك أن ترك مثل تلك العادات المألوفة يصعب جدا عليهم فلا يهجرونها الا لموجب قوي وداع قاهر ، وانهم يعلمون قطعا ان تركهم لكثير من أحكام شرائع رسلهم المتقدمين ان لم يكن بامر الله تعالى ورضاه يستحقون منه أشد الانتقام فايمانهم بمحمد وتصديقهم برسالته لابد أن يكون ناشئا عن تحرير أدلتهم التي اعتمدوها في تصديقه ولولا أنها أدلة قاطعة وبراهين ساطعة اطمأنت بها نفوسهم وأذعنت لها عقولهم وتوصلوا بها للصواب لما كانوا جروا بمقتضاها

ولما هجروا مألوفاتهم وتعرضوا لانتقام الله تعالى حسب زعمهم الأول ، ولكانت عقولهم السليمة تمنعهم أن يقدموا على الباطل وأن يخاطروا هذه المخاطرة ويعتمدوا على دليل ضعيف أو يميلوا لهوى نفس سيء العاقبة ، ولا داعي هناك من نحو الانفعالات النفسية التي تدعو في بعض الاحيان الى ارتكاب خلاف الصواب بل الذي في أنفسهم من الانفعالات النفسية والتعصبات النسبية والدينية تدعوهم الى التكذيب لا الى التصديق وتحملهم على الاصرار على ماهم عليه لا على الانتقال عنه ، فاتفاقهم جميعا على تصديق محمد ﷺ مع تنوع أدلتهم أنواعا مختلفة الطرائق متفقة على نتيجة واحدة مستقلة لاشك أنه حجة تثبت دعواه وتدل على صدقه اذ من المحال الذي لا يصدقه العقل السليم أن يكون ذلك الاتفاق من اولئك العقلاء المتعصبين لعاداتهم واعتقاداتهم وتوفر تلك الأدلة حاصلا جميع ذلك بوجه الصدفة ولا يقول بالصدفة في مثل ذلك الا معاند مكابر ، فنحن اعتمادا على ماتحصل لدينا من هذا الاتفاق مع أولئك الطوائف ، ومن توفر تلك الأدلة مع أن ذلك لا يكون بوجه الصدفة فقد صدقنا محمداً ﷺ فيما ادعاه وامتثلنا جميع ما يأمرنا به مقرين بأنه رسول الله بلا اشتباه

اقول : ملخص استدلال هؤلاء الطائفة بصورة القياس الاستثنائي المستثنى فيه نقيض التالي لينتج نقيض المقدم هكذا لو لم يكن محمد صادقا لما اتفق هؤلاء العقلاء المخالفون المتعصبون على تصديقه ولما توفرت لهم تلك الادلة لكن قد اتفقوا على تصديقه وتوفرت لهم تلك الادلة فيكون صادقا فايمان هذه الطائفة ليس بالتقليد لاولئك الطوائف كما يتوهم بل هو بالاستدلال ايضا كما علمت *

﴿ وطائفة ﴾ منهم كانوا طبيعيين ماديين دهريين اي انهم يعتقدون ان مادة

العالم ازلية ليست مخلوقة وانه لا إله للعالم اوجده من العدم ورتبه على هذا النظام وانما تكونه على هذه الكيفية المشاهدة التى يحار فيها الفكر وتنوعه بهذه الانواع ليس الامن ترتب عناصره وتفاعلها بمقتضى نواميسه القائمة فيه ، وحيث لم يعتقدوا بوجود اله للعالم فبالضرورة لا يصدقون بالرسل المدعين انهم مرسلون من عند الله تعالى الذى هو إله هذا العالم (١) فعندما سمعوا محمدا عليه السلام يدعى ارسال الله تعالى له وشاهدوا أحوال اولئك الجماهير الذين كذبوه أولا ثم صدقوه وسمعوا بدلائلهم التى استدلوا بها على صدقه مع اختلاف أنواعها وتخالف طرقها وما نتج عن ذلك كله من الانقلاب العجيب فى العالم البشرى من ترك أولئك الجماهير لعاداتهم ومألوفاتهم ومعتقداتهم . وأتباع ذلك الرجل الامى الفريد الوحيد الذى قاوم بدعواه

---

(١) للسيد جمال الدين الافغانى رحمه الله رسالة نفيسة فى الرد على الدهريين طبعت غير مرة نقتطف منها ما يأتى باختصار قال رحمه الله تعالى :

اثبت ثقاة المؤرخين ان حكماء اليونان انقسموا فى القرن الرابع والثالث قبل المسيح الى فئتين ذهبت احداهما الى وجود ذات مجردة عن المادة والمدة مخالفة للمحسوسات فى لوازمها منزهة عن لواحق الجسمانية وعوارضها واثبتت ان سلسلة الموجودات مادية ومجردة تنتهى الى موجود مجرد واحد من جميع الوجوه مبرأ الذات عن التأليف والتركيب وهو المصدر الاول والموجد الحقيق والمبدع لجميع الكائنات مجردة كانت اومادية ، واشتهرت هذه الطائفة بالمتألهين (الخاضعين لله) ومنهم فيثاغورس . وسقراط . وافلاطون . وارسطو *

وذهبت اخرى الطائفتين الى نفى كل موجود سوى المادة وان وصف الموجود مختص بما يدرك بالحواس الخمس لا ينال ولا يثبت وراءه ، وعرفت هذه الطائفة بالماديين

وكيفما ظهر الماديون وفى أية صورة تمثلوا كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم وصاعقة مجتاحة لثمار امهم وصدعا متفاقما فى بنية جماعتهم يميتون القلوب الحية باقوالهم وينفثون السم فى الارواح بارائهم ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم فما رزئت بهم امة ولا منى بشرهم جيل الا انتكث فتله وتقطع عرشه وتبددت آحاد الامة وفقدت قوام وجودها اه *

أولئك الالوف ولا ناصر له ولا معين حادثا ليس بالقليل يستحق التفات الافكار وتمعن الانظار . والبحث عن أسبابه . وكيفية تسببه عنها . وانتقاد حقيقة هذا الامر هل حصل عن تصورات يقينية او عن تخيلات وهمية تنبهت أفكارهم وتيقظت البابهم ؟ (ومن يسمع يخل ومن يشاهد يفتكر) فقال بعضهم لبعض : ان هذا الحادث مهم جدا ونحن نبحث عن اقل قليل يحدث فى الكون بالتفتيش عن أسبابه ومقتضياته وحقيقته وغايته والذى تقرر اعتياده عندنا أن كل حادث وانقلاب فى العالم البشرى لابد أن يكون ناشئا عن مقتض اقتضاه كما الحال فى حوادث المادة وآثارها فانه لا أثر منها الا وهو ناشىء عن سبب ومقتض يقتضيه أبعد ذلك نغض الطرف عن هذا الحادث العظيم من نجاح محمد بهذه الدعوى التى ادعاها واتباع أولئك الجماهير الذين باتباعهم حصل انقلاب فى العالم الانسانى يقل نظيره فى التاريخ البشرى (١)

---

(١) او ليس من المعجزات الباهرة التى لم تسمع اذن الدهر بمثلها ان ينهض العرب الى الفتح ويقدمون على بسط سلطانهم فوق شعوب الارض ويكتسحون امتين من اعظم الامم حضارة وافسحها رقعة واوسعها عمرانا ولطالما تجاذبتا سيادة العالم والسيطرة على الامم احقابا طويلة وهما الامة الفارسية والامة الرومانية ويوغلون فى الفتح ايغالا منقطع النظير فينتظم ملكهم الشامخ قارة أسيا وافريقيا وجزءا عظيما من اوربا ما كان يدور فى خلد احد ان هذه القبائل البدوية التى نشأت على حب العصبية والتهالك على قتال بعضها بعضا والبعد عن معنى سياسة الامم وحكم الشعوب والفرقة من مظاهر الحضارة ووسائل المدنية تنتهى اليها سياسة الامم ورئاسة الشعوب لو لم يجمعهم القرآن على الدعوة الى التوحيد ويوطد فى نفوسهم دعائم الفضائل وملكات الاخلاق الكريمة . ولله ما اعظم فضل القرآن وما اسمى مقاصد الاسلام،

وكما ان التاريخ لم يسطر الظفر والفوز لامة من الامم بهذه السرعة الخارقة للعادة غير الامة العربية كذلك لم نشهد عيناه ولم تسمع اذناه بدين انتشر بين الشعوب المغلوبة انتشارا هائلا كالاسلام واليك ما قاله بعض المؤرخين الغربيين (ان الاقبال العام على اعتناق دين جديد على اثر فتح اجنبى امر لا يكاد يعرفه العصر القديم ولكن الاسلام يقف وحيدا فى هذا الفوز) *

ونكتفي بقولنا ظنا وتخمينا لا علما وتحقيقا أن هذه الدعوى من محمد هي تحيل على الرآسة وذلك الاتباع من أولئك الجماهير مبني على الاوهام اما علينا ان نستعمل فلسفة التاريخ ونبحث عن الاسباب التي اوجبت هذا الانقلاب والانقياد لهذا الرجل الامي الوحيد الفريد فهب ان دعواه تحيل على الرآسة فما نقول في سبب ذلك الاتباع والانقياد من أولئك الطوائف الكثيرين المتعصبين لما هم عليه من العادات والاعتقادات فان قلنا : سبب هذا الانقياد هو العصبية لم يصح ذلك فان عصبية اولئك الجماهير انما هي لما هم عليه من العادات والاعتقادات وهذه تقتضي مخالفة محمد لا موافقته، وان قلنا: ان السبب عصبية عشيرته له وطمعها بنواله الرآسة اذا هو نجح في دعواه لم يصح هذا ايضا لانا نرى عشيرته أشد الناس مخالفة له عندما قام يظهر دعواه ومن اتبعه منها فانما كان اتباعه له آخر الامر بعد ما تم نجاحه وكثرت أنصاره وقليل منها من اتبعه في أول أمره، وعلى هذا الحال فليست عصبيتها هي السبب البتة على أنه لو فرض عصبيتها له في أول أمره لم تكن لتؤثر في انقياد أولئك الجماهير الكثيرة وهي دونهم في القوة والاقتدار ونفوذ الكلمة فلو انه اعتمد عليها وقاوم بها عصبيتهم لكان قد عرضها للهلاك ولانسحقت بقوة أولئك الالوف المؤلفة كما يعلم ذلك من الاطلاع على عددها وعددهم ومنزلة اقتدارها واقتدارهم وان قلنا ان السبب هو طمع اولئك الجماهير في الثمرات التي تحصل لهم اذا هم اتبعوه ونجح في دعواه وبلغ سلطانه ما بلغ فلا يصح هذا أيضا، فمن أين أيقن أولئك الجماهير أنه محمدا ﷺ ينجح في دعواه وتحصل له السلطنة وقد قام في أول أمره وحيدا فريدا صفر اليدين من كل سبب موصل للنجاح ومعرضا نفسه لسخرية عموم العالم ونسبتهم اياه الى الحمق بانه يدعي دعوى دون نوالها خرط القتاد فاي قوم يعتقدون في رجل انه كاذب في دعواه وهو وحيد فريد خال عن

الأســـباب المرجو بها نجاحه ثم يتركون ماهم عليه من عاداتهم المألوفة واعتقاداتهم المرجولهم بها سلامة الدنيا والآخرة ويتبعونه طمعا بانه اذا نجح تحصل لهم ثمرات فانية وان فاتتهم ثمرات باقيـة لايفعل ذلك إلا المجانين وأولئك الأقوام جميعهم لايصح فى العقل الحـكم عليهم بالجنون قطعا،وان قلنا:ان السبب هو الخوف فلايصح أيضا لأنه لم يحصل لأولئك الجماهير أدنى خوف من محمد فى ابتداء أمره لأنه حينئذ كان فريداً لارفاق ولا صحب نعم قد حصـل خوف لبعض من اتبعه ، ولكن بعدما تم نجاحه وكان له من الاتباع الألوف المؤلفة الذين اتبعوه بدون أدنى خوف فهؤلاء ماسبب اتباعهم،وان قلنا:ان السبب فصاحة لسانه وسحر بيانه فقد خلب عقول أولئك الجماهير بقوة نطقه وموه عليهم الحجج الكاذبة التى اقامها على صدقه فلا يصح هذا أيضا لأن أولئك الجماهير لم يتبعه جميعهم بسبب حجـج تلاها عليهم وزينهـا لهم بزخارف بيانه كما يعلم من الرجوع الى استقصاء استدلالاتهم على صدقه بل بعض حججهم لاصنع له بها وليس فى قدرته اقامتها وتحصيلها أفى قدرته أن يوجد فى نفسه وفى أحواله العلامات المذكورة فى كتب بعض أولئك الجماهير التى يقولون:انها كتب رسل قد سبق ارسالهم اليهم وأخبروهم أنه سيأتى رسول توجد فيه تلك العلامات وقد شاهدوها جميعها فيه (عليه السلام) أفى قدرته ان يجمع جميع تلك الصفات الفاضـلة فى قرآنه التى يعجز عن جمعها أكبر الفصحاء وأعظم الفلاسفة ؟وهو رجل أمى تربى بين أمة جاهلية ثم يقيمها حجة على صدقه أفى قدرته أن يرتب تلك القوانين التى يقول:انها شريعة بذلك الترتيب العجيب الغريب؟الذى يعجز العقول بحسن انتظامه وهو على مافيه من الأمية والخلو عن معارف الامم والاطلاع على قوانين الممالك والدول؟ثم يقيم

ذلك حجة على صدقه أفى قدرته ان يخرس السنة فصحاء أولئك الجماهير وبلغائهم عن معارضة أقصر سورة من قرآنه حتى اقر بعضهم بالعجز وبعضهم التجأ الى محاربته وعرضوا أنفسهم لبلاء الحروب ولم يأتوا بالمعارضة التى هى اسهل مايكون عليهم لو كانت فى امكانهم وما ذاك الا عن العجز عنها . وان قال قائل ان عجز اولئك الجماهير عن المعارضة ماكان الامن تسلط الوهم عليهم فانه عند ماقال لهم : انكم تعجزون عن معارضة اقصر سورة من قرآنى تسلط عليهم الوهم وتصوروا انفسهم عاجزين فعجزوا بالفعل وافعال الوهم لاينكر تاثيرها فى العقل الانسانى فلا يسلم قول هذا القائل ولا يقبله العقل السليم لان الذى نعهده من افعال الوهم فى البشر أنه يتسلط على جماعة أو جماعتين وفى مقام أو مقامين وفى يوم أو يومين أو شهر أو شهرين أما تسلطه على جماهير مجمهرة وفى كل مقام ومجتمع وفى السنين العديدة التى تنوف عن عشرين سنة وعلى الجماعة الحاضرين عند ورود سبب الوهم وعلى الجماعة الغائبين البعيدين عن ذلك المقام وانما بمجرد بلوغهم الخبر بما جرى مع غيرهم يحل بهم من الوهم ماحل باولئك الغير فلم يعهد أن للوهم هذا التسلط العمومى المستمر فى كل مقام وفى سنين عديدة والعقل السليم لايسلم أن للوهم هذه الخاصة بدون سبب خارج عنه يقوى به على ذلك ، على ان الأمور الموهومة لابد ان الافكار على طول الزمن تخلص من توهمها وتكشف حقيقة الامر فيها ولو بعد حين لأن الافكار لاتحاول أمرا إلا انكشف لها وهؤلاء الجماهير لاشك أنهم بمخالفة محمد ومضادتهم له حريصون على كشف الحقيقة فى شانه واثبات تكذيبه ومع هذا لم يصلوا الى شىء من ذلك وبقى أمر عجزهم عن معارضة قرآنه أمرا مستمرا ثابتاً لم يظهر للوهم فيه أدنى تأثير فاذن لا يكون ذلك العجز منهم الا

حقيقيا لا وهميا ؛ وان أورد على منع جواز عموم الوهم واستمراره ان علماء الهيئة القدماء قد كان وهمهم فى دوران الفلك وثبوت الأرض عموميا مستمرا الميئات من السنين يدفع ذلك الايراد بان عموم الوهم واستمراره فيهم كان لسبب قوى يدعو الى ذلك وهو ما يعطيه النظر والمشاهدة من دوران الفلك وسكون الأرض وعدم وجود الآلات التى أعانت المتأخرين على كشف الحقيقة (على مازعموا) ومانحن فيه لاسبب معه يوجب الوهم على العموم والاستمرار وماسببه (على زعم الخصم) إلاقول محمد لأولئك الجماهير انكم تعجزون عن المعارضة وهذا السبب ليس فيه من القوة مايقتضى العموم والاستمرار الوهم كما هو ظاهر ومسلم عند المنصف بظهر الفرق بين ما كان مع القدماء من علماء الهيئة وبين مانحن فيه (أقول إذا كان عموم الوهم واستمراره مقدار ماينوف عن عشرين سنة غير مسلم عند العقل بدون سبب قوى يقتضى عمومه واستمراره فعمومه واستمراره مقدار ثلاثة عشر قرنا بلا سبب قوى يقتضيهما هما أبعد عن التسليم عند العقل السليم بمراحل فقد مرت الى الآن هذه المدة والمعاندون والاخصام لدعوى محمد ﷺ من علماء الفصاحة والبلاغة والشعراء والمنشئين وافرو العدد يحاولون اطفاء نور شريعته ولا مانع يمنعهم ولم يزالوا مسربلين بسربال العجز ومرتدين برداء الضعف عن معارضة أقصر سورة من القرآن العزيز ولا يزالون وان يزالوا بعد الآن نقول هذا على رءوس الاشهاد وفى كل ناد) ٥

وهكذا بقى أولئك الطائفة يبحثون عن سبب يكون هو الذى أوقع أولئك الجماهير فى الخطأ باتباع محمد ﷺ فلم يجدوا بل قام فى أنفسهم انه بعد استقرائهم فى هذا الباب لاسبب هناك للغلط فقالوا حينئذ: هل أخطأنا نحن

بحقيقة كل ما يتصوره العقل ويقوم فى الأذهان وكل علمنا الكلى شىء لا وحق الشرف الانسانى لم يحط علمنا بجميع الحقائق المتصورة بل القسم الاكبر من نواميس هذا الكون المادى المشاهد لنا لم يزل محجوبا عنا علمه وكل يوم يتجدد لنا فى تلك النواميس علم جديد ، والذى تطمئن به نفوسنا أن ماعلمناه منها انما هو نقطة من بحر فى جانب مالم نعلمه منها فاذا كان الحال كذلك وكنا منحطين هذا الانحطاط فى معرفة الحقائق ولم يتفق لنا الوصول الى درجة الاحاطة بمعرفة كل حقيقة تتصور من هذا الكون فضلا عن كون الاحاطة لازما من لوازم ذواتنا فما الذى يؤمننا أن تكون هنالك فى نفس الامر حقائق وراء هذا العالم المادى لم نطلع عليها ولم نعلم عنها شيئا اما لعدم بحثنا عنها لانصراف أفكارنا واشتغالها فى العالم المادى واعتيادها على ذلك حتى صار يتخيل لنا انه لاعالم وراء هذا العالم واما لعدم عثورنا على دليل يدل عليها واما لفقد الوسائط فينا التى توصل الى معرفة عالم غير هذا العالم المشاهد لنا فمن كان منا قبل اكتشاف الكهربائية (١) يتصورها ويتصور آثارها ويصدق بذلك كله حتى أبرزتها الصدفة وحققتها التجارب مع انها من عالم الطبيعيات ومع ذلك فلا نزال عاجزين عن مشاهدتها بالبصر غاية الامر اننا نستدل على وجودها باحساسنا بآثارها على أن ما اشتهر بيننا من القول بأننا لانصدق بوجود شىء حتى ندركه باحدى حواسنا الخمس لم يمكننا

---

(١) كلمة تستعمل فى الدلالة على ذلك العامل القوى المجهول الذى يتولد فى بعض الاجسام بالدلك فاذا دلكت قطعة من الزجاج دلكا قويا بقطعة من الصوف اكتسبت خاصية جذبية الاجسام الخفيفة كقصاصات الورق واذا تقرر ان الكهرباء تتولد بالدلك فهو وحده الوسيلة لتوليدها فى الصناعة وقد ثبت ان كل شىء فيه نوعان من الكهرباء سالب وموجب على حالة تعادل وفى الجو كهرباء قوية تحدث من احتكاك الرياح ببعضها ومن التفاعلات الكيماوية الكثيرة التى تحدث على سطح الارض ومن تبخر الماء من البحار والانهار

التزامه دائما بل نخرج عنه عندالحاجةفهذه مادة الأثير قدصدقناها وأثبتناها ولم يكن ادراكها باحدى حواسنا قطعا وانما الذى ألجأنا لاثباتها احتياجنا الى معرفة حقيقة النور وباثباتها قلنا إن النور هو حركة هذه المادة الاثيرية السارية فى جميع الكون (الاثير عندهم غاز منتشر فى الخلاء مالىء خلاله ساكن بذاته مالم تفعل به بعض الأجسام كالكواكب فيهتز ويتموج بفعلها فيه كما يهتز الهواء من تأثير الجسم به للصوت وينتقل اهتزازه الى عضو البصر فيؤثر به ويورثه الشعور بالمرئيات وقالوا : ان العوامل أو القوى الكيماوية وهى الحرارة والكهربائية والمغناطيسية ماهى الا انبثاق من الاثير وهو الاصل الذى يجمع المواد الاربع غير القابلة للوزن فى مادة واحدة وهى النور وهذه الثلاثة) على ان هذا القول المشتهر بيننا لايعتمد عليه ، فاى مانع من وجود أشياء تعجز حواسنا بنفسها عن ادراكها وقد تحقق ذلك بالموجودات المكرسكوبية التى لاتدرك الا بالآلات البصرية وأى مانع من وجود أشياء لاصلاحية فى حواسنا لادراكها ولو بالواسطة بل يحتاج ادراكها الى حاسة أخرى لم توجد فينا كما فى الاثير المذكور واذا كانت حواسنا فى هذا العجز فى العالم المادى فكيف يستبعد عجزها عن ادراك أشياء فى عالم وراء هذا العالم المشاهد لنا فالانصاف الانصاف اننا قاصرون فى سبيل المعرفة أعظم القصور وان وسائط العلم فينا لحقائق الاشياء التى يتصورها العقل غير كاملة البتة فيجوز فى العقل أن هناك حقائق كثيرة فى نفس الامر لم نزل جاهلين بها وغافلين عنها ووسائطنا الى معرفتها مفقودة أو عديمة الشروط واذا نصرنا الانصاف وخذلنا الاعتساف نرى ان رفضنا الوجود عالم وراء عالم الطبيعيات ماهو الا ضرب من المجازفة وحكم بغير دليل لأن غاية ماأوصلنا اليه البحث اننا لم نجد دليلا على وجود عالم وراء هذا العالم

ولا دليل على ارتباط هذا العالم بعالم وراءه وأما انه قام دليل معنا على عدم وجود عالم وراء هذا العالم المادى أو على عدم ارتباط هذا العالم به فلا وحق شرفنا الانسانى ، ومن المعلوم المسلم عند كل ذى بصيرة انه لا يلزم من عدم الوجدان عدم الوجود فى نفس الامر ولا يلزم من عدم وجود الدليل عدم وجود المدلول فلا يلزم من عدم وجود الدليل على ذلك العالم أو من عدم وجدانه عدم وجوده فى نفس الامر ، هؤلاء القدماء مضت عليهم الألوف من السنين وهم يبحثون عن الشىء الذى يصدر عنه الرعد والبرق ولم يصلوا الى دليله الصحيح ولم يعلموا حقيقته وما لزم من عدم وجدانهم اياه ولا من عدم وجدانهم دليله عدم وجوده فى نفس الأمر ، وقد وجد المتأخرون دليله وعرفوا حقيقته وهى الكهربائية على زعمهم وهى من لوازم الكون الفعالة فيه العجائب فعلى جميع ما تقدم من قصور معارفنا لحقائق الأشياء وان لم يقم معنا دليل على عدم وجود حقائق وعوالم وراء هذا العالم المادى فقد بقى ذلك فى نفس الأمر فى حيز الامكان فما الذى يؤمننا ان دعوى محمد من جملة تلك الحقائق الممكنة الوجود وانها موجودة فى نفس الأمر ونحن نجهل حقيقتها وحقيتها ونظنها تخيلا على الرآسة ونظن أن انقياد أولئك الجماهير لمحمد مبنى على الوهم لا مستند لهم يقينى فما المانع بعدئذ أن محمدا صادق فى دعواه وأولئك الجماهير انكشفت لهم الأدلة التى أوصلتهم الى تصديقه ونحن ما لنا بصحتها أدنى المام واذا كان الحال كذلك وكان محمد ﷺ مرسلا من جانب إله لهذا العالم وسوف يتحقق جميع ما يخبر به ، ومن جملة ذلك انه لا بد من البعث والنشور للعالم الانسانى ويجازى ذلك الاله من اتبع محمدا بالثواب الدائم ومن كذبه بالعذاب الابدى فاى صواب نكون حصلناه وأى ثمرة نستحوذ عليها من أتعابنا وابحاثنا فى علومنا

الطويلة العريضة من فلكيات وجويات وجولوجيات ونباتيات وحيوانيات وكماويات وغير ذلك أفلا يكون حينئذ قد اشتغلنا بالدنى الزائل وتركنا العظيم الدائم ، وحق علينا أن يقال كما فى المثل الجارى : (لقد خسرت صفقتنا) والذى يهيج أفئدتنا ويبعث بنا الى الخوف من الوقوع فى سوء الاختيار أنه اذا صح قول محمد وأتباعه فى البعث كان الخسار علينا وحق لنا أن نجرى الدموع دما وان صح قولنا فى عدم البعث وذهاب البشر بلا اعادة لم يكن عليهم من الخسران أدنى شىء كما قال أحدهم فى الطبيب والمنجم اللذين على اعتقادنا فى انكار البعث شعر:

قال المنجم والطبيب كلاهما لن يبعث الاموات قلت اليكما
ان صح قولكم فلست بخاسر أو صح قولى فالخسار عليكما

فالصواب فى حقنا أن نحترز ونأخذ بالحزم ونترك الجمود على تكذيب كل ما سمعناه مما يغاير معارفنا ونأخذ فى البحث عن دعوى محمد التى ادعاها وعما أوجب تصديق أتباعه له والنظر فى دلائلهم ولا ضرر علينا فى ذلك ولا مانع يمنعنا منه بل الجائز أن يكون عاقبة هذا البحث دفع الضرر عنا فعند ذلك صادق جميعهم على هذا الحكم الذى قر رأيهم عليه لوضوح دلائله التى تقدمت وانبعثوا بهمة ونشاط للنظر فى دعوى محمد ﷺ والبحث عنها أهى صادقة ام كاذبة وعما أوجب تصديق أتباعه له من الدلائل التى اعتمدوها ليظهر لهم أهى صحيحة موصلة لهم كما أوصلت تلك الجماهير الى تصديقه أم فاسدة فترتفع بظهور فسادها الشبهة ؟ فاول ما نظروا فيما جاء به محمد عليه السلام وادعى أنه من عند الله تعالى إله هذا العالم وسماه شريعة فوجدوا فيه كثيرا مما ينافى علومهم الطبيعية التى يعتقدونها وعندهم انها من اليقينيات ، فمن ذلك ما ورد فى تلك الشريعة ان مادة العالم حدثت بعد ان

كانت معدومة وان الذى أوجدها بعد العدم وكون منها أنواع الكائنات على هذا النظام هو الاله وانه قادر على ملاشاتها واعدامها من الوجود كما أوجدها بعد العدم وان هذا الآله خاق الانسان نوعا مستقلا عن بقية الحيوانات وخلق أنثاه وأسكنهما فى دار تسمى الجنة ثم أهبطهما الى الارض لمخالفتهما مانهاهما عنه، وان للانسان نفسا تسمى روحا هى غير جسده وان لها تعلقا بجسده ينشأ عنه حصول حياته وعند ما تنفصل عنه يحله الموت وان تلك الروح باقية بعد انفكاكها عنه تدرك وتلتذ وتتألم وان الانسان بعد حلول الموت فيه وفنائه يعيده ذلك الآله ويعيد تعلق الروح به ويثيبه على أعماله الخيرية التى عملها فى مدة حياته فى الارض ويعذبه على أعماله الشرية هناك وانه يجرى نعيمه فى دار خلقها تسمى الجنة وعذابه فى دار خلقها تسمى جهنم يدخلهما البشر بعد خراب عالم الارض والسموات وبعثهم بعد الموت ويخلدون فيهما ، وان الذى يقوم به اللذة والالم عند تعلق الروح بالجسد وقيام الحياة فيه هو مجموع الروح والجسد وأن لبقية الحيوانات ارواحا مثل الانسان وعندها من الادراك مايكفى لتعيشها وليس عندها من الادراك والعقل مثل ما عند الانسان، فلذلك كلف بعبادة ذلك الآله دونها وان ذلك الآله خلق اجساما نورانية تسمى الملائكة قادرة على التشكل وانها تمر أمامنا ولا نراها وهى خيرية وتفعل أفعالا تعجز عنها القوى البشرية وهى الواسطة بين ذلك الآله وبين أخيار البشر المسمين بالرسل فى تبليغهم أوامره كما أنه اوجد اجساما اخرى تشابه الملائكة المذكورين فى بعض خواصهم من نحو الاقتدار على التشكل والاحتجاب عن الأبصار وقدرتها على أفعال عظيمة ولكنها تخالفهم بانها ليست نورانية مثلهم ولا خيرية صرفة ولا هى واسطة بين ذلك الاله وبين الرسل وتسمى جنا وأنه خلق سبع سموات فوقنا مملوءة بالملائكة وأنه

ينزل المطر من السماء وانه خلق جسما كبيرا يسمى كرسيا فوق تلك السموات. وجسما آخر اكبر منه فوقه يسمى عرشا. وأن بيننا وبين تلك الاجسام مسافة عظيمة وان الملك يقطعها بمدة قصيرة جدا وان جميع مايحدث في هذا العالم في أرض اوسماء اوفي داري الجزاء فهو بقضائه وتقديره أي بأن يعلمه ويريده ويبرزه إلى الوجود بقدرته؛ وقد خلق جسما كبيرا يسمى لوحا وجسما آخر يسمى قلما لاثبات ما يكون وتسطيره لاعن حاجة الى ذلك. ثم جميع مايقضيه فهو بخلقه يوجد ويكون لاخالق سواه وأنه وان يكن قد ربط المسببات بالاسباب وجعل الاولى تنشأ عن الثانية فهو الخالق للثنتين يخلق السبب ويعقبه بخلق المسبب وجميع الاشياء انما يوجد تاثيرها المشاهد لنا بخلقه وايجاده ولاشئ يؤثر بطبعه او بقوة اودعت فيه وانه موجود قديم دائم يستحيل عليه العدم واحد أحد في ذاته وصفاته غني عن كل ماسواه مفتقر اليه جميع ماعداه لايشبه شيئا من جميع الموجودات ولا يشبهه شيء منها مريد أتم الارادة عالم اكمل العلم يعلم ما كان وما يكون وماهو كائن لا يعزب عن علمه شيء قادر على كل شيء من الجائز العقلي مهما كان عظيما جسيما حي متصف بصفات الكمال التي تليق به منزه عن صفات النقصان الى غير ذلك مما وجدوه في تلك الشريعة المحمدية مما يخالف معتقداتهم التي اوصلتهم اليها علومهم اومما لاتدل عليه تلك العلوم بحسب ماوصلت اليه عقولهم فكادوا عند ذلك ينفرون عن عزمهم الذي عزموا عليه من البحث عن دعوى محمد عليه السلام وتبين امرها ويرجعون الى الجمود على التكذيب لولا حكمهم السابق الذي أجمعوا عليه من ان الصواب في حقهم البحث عنها وتبين أمرها تحرزا من الوقوع في الخطأ، وأخذا بالحزم لما الجأهم إلى ذلك من ظهور القصور في معارفهم وعدم احاطتهم بكل حقيقة يتصورها العقل فبقوا ثابتين على :

العمل بموجب ذلك الحكم وقالوا: انبحث أولا عن هذه المسائل التي وجدناها في شريعة محمد مخالفة لاعتقاداتنا المأخوذة من علومنا أو لا دليل في علومنا عليها قبل أن ننظر في الأدلة التي اعتمدها أتباعه في تصديقه فلعله يظهر لنا فساد ما جاء في شريعته من تلك المسائل بسبب بحثنا فيها ويتبرهن لدى اتباعه ذلك فيكون دحضا لدعواه من أول الأمر ونكتفي مؤنة البحث في أدلة اتباعه أو سواها ولكن خطر لهم عند ذلك اننا إذا أخذنا في البحث عن هذه المسائل فيما بيننا ربما يصعب علينا ظهور الصواب لاحتمال أن المراد بها غير ما يتبادر إلى الفهم أو يكون له وجه صحيح يطابق علومنا ونحن لا ندركه فالأولى أن نجتمع مع عالم من علماء أتباع محمد ونذاكره في هذه المسائل ونطلب منه بيانها فاما أن يظهر لنا فسادها واما أن يظهر لنا صحتها، وبالمذاكرة مع ذلك العالم لا يصعب علينا فهم المراد منها فاجتمعوا مع عالم من علماء أتباع محمد ﷺ من أضعفهم فهما وأقلهم علما فشرحوا له قصتهم وما اعتمدوا عليه من المفاوضة معه في تلك المسائل فقال لهم: إن شئتم فاشرحوا لي أولا ملخص مذهبكم واعتقاداتكم في هذا العالم واصل وجود هذه الكائنات فلعلي أجد بينه ذلك وبين المسائل التي تنكرونها في شريعة محمد ﷺ توفيقا أو أظهر لكم فساد بعض ما تعتقدونه أو غير ذلك مما يرفع الخلاف من البين أو أنفصل عنكم صفر اليدين فاستصوبوا هذا الرأي منه، وقالوا له: اسمع خلاصة مذهبنا وما أوصلتنا إليه علومنا اعلم ان لقدمائنا في أصل هذا العالم وتكون تنوعاته من سماويات وأرضيات مذاهب (١) شتى ولكن الذي قر عليه الأمر الآن

(١) تتلخص هذه المذاهب في ان هؤلاء الطبيعيين بعد ان اتفقوا على نفي كل موجود سوى المادة والماديات وان وصف الموجود مختص بما يدرك بالحواس اختلفوا في تكوين الكواكب وتصوير الحيوانات وانشاء النباتات على مذاهب

وكشفه لنا الاختبار والدليل أن أصل هذا العالم من سماويات وأرضيات أمران المادة. وقوتها (حركتها) وهما قديمتان متلازمتان من الأزل لا يتصور انفكاك إحداهما عن الأخرى ، أما المادة فهي الأثير المالىء الخلاء. وهو الهيولى فى أبسط ما يمكن تصورها، وأما القوة فهي حركات أجزائها الفردة المتماثلة في الذات المتخالفة في الصفات المتغيرة في الاشكال ونقول: انه ليس لتلك الحركة سبب إلا نفسها ، ثم ان الاجرام السماوية وهي الكواكب والكائنات الارضية من جمادية وحيوانية ونباتية تكونت من المادة بواسطة حركتها وحدثت بعد ان لم تكن حدوث المعلول عن علته بمقتضى الضرورة وليس للمادة ولا لحركتها ادراك وقصد فى تكوين شيء منها فيتجمع تلك الأجزاء على كيفيات مخصوصة حصل مادة سديمية - أي أجسام صغيرة - وتجمعت على بعضها بناموس الجاذبية وتكونت كرة ودارت على محورها والتهبت بمقتضى

احدها ان وجود الكائنات العلوية والسفلية ونشأة المواليد على ما نراه انما هو من الاتفاق واحكام الصدفة وعلى ذلك اتقان بنائها واحكام نظامها لا منشأ له الا الصدفة كما ادت بهم سخافة الفهم الى تجويز الترجيح بلا مرجح وقد احالته بداهة العقل

ثانيها ان الاجرام السماوية والكرة الارضية كانت على هيئتها هذه من أزل الآزال ولا تزال ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات وزعموا ان في كل بزرة نباتا متدرجا فيها وفي كل نبات بزرة كامنة ثم وهذه البزرة الكامنة نبات وفيه بزرة الى غير النهاية وغفل اصحاب هذا الزعم عما يلزم من وجود مقادير غير متناهية في مقدار متناه وهو من المحالات الاولية ،

ثالثها ان سلسلة النباتات والحيوانات قديمة بالنوع كما ان الاجرام العلوية وهيآتها قديمة بالشخص ولكن لا شيء من جزئيات الجراثيم الحيوانية والزرور النباتية بقديم وانما كل جرثومة وبزرة هي بمنزلة قالب يتكون فيه ما يشاكله من جرثومة وبزرة اخرى . وفاتهم ملاحظة ان كثيرا من الحيوانات الناقصة الخلقة قد يتولد عنها حيوان تام الخلقة وكذلك الحيوان التام الخلقة قد يتولد عنه ناقصها وزائدها هذه جملة من مذاهبهم الواهية اوطفناها بتصرف عن رسالة حكيم الاسلام السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله رحمة واسعة

نواميس أخرى فكانت تلك الكرة هي الشمس ثم أخذت بقية الكواكب تنفصل عنها بمقتضى دورتها وتتكون كرات وتدور على محاورها، ومن جملتها أرضنا التي نحن عليها ثم بعد انفصالها ودورانها على محورها مدة من الزمان أخذت تبرد قشرتها وتتكون طبقاتها . وتتولد المعادن والحيوانات والنباتات بسبب حركة اجزاء المادة وتجمعها على بعضها على نسب وكيفيات مخصوصة. وقد ثبت لدينا حدوث الحيوان والنبات بعد ان لم يكونا باكتشافات (١) علم طبقات الأرض وذلك أن تلك الاكتشافات أظهرت لنا أن آخر طبقة وصلنا اليها من طبقات الارض خالية من الحيوانات والنباتات وآثارهما وأنه

---

(١) قال حكيم الاسلام رحمه الله ما خلاصته ولما كشف علوم الجيولوجيا (طبقات الارض) عن بطلان القول بقدم الانواع رجع المتأخرون من الماديين عنه الى القول بالحدوث ثم اختلفوا في بحثين

الاول — بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية فذهب فريق الى ان جميع الجراثيم على اختلاف انواعها تكونت عند ما اخذ التهاب الارض في التناقص ثم انقطع التكون بانقطاع ذلك الطور الارضي وذهب آخر الى ان الجراثيم لم تزل تتكون حتى اليوم خصوصا في خط الاستواء حيث تشتد الحرارة وقد عجزت كلتا الطائفتين عجزا تاما عن بيان السبب الذي جعل بعضها يحيا حياة نباتية والآخر يحيا حياة حيوانية

الثاني — بحث صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها الى ذروة كمالها وتحولها من حالة الخداج (النقص) الى ما نراه من الصور المتقنة والهيئات المحكمة فمنهم من قال ان لكل نوع جرثومة خاصة به ولكل جرثومة طبيعة تميل بها الى حركة تناسبها في الاطوار الحيوية وتجتذب اليها ما يلائمها من الاجزاء الغير الحية لتصير جزءا بالتغذية ثم تجاوره بلباس نوعه وقد غفلوا عما اثبته التحليل الكيماوي من عدم التفاوت بين نطفة الانسان وغيره من الحيوان فما هو منشأ التخالف في طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها ؟

ومنهم من ذهب الى ان جراثيم الانواع كافة خصوصا الحيوانية متماثلة في الجواهر متساوية في الحقيقة وليس بين الانواع تخالف جوهري ولا انفصال ذاتي ورأس القائلين بهذا القول (دروين) وقد الف كتابا في بيان ان الانسان كان قردا عرض له التنقيح والتهذيب في صورته تدريجا حتى ارتقى الى اول مراتب الانسان ومن ثم عرج بعض افراده الى افق اعلى وارفع

مر على الأرض زمن ليس فيها من الأجسام الحيوية شيء وبعد ذلك أوصلنا البحث والاكتشاف ومشاهدة أعمال الكيمياء الى أنه بتجمع أجزاء المادة بواسطة حركتها تكونت العناصر التي تزيد على الستين وبتجمع بعضها وامتزاجه على نسب مخصوصة تكونت المعادن والاجسام الحيوية . وأول مكون لهذه هو مادة زلالية مكونة من عدة عناصر بين الجامد والسائل لها قوة الاغتذاء والانقسام والتوالد سميناها برتو بلاسما (أى المكون الأول) وبانقسامها تكونت الخليات التي تتركب منها الأجسام العضوية وحدث بتجمعها أبسط الحيوانات وأبسط النباتات ، وما الحياة الا ظاهر من ظواهر تفاعل تلك العناصر وامتزاجها الكيماوي وليست شيئا آخر تحل في الجسم كما يقول به الحيويون منا وليس للحيوان روح غير حياته هذه ، ثم أخذت تتوالد وتتكاثر تلك الحيوانات والنباتات البسيطة بما لازمها من أربعة نواميس ، الأول تباين الأفراد فكل فرد لا يشابه أصله تماما ، ومن جملة التباينات الذكورة والانوثة ، الثاني انتقال التباينات من الاصول الى فروعها مع الاخذ بتباينات أخرى يحدث عن ذلك بين الافراد القوى والضعيف والمتحمل للكوارث الخارجية وغير المتحمل ، والذي تناسبه الظروف والذي لا تناسبه ، الثالث تنازع البقاء بين الأفراد فيهلك الضعيف وغير المتحمل والذي لا يناسبه الظروف ويبقى ماهو بخلاف ذلك ، والرابع الانتخاب الطبيعي وهو اختيار الطبيعة وحفظها للاحسن والأكمل فبكرور الملايين من السنين وصلت الحيوانات والنباتات الى ما وصلت اليه بحركة اجزاء المادة الاضطرارية والجرى على هذه النواميس الأربعة حتى ان الانسان نفسه ماهو الا حيوان من جملة الحيوانات ترقى في التحسين بالانتخاب الطبيعي حتى بلغ ماهو عليه الآن وبمقتضى

مشابهته للفرد لا يمتنع أن يكون قد اشتق هو واياه من أصل واحد ، وأخذ هو فى الترقى عنه حتى فاق عليه وهو من أحدث الانواع الحيوانية(١). فوجوده من زمن محدود بملايين من السنين معدودة وان كان أنواع كثيرة وجدت قبله بملايين كثيرة وما عقله وادراكه الانسانى الافعل من أفعال مادته بتفاعل أجزائها المتحركة وعناصرها الممتزجة وان يكن أصل المادة والحركة خاليا عن العقل والادراك ، ثم ان عقله لا يخالف عقول بقيــة الحيوانات الا بالكم ولا يخالفها فى الذات والحقيقة ، ثم بقية المسائل التى

---

(١) هذا هو ما زعمه دروين وطبق عليه نظريته الحاطئة المشهورة وقد رد عليه فيها اجلة العلماء من علماء الاسلام وعلماء الغرب ولحكيم الاسلام السيد جمال الدين الافغانى كلام جليل فى الرد عليه نلخصه لعظيم فائدته قال رحمه الله تعالى :

على زعم دروين هذا يمكن ان يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور وان ينقلب الفيل برغوثا كذلك . ولو سئل دروين عن الاشجار القائمة فى الغابات والنباتات المتولدة من ابعد الازمان واصولها تضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته واشكال اوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره . فاى فاعل خارجى اثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ اظن لا سبيل الى الجواب سوى العجز عنه وان قيل له هذه الاسماك فى البحار مع تشاركها فى المآكل والمشرب نرى بينها اختلافا نوعيا وتباينا بعيدا فى الالوان والاشكال والاعمال فما السبب فى هذا التباين والتفاوت فلا اراه يلجأ فى الجواب الا الى الحصر وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور والقوى وهى تعيش فى منطقة واحدة والحشرات المتباينة فى الخلقة المتباعدة فى التركيب المتولدة فى بقعة واحدة فاذا تكون حجته فى علة اختلافها ولعلها تكون كشفا لا كشفا . بل اذا قيل له اى هاد هدى تلك الجراثيم فى نقصها وارشدها الى استتمام هذه الجوارح والاعصاب الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة والابداع وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجراثيم وهاديا خبيرا لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية لاريب انه يقع قبوع القنفذ وينكس بين امواج الحيرة يذهب ويجيء فلا عثار الى ابد الآبدين

التي وجدناها في شريعة محمد ﷺ من بعث الانسان بعد الموت ووجود دار للنعيم ودار للعذاب، ووجود الملائكة والجن والسموات والعرش والكرسي واللوح والقلم وأفعال الملائكة العظيمة وأمثال ذلك - أي من المسائل التي تقدم ذكرها - فانه لادليل في علومنا عليها فلا نعتقدها بل البعض منها ترفضها علومنا وتدل على استحالتها لأنها خارقة للنواميس الطبيعية التي وجدناها في الكائنات فعدم اعتقادنا بها ضربة لازب هذا مذهبنا بالاجمال وهو آخر ماقر عليه رأى الجمهور منا معشر الطبيعيين فهات ماعندك أيها العالم المحمدي ونحن لكلامك من السامعين، فعند ذلك قال لهم ذلك العالم المحمدي : اعلموا ياإخواني في الانسانية أن ديني المحمدي واختياركم اياي في المفاوضة لاظهار الحق هما أمران يوجبان على تمحيص النصح لكم والتدقيق في اظهار الحق ولكن عليكم أن تصغوا الى كلامي وتعوا ماأقول بدون تعصب وبغير جمود فان ذلك يعمي عين البصيرة ويستر عنها شمس الحقيقة كما يستر الغمام عن البصر شمس النهار فاذا تركتم التعصب لمذهبكم والجمود على اعتقاداتكم وأخلصتم ضمائركم من اسر هذين الأمرين المسترقين للضمائر فاني أشرح لكم مايظهر الحق ظهور الشمس في رابعة النهار - ان شاء الآله الذي لاأعتقد فاعلا في الوجود سواه - فاقول اني بعد التأمل الصادق في مذهبكم هذا الذي شرحتموه لي وجدت أن أساسه هو اعتقادكم بقدم المادة فحيث اعتقدتم قدمها لم يلجئكم ظاهر الأمر الى الاعتقاد بوجود الاحدثها وحيث وجدتم تنوعاتها السماوية والأرضية وثبت عندكم أنها حادثة ولم تسلم عقولكم بحدوثها عن نفس المادة فقط اذ لايظهر للعقل صلاحيتها لذلك احتجتم إلى إثبات حركة أجزائها الفردة وبنيتم على المادة وتلك الحركة تكون تلك التنوعات ولو أنكم اعتقدتم بحدوث المادة لألجأكم الأمر الى الاعتقاد بوجود الله

أحدثها ورجح وجودها على عدمها ثم متى نظرتم بعد ذلك الى تنوعاتها كنتم تقولون حينئذ: ان ذلك الآله الذى أحدث المادة هو الذى احدث تنوعاتها اذ لاموجب لاثبات منشأ لها سواه ولم تحتاجوا الى اثبات حركة أجزاء المادة وتتجشموا القول بأن تلك التنوعات نشأت عن المادة والحركة بوجه الضرورة بدون قصد ولا روية ولا ادراك ولا تدبير حتى بلغت ما بلغته من النظام العجيب الغريب الذى يحكم صريح العقل بأنه محتاج الى أتم القدرة وأكمل العلم وأسمى الحكمة والتدبير فالذى أراه فى هذا المقام انى إذا أقمت لكم البرهان على ابطال قدم المادة واثبات حدوثها ، وأحوجتكم الحال حينئذ الى الاعتقاد بوجود اله أحدثها من العدم وأوصلتكم ذلك الى أن تنوعاتها هى بفعل ذلك الآله وأنها تدل على كمال قدرته وعلمه وحكمته وتدبيره لا يصعب عليكم بعد ذلك التصديق بشىء من بقية المسائل التى وجدتموها فى الشريعة المحمدية مخالفة لاعتقاداتكم ومرفوضة بمقتضى علومكم فاعلموا أنى وجدت فى مذهبكم المتقدم ثلاث قضايا اعتقدتموها اعتقاداً جازما وبالتأمل فى شأنها بالنظر السديد يظهر انها لا يمكن التصديق بثبوتها جميعا فى نفس الأمر إذ بعضها الذى ثبوته قطعى بالمشاهدة يقتضى التصديق بثبوته أن لا يصح التصديق بثبوت البعض الآخر (فالقضية الأولى من تلك القضايا) أنكم قلتم بقدم المادة وقدم حركة أجزائها الفردة وأنهما متلازمتان من الأزل لا تنفكان عن بعضهما (القضية الثانية) أنكم قلتم بحدوث تنوعات المادة من سماويات وأرضيات ، لاسيما الأنواع الحيوية منها فان اكتشافاتكم لطبقات الأرض ألزمتكم بالحكم أن أنواع الحيوانات والنباتات قد حدثت فى الارض بعد ان لم تكن وقدرتم حدوثها بالملايين من السنين ، وحكمتم بمقتضى ذلك أن الانسان من أحدثها حيث أن اثاره لم توجد إلا

في الطبقات العليا من الارض ولم يوجد له آثار في الطبقات السفلى وذلك يدل على تأخره في الحدوث ، وقد اختلفتم في تقدير مدة حدوثه كما وجدته في كتبكم (القضية الثالثة) أنكم قلتم: إن جميع التنوعات المادة قد حدثت عنها بواسطة حركة أجزائها الملازمة لها من الأزل على وجه الضرورة ، وبمقتضى النواميس التي اكتنفها ولم يكن للمادة ولا لحركتها اختيار في ذلك ولا إرادة ، والمعنى في ذلك كما هو مصرح به في كلامكم السابق أن التنوعات حدثت عن المادة وحركتها حدوث المعلول عن علته فالتنوعات معلول وهما علة لها (العلة في الحقيقة عندهم هي الحركة ولكن لما كانت لاتنفك عن المادة ولاتنفك المادة عنها حتى قالوا لاتتصور احداهما بدون الأخرى اعتبرتا كشيء واحد هو العلة ، وانما جاز هذا للتلازم الحاصل بينهما) اذا تقرر جميع ذلك فاعلموا أن كل عقل سليم يحكم صريحا بان الشيء لايتخلف عن علته المستلزمة له البتة، فان كانت علته حادثة كان هو حادثا عقبها بدون تأخر ، وان كانت قديمة كان هو قديما تابعا لها في القدم لايتأخر عنها أيضا وإلا لزم وجود العلة بدون المعلول وهو محال.

اذا ثبت هذا فاقول: ان قولكم بقدم المادة وحركتها اللتين هما علة التنوعات الكونية من جماد ونبات وحيوان يلزم منه قدم هذه التنوعات المعلولة لها وأنتم لاتقولون بقدمها حسب ماثبت في علومكم الطبيعية واكتشافاتكم لطبقات الأرض وان قلتم ان لزوم هذه المعلولات لهذه العلة لايلزم منه استكمال الوجود دفعة واحدة لارتباط العلل والمعلولات بعضها ببعض وتحول بعضها الى بعض فالحياة مثلا يستحيل أن تظهر قبل أن يكون الماء والماء قبل تكون عنصريه وهما الهدروجين والاكسجين ، وهما قبل اجتماع أجزاء المادة على كون يتألف منه ذلك فوجود الحياة يتوقف على وجود

الماء ولو لحظة قبلها ففي قياس أى عقل يصح وجودها ، ووجود سائر المركبات معها؟ قلنا: اذا كانت العلة الأولى من هذه العلل وهى المادة وحركة أجزائها حادثة يلزم لها مدة بحسب نواميس النشوء الذى تقولون به لأجل استعدادها واجتماع الاجزاء على كون تتألف منه العناصر ثم الماء ثم الحياة ولا يصح فى قياس العقل حسب تلك النواميس أن توجد الحياة قبل الماء والماء قبل العناصر والعناصر قبل تجمع أجزاء المادة (هذا على سبيل المجاراة لعقولهم وأما فى عقول أتباع محمد ﷺ فيصح ذلك حيث يحال فعله على قدرة الاله القادر على ذلك) وأما اذا كانت العلة الأولى قديمة كما زعمتم فكيف يصح الحكم بان تلك المعاولات لها حادثة مع أن علتها موجودة من الأزل فادامت علتها توجب حصولها بالاضطرار فما الذى أخر حدوثها إلى مدة كذا مليونا من السنين؟ ولأى شيء لم توجد قبل ذلك؟ وان قلتم : حتى استعدت العلة لحدوث المعاولات فاقتضى الحال مدة كذا مليونا الاستعداد قلنا لكم : ولم لم يحصل الاستعداد قبل تلك المدة التى عينتموها له مع ان العلة الأولى القديمة هى مقتضية له أيضا وما الذى أخره وأى شيء أحدثه بعد ذلك؟ وكلما ترقيتم فى تطويل مدة حدوث المعلومات ومدة الاستعداد لحدوثها نقول لكم: ولم لم يكن الحدوث والاستعداد قبل ذلك وهلم جرا؟ والملخص أنه لا شك أن الاستعداد ناشىء عن العلة الأولى بالاضطرار فيكون معلولا لها وتلك العلة قديمة فيلزم أن يكون قديما ويتبعه قدم التنوعات المعلولة والا يلزم وجود العلة فى الأزل بدون المعلول وهو محال فاما أن تقولوا بقدم تلك التنوعات المعلولة وتكذبوا ماثبت فى علومكم الطبيعية واكتشافاتكم لطبقات الأرض وأنتم لا تقولون بذلك وأما أن تقولوا ان المادة وحركتها فاعلتان بالاختيار فخصصتا زمانا لحدوث التنوعات وأنتم أيضا لا تقولون بذلك وتنكرونه أشد الانكار كما رأيته

فى كتبكم ولو فرض أن بعضكم (١) يقول به يلزم عليه القول بان لكل جزء من أجزاء المادة علما وادراكا يؤهله أن يتخابر به مع بقية الاجزاء على كيفية اجتماعها معه ليحصل النوع الفلانى أو النوع الفلانى مخابرة تقصر عنها مخابرة مجلس الأعيان ومجلس الشيوخ فى العالم السياسى واشكالات اخر ترد على ذلك يطول بنا الشرح ان أوردناها الآن واما ان تبينوا سببا لتأخر تلك التنوعات عن علتها وتكونها من كذا مليونا ولا أرى عندكم من بيان ذلك عينا ولا أثرا ودونه خرط القتاد ، واما أن تقولوا بحدوث المادة وحركتها التى تزعمونها وهو المطلوب ونظم الدليل بوجه الاختصار هكذا لو كانت علة التنوعات وهى

---

(١) قال حكيم الاسلام رحمه الله تعالى : ولما ظهر لجماعة من متأخرى الماديين فساد ما تمسك به اسلافهم نبذوا آراءهم واتخذوا طريقا جديدة فقالوا ليس من الممكن ان تكون المادة العارية عن الشعور مصدرا لهذا النظام المتقن والهيئات البديعة والاشكال المعجبة والصور الانيقة وغير ذلك مما خفى سره وظهر اثره ولكن العلة فى نظام الكون علويه وسفليه والموجب لاختلاف الصور والمقدر لاشكالها واطوارها وما يلزم لبقائها تركب من ثلاثة اشياء مادة وقوة وادراك وظنوا ان المادة بما لها من القوة وما يلابسها من الادراك تجلت وتتجلى بهذه الاشكال والهيئات وعند ما تظهر بصورة الاجساد الحية نباتية كانت او حيوانية تراعى بما لابسها من الشعور ما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع وهذا أنفس ما وجدوه من حلية لمذهبهم الباطل وما هو باقرب الى العقل من سائر أوهامهم

وانى أسائلهم كيف اطلع كل جزء من اجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الاجزاء وبأية آلة أفهم كل منها باقيها ما ينويه من مطلبه واى مجلس للنواب او الشيوخ انعقد للتشاور فى ابداع هذه المكونات العالية التركيب البديعة التأليف وانى لهذه الاجزاء ان تعلم وهى فى بيضة العصفور ضرورة ظهورها بهيئة طيرا كل الحبوب فمن الواجب ان يكون له منقار وحوصلة لحاجته اليهما فى حياته واذا كانت فى بيضة الشاهين والعقاب فمن أين لها العلم بانها تكون طيرا آكل اللحوم فلابد له من منسر ومخلاب يصول بهما ومن لهذه الاجزاء المتبددة ان تدرك حاجة الحيوان الى القلب والرئة والمخ والمخيخ وسائر الاعضاء والجوارح لو عقلت هذه الطائفة ما رمى اليه سؤالى هذا لارتبكت فى افكارها وانقلبت الى تهور من الحيرة لا ترفع منه رأسا ولا تحير جوابا

المادة وحركتها قديمة لكان الاستعداد لها قديما ولو كان الاستعداد قديما لكانت التنوعات قديمة لكن التنوعات غير قديمة فلم يكن الاستعداد قديما ولما لم يكن الاستعداد قديما لم تكن العلة المذكورة قديمة وهو المطلوب ، ثم اذا قلتم (ولا اخالكم تجترؤون على ذلك) إن الاستعداد حادث والتنوعات حادثة ولكن المادة وحركتها قديمتان أقول لكم وقبل الاستعداد ماذا كانت المادة وحركتها تفعلان فى الأزل وكيف مر على المادة الأزل وهى متحركة حركة عقيمة غير منتجة ، وما الذى هيأ لها بعد ذلك العقم الممتد الأزلى الغير المحدود أن ينتج عنها ذلك الاستعداد من زمن محدود؟ ثم تلك التنوعات كذلك ، ولا أخال أن عندكم جوابا غير السكوت فالحق بعد ذلك كله ان المادة وحركة أجزائها التى تزعمونها وتثبتونها النفهموا كيف تنوعت الأنواع حادثتان وجدتا بعد ان لم تكونا ثم ههنا أدلة أخرى برهانية تدل على حدوث المادة ولكنها ليست مبنية على اكتشافاتكم كالدليل المتقدم ولا بأس بايراد واحد (١) منها حسن ظن بكم أن عقولكم لا تقصر عن فهمه والاذعان له لاسيما إذا وفيتم بوعدكم برفض التعصب الذى تأملته منكم ، وذلك أنه لا يخفى ان المادة

---

(١) توضيحه ان المادة الاثيرية التى هى مبدأ العالم علويه وسفليه لابد لها من صورة وهيئة تقوم بها قيام العرض بالمعروض وهذه الصورة حادثة لا قديمة فتكون المادة التى اعتبرت مبدأ للعالم حادثة فههنا ثلاث قضايا يدور الكلام عليها فى هذا المقام

القضية الاولى — ان المادة لا بد لها من صورة تعرض لها وهى مسلمة من الجميع

القضية الثانية — ان هذه الصورة حادثة لا قديمة اذ لو كانت قديمة لما لحقها العدم وقد لحقها العدم بما عرض المادة من صور اخرى نوعية وشخصية

القضية الثالثة — ان هذه المادة حادثة لانها اما ان توجد مع هذه الصورة الحادثة او توجد قبلها ليس من الجائز ان توجد قبلها والا لزم وجودها منفكة عن صورة ما وهو بديهى البطلان فتعين وجودها مع هذه الصورة الحادثة فتكون حادثة

لاتخلو عن صورة تقوم بها ولا يمكن أن يتصور وجود المادة خالية عن كل صورة (كما انه لا يمكن أن يتصور وجودها خالية عن التحيز وأخذ قدر من الفراغ) فلا بد أنها تكون ذات صورة اما أثيرية أو سديمية أو عنصرية أو معدنية أو نباتية أو حيوانية ولذلك قلتم: أنها في وجودها الأول الذي هو قبل تنوع الانواع منها كانت في أبسط ما يمكن تصوره وان الصور التي تلبسها المادة انما هي ناشئة عن الحركة التي تتحركها وان الحركة والمادة غير منفصلتين فهذا صريح بانكم لم تعتبروها في ذلك الحين خالية عن جميع الصور لأن عقولكم لا تقبل ذلك ثم ان كل صورة تقوم في المادة لاشك انها حادثة لانها تزول ويطرأ عليها العدم ولو كانت أبسط صورة كالصورة التي فهم من كلامكم انها كانت المادة قبل تنوع أنواعها لأنه شوهد عدمها وخلفها الصور النوعية بعدها وكل ما يطرأ عليه العدم ويقبله يستحيل عليه القدم لان القديم لا يزول كما سيأتي لأن قدمه اما لأن ذاته تقتضي وجوده أي أنه ليس له سبب إلا نفسه وهو القدم الذاتي وأما لأن علة قديمة غير ذاته تقتضي وجوده وهو القدم غير الذاتي وغير ذلك لا يتصور أن يكون قديما وما دام المقتضي لوجود الشيء سواء ذاته أو شيء آخر قائما وحاصلا فكيف يمكن طرو العدم والزوال على ذلك الشيء. فالقديم بنوعيه لا يمكن طرو العدم عليه ولا يقبله البتة إذا تقرر هذا فنقول مادامت الصور اللازمة للمادة حادثة فلا يمكن أن تكون المادة قديمة لأنا إذا ترقينا إلى أبسط صورة كانت في المادة لا يمكن في العقل ان تكون قبلها صورة أبسط منها فنقول هذه الصورة حادثة بدليل قبولها العدم فقبل حدوثها ماذا كان حال المادة فاما ان تقولوا انها كانت بدون صورة وهو محال لما تقدم من استحالة وجود المادة بدون صورة ، وأما ان تقولوا : إنه قبل هذه الصورة كانت صورة أبسط منها وهو خلاف المفروض من ان هذه الصورة هي أبسط ما يمكن من الصور وليس فوقها أبسط منها، واما ان تقولوا

ان المادة قد حدثت مع هذه الصورة فتكون حادثة لا قديمة وهو المطلوب،
وبعبارة اخرى نقول : ان المادة ملزومة لتلك الصورة او لما خلفها من الصور
النوعية التى أتت بعدها وتلك الصور وما خلفها لازمة لا تنفك عن المادة كما
بين العلة والمعلول وحينئذ يقال: لو كانت المادة الملزومة قديمة لكانت هذه
الصور اللازمة قديمة لعدم جواز انفكاك اللازم عن الملزوم لكن هذه الصورة
ليست بقديمة بدليل قبولها العدم فالمادة ليست بقديمة ايضا إذ ان رفع التالى
يقتضى رفع المقدم كما هو مبرهن عليه فى المنطق ويدركه كل ذى عقل سليم ٭

ثم بعد تمام ما تقدم نقول : ان الحادث لا بد له من أمر يحدث عنه ويترجح
به وجوده على عدمه ويخرج به من ظلمة العدم الى نور الوجود وإلا فيلزم
الترجيح بلا مرجح وهو من المحالات البديهية وان أفضى بكم الحال إلى القول
بجواز الترجيح بلا مرجح فاقول لكم اذا سمعتم رجلا يقول: انى رأيت ميزانا
من أدق الموازين التى اخترعها البشر وهو متساوى الكفتين فى الثقل وبينما
كفتاه متوازيتان أو اليسرى مائلة وبالغة بميلها الى الارض بسبب ما إذا
رجحت اليمنى على اليسرى حتى صدمت الأرض وارتفعت اليسرى الى
غاية ما يمكن من ارتفاعها ، وقد حصل ذلك بدون مرجح للكفة الراجحة
لا قوة حيوان ولا مصادمة هواء ولا جسم آخر سقط فيها ولا شيء من جميع ما يصلح
لترجيحها فان صدقتم قول هذا القائل فانى اعلم حينئذ أنكم بلغتم درجة من
العناد لا يسوغ عندها المحاورة معكم وان لم تصدقوه وقلتم ان ذلك من المحال
قلت لكم : هذا هو الترجيح بلا مرجح الذى قدمت لكم أنه من المحالات
البديهية ولا فرق بين هذا المثال وبين جميع ما يتصور من الحقائق سواء كانت
حسية أو عقلية فى أن الترجيح بلا مرجح محال فى الجميع كما هو ظاهر للمتأمل واذا
تنبهتم لكثير من محاوراتكم فى علومكم تجدون أنفسكم كثيرا ما تلتجئون إلى

هذا الأصل وهو استحالة الترجيح بلا مرجح عند محاجة أخصامكم فاذا ادعى شخص أن الحادث الفلانى الطبيعى قد وجد بدون سبب نتج عنه ووجوده فلتة من فلتات الطبيعة تقولون له : هذا غير ممكن والتحقيق عندنا أن مايسمى فلتة انما هو بحسب الظاهر حيث لم يعلم سببه وفى الحقيقة لابد أن يكون وجوده عن سبب وناموس من النواميس الطبيعية قد خفى علينا فكلامكم هذا هو عين الاعتماد على استحالة الترجيح بلا مرجح وبهذا ظهر أنكم تقولون بهذا الأصل ولا تنكرونه ، وانما أطلت لكم فى تقريره مع بداهته ووضوحه لأنى رأيت بعض ضعفائكم ينكرونه ويقولون: لا مانع من الترجيح بلا مرجح وقاحة ناشئة عن الجهل لا يرتكبها إلا كل بايد قاصر القوى العقلية أشبه الناس بالسوفسطائية المنكرين حقائق الأشياء حتى المشاهدات زاعمين أنها خيالات ٠

هذا فاتباع محمد ﷺ بعدما ثبت عندهم أن المادة حادثة بادلة كثيرة منها ماقدمته لكم هنا وخصصتكم به حيث يناسب اكتشافاتكم وأصول علومكم أو انه واضح لا يتوقف على مقدمات يصعب فهمها على عقولكم وثبت عندهم أن الترجيح بلا مرجح محال قالوا: لابد من شيء حدثت عنه تلك المادة وترجح به وجودها على عدمها وهذا الشيء لابد أن يكون موجودا لأن المعدوم لا يوجد عنه شيء مالا اضطرارا ولا اختيارا لما هو بديهى عند العقل فاعتقدوا بوجوب وجود هذا الشيء الذى نشأت عنه المادة التى هى أصل العالم وباستحالة عدمه لامتناع حدوث الموجودات عن المعدوم ولامتناع اجتماع الوجود والعدم وسموه إله العالم ثم قالوا : ان هذا الاله لابد أن يكون قديما والا فلو كان حادثا لاحتاج الى مايحدث هو عنه لامتناع الترجيح بلا مرجح وهكذا يقال فيما حدث عنه وهلم جرا ، فيلزم اما الدور واما التسلسل وكل من

الدور والتسلسل محال فما أدى اليهما وهو حدوث ذلك الاله يكون محالا
واذا استحال حدوثه وجب أن يكون قديما ،

أما الدور فهو توقف وجود كل من الشيئين على وجود الآخر فيلزم أن كلا
منهما وجد قبل وجود سببه فيلزم أن يوجد قبل وجود ذاته وهو ظاهر البطلان
فلو قلنا : ان الاله الذى توقف عليه وجود المادة توقف وجوده عليها إما بلا
واسطة واما بواسطة بان توقف وجوده على شيء آخر وذلك الشيء الآخر
توقف وجوده على وجود المادة(١) فيلزم أن المادة وجدت قبل وجود الشيء
الذى كان سبب وجودها فيلزم انها وجدت قبل وجود ذاتها وهو ظاهر البطلان
ولا يقول به عاقل وهذا هو الدور الحقيقى الذى لاشك فى بطلانه ، وأما
الدور المعى الذى هو عبارة عن توقف شيئين على بعضهما لأنهما معلولان
لعلة واحدة كوجود النهار وضياء الكون المعلولين لطلوع الشمس فهو غير محال
وليس كلامنا فيه ، وأما التسلسل فهو ترتب أمور وتعاقبهما فى جانب الأزل
لانهاية لها وانما حكم العقل باستحالته لاستلزامه عدة محالات وما يستلزم المحال
يكون محالا ، وقد ذكر أتباع محمد ﷺ فى كتبهم جملة أدلة على بطلانه مفصلة
مشروحة ولكن نحن نقتصر هنا على ما يقرب لافهامكم منها ونذكر ما يناسب
ذلك دليلين فنقول : لاشك أن كل عقل سليم يحكم أنه من اجلى البديهيات ان العدد
الناقص لا يساوى فى عدة أفراده العدد الزائد عليه وهو ظاهر الاستحالة

---

(١) بيان ذلك اجمالا ان للمادة على هذا اعتبارين اعتبار كونها سببا لذلك الشيء واعتبار
كونها مسببة عنه ولذلك الشيء اعتباران ايضا اعتبار كونه سببا المادة واعتبار كونه مسببا عنها
. فالمادة باعتبار كونها سببا لذلك الشيء تكون متقدمة على نفسها باعتبار كونها مسببة عن
ذلك الشيء لان كونها سببا مؤثرا فيه يقتضى سبقها له وكونها مسببة عنه يقتضى مسبوقيتها له
فتكون المادة سابقة مسبوقة وهذا هو المراد من كون المادة وجدت قبل وجود ذاتها
واستحالته ظاهرة

ويحكم بان المقدار الذى يكون محصورا بين حاصرين لا بد أن يكون متناهيا واجتماع كونه محصورا بين حاصرين وكونه غير متناه محال فاذا سلمتم هذين الحكمين ولا شك فى تسليمكم اياهما لبداهتهما فأقول أولا لو جاز وقوع التسلسل وهو تعاقب أمور لانهاية لها فى جانب الأزل لساغ لنا أن نفرض سلسلتين من تلك الامور احداهما مبتدأة من هذا الزمان والأخرى من قبله بالف سنة مثلا ولا شك أن الاولى تكون زائدة على الثانية فى عدد مخصوص ثم نأخذ باسقاط أمر أمر من كل منهما أعنى أن نسقط من الأولى واحدا ومن الثانية واحدا وهلم جرا فاما أن تفنى واحدة من السلسلتين دون الأخرى وهو خلاف المفروض . إما أن تفنيا معا فقد بطل عدم التناهى فى جانب الأزل الذى هو التسلسل وهو المطلوب واما أن لا تفنى واحدة منهما فيلزم مساواة الناقصة للزائدة عليها وقد قلنا ان مساواة العدد الناقص للزائد عليه محال فقد ظهر أن عدم تناهى الامور فى جانب الأزل الذى هو التسلسل يستلزم المحال فيكون محالا وثانيا لو كان التسلسل جائزا لساغ لنا أن نفرض خطين يخرجان من نقطة بصورة ساقى مثلث ذاهبين الى غير نهاية فاجزاؤهما بمنزلة أمور متعاقبة فى جانب الأزل غير متناهية ثم نفرض المسافات التى بينهما خطوطا تمتد كلما امتد الخطان المذكوران هكذا فاذا قلنا بعدم تناهى الخطين يلزم منه عدم تناهى امتداد المسافات بينهما التى اعتبرناها خطوطا فلا بد أن نقول بوجود خط من تلك الخطوط غير متناه وهو محصور بين حاصرين إذ لا شك أن تلك المسافات محصورة بين حاصرين وهما الخطان وقد قدمنا أن المقدار الذى يكون محصورا بين حاصرين لا بد أن يكون متناهيا واجتماع كونه محصورا كذلك مع كونه غير متناه محال فما أدى اليه وهو عدم تناهى الخطين المفروضين الذى هو التسلسل محال فاذا تأملتم فيما حررته

لكم فى ابطال الدور والتسلسل واستحالتهما وأنعمتم النظر ظهر لكم أن ذلك الاله الذى هو مصدر المادة لا يمكن أن يكون حادثا عن شىء آخر والا يلزم إما الدور فيما لو رجعنا وقلنا ان وجوده متوقف على وجود المادة وأما التسلسل فيما اذا قلنا أن وجوده متوقف على وجود شىء آخر ، والشىء الآخر متوقف على آخر وهلم جرا الى غير النهاية وكل من الدور والتسلسل محال كما تقدم فما أدى اليهما وهو كون ذلك الاله حادثا يكون محالا واذا استحال حدوثه وجب أن يكون قديما اذ لا واسطة بين الحدوث والقدم وقدمه هو المطلوب .

ثم بعد ثبوت قدم ذلك الآله يقول اتباع محمد ﷺ ان قدمه ماهو الا امر يقتضى وجوده فى الازل اما ذاته فهو قديم لذاته وأما أمر آخر غير ذاته فهو قديم لغيره ولا دليل على أنه قديم لغيره ولا داعى اليه ولو قيل به لانتقل الكلام الى ذلك الغير هل هو قديم لذاته أو لغيره؟ وهكذا فيلزم اما التسلسل وهو محال واما الانتهاء الى قديم لذاته فعلام الهرب منه؟ فالحق أن يقال ان ذلك الآله قديم لذاته أى ان ذاته تقتضى وجوده من الازل (نظير ذلك قولكم أن مقتضى الحركة لاجزاء المادة هو نفس الحركة لا مقتضى لها سواه كما رأيته فى كتبكم فلا تستغربوا هذا القول بأن الآله قديم لذاته بمعنى أن ذاته تقتضى وجوده) وحينئذ فيقال : مادامت الذات التى تقتضى وجود الآله قائمة فلا يجوز أن تقبل العدم والزوال ؛ والا يلزم قيام المقتضى لوجود الشىء مع عدم وجود ذلك الشىء وفنائه وهو محال فثبت بهذا أن ذلك الآله يستحيل عليه العدم والفناء ويجب له البقاء فهو باق الى غير نهاية .

ثم يقولون ان هذا الآله الذى هو مصدر المادة اما أن يكون حدوث المادة عنه بطريق العلية والضرورة بدون ارادة واختيار واما أن يكون حدوثها

عنه بطريق الارادة والاختيار ـ أى انه هو الذى أراد وجودها واختاره وعين له الوقت الذى وجدت فيه ـ لاجائز أن يكون حدوثها عنه بطريق العلية لأنه لو كان ذلك وهو قديم للزم أن تكون المادة قديمة ويتبعها قدم التنوعات اذ حيث لا اختيار ولا ارادة هناك فلم تكن التنوعات الا بطريق المعلولية فلا يجوز أن تكون حادثة متأخرة عن علتها وقد ثبت حدوث كل من المادة وتنوعاتها فلم يكن حدوث المادة عن ذلك الآله بطريق المعلولية فلم يبق الا أنها حدثت بارادته واختياره وتخصيصه لها الوقت الذى اوجدت فيه فقد ثبت بهذا أن ذلك الآله مريد مختار وجبت له الارادة واستحال عليه ضدها وهو الكراهية والاضطرار*

ثم أن ذلك الاله بارادته لوجود تلك المادة قد رجح وجودها على عدمها وخصص زمانه واما احداث نفس الوجود وابرازها من العدم فهو لا يكون بالارادة ، وقد قلنا : انه لا يكون بطريق العلية فلا بد أن يكون بطريق الصنع والفعل فتلك المادة ما حدثت الا بفعل ذلك الاله وصنعه قابلة لتلك التنوعات المحيرة للافكار وحينئذ يقول أتباع محمد ﷺ : أن ذلك الاله الذى أوجد تلك المادة (الغامضة (١) الحقيقة على عقول فلاسفة البشر لما يظهر من الاطلاع على الاختباط الواقع فى كتبهم فى تحديدها وكشف حقيقتها) التى تنوعت الى تلك الأنواع العجيبة الغريبة من سماويات وأرضيات

(١) لقد حار الطبيعيون حيرة عظيمة فى اصل المادة وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ثم أجمعوا على انه من الاسرار الغامضة التى لا يهتدى الانسان الى ادراكها لانه لا يتيسر لهذا العقل الانسانى المعتاد بل لابد فيه من عقل آخر يكون اوسع افقا وأرحب مجالا واما ما قيل من ان الاجسام مكونة من ذرات صغيرة لا تقبل الانقسام تسمى الجواهر الفردة فهو رأى احد فلاسفة اليونان وقد جرى عليه العلماء لفهم ظواهر الطبيعة فقط

جمادية ونباتية وحيوانية قابلة التطور من طور الى طور ، والاستحالة من صورة الى صورة لاشك أنه قادر أكمل القدرة وعالم أتم العلم سواء كان هو الذى نوع تنوعات المادة الى أنواعها وطورها الى اطوارها واوجد منها تلك الكائنات الغريبة مع ذلك الاحكام العجيب كما هو اعتقاد اتباع محمد ﷺ وانه أوجد المادة الصالحة لتلك التنوعات والتطورات بموجب النواميس القائمة بها وحركة اجزائها الفردة كما تقولون أنتم من أن تلك التنوعات حصلت عن حركة أجزائها جارية على نواميس مخصوصة فعلى كل من الأمرين تحصل الدلالة القاطعة على كمال قدرته وعلمه لأن الذى يوجد شيئا بسيطا ثم يقلبه الى أنواع لاتعد ولا تحصى ويستخرج منه الغرائب والعجائب مع غاية الاتقان والاحكام او الذى يوجد شيئا بسيطا قابلا بمقتضى نواميس قائمة فيه ان يؤل الى انقلابه الى انواع تفوق الحد غرابة متقنة محكمة لايشك عاقل بوجوب قدرته وعلمه واستحالة عجزه وجهله ، مثلا اذا رأينا ساعة من الساعات التى يستعلم بها الوقت وكل منا يعرف ماتحتوى عليه من التركيب العجيب المبنى على قواعد هندسية وقياسات نظامية ونواميس ميكانيكية فى غاية الضبط ونهاية الاحكام فكما نعلم أن لها صانعا صنعها وأتقنها نعلم قطعا أن ذلك الصانع ماصنعها الا وهو ذو قدرة كافية لصنعها وذو علم كاف لاتقانها وأحكامها سواء كان هو الذى صنع أجزاءها وركبها حتى تم عملها أو هو صنع أجزاءها على طريقة تتركب هى بها ويتم عملها ، ولو قيل : لنا ان الذى صنع هذه الساعة رجل اعمى أصم مقطوع اليدين والرجلين جاهل ابتر لايدرى شيئا من علم الهندسة ولا شيئا من فن الميكانيكيات لكذبنا ذلك القائل أشد التكذيب ولم تذعن له عقولنا باقل التصديق وقلنا ان من يصدق هذا

القول هو أحمق الحمقاء ، هذا ثم اقول لكم انكم لما لم تهتدوا الى العلم بوجود من أوجد المادة واعتقدتم قدمها ثم رأيتم تنوعاتها وتطوراتها التى حدثت فيها بعد أن لم تكن ولم تهتدوا أيضا الى العلم بوجود من احدث تلك التنوعات والتطورات احتجتم الى البحث عن موجب نشأت عنه تلك التنوعات. اذ العقل لا يقنع أنها حدثت عن المادة بمجردها لان كل حادث لابد له من سبب صالح لحدوثه ومجرد المادة ليس كذلك فبعد هيامكم فى كل واد قلتم: أن اجزاء المادة الفردة المختلفة الاشكال متحركة حركة أزلية وبسبب تلك الحركة اخذت تجتمع تلك الاجزاء على كيفيات واوضاع شتى فنتجت تلك التنوعات فاقنعتم عقولكم بان تلك الحركة هى سبب تلك التنوعات مع أنكم لم تروا تلك الاجزاء لا بالعين المجردة ولا باكبر المعظمات للمرئيات (ولن تروها) ولم يحصل لكم ادنى احساس بحركتها (ولن تحسوا) وانما الذى الجأكم الى القول بها وبحركتها هو مجرد احتياجكم الى فهم كيف تنوعت تلك الانواع وما اكتفيتم بذلك حتى قلتم ان لتلك الاجزاء أشكالا متغايرة حتى يصح لكم أن تقولوا انه باجتماعها مع تغاير اشكالها تظهر الانواع والصور وانتم مع ذلك كله لم تروا نفس الاجزاء فضلا عن رؤية أشكالها بل كل ذلك فرض(١) وتقدير حملكم عليه الاحتياج الى فهم كيف حصلت

---

(١) لقد فرض العلماء مادة فى منتهى اللطافة والمرونة مالئة لهذا الكون اطلقوا عليها لفظ الاثير

(فالأثير) ماهو الا مادة فرضية فرضت لتعليل الظواهر الطبيعية المختلفة كالنور وغيره وذلك لانهم لما رأوا وايصالنا من الاجسام العلوية بدون واسطة لان اجسامها محدودة والهوى الذى بيننا وبينها محدود علموا ان لابد من وجود واسطة بيننا وبينها وذلك الفضاء الشاسع الذى يفصلنا عنها وتلك الواسطة هى الاثير وهو جسم غازى لطيف للغاية يحمل الينا الاهتزازات الضوئية وبذلك يصل اثرها الينا وهى نظرة لاشىء فيها خير من العلم واليقين ارتضى بها العلماء تقريبا للعلم الى الاذهان

الانواع فانتم هاهنا قد تركتم قاعدتكم التى طالما نسمعكم تطنطنون بها وهى أنكم لاتسلمون الا بالذى يؤديكم اليه الاحساس والمشاهدة فنراكم هنا قد التجأتم إلى الاستدلال بالدليل النظرى العقلى بدون احساس ولا مشاهدة ونحن لاننكر عليكم هذا الطريق من الاستدلال العقلى فانه طريق لناولجميع الحكماء الاساطين ولكن نذكركم أن قولكم أنالانعتمد الاعلى الاحساس والمشاهدة قول لم يتم لكم الجرى عليه (ولن يتم) وان قلتم: ان الحال الجأنا هنا حيث قد شاهدنا آثار تلك الاجزاء وحركتها وهى التنوعات واستدللنا بتلك الآثار على مؤثرها نقول لكم: وهكذا نحن وسائر اهل الملل نستدل على وجود إله للعالم بمشاهدة آثاره وهى هذه الكائنات فلم نراكم تستصعبون فهم استدلالنا و يسهل عليكم استدلالكم مع أن استدلالنا هو المقبول عند العقل كما سيأتى بيانه؟ ه

هذا ثم نرجع الى صددما كنافيه ونقول: وأما اتباع محمد ﷺ فلما ثبت عندهم حدوث المادة وثبت أن لها محدثا أحدثها وأوجدها من العدم على ماهى عليه من قبول التنوعات والتطورات وثبت عندهم بذلك ارادة ذلك الموجد وقدرته وعلمه لم يحتاجوا بعد ذلك الى أن يلتمسوا اثبات شىء آخر غير ذلك الموجد لأجل فهم كيف تنوعت تلك الأنواع فقالوا: ان ذلك الاله الموجد للمادة على ما هى عليه من قبول التنوعات المتصف بالارادة والقدرة والعلم هو الذى نوع من المادة بعد ايجادها تلك الانواع وابتدع هاتيك الصور التى تحتار فيها الفكر اذ حيث لابد من موجب لحدوث تلك الأنواع فاحالة احداثها على ذلك الاله المريد القادر العليم هو المقبول عند العقل دون احالته على حركة أجزاء المادة التى لاتوصف بارادة ولا قدرة ولا علم بل بمجرد الاتفاق فى تجمع الاجزاء على الكيفيات المخصوصة ثم جريها على نواميس

لايدرى العقل كيف لازمتها وبعض تلك النواميس وان كان فى امكان العقل أن يلتمس لملازمته موجبا وذلك كوراثة الفروع للتباينات التى فى الأصول كما تقدم فى تقرير مذهبكم ولـكن ليس فى امكانه أن يلتمس موجبا لملازمة بعض آخر منها وذلك كالتباينات التى لابد أن توجد فى كل فرع يخالف فيها أصله اذ لـكل عاقل أن يقول: أى داع للزوم تباينات الفروع للاصول وأن لايتفق موافقة فرع لاصله بدون تباين عنه فى شىء ما مع أن المأمول فى العقل ان الفروع توافق الاصول ولاتخالفها فلولا ان هناك شيئا يوجب تلك التباينات دائما لما كانت ناموسا ملازما ، وأما مجرد حركة الاجزاء فلا مقنع فيه للعقل أنه يوجب تلك التباينات على الدوام إذ لايظهر فيها أدنى صلاحية لذلك الاستمرار كما هو ظاهر لـكل فـكر سليم *

وفى هذا المقام مثال لايخلو عن توضيحه وهو انا اذا علمنا ان رجلا صنع أجزاء آلة بخارية ثم وجدناها بعد ذلك مركبة وآخذة فى الدوران وفى عملها الخاص بها فاى الامرين يقبله العقل؟ أقولنا ان الذى صنع أجزاء تلك الآلة هو الذى ركبها وادارها ام قولنا ان تلك الاجزاء بواسطة حركة قائمة بها اخذت تتركب مع بعضها على طول الزمان حتى تم تركبها؟ لاشك ان العقل يقبل الأول ويرفض الثانى من دون شك ولا ريب وهاهنا انما يقبل العقل ان الذى اوجد المادة قابلة لتنوعاتها هو الذى نوعها منها لا انها هى بحركة اجزائها وناموس الوراثة وناموس التباين بدون ان يكون لموجد المادة صنع تنوعت تلك التنوعات المحتاجة لأتم القدرة واسمى العلم والحكمة فانصفوا يا اولى الالباب *

وبعد جميع ماتقدم فى اثبات ارادة اله العالم وقدرته وعلمه قال أتباع محمد عليه السلام بامر يجب التنبيه عليه هنا وهو أنهم قالوا : ارادة

ذلك الآله وقدرته انما يتعلقان بالجائز عقلا أى بالامر الذى يصدق العقل
بان يكون موجودا وبان يكون معدوما مهما كان عظيما جسيما فالاله
بارادته يخصصه بوجوداو بعدمو بغير ذلك من الشؤون والأحوال وبقدرته
يبرزه على طبق ماخصه بارادته، واما الامر الواجب عقـــلا اى الذى
لايصدق العقل بعدمه كملازمة الحيز للجرم، والامر المستحيل عقلا اى الذى
لايصدق العقل بوجوده كالجمع بين النقيضين فارادة ذلك الاله وقدرته
لايتعلقان بهما البتة لاايجادا ولا اعداما لأن الواجب عقلا حاصل حتما
ولا يمكن خروجه عن الوجود فلا يتعلقان به ايجادا لانه تحصيل حاصل
ولا اعداما لاستحالة عدمه وخروجه عن الوجود والامر المستحيل
معدوم حتما ولا يمكن دخوله فى الوجود فلا يتعلقان به لا اعداما لأنه
تحصيل حاصل ولا ايجادا لاستحالة وجوده ودخوله فى الوجود واما علم
ذلك الاله فيتعلق بكل امر تعلق انكشاف سواء كان ذلك الامر جائزا
عقلا أو واجبا أو مستحيلا فذلك الاله يعلم بعلمه كل شىء أيما كان، وسواء
كان حاضراً أو ماضيا أو مستقبلا أما الحاضر فتعلق علمه به ظاهر سواء
كان واجبا أو جائزا أو مستحيلا فان المستحيل حاضر فى التصور فيعلمه
ويعلم استحالته وأما الماضى المنقطع الوجود فهو من الحوادث التى حدثت
بايجاده وعدمت باعدامه ولا غرابة بان من صنع شيئاثم أعدمه يبقى تعلق
علمه به وأما المستقبل الذى لم يوجد بعد فتعلق علمه به ايضا ظاهر فانه مادام
ذلك الشىء سيحدث ولا يحدث الا بتعلق ارادته بتخصيصه وقدرته بابرازه
لان كل الحوادث آثار أفعاله فلابد أنه يعلمه قبل ان يوجد حيث انه اراده
ولا غرابة فى ان انسانا عزم على عمارة دار بكيفية مخصوصة بعد شهر مثلا
انه يعلم ماسوف يصنعه فى تلك الدار لكن الفرق بين علم ذلك الانسان وعلم

الآله ان ذلك الانسان ربما لايتيسر له صنع تلك الدار لمانع ما فيصير علمه السابق غير مطابق للواقع واما الآله فلا مانع يمنعه من افعاله التى يريد أن يفعلها فلا بد ان يفعلها فلا يزال علمه مطابقا للواقع ولا يمكن تخلفه البتة *

ومن هذا المقام تفهمون ما ورد فى الشريعة المحمدية ان كل شىء من الحوادث بقضاء وقدر لأنه مادام ان كل حادث فى الكون هو بصنع إله العالم على وفق ماسبق به علمه فلا بد ان تتعلق به قدرته ايجادا على وفق ماسبق به علمه وهو القضاء ولابد ان يتعلق به علمه ازلا ويحدده بحده الذى يوجد عليه وهو القدر (١) (تفسير القضاء والقدر بما هنا هو احد تفاسير

---

(١) عقيدة (القدر) من العقائد التى كثر الخوض فيها على غير علم. وجهل كثير من المسلمين فضلا عن سواهم حقيقتها واخذ بعض اعداء الدين الاسلامى من الافرنج ينسبون تأخر المسلمين وتصورهم عن الامم الأخرى فى العلوم والمعارف والرقى والحضارة الى عقيدة (القدر) وهو خطأ فاحش وتحامل ظاهر يراد منه النيل من هذا الدين الحنيف واطفاء نار العداوة التى تأجج فى قلوبهم.

ولبيان هذه العقيدة كما فهمها أئمة المسلمين وعلماؤهم نقول :

القدر والتقدير لغة بمعنى واحد وشرعا علمه تعالى واحاطته الازلية بمقادير الاشياء واحوالها التى ستكون عليها من مبدأ ونهاية وقوة وضعف وخير وشر وما تقع فيه من زمان ومكان وما يسبقها من مقدمات ويلحقها من آثار الى غير ذلك بحيث يكون ايجادها بعد على وفق ذلك العلم فلا يقع مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا طبقا لما احاط به علمه وسبق به كتابه وليس معنى الايمان بالقدر اعتقاد ان ما علم الله وجوده من المسببات لابد من وجوده ولو منقطعا عن اسبابه كما يزعم الجهلاء انه اذا كانت السعادة والشقاوة والرزق والحرمان والنصر والهزيمة والصحة والمرض كل اولئك سبق به الكتاب وجف عنه القلم وطويت عليه الصحف فلا فائدة اذا فى اتعاب النفس والاعمال ومحاولة الوصول الى المقاصد من طرقها التى جرت بها السنن الكونية ان من زعم ذلك فقد فسر معنى القدر فآمن ببعضه وكفر ببعضه ذلك ان الله تعالى كما علم الاشياء علم اسبابها وربط بعضها ببعض فى علمه ومجموع ذلك هو القدر والاعتقاد بالقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر يبعث صفة الجراءة والاقدام

ثلاثة ذكرها الباجورى فى حاشية الجوهرة ، وهذا تفسير الماتريدية) ،
ومن هنا أيضا تفهمون ما ورد فى تلك الشريعة من أن الرسل والأولياء
يخبرون بالغيب ومستقبل الأمور لأنه اذا كان اله العالم يعلم الغيب والمستقبل
من الحوادث حيث ان كل حادث بصنعه وبتعلق ارادته وعلمه فلا مانع من
أنه يعلم بذلك الغيب أو المستقبل أحدا من أولئك الرسل والأولياء ، وان
قلنا : ليس من طبيعة علم الانسان أن يعلم شيئا منها لذاته لكن لا مانع من
أعلام الآله له به فما كان ذلك من أولئك المذكورين إلا باعلام الآله لهم
وهم يخبرون بذلك ، وليس أحد منهم يدعى علم الغيب بذاته لأنه فضلا عن
كون علمهم لا يقتضى ذلك فالشريعة المحمدية تعد ادعاء علم الغيب بالذات
من أكبر المحظورات وتوجب تكفير من يدعيه *

ثم أن اتباع محمد ﷺ قالوا : ان إله العالم الذى ثبت لدينا وجوده
وقدمه وبقاؤه وقدرته وارادته وعلمه يجب أن يكون حيا اذ الميت لا يعقل
وصفه بارادة ولا قدرة ولا علم كما هو ظاهر فقد ثبت له صفة الحياة
واستحال أن يوصف بالموت ، ثم قالوا : ان هذا الآله لا يمكن أن يشابه المادة
فى خاصة من خواصها التى من طبيعة نفس المادة أن تكون لازمة لها
لا تنفك عنها وهى الصفات العامة اللازمة لجميع أنواع المادة أو من طبيعة
نفس المادة أن تقبلها سواء وجدت فى جميع أنواع المادة أو فى بعض

وأخلاق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الاسود وتنشق منها
مرائر النمور ويطبع الانفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الاهوال ويحليها بحلى الجود
والسخاء ويدعوها الى الخروج عن كل ما يعز عليها بل يحملها على بذل الارواح والتخلى عن
ثمرة الحياة فى سبيل الحق وكيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه واعلاء كلمة امته من يعتقد بان
الاجل محدود والرزق مكفول والامور بيد الله يصرفها كيف يشاء *

مركباتها وهى الصفات العامة غير اللازمة أو غير العامة، وذلك كالجوهرية والجسمية. والعرضية. والتحيز. والتركب. والتجزى. والتولد عن الغير وولادة الغير. والاتصال. والانفصال. والحيوانية والنباتية والجمادية والانتقال من حيز الى حيز والانفعالات النفسية وأمثال ذلك لأنه لو شابهها فى شىء من تلك الخواص لكان مادة مثلها لأن الشىء الذى يشابه شيئا آخر فى خاصة من خواصه ومقتضيات ذاته وطبيعته يكون مثله البتة ولو كان ذلك الآله مادة لجاز عليه ماجاز عليها من الحدوث لأن ماجاز على احد المثلين جاز على الآخر، وقد قام الدليل على وجوب قدمه واستحالة حدوثه فقد ثبت بهذا أن ذلك الآله لايجوز أن يشابهها فوجب أن يخالفها، وهذا معنى ما يعتقده اتباع محمد ﷺ من أن اله العالم يجب له المخالفة للحوادث ويستحيل عليه المشابهة لها فلا هو مادة ولا يجوز اتصافه بشىء من خواص المادة كما تقدم (١).

---

(١) نفى المشابهة والمماثلة يشتمل على امور

الاول انه تعالى ليس بعرض لأنه لوكان عرضا لكان محتاجا الى شىء يقوم به ضرورة احتياج الصفة للموصوف والاحتياج علامة الحدوث والله سبحانه منزه عن ذلك

الثانى انه تعالى ليس بجوهر لان الجوهر يلازمه التحيز والله سبحانه تعالى منزه عن ذلك

الثالث يجب تنزيه الله تعالى عن الصورة فلا يجوز ان يطلق عليه انه ذو صورة كبيرة أو صغيرة لان الصور من خواص الاجسام تحصل لها بواسطة التركيب والتركيب محال على الله تعالى

الرابع يجب تنزيه الله تعالى عن المكان المحسوس لان التحيز فى المكان من خواص الاجسام والجواهر المادية وهذه المسألة قد لاتدركها العقول الضعيفة لانها لاتتصور موجودا بدون حلول فى مكان، وسبب ذلك ان مثل هذه العقول الصغيرة لاتدرك الا ماهو واقع تحت حواسها من الماديات التى يشاهدها الانسان ويلمسها ويحس بها ولاريب فى ان هذه الماديات لابد لها من المكان حتما ولكن الله تعالى منزه عن المادة اذ هو ليس كمثله شىء فلا يتحيز فى مكان واذا فكر الانسان فى ان فى الحوادث أمورا معنوية موجودة يسهل عليه ان يدرك تنزيه الله

ثم حيث تبين أنه ليس جوهرا ولا جسما فلا يحتاج لمكان يقوم فيه ولا عرضا فلا يحتاج لمحل يحل فيه ويتقوم به، وأيضا لو كان عرضا واحتاج الى محل يتقوم به لكان صفة ولو كان صفة لما صح اتصافه بالصفات التى تقدمت وهى القدرة والارادة والعلم والحياة وقد قام الدليل على اتصافه بها فلا يصح أن يكون صفة فليس هو عرضا محتاجا الى محل يحل فيه ويتقوم به وهو المطلوب، ثم حيث ثبت أنه قديم فلا يحتاج الى موجد يوجده، وهذه المعانى وهى عدم احتياجه الى المكان والمحل والموجد هى معنى مايعتقده أتباع محمد ﷺ من ان اله العالم يجب له القيام بنفسه ويستحيل عليه القيام بغيره، وعلى هذه الصفة دليل آخر وهو أنه لو احتاج الى مكان أو محل يحل فيه أو موجد يوجده لكان من الواجب أن يكون كل ما ذكر موجودا قبله ولا يكون مصنوعا له وقد قام الدليل على أنه هو القديم قبل كل شيء من الأكوان وكل شيء منها مصنوع له فكيف بعد ذلك يفتقر الى شيء منها، ولا يشكل ما مر من أنه لا يشابه المادة فى شيء من خواصها بانه يشابهها فى أنه موجود ومريد وعالم وقادر وحى وأمثال ذلك مما ثبت له من الصفات فان أنواع المادة توصف بذلك لان اعتقاد اتباع محمد ﷺ أن صفاته المذكورة لاتشارك صفات أنواع المادة الا بالاسم لمشابهة الآثار وتخالفها فى الحقيقة غاية المخالفة لأن صفاته المذكورة عندهم هى صفات قديمة ليست اعراضا وأما صفات أنواع المادة التى تشاركها فى الاسم فهى أعراض وأحوال للمادة حادثة زائلة ولا يخفى أن المشابهة فى الآثار لاتقتضى المشابهة فى الحقيقة ولا تستلزمها على أنه شتان ما بين

تعالى عن الحلول فى المكان وإذا صعب ادراك هذا على بعض العقول القاصرة فانه يجب ان يؤمن بان الله تعالى ليس كمثله شيء، وانه مخالف للحوادث فى كل شيء والله الهادى الى سواء السبيل *

آثار صفاته وآثار صفات تلك الانواع من عظمة آثار صفاته وشمولها وكمالها وحقارة آثار تلك الصفات وقصورها ونقصها كما يعلم ذلك بالمقابلة بين آثار الطرفين * ثم أن اتباع محمد ﷺ بعد استدلالهم على وجود الله للعالم والزامهم اياكم بالتصديق بوجوده بمقتضى ماتقدم من الدليل لاحاجة لهم ان يقيموا دليلا فى مقابلتكم بان هذا الآله واحد لاشريك له فى الالوهية وفى تخصيص العالم وايجاده لانكم كنتم لاتصدقون بوجود الله واحد فألزموكم بالتصديق بوجوده فهم فى مأمن منكم أن تدعوا بوجود اله آخر سواه إذ من الواضح لديكم أن تقولوا انه بعد اثبات وجود آله للعالم بدلالة آثاره عليه أى داع يدعو الى إثبات وجود غيره مع أنه يكفى لايجاد هذا الكون اله واحد متصف بتلك الصفات التامة الكافية للايجاد والاحكام لكنهم حيث يعتقدون أن ذلك الآله واحد ويستحيل أن يكون له شريك فى الالوهية وعقائدهم لايبنونها الا على الدليل القاطع سواء كان دليلا عقليا أو دليلا نقليا يلزمهم ان يقيموا الدليل عقليا او نقليا على وحدانية ذلك الآله (١) وانفراده بايجاد العالم واستحالة وجود اله سواه، وكذلك اذا انتصبوا لمخاصمة الفرق الذين يقولون بتعدد الآلهة ويعتقدون بوجود الهين للعالم أو ثلاثة أو أكثر فيلتزمون حينئذ أيضا لالزام هؤلاء الفرق بالاقرار بوحدانية اله العالم أن يقيموا الدليل على وحدانيته واستحالة

---

(١) من الصفات الواجبة لله تعالى صفة الوحدانية وقد اصطلح العلماء على تقسيمها الى ثلاثة اقسام وحدة الذات ووحدة الصفات ووحدة الافعال فاما وحدة الذات فانها تشمل امرين الاول نفى التركيب فى ذات الله تعالى بمعنى ان ذاته ليست مركبة من جزأين فاكثر، الثانى نفى الشريك المماثل لله تعالى، واما وحدة الصفات فانها تشمل امرين ايضا، الاول ان ليس لله فاكثر من جنس واحد كعلمين وقدرتين وهكذا، الثانى ان ليس لاحد صفة تشبه صفة من صفاته تعالى، واما وحدة الافعال فيريدون منها ان ليس لاحد فعل سوى الله تعالى *

اله سواه لكن دليلهم فى مقابلة هؤلاء الفرق لا يكون الا عقليا لأن هؤلاء لا يؤمنون بالدليل النقلى فلا تجدى نفعا اقامته فى مقابلتهم*

أما الدليل النقلى على وحدانية اله العالم الذى يعتمده أتباع محمد ﷺ فهو كثير فى القرآن الذى جاء به محمد ﷺ وأخبر أنه من عند اله العالم فا كثر سوره محتوية على التصريح بتوحيد الآله وانفراده بالايجاد بل على دلائل على توحيده عقلية برهانية أو اقناعية توافق عقول العامة الذين تقصر عقولهم عن ادراك البرهان وانما جاز لاتباع محمد ﷺ ان يعتمدوا فى اعتقادهم توحيد الآله على الدليل النقلى لأن التصديق برسالة محمد ﷺ وبصدق جميع ماجاء به لا يتوقف على اعتقاد وحدانية الآله إذ لهم أن يصدقوا برسالته من جانب من أوجد العالم لقيام الدلائل الدالة على صدق دعواه سواء كان ذلك الموجد واحدا منفردا بالايجاد أم لا ثم بعد تمام تصديقهم له برسالته يخبرهم بان الذى أرسله هو واحد منفرد بالايجاد لا شريك له فى ذلك*

«وأما الدليل العقلى» الذى يقيمه اتباع محمد ﷺ على وحدانية إله العالم فى مقابلة الفرق الذين يقولون بتعدد الآلهة ويعتمدونه فى اعتقادهم وحدانيته أيضا فله صور كثيرة وطرق شتى * وانا أذكر هنا دليلا واحدا من ذلك فى هذا المقام حبا بالاختصار فاقول: أن اتباع محمد ﷺ يقولون فى هذا المقام: لو تعدد اله العالم كأن يكون هناك الهان (أو أكثر إذ لا فرق فى هذا الاستدلال) لما وجد شىء من العالم لكن عدم وجود شىء من العالم باطل لانه موجود بالمشاهدة فما أدى اليه وهو التعدد باطل* واذا بطل التعدد ثبتت الوحدانية وهو المطلوب وانما لزم من التعدد كأن وجد هناك الهان عدم وجود شىء من العالم لأنهما اما ان يتفقا وأما ان يختلفا فان

اتفقا فلا جائز أن يوجداه لئلا يلزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد وهو محال لاستلزامه أنه ان حصل بايجاد كل منهما وجود للعالم مستقل فيلزم أنه وجد بوجودين وهو انما وجد بوجود واحد فقط كما هو ظاهر وان لم يحصل بايجاد كل منهما الا وجود واحد للعالم فيلزم أن كلا منهما لم يوجده بانفراده بل بمشاركة الآخر كما لو سلطت قوتان على دحرجة حجر لا تكفى كل منهما بانفرادها لدحرجته بل يلزم لها اجتماعهما فكل من هاتين القوتين محتاجة للاخرى فهى مركبة معها وقد صارتا قوة واحدة تنسب اليهما الدحرجة ولا تنسب لواحدة منهما على الاستقلال وعلى هذا يكون هذان الالهان قد ركبا وجعلا الها واحدا ينسب اليه الايجاد ولا ينسب لكل منهما على الاستقلال لأنه جزء الموجد لا موجد مستقل وإله العالم انما هو موجده ، وإذا قيل إن الاله حقيقة هو المجموع المركب من الاثنين قلنا قدمر أن التركيب محال على الآله الموجد للعالم لوجوب مخالفته المادة وأنواعها فى صفاتها التى تختص بها ومنها التركيب ولا جائز أن يوجداه مرتبا بأن يوجده أحدهما ثم يوجده الآخر لئلا يحصل تحصيل الحاصل وهو محال كما تقدم ، ولا جائز أن يوجد أحدهما البعض والآخر البعض الآخر للزوم عجزهما حينئذ لأنه لما تعلقت قدرة أحدهما بالبعض سد على الآخر طريق تعلق قدرته به فلا يقدر على مخالفته ، وهذا عجز والعجز على الآله محال وان اختلفا بان أراد أحدهما إيجاد العالم والآخر اعدامه فلا جائز ان ينفذ مرادهما لئلا يلزم عليه اجتماع الضدين ولا جائز أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر للزوم عجز من لم ينفذ مراده ، والآخر مثله لانعقاد المماثلة بينهما . وأيضا اذا نفذ مراد أحدهما دون الآخر كان الذى نفذ مراده هو الآله دون الآخر وتم دليل الوحدانية ، وقد ذكر فى القرآن الكريم هذا الدليل مجملا مختصرا فقال : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أى لو كان يقوم فى خلق السموات والارض آلهة غير الله

أى وان كان الله معهم لفسدتا - يعنى لم توجدا - أى لكن عدم وجودهما باطل بالمشاهدة وجودهما فبطل ماأدى اليه وهو وجود جنس الآلهة غير الله فثبت أنه ليس فيهما اله غير الله بل هو المنفرد بالألوهية وهو المطلوب ، وليس المحال وجود جمع من الآلهة بل بمجرد التعدد كما أشرنا اليه بقولنا جنس الآلهة، ثم ان ماتقدم من فرض تجويز الاتفاق بين الالهين انما هو ببادىء الرأى وعند التأمل لايصح صلح بين إلهين إذ مرتبة الالوهية يقتضى الغلبة المطلقة والاستبداد التام كما اشار اليه فى القرآن المجيد بقوله: (اذن لذهب كل آله بما خلق ولعلى بعضهم على بعض) (هذا وانى أكرر التنبيه بان هذا الدليل وأمثاله انما تقام فى مقابلة من يعتقد بوجود آله للعالم ويعرف عظم مرتبة الالوهية ولكنه يدعى التعدد فيردع عن دعوى التعدد بهذا الدليل وأمثاله، وأما من لم يعتقد بوجود إله للعالم فانما يصح اقامة هذا الدليل فى مقابلته بعد الزامه انه لابد للعالم من اله أوجده ثم تعريفه مرتبة الالوهية وماتقتضيه من العظمة والاستقلال والا فلا تراه مباليا بعجز الآله ولابما يلزم من بقية المحالات التى تقدمت فى الدليل المتقدم فليتنبه) ٥

ثم أن أتباع محمد عليه السلام وجدوا أن هذه الصفات التى ثبتت للاله الموجد للعالم وهى الوجود والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والوحدانية والعلم والارادة والقدرة والحياة هى التى عليها مدار الالوهية ووجود إله متصف بها يكفى لتعليل وجود هذه الأكوان ويقتنع بذلك كل عاقل ولكنهم تأملوا بعد ذلك فى شأن ذلك الآله سبحانه وفى بديع مصنوعاته وما احتوت عليه من كمال الاتقان فقالوا: اذا كانت مصنوعاته فى هذا الكمال أيكون هو سبحانه ناقصا فى صفة من الصفات الكمالية؟ كلا اننا فى جميع ماتتصوره لانجد الشىء يوجد مثله فضلا عن أن الناقص يوجد ويبتدع الكامل أو أن

الكامل يوجد أكمل منه، هذه الحيوانات مهما صنعت وابتدعت نراها عاجزة عن صنع مثلها فى الحيوانية بل ما يقرب من مثلها، هذا الانسان وهو أعلمها وأقدرها فى الصناعة مهما صنع وابتدع فانه لا يقرب فى مصنوعاته من الكمال الذى هو قائم فيه فضلا عن أن يصنع مثله أو أكمل منه فلا يقدر على صنع نبات فضلا عن صنع حيوان أو انسان غاية ما يصنعه أنه ينحت صورة جمادية خالية عن كل حياة أو يركب تركيبا كياويا يجمع فيه العناصر مع بعضها ولا يبلغ من الحياة أدنى مبلغ أو يركب آلة ميكانيكية تتحرك بسبب نواميس الميكانيكيات حركة غير دائمة ، ولا حياة هناك ولا احساس، واذا أراد التصرف بشيء من الحيوان أو النبات بتغيير صورته فلا قدرة له على ذلك إلا باستعمال النواميس الموضوعة للتغير فى ذلك الشيء من جانب الآله سبحانه وفى الحقيقة ليس التغيير الحادث هناك صنعاله وماله فيه الا أنه اكتشف على الناموس الذى ينشأ التغير عنه وسلطه على الأمر الذى يريد تغييره ولو كان ذلك بصنعه وخلقه لكان يعلم شؤونه قبل بروزه فيعلم قدره وكيفيته بكل تدقيق والحال ليس كذلك، بيان ذلك ان الانسان اذا اراد أن يجعل فرخ الطائر مشوها فى خلقته يسلط الحرارة على جانب من البيضة بقوة ويضعفها عن جانب آخر فيظهر الفرخ منها بتشويه مخصوص فذلك التشويه ليس صنعا لذلك الانسان والا لكان يعلم قدره وكيفيته وتحديده وموضعه من الفرخ بكل تدقيق قبل أن يخرج من البيضة ، والحال ليس كذلك غاية الامر أنه بالتجربة أو الصدفة اطلع على ناموس تغيير الفرخ فى البيضة وتشويهه فصار يستعمله فى سبيله كالذى يعلم أن الماء يروى الظمأ فعندما يظمأ يرسل الماء فى معدته فيرتوى ويذهب ظمأه ، أيقال: أن هذا المرسل للماء هو الذى أوجد الارواء وأذهب الظمأ ويعد ذلك من مصنوعاته ؟ كلا غاية ما فعل أنه

أرسل الماء فى المعدة والماء عندما وصل اليها نشأ عنه تبريد حرارتها وذهاب العطش وما لذلك المرســـل فيما حدث من ذلك أدنى تأثير، ومن هنا يظهر بالطريق الأولى أن زارع الزرع مهما سعى فى بروزه وبدو ثمرته للوجود باستعمال النواميس المعروفة لذلك لا يقال عنه أنه أوجد هذا الزرع وأبدى ثمرته وكونهما على ما فيهما من التركيب العجيب والخواص البديعة فليس شىء من ذلك مصنوعا له على سبيل الحقيقة نعم طريق المجاز لا حجر فيه، وهكذا يقال فى جميع ما يتسبب الانسان فى وجوده باستعمال نواميس الاكوان لا صنع له فيها الا تسيير النواميس فى سبلها، ثم الاثار تنشأ عنها (وسياتى أن أتباع محمد عليه السلام يقولون : ان الآثار تنشأ عن نواميسها بخلق الله تعالى لا بتأثيرها كما سياتى تحقيقه) فاتباع محمد صلى الله عليه وسلم لما تبين لهم ما تقدم من أن الشىء لا يصنع مثله فضلا عن انه يصنع أكمل منه قالوا لا بد أن الاله الموجد للمادة على نواميسها العجيبة التى تهيؤها للتطورات التى لا تحصى والمبدع منها تلك الأنواع البديعة التى لا تستقصى يجب أن يكون له مرتبة الكمال فى صفاته التى ثبتت له بالدليل وفى كل صفة كمالية تليق به تعالى والا لكان مثل مصنوعاته أو دونها وذلك خلاف ما علمه العقل وصدق به فاعتقدوا حينئذ ان ذلك الاله سميع بصير متكلم متصف بكل صفة كمالية تليق به تعالى إذ لا يقبل العقل أن يكون أصم أعمى أبكم وهو الذى أبدع السمع وانار البصر وأطلق اللسان بالكلام ولا أن يكون ناقصا فى صفة كمالية وقد أوجد نظيرها فى مصنوعاته على أكمل وجه لكن جميع ما اعتقدوه له من الصفات يعتقدون أنها ليست كصفات الحوادث ولا تشبهها فى الحقيقة وان شاركتها فى الاسم لمشابهة الآثار، وقد تقدم أن مشابهة الاثار لا توجب مشابهة ما نشأت عنه فسمعه سبحانه ليس بصماخ بل هو صفة قديمة قائمة بذاته تنكشف بها مسموعاته وبصره ليس

بمقلة بل هو صفة قديمة قائمة بذاته تنكشف بها مبصراته وكلامه ليس بحرف ولا صوت بل هو صفة قديمة قائمة بذاته يفهم عنه بها ما يريد افهـامه لاحد مصنوعاته، وهكذا القول فى بقية صفاته التى تقدمت من العلم والارادة والقدرة والحياة فهى صفات قديمة قائمة بذاته تعالى يتعلق منها ما كان له تعلق بالاشياء حسب اقتضائه تعلق انكشاف أو تخصيص أو احداث والا فلو كانت صفاته تعالى كصفات الحوادث لكان حادثا مثلها، وقد قام الدليل على وجوب قدمه تعالى واستحالة حدوثه وقد تقدم شرحه.

ثم أن أتباع محمد ﷺ عندما آمنوا برسالته من عند ذلك الاله سبحانه بسبب الدلائل التى قامت معهم على صدقه وجدوا فى شريعته اثبات ما يوصلهم اليه الدليل العقلى من تلك الصفات التى مر ذكرها لاله العالم مما يتوقف عليه أمر الالوهية ومما يقتضيه عظمة شأنها من الصفات الكمالية وغير ذلك من صفات العدل والرحمة والكرم والهداية والاحسان الى أمثال ذلك مما طفحت به نصوص تلك الشريعة، وقد يوجد فيهـا اثبات صفات له تعالى لا يوجد عند العقل دليل على اثباتها ولا على نفيها فاعتقدوها لورود النص بها فى الشريعة المحمدية لان المخبر بهـا وهو محمد عليه السلام صادق مجزوم بصدقه لما قام لديهم من الدلائل القاطعة على صدقه والعقل لا يحيلها وكذلك ورد فى هذه الشريعة اثبات اشياء الاله سبحانه مما يوهم الجسمية وذلك كالوجه والعين واليد والاصبع والقدم فاعتقد أتباع محمد عليه السلام اثباتها له تعالى ولكن حيث قام الدليل العقلى والنقلى على تنزيهه تعالى عن الجسمية لم يعتقدوا معانيها المتبادرة واعتقدوا أن لها معانى تليق به تعالى ليست كالمعانى التى في الحوادث وفوضوا علم حقيقتها اليه سبحانه فيقولون مثلا له تعالى يد ليست كايدينا وعين ليست كاعيننا وهلم جرا هو سبحانه أعلم بحقيقة المعنى من

ذلك فهم بذلك منزهون له تعالى ومفوضون اليه سبحانه في اجمال الامر انهم اعتقدوا اتصاف اله العالم سبحانه بكل كمال يليق بشانه وتنزيهه عن كل نقص لا يليق به سبحانه حسبما دلهم عليه العقل وافادهم اياه الشرع المحمدى ، ثم أن هذا الشرع كما جاءهم باثبات صفات الاله سبحانه جاءهم أيضا باثبات أسمائه تعالى التى سمى بها نفسه ومنها لفظ (الله) الذى هو الاسم الخاص به الذى لا يطلق على سواه ، وهذا اللفظ وان كانت اللغة العربية تطلقه على موجد العالم سبحانه قبل بعثة محمد عليه السلام ولكن جاءت شريعته باطلاقه عليه تعالى فصارت تسميته به سبحانه عند اتباع محمد عليه السلام تسمية شرعية اعتمدوا بها على نص الشرع المحمدى لا على مجرد اللغة العربية وهكذا بقية أسمائه تبارك وتعالى ، ثم أن الشريعة المحمدية لما عرفت اتباعها بوجود الله تعالى واتصافه بتلك الصفات الكاملة مما يدل العقل على اثباته أيضا وعلى جوازه وباسمائه الكريمة فقد هدتهم الى طرق الاستدلال على وجوده واتصافه بتلك الصفات وعظمتها بدلائل عقلية برهانية ودلائل اقناعية تنشرح لها الصدور وتطمئن عندها القلوب فانفتح لهم بذلك باب واسع ومهيع رحب ، وانا أريد ان اذكر لكم شيئا من ذلك مما يدل على وجود اله العالم سبحانه واتصافه بتلك الصفات الكاملة وعظمته وعظمتها واتساع آثارها مما يربى فى القلوب تعظيم شانه جل جلاله والتصديق بقدرته على اعظم المصنوعات وأكبر المبتدعات ، وقبل ذلك اقدم لهذا الامر مقدمة لها ارتباط به ونفع فيه فاقول: لا يخفى أن للمادة وانواعها صفات عامة وذلك كالتحيز الشامل جميع الاجسام وصفات خاصة وذلك كقبول الانطراق للحديد والانقصاف للزجاج فانهما خاصان بنوع دون نوع من الاجسام والذى يظهر من كلامكم فى كتب علومكم أن الصفات العامة لا تنفك عن شىء من انواع المادة

أصلا ويستحيل انفكاكها عن شيء منها، واما الصفات الخاصة فالذى يظهر من كلامكم أن كل صفة منها قد تنفك عن صاحبها بسبب من الأسباب الطبيعية فتقولون ان الحديد مثلا تفارقه صفة قبول الانطراق وتخلفها صفة قبول الانقصاف اذا نقع فى المحلول الفلانى والمغناطيس تفارقه صفة جاذبية الحديد عند حصول الزلزلة وعلى ذلك صنعت الالة المنبهة على قرب الزلزلة ليحترس منها فهذا تصريح منكم بانفكاك الصفة الخاصة عن صاحبها بسبب من الاسباب الطبيعية كما قدمنا، وأما أتباع محمد ﷺ فهم يقولون فى الصفات العامة التى يتبرهن عندهم ثبوتها فى جميع أنواع المادة اننا بالتامل فيها نجدها تنقسم الى قسمين قسم منها لا ينفك عن جميع أنواع المادة ويستحيل انفكاكه عنها وهذا لا تتعلق قدرة الله تعالى باعدامه منها مع تحققها فى الوجود لأن قدرته تعالى لا تتعلق باعدام الواجب أى الامر الذى يجب وجوده ويستحيل عدمه، وذلك كالتحيز للجسم اى اخذه قدرا من الفراغ فلا يمكن أن يوجد جسم غير متحيز، وقسم منها يجوز عقلا أن ينفك عن جميع الانواع فلا مانع من أن قدرة الله تعالى تتعلق باعدامه من جميع الانواع او من أى نوع منها لأنه من الجائز العقلى الذى هو تحت تصرف قدرته تعالى، وذلك كالجاذبية (١) العامة للاجسام

---

(١) الجاذبية الارضية عند علماء الطبيعة هى القوة المودعة فى الكرة الارضية تجذب اليها كل الكائنات على سطحها على حسب طبائعها

وكنه هذه الجاذبية لايزال مجهولا وانما الجذب حادث مشاهد فانك ان القيت ريشة او كرة فى الفراغ سقطت ثانية الى الارض فى مدة قليلة او كثيرة على حسب طبيعتها وقد اكتشف العلامة الفلكى نيوتن الانجليزى قانونا سماه قانون الجاذبية العامة ومقتضاه ان الاجرام السماوية كلها متجاذبة فيما بينها لا يشذ جرم منها عن هذا الاثر العام وقد اضطر لذلك الفرض العلمى لتفسير تعلق تلك الاجرام الكبيرة فى الفراغ بدون ماسك لها

وان مجرد النظر فى احوال الكائنات العلوية وحركاتها يرينا بداهة ان هذه النظرية ناقصة فان تلك الاجرام لو كانت متجاذبة الى بعضها لصارت كتلة واحدة ثم ان شأن الجاذبية لا يفسر

وبجاذبية الملاصقة أي القوة الجاذبة لأجزاء الجسم الفردة من جنس واحد كالحديد حتى تتلاصق ويتكون الجسم وأمثال ذلك فانهم يقولون: ان هذا القسم ان ثبت حصوله في الاجسام فهو ليس واجبا لها بل حصوله فيها على سبيل الجواز العقلي يمكن للعقل أن يتصور وجوده فيها وأن يتصور عدمه منها فاى مانع يمنع من تصورنا الجسم خاليا عن الجاذبية العامة فلا يجذب غيره ولا غيره يجذبه وأى مانع يمنع من تصورنا الجسم خاليا عن جاذبية الملاصقة ويكون تلاصق أجزائه بسبب آخر غيرها على أن قولكم بها مع مصاحبة قوة الدفع لها أي القوة التي تتدافع بها الاجزاء حتى تبقى بينها مسام وتمانع القوة الخارجية اذا ضغطت الجسم كما هو مشروح في كتبكم يشبه أن يكون قولا باجتماع الضدين، وان قلتم: لا يمكن أن يتصور تكون الاجسام الا بها قلنا: يمكن عندنا بقدرة الله تعالى وان قلنا ان هناك سببا نقول يمكن أن يكون ذلك السبب غيرها فما المانع من أن الأجزاء الفردة التي قلتم بها في الأجسام وانها ذات اشكال متغيرة هي ذات نتوات وذات تجاويف فعند اجتماعها تتداخل النتوات في التجاويف وتتماسك فان كانت تلك التجاويف غير ضاغطة على النتوات، أو ضعف ضغطها بسبب مثل الحرارة يوجب اتساعها كان الجسم سائلا أو غازيا، وان كانت ضاغطة عليها أو اشتد ضغطها بسبب مثل البرودة تصالب الجسم على قدر

لنا تلك الحركات السريعة من الكواكب السيارة والذى يقبله العقل السليم ويرتاح اليه ذو والنظر الصائب والفكر الثاقب ان هناك الها يمسك السماء ان تقع على الارض قد سخر الكواكب بقدرته ودبرها اكمل تدبير بحكمته. ولقد لاحظ نيوتن نفسه قصور نظريته فقال:

من المؤكد ان الحركات الحالية للكواكب لا يمكن ان تتأتى من مخض الجاذبية لان هذه القوة تدفع الاجرام نحو الشمس فتلزم وجود يد الهية تديرها في مداراتها حول الشمس ☆

الضغط وصار جامدا ويعلل عن تدافع الاجزاء حينئذ بانه متى كانت تجاويفها ضيقة لاتدخل فيها النتوات بتمامها فتبقى خلايا بين الاجزاء وهى المسام الموجودة فى كل جسم، وهذا التعليل لتماسك أجزاء الاجسام المتحدة الجنس وهو أن ذلك لوجود نتوات وخلايا فى الاجزاء الفردة يظهر هو أيضا للعقل فى تلاصق الاجسام المختلفة الجنس كما بين الورق والصمغ فان التعليل به أقرب للعقل من تعليلكم ذلك التلاصق بقوة تسمى قوة الالتصاق تكون بين الاجسام المختلفة الجنس كما قدمنا، ولما كانت الاجزاء الفردة عندكم ذات اشكال متغيرة وان لم تقبل القسمة فعلا فهى تقبلها عقلا كما فى كتبكم صح لنا الزامكم بفرض النتوات والخلايا بخلاف الاجزاء الفردة عند اتباع محمد ﷺ فانها لايصح فيها ذلك ولا تظنوا انى أقول بوجود النتوات والخلايا فى هذه الاجزاء الفردة وأبنى عليه ذلك التعليل لأنى لا آمن من ورود اشكالات عليه ولكنى ذكرته على سبيل الاحتمال لأريكم تعليلكم فى أى منزلة من الثبوت وان غيره أقرب منه، والملخص أن اتباع محمد ﷺ لايقولون : ان ماتقدم من الصفات العامة وأمثاله مفقودة من الاجسام وينكرون وجودها فيها ويحوجونكم الى حشد البراهين عليها ليس الامر كذلك وانما يقولون: انها بعد ثبوتها ليست واجبة عقلا بل هى جائزة الوجود لها وجائزة العدم منها اذ العقل لايحيل وجودها ولا عدمها وما دامت كذلك فهى تحت تصرف قدرة الله تعالى القادر على جميع الجائزات العقلية كما تقدم فكما أوجدها يقدر على اعدامها مع وجود الاجسام حتى جاذبية الملاصقة فانها ليست بضرورية لتكون الاجسام كما يلوح من كلامكم بل يقدر سبحانه وتعالى على جمع أجزائها الفردة بدونها بسبب أو بدون سبب وان كانوا يقولون بالاول قياسا على

عادته سبحانه فى هذا العالم من ربط كل شىء بسبب عادى أى جرت عادته بايجاده عنده *

(واما الصفات الخاصة) فاتباع محمد ﷺ يقولون مثل قولكم انها ليست واجبة لموصوفاتها بل جائزة الانفكاك عنها لكن أنتم تقولون: ان تلك الصفات تفارق موصوفاتها لتغير وضع أجزائها الفردة بسبب طبيعى موجب لذلك ومفارقتها لها تحتاج الى زمن كاف لها قد يكون قصيرا ، وقد يكون ممتدا بالسنين أو بالوفها ، وأما اتباع محمد ﷺ فهم يقولون ان تلك المفارقة يحتمل أن تكون لتغير وضع الاجزاء الفردة للجسم . ويحتمل أن تكون لامر آخر مادام الواقع لم يتبرهن عندهم حقيقته واذا قام عندهم برهان على شىء قالوا به وأيا كان فهو بخلق الله تعالى والاسباب التى قلتم أنها موجبة لذلك يقولون: انها أسباب عادية أى انه جرت عادة الله تعالى بايجاد مسببها عندها وليست موجبة له ولا مؤثرة فيه ، وان سمعتموهم ينسبون الأمر الى سببه فليس اعتقادهم أنه يؤثر فى وجوده بطبعه بل مرادهم بتلك النسبة ان الله تعالى يخلق ذلك المسبب عند وجود ذلك السبب على طريق عادته فى هذا العام ولو أراد أن يخلق السبب ولا يخلق المسبب أو يخلق المسبب بدون السبب لفعل وما دامت تلك الأسباب غير مؤثرة ووجود المسببات بخلقه تعالى فهم يقولون فى الزمان الذى قلتم انه يلزم لمفارقة الصفات لموصوفاتها ماهو الا بطريق العادة له تعالى ولو أراد أن يحدث المفارقة بلحظة لفعل ولا يحتاج الى زمن ممتد ، مثلا اذا قلتم ان الحديد اذا نقع فى السائل الفلانى تفارقه صفة الانطراق وتخلفها صفة الانقصاف لتغير وضع أجزائه الفردة بسبب النقع ويحتاج ذلك لزمن كاف وذلك السائل مؤثر بطبعه فى ذلك التبدل موجب له وذلك الزمان لازم لا يتم الامر بدونه ، قال أتباع محمد ﷺ ان ذلك التبدل حصل بفعل الله تعالى بأن

أعدم صفة الانطراق وأوجد صفة الانقصاف سواء كان ذلك لتغير وضع الأجزاء أم لأمر آخر لم نعلمه وذلك المحاول ليس مؤثرا بطبعه فى ذلك التبدل ولا موجبا له وإنما جرت عادة الله تعالى باحداث التبدل عند النقع فيه، والزمان الذى يتم فيه التبدل ليس شرطا واجبا بل الله تعالى يقدر على احداث التبدل بلحظة كما يقدر على احداثه بدون نقع الحديد فى ذلك السائل، وهكذا القول بان النار تحرق الجسم الفلانى والماء يروى العطش وأمثال ذلك يقول: أتباع محمد ﷺ لاشىء من ذلك مؤثر بطبعه بل الله تعالى يخلق الآثار التى تنشأ عن هذه الاشياء عندها بشروط وأحوال عادية وهو قادر على خلق تلك الآثار بدون وجود شىء مما تنشأ عنه كما هو قادر على اعدامها مع وجود ما تنشأ عنه ومع توفر الشروط ودفع الموانع والذى حمل أتباع محمد ﷺ على القول بما تقدم من عدم تأثير الاشياء بطبعها بل بخلق الله تعالى هو أولا ماقام عندهم من الأدلة على تفرد الله تعالى بخلق جميع ما يحدث فى هذا الكون، فلو كانت الاشياء مؤثرة بطبعها فى وجود الآثار التى تنشأ عنها لكانت خالقة لها وقد قام الدليل على استحالة الخلق لغير اله العالم وهو الله تعالى ولاسيما أن بعض تلك الآثار تكون متقنة محكمة يحكم العقل بان حصولها على هذا الاحكام لابد أن يكون عن روية وعلم وادراك تام للذى أحدثها، واثبات هذه الصفات لتلك الاشياء الجمادية مما لا يقول به عاقل، مثال هذا النبات (١) المحتوى على التكونات العجيبة من جذور وساق وأغصان وأوراق وأزهار وأثمار وأعضاء تناسل

---

(١) ذكر علماء النبات ان البزرة التى يتكون منها النبات تتركب من جنين اى خلية حية موجودة فى باطنها ومن مادة دقيقة مؤلفة من مواد ازوتية صالحة لتكوين الاجزاء النباتية ومواد نشوية صالحة لتكوين الحرارة ومع هذه المواد خميرة وظيفتها احالة النشا الى مادة سكرية ليتغذى بها

وبزور باشكال وألوان وطعوم وخواص تحتار عندها الأفكار ، وينشأ جميع ذلك عن التراب والماء والهواء فعقول أتباع محمد ﷺ بل سائر العقول السليمة لا تقبل أن هذه التكونات المحتاجة للعلم والقدرة والتدبير قد أحدثها التراب والماء والهواء الخالية عن هذه الصفات فلذلك يحيلون احداثها وخلقها على القادر العليم سبحانه الذى قام الدليل عندهم على أنه هو الذى أوجد أصل المادة من العدم قابلة تلك التطورات ، وثانيا على فرض غض النظر عما تقدم من تفرد الله تعالى بالخلق قد نظروا الى هذه الاشياء التى تنشأ عنها الآثار وتأملوا فى حقيقتها فوجدوا أنها ليست مقتضية لتلك الآثار إذ لا شىء فيها يلزم العقل باعتقاد انها مقتضية لها مثلا الحرارة تذيب الثلج والبرودة تجمد الماء واذا نظر الى حقيقتهما لم يظهر للعقل وجه اقتضائهما لذينك الأثرين

الجنين فاذا وضعنا بزرة فى ارض صالحة وسقيناها بالماء تيقظت وظيفة تلك الخميرة فاحالت المادة النشوية الى سكر ويتخلله ماء السقى فيذوب ويتشرب به الجنين فتتولد فيه الحرارة من هذا التحلل والتركيب وتكون المواد الازوتية قد ذابت ايضا بماء السقى فيتشربها الجنين فيزداد جسمه ويتضاعف ولا يزال يتغذى على هذا الاسلوب وينمو حتى ينفد المخزون عنده واذ ذاك يكون قد نمى له جذير يتجه الى الاسفل وسويق يتجه الى الاعلى يكونان كافيين لأن يغذيا النبات من الارض والهواء فانظر الى حكمة الله كيف احاط الجنين وهو الخلية الأولى بحاجته من المواد المولدة للحرارة والاعضاء لعجزه عن تناولها من الارض والهواء مباشرة وقدرها تقديرا محكما بحيث تنفد عندما يكون قادرا على اجتذاب الغذاء له من الطبيعة مباشرة

ومتى تكون للنبات جذير وسويق تمد الى امتصاص المواد الارضية واصعادها الى جميع اجزائه لتتغذى بها بعد ان تستحيل الى مواد صالحة بواسطة الحرارة ولا يعلم الا الله وحده كيف تستحيل هذه المواد الارضية الى اجزاء حية صالحة لان تنمى اجزاء النبات الغضة ولا كيف يأخذ كل نبات ما يكون ضروريا له دون سواه مع ان المواد جميعها منبثة فى التراب على السواء ، حقا ان العقول لتقف حائرة والنفوس لتقف خاشعة حيال مشهد هذه الازهار الغضة الجميلة ذات الالوان البهيجة والروائح الشذية قد نمت وترعرعت من تلك المادة الجامدة التى لا حس فيها ولا حركة فسبحان من احسن كل شيء خلقه ودلت آثاره الباهرة على عظيم قدرته وجليل حكمته ××

كما يظهر وجه اقتضاء الجسم للتحيز ووجه اقتضاء الجسمين أن لا يتداخلا ويحلا فى حيز واحد مثلا،فاذا قالوا لكم: ولم لم يكن الحال فى الحرارة والبرودة بالعكس ماذا يكون جوابكم ؟ أتقولون هذا طبع كل منهما؟فيقولون لكم ولم لم يكن طبع كل منهما بالعكس أتقولون لان الحرارة تضعف قوة الملاصقة والبرودة تقويها ؟ فيقولون لكم ولم لم يكن الامر بالعكس وهلم جرا فما يسعكم بعد ذلك إلا أن تقولوا ما كان اختصاص كل منهما بخاصته الا بتخصيص مخصص فيقولون لكم:ان ذلك المخصص هو الله تعالى الذى أوجد المادة وهو الفاعل المختـــار الذى خص ماشاء بماشاء وبعد ذلك كله يقولون: مادام ان الاشـياء ليست مؤثرة بطبعها والتأثير بخلق الله تعالى فالزمان المفروض لحصول الآثار ليس شرطا ضروريا بل هو شرط عادى فالله قادر على خلق الأثر بلحظة كلمح البصر أو أقرب لأنه قد ثبت بالدليل أن قدرته تامة ولا تشابه قوى الحوادث فلا يحتاج الى الزمان فى أعماله كما تحتاج قوى الحوادث التى كلما اشتدت قصر زمن عملها وكلما ضعفت طال زمنه، وأيضا لو كانت قدرته تحتاج الى الزمان فى أعماله كما تحتاج سائر القوى لكنا نرى المصنوع الذى يشتـــمل على العظم ودقة الصنعة وكثرة الاشكال والتراكيب والخواص لايحصـل دائما تكونه إلا فى زمان أطول من زمان تكون المصنوع الذى لا يشتمل على شىء من ذلك ، والحال ان الأمر ليس كذلك لانا نرى النبات الفلانى من النوع الأول يبرز للوجود فى مدة قصيرة والنبات الفلانى من النوع الثانى قد يبرز للوجود فى مدة طويلة أضعاف مدة بروز الأول فهذا يدل على ان امتداد الزمان ليس شرطا فى ايجاد الله تعـــالى المخلوقات والا لكان الأمر بالعكس فيما مثلنا،ثم لاتظنوا من قول أتباع محمد ﷺ أن هذه الاشياء ذات الآثار لم يكن تسبب تلك الآثار عنها إلا عاديا

وان الزمان لتكون تلك الآثار هو شرط عادى أيضا انهم يقولون بكثرة انخراق العادة فى ذلك حتى تطالبوهم بذكر الشواهد الكثيرة على انخراقها فانهم لا يقولون بهذا أصلا انما يقولون التسبب عادى والزمان شرط عادى والله قادر على خرق العادة فيها، وليس ذلك بمحال ولكن خرق العادة فى ذلك لم يعهد منه تعالى الا لنحو معجزة لنبى أو كرامة لولى على حسب ما نقل لهم متواترا أو شاهدوه من رسولهم محمد ﷺ عندما ادعى الرسالة وظهرت على يده المعجزات بخرق العادات فاذا تقرر ما تقدم من هذه المقدمة ووعيتموه بافئدتكم فاقول: تعالوا حتى ننظر فى مادة هذا العالم وانواعها وما اشتملت عليه من الصور الغريبة وما تتطور به من الأطوار العجيبة لنعلم أن قيام ذلك فيها من صنع المادة وحركة أجزائها ام من تأثيرات بعضها ببعض أم من صنع إله عليم مريد قادر حكيم يخصصها بما يشاء ويطورها كيف أراد اعمالا بغاية العظمة ونهاية الاحكام والتدبير بما يدل على أن عظمته وعظمة صفاته لا تحد ولا تدركها العقول ولا تحيط بها الافكار وكل عمل بعدها من جائزات العقل مهما بلغ فى العظمة وتسامى فى الدقة وتعالى فى الاحكام فهو فى جانب عظمة ذات هذا الاله وكمال صفاته حقير هين واضح بين، سبحانه ما أعظم شأنه وما أكمل سلطانه بيده الخلق والتدبير وهو على كل شىء قدير (١) ٭

---

(١) الفضاء الذى نراه فوقنا يسمى الكرة الفلكية وهذه الكرة محيطة بالارض التى نحن عليها وهذه الارض لا تعتبر الا كذرة فى مركزات الكرة العظيمة والنظام الشمسى يتضمن ما يأتى (الشمس) ثم (السيارات العظيمة) وهى عطارد والزهرة والارض والمريخ والمشترى وزحل واورانوس. ونبتون ثم (السيارات الصغيرة) والمعروف نحو ١٤١ سيارا ثم (الاقمار) وهى عشرون قمرا واحد منها للارض واثنان للمريخ وخمسة للمشترى وثمانية لزحل واربعة لاورانوس وواحد لنبتون ثم (الشهب) ثم (نجوم مذنبة) وهذه المجموعة الشمسية عائمة فى الفضاء الذى لا تعلم نهايته بين مجموعات شمسية اخرى لا يحصيها علما الا الله فسبحان من هذا خلقه لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير

لننظر الى عالم الكواكب فنجد على ما نصت عليه كتب الهيئة عندكم ان كلا منها اختص بخاصية لم توجد فى سواه فالبعض منها صغير جدا ، والبعض منها كبير جدا حتى ان أرضنا بالنسبة اليه كحبة رمل بالنسبة الى كرة قطرها ذراع أو أكثر فان كان قطر أرضنا سبعة آلاف وتسعمائة واثنى عشر ميلا ومحيطها الاستوائى أربعة وعشرين الفا وثمانمائة وتسعة وتسعين ميلا فقطر الشمس ثمانمائة واثنان وخمسون الفا وخمسمائة وثمانون ميلا ومحيطها مليونان وستمائة وثمانية وسبعون الفا وخمسمائة ميل وجرمها مثل جرم أرضنا بمليون ومائتين وتسع وخمسين الفا وسبعمائة مرة ، ومنها القريب الينا والبعيد عنا بملايين من الاميال ، ومنها ما يومه وسنته دون يومنا وسنتنا ، ومنها ما هو أكثر من ذلك بكثير ، حتى أن سنة زحل تسع وعشرون سنة من سنينا وسنة اورانوس أربع وثمانون . وسنة نبتون مائة وأربعة وستون وكسور ، ومنها ما هو بطىء السير فى فلكه ومنه ما هو سريع السير حتى أن المشترى يجرى ثلاثين الف ميل فى الساعة فيجرى تسعة أميال كلما تنفس الانسان مرة وسرعة أجزائه الاستوائية فى دورانه على محوره اربعمائة وسبعة وستون ميلا . ومنها ما نوره أحمر . ومنها ما نوره أصفر ، ومنها ما نوره أبيض . ومنها غير ذلك ، ومنها ما نوره أصلى كالشمس والثوابت . ومنها ما نوره مكتسب من نور غيره كالقمر وبقية السيارات . ومنها ما يخلو عن الحرارة . ومنها ما فيه حرارة تبلغ قدرا عظيما ، فشمسنا على قول بعضكم لو جمعت حرارتها لكانت كافية لأن تذيب فى يوم واحد مقدارا من الجليد يغطى كل وجه الأرض وسمكه أحد عشر ميلا ، والذى يصل من حرها الى الأرض هو جزء من الفى مليون وثلثمائة وواحد وثمانين مليونا . ومنها الثوابت وهى شموس اضواؤها ذاتية كشمسنا تضىء على عوالم تتعلق بها وهى ليست ثابتة كما يتوهم من اسمها بل هى متحركة لكن لفرط بعدها عنا لا تظهر

لنا حركاتها إلا بعد قرون كثيرة فتبقى على نسبة بعضها الى بعض وضعا. ومنها ماهو ناء عن الشمس يبعد عنها على توالى الأيام ، ومنها ماهو دان اليها كذلك ، ومنها المتغير يزيد ضوؤه تارة وينقص أخرى. ومنها الوقتي أى الذى يظهر زمانا قد يكون ممتدا ثم يختفي ولا يعود أصلا ، ومنها مانوره لا يصل الينا إلا بعد سنين أو مئات من السنين مع أن نور شمسنا يصل الينا بمدة ثمانى دقائق وبعض ثوان مع ان الشمس تبعد عنا ماينوف عن تسعين مليون ميل ، ومنها ماتظنون أن فيه (١) سكانا . ومنها مالا تظنون فيه ذلك ومنها الشمالى ومنها الجنوبى . ومنها المتوسط ، ومنها الليلى ومنها النهارى . ومنها ما يتسع وجهه المنير تارة ويضيق أخرى ، ومنها ماليس كذلك ، ومنها الكاسف ومنها المكسوف ومنها ، ومنها وهى قائمة فى الفضاء بناموس الجاذبية العامة كما تقولون ، ولعلها بناموس آخر من نواميس الكون التى أجراها خالقه فيها سائرة فى ابراجها

---

(١) يرجح علماء الفلك اليوم ان السيارات مسكونة لانهم تبينوا برصدها ان بها جميع مقومات الحياة من ماء وهواء وارض ومعادن وغير ذلك ويبعد عن العقل اذ يكون سكان الكرة الارضية وعددهم لا يجاوز الفا واربعمائة مليون نسمة هم وحدهم الكائنات الحية المدركة فى هذا الكون العظيم الذى لا تعلم له نهاية ولا تدرك له غاية. قالوا فلابد من ان تكون السيارات مأهولة بالسكان وكذلك جميع سيارات الشموس التى لا نهاية لها المنبثة فى الكرة السماوية فتكون هذه النقطة اللامعة التى نراها بالليل فى القبة الزرقاء مشحونة بكائنات عاقلة لا يحصيها الا الله

قالوا : ولا شك فى ان تلك الكائنات الحية العاقلة تتخالف فى كثير من الشؤون الجسدية على حسب تخالفها فى مقومات حياتها واحوال الطبيعة المحيطة بها فان تلك السيارات تتخالف فى كمية النور والحرارة فمنها ماله من ذلك سبعة امثال ما لنا منها

ومنها مالا يناله الا جزء من الف جزء مما لنا منها. وقد حسبوا الفرق بين حرارة عطارد واورانوس فوجدوها مائتين درجة فلا يستطيع واحد من البشر ان يسكن الاول ولا يقوى واحد من سكان القطب الشمالى عندنا ان يحتمل برد الثانى

هذا مايقوله فلكيو هذا العصر ونحن لا نثبت ذلك ولا ننفيه بل نفوض علمه الى الله تعالى ونردد قوله تعالى (وما يعلم جنود ربك الا هو وما هى الا ذكرى للبشر)

ومنازلها على غاية الضبط والاحكام بحركات مختلفة ودورات متنوعة تضبط بها الأوقات . ويعلم منها السنون والأشهر والأيام والساعات ، وتمتاز الفصول بترتيب تحتار فيه العقول ، والمرجع فى الجميع الى الفاعل القادر مع ما فيه من منافع المخلوقات من نبات وحيوان ومعدن تربو بحرارة أنوارها وتتهيأ لها الأغذية على قدر حاجاتها الى غير ذلك مما يعجز عن احصائه اللسان وتكل لديه الفكر ويخسأ البصر فاذا كانت متساوية فى أصل المادة وليست مادتها تقتضى تخصيص كل منها بما اختص به عن سواه فيقال بعد ذلك: ان الذى خص كل منها بما اختص به ورتبها على نظامها العجيب مشتملة على المنافع حسب مصلحة المخلوقات مع ذلك الاتقان هو حركة أجزائها الفردة الخالية عن كل معرفة وارادة وتدبير أم يقال : ان الذى أبدعها كذلك هو العليم المريد القادر الحكيم ٭

لننظر الى الجو وما يحتوى عليه من الكائنات فنرى فيه الهواء (١) الجوى الذى فيه حياة النبات مما يمتص منه وحياة الحيوان بتطهير دمه بالاستنشاق

---

(١) الهواء ضرورى لحياة النبات والحيوان ومن عظيم حكمته تعالى ان خلق فى النبات الاوراق وجعل من وظيفتها (التنفس) حيث يدخل الهواء من فتحات التجاويف التى توجد فى الاوراق فتلامس الخلايا الممتلئة بالعصارة الخاصة بالنبات وبها يحصل التنفس، والتحقيق ان التنفس عند النبات كما هو عند الحيوان اى ان النبات يمتص الاكسوجين من الهواء ويفرز حمض السكربونيك ولكن حمض السكربونيك الذى يفرزه ليلا تكون كميته اعظم من كمية الاوكسوجين كما ان كمية الاوكسوجين تكون اعظم مدة النهار بالنسبة لتأثير الاشعة الشمسية

وخلق فى الانسان الرئتين ليصل اليهما الهواء من الأنف فيتحد جزء منه وهو الاوكسوجين بالسكربون الموجود بالدم الفاسد ليخرج بحركة الزفير على هيئة حمض السكربون ويصير الدم بخلوه من السكربون صالحا لتغذية الجسد فيعود من الرئتين الى القلب ويندفع منه للشرايين بتغذيتها وتعويض ما فقد منها ثم يعود بعد ذلك الى الاوردة وهى تدفعه الى القلب والقلب يدفعه الى الرئتين لينصلح فيهما على ما ذكر

ودخوله الى رئته، ولما كان الاحتياج اليه أشد من جميع ما سواه كان كثيرا وافرا سهل المأخذ مهيئة الآت تناوله على اكمل ما يكون لقبول سرعة العمل، وهكذا نرى الحكمة جارية فى أن الشىء كلما اشتدت الحاجة اليه كان أوفر وأسهل يظهر ذلك بالتأمل فى هذا الهواء، ثم الماء ثم الغذاء ثم عقاقير الدواء ثم أحجار الزينة والبهاء ثم وثم ونجد فيه الرياح وتصريفها ومنافعها واختلافها وما اختص به كل منها من الخصائص. فمنها الشرقى والغربى والشمالى والجنوبى وما بين ذلك. ومنها الرطب واليابس والحار والبارد والشديد والضعيف والليلى والنهارى والمنتظم فى أوقات مخصوصة وغير المنتظم والبطىء فى سيره، والسريع فيه من سبعة اميال فى الساعة الى واحد وتسعين، وقد تبلغ سرعته فى الساعة مائة وعشرين ميلا أو أكثر لكنه نادر. ومنها الزوبعة والاعصار قائمة بمنافع سكان الأرض فتسوق السحاب الى مواقع مطره وتلقح الاثمار بنقل مادة التلقيح من أعضاء التذكير إلى أعضاء التأنيث، وتروح الأرواح وتلطف الحرارة وتسوق السفن فى البحار وتنشر بزور النباتات على سطح الارض الى غير ذلك مما يعجز الحاسب ويوهن الكاتب، ونجد فيه السحاب وما اشتملت عليه من الصنع العجيب والتكون الغريب حتى استطاع الهواء حملها ونقلتها الرياح الى الأمكنة المحتاجة الى وبلها ويصحبها البرق (١) والرعد اللذان يظن ان من حكمتهما

---

(١) شوهد ان الارض وكل ما عليها مشحونة بكهربائية ولا يخفى ان السحب تتكون من بخار الماء فمن هذه السحب ما يتكون فى الجو الاعلى ومنها ما يتكون قريبا من الارض ثم الذى يتكون فى العلو يكتسب كهربائية موجبة مثل كهربائية الجو والذى يتألف قريبا من الارض يكتسب مثل الارض كهربائية سالبة فاذا فرض مرور سحابة عالية ذات كهربائية موجبة وصادف ان مر تحتها سحابة ذات كهربائية سالبة فانهما يتجاذبان (كما هو الشأن فى كل كهربائيتين متخالفتين بخلاف ما اذا كانتا من نوع واحد فانهما يتنافران) ولا تزالان متجاذبتين

تحليل مياهها بسبب حرارة النور وحركاته التموجيه وحركات الرعد الارتجاجية
مع ما فيهما من دلالة سكان البوادى على مواقع سقوط المطر ونرى الثلج ينعقد
بسبب البرد ويقع أكثره على الجبال ليقيم مدة يتحلب ماؤه الى بواطنها
ومخازنها التى فى جوفها فتخزنه لمنافع المخلوقات وتخرجه من منافذها فيجرى
ينابيع وأنهارا ترتوى بمائها الارض والحيوان فى مدة الصيف وتنشأ عنه
الرياض والجنان اذ لو كان السحاب لايلقى على الارض الا المطر لانحدر
بسرعة من رؤوس الجبال (والسيل حرب للمكان العالى) قبل أن
تمتلىء مخازنها بمقدار مايكفى لجرى الينابيع والأنهار الى غير ذلك من كائنات
الجو التى الف فى علمها مجلدات ، ولنذكر هنا النور لأنه لما كان امتداده انما
هو فى الفضاء جاز لنا أن نذكره فى كائنات الجو فنرى مااشتمل عليه من
النواميس العجيبة التى احتملت علما مستقلا وذلك كانعكاسه وانحلاله الى
سبعة ألوان وغير ذلك مع ما فيه من منافع الحيوان والنبات من النمو والصحة
وقتل الجراثيم السامة وكشف المرئيات وثمرات أخرى لاتحصى ، ثم أنه مع
ظهوره بنفسه للبصر واظهاره لغيره فقد خفيت حقيقته عليكم واضطربتم
فى تفسيره قال أكبر مشاهيركم * أنه ذرات صغيرة جدا تنتشر عن الجسم

حتى تقرب احداهما من الاخرى قربا لايمكن معه ان تبقى كهربائيتهما مستقلتين وحينئذ تتحدان
ومتى اتحدتا نتج من ذلك ثلاث ظواهر طبيعية
الحرارة والصوت والضوء
اما الحرارة فهى شرارة كهربائية تتولد من اتحادهما وتخترق الجو بسرعة هائلة فتنزل الى
الأرض فتحرق الاشجار او تخرق السفن او تهدم المنازل وهى ماتسمى (بالصاعقة) واما
الصوت فينشأ من اتحاد الكهربائيتين فجأة فى الجو
ويكون شديدا او ضعيفا على حسب قربه من الارض وحجم السحابتين وهو مايسمى (بالرعد)
واما الضوء فهو ماينشأ من سريان الشرارة الكهربائية فى الجو بسرعة مدهشة وهو
مايسمى (بالبرق)

المنير، ورد عليه متأخروكم بادلة واضحة ، وقالوا : أنه اهتزاز أجزاء المادة الاثيرية السارية فى الكون فهو عبارة عندهم عن حركة الأجزاء المذكورة واعتمد جمهوركم الآن على هذا التفسير وبنيتم عليه الصروح ، ولقائل أن يقول: ما بال تلك الاجزاء الاثيرية تخرق حركتها لوح بلور بسماكة كثير من الاذرع واذا طلى أحد وجهيه بطبقة رقيقة من الحبر الاسود مثلا عجزت تلك الحركة عن خرقها كأنها صدت باسوار خانية أو جبال حملايا هلا خرقت تلك الطبقة الرقيقة غير الصلبة كما خرقت اللوح السميك الصلب، وان قلتم ان اللون قد أبطل تلك الحركة بطبعه قلنا لا مانع أن يكون ذلك بخلق الله تعالى ولكن بينوا لنا على تفسيركم هذا كيف قويت تلك الحركة على خرق اللوح السميك الصلب وعجزت عن تلك الطبقة الرقيقة غير الصلبة؟ وان قلتم ان اللون يتشرب النور قلنا لكم : بينوا لنا ما معنى تشرب اللون للنور الذى هو حركة أجزاء بعبارة واضحة يقبلها العقل؟ ، وأيضا أن صناعكم قد اخترعوا دهانا اذا عرض لنور الشمس بعض دقائق أضاء فى الظلام طول الليل ؛ وعلى تفسيركم للنور ان قلتم ان تلك الحركة المنبعثة عن الدهان فى الظلام من انعكاس النور قلنا: بينوا كيف دامت تلك الحركة ناشئة عن الدهان مع أن الحركة الاصلية المنبعثة عن الشمس قد انقطعت عنه وفارقته من ساعات ؛ وهذا خلاف ما يعهد من ناموس الانعكاس وان كان خلاف ذلك فبينوه؟ وبعد ذلك كله لسنا جازمين ببطلان تفسيركم هذا بل هو جائز الصحة ويكون من جملة مخلوقات الله تعالى وتحت تصرفه ، ولكن القصد تنبيهكم على ان من أعظم ما تجزمون به ما ليس قطعيا وبعد جميع ما تقدم نقول ما الذى خصص كلا من كائنات الجو بما خصصه وأحكم فيها المنافع على أكمل صنع وأتم ابداع فاحيا بها الأرض بعد موتها وأنمى سكانها وأظهر لأبصارهم مرئياتها

أيقال هى حركة أجزاء المادة ؟ أم الصدفة أم الضرورة أم غير ذلك من الكلمات المبهمة المعنى الغامضة التفسير أم العليم الخبير المريد القدير ؟ ۞

ولننظر الى الارض وما اشتملت عليه جغرافيتها الطبيعية (١) وكائناتها الجمادية والنباتية والحيوانية فنرى البحر الذى تبلغ مساحته ثلاثة أرباع سطح الأرض أى مائة واربعة وأربعين مليونا وسبعمائة واثنى عشر الف ميل مربع وهو مسكن الامم المائية . ومصدر الجواهر البحرية من كل مايكون غذاء ودواء وزينة ، وقد اشتمل على ماتشتمل عليه اليابسة من جبال وأودية ووعور وسهول وآكام وتلال وهضاب وبطاح وآجام. وحدائق مختلفة الاشجار وحيوانات صغار وكبار تنمو وتسكن فى أماكن مخصوصة حسب أجناسها وأنواعها وصنوفها وللبحر أعماق تفوق التصديق

---

(١) فرض علماء الطبيعة فروضا شتى فى تعليل ملوحة ماء البحر ولعل اقربها الى العقل مارجحوه من وجود تلال عظيمة فى قاع البحر مكونة من الملح فبمرور المياه عليها تذيبها وتبقى متشبعة على الدوام؛ وهذا كما لايخفى رأى من الأراء ، فان قيل لمبديه من اين حصلت تلك الثلوج الملحية تحت البحر ولماذا لم نشاهد مثلها فوق الارض لم يحرجوا ابا فسبحان بديع السموات والارض ۞

ويختلف قاع البحر اختلافا كبيرا باختلاف الجهات فقد صادفوا اماكن منه لايسبر غورها ولايعرف قرارها واماكن اخرى قريبة القاع جدا حتى أن البوارج ترتطم فى شعابها فتهلك ومن هنا يعلم ان قاع البحر اجمالا مشابه لسطح الارض من حيث وديانه وجباله فما يشاهد فيه من الجهات القريبة القاع فهى جباله وما يشاهد من الجهات البعيدة القاع فهى وديانه وقد تعلو جباله حتى تعلو سطحه فان تلك الجزر التى تصادف فى وسط البحر ماهى الاقمم تلك الجبال البحرية . وفى البحر من صنوف الحيوانات وفنون الكائنات مالا يتخيله العقل تخيلا ولم يجسر أحد الى اليوم ان يدعى حصرا صنافها لما يرى كل يوم من ظهور عجائبه حتى كأنه عالم العجب فكما لاتنضب مياهه لاتنفد عجائبه ، ولقد شوهد فيه من اصناف الثعابين مايبلغ طول الواحد منها اكثر من مائتى متر وليس امر هذه الكائنات قاصرا على طول اجسامها بل هنالك امر ادعى لاستنزال العجب والدهش وهو غرابة اشكالها والابداع المشاهد فى تكوين اعضائها فتبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ۞

ولم تعلموا تحقيقا أعمق مكان فيه غايةماوصلتم اليه قياس عمق منه بلغ نحو تسعة أميال ولم تعرفوا له قرارا ، ومن عجائبه المدوالجزر والتيارات السطحية والتيارات السفلية والأمواج التى كالجبال والجبال التى تعوم على وجهه من الجليد عند القطب الشمالى وملوحته التى هى من أحكم التدبير إذ لولاها لأنتن ماؤه فاهلك الحرث والنسل وقد سخر للبشر يركبون متنه ويخوضون لجته ويتواصلون فى طرائقه ورياحه المختلفة ٭

ونرى اليابسة وما تكونت هى منها ، فاولها الجبال التى هى مخازن المياه التى تروى النبات والحيوان وهى مأوى الطيور والوحوش ومنبت الاشجار الصلبة الشامخة التى هى مادة الاخشاب والوقود وهى الحواجز للبقاع المسكونة تحفظها من الرياح الباردة والحارة ، ثم منها ذوالمناظر البهجة والنباتات المزهرة ومنها الاجرد الوعر الذى سلبت الامطار اتربته وبقيت صخوره تشبه هيكل عظام جرد عنها اللحم فكانت تلك الصخور مادة العمران من الدور والحصون ، ومنها الجبل النارى الذى يقذف الحمم وينير الآفاق فى الظلم . ومنها ومنها مما يقضى على الانسان بالعجب ٭

وثانيها الاودية وهى منبت أحسن الأشجار ومجنى الازهار والاثمار ومنشأ السرور وانشراح الصدور ، ومع أن منها مايعد جنة نعيم لاترى فيه الاظلا ظليلا وماء سلسبيلا ولا تسمع الاصفير بلبل وهديل حمام وبغام ظباء وسجع يمام حول تلك الرياض المزهرة والأشجار المثمرة والجداول المنحدرة من كل مايجلب المسرة ويهدى للعين قرة فمنها ماهو كدار الجحيم ليس فيه الا الموت الزؤام وباليات العظام وذلك كوادى الموت الذى هو قرب جاوا فهو واد بطنه رمضاء محرقة وقفر بلقع لانبات فيه ولاحيوان فلا يحله طائر ولا تدب فيه دابة ولا يكمن فيه وحش الاويعالجه الموت الاحمر

ولا يرى فيه الا الرمم البالية من عظام الحيوانات وهوالك الحشرات، وقد نسب ذلك فيه الى شجرة سامة لا يوجد فيه سواها من النبات والذى صح عندكم أن ذلك لانه فى جوار جبل نارى فيصعد من منافسه هواء سام بكمية زائدة تقتل الحيوان وتفتك بالنبات فمن جعل بعض وديان الارض دار النعيم وجعل بعضها دار الجحيم أحركة اجزاء المادة أم المريد العليم الذى يخص ماشاء بما يشاء انه خبير حكيم؟ ٭

وثالثها الكهوف التى هى مأوى الحيوانات ومتنفس الجبال من البخارات التى فى بواطنها، ومن غرائبها الكهوف التى تبرد فى الصيف حتى تجمد المياه التى داخلها وتسخن فى الشتاء فيأوى اليها كثير من الحيوانات التى لا تقوى على برد الشتاء فسبحان اللطيف الخبير، ومن غرائبها كهوف الموت التى لا يدخلها حيوان الامات فى الحال لانها متنفس جبل نارى قد خمد وبقى من متنفسه هواء سام يقتل من يستنشقه فمن الكهوف حصون ومنها منون فسبحان الفاعل المختار

(ورابعها) السهول التى هى جامعة غالب المادة التى تقوم بها النباتات لغذاء الحيوان ثم هى متنوعة التربة يناسب كل منها لتنمية نبات لا يناسب سواه، فلو كانت نوعا واحدا لنقصنا نباتات كثيرة ونراها بين الصلابة والرخاوة فلو كانت صلبة كالصخر لما صلحت لذلك ولو كانت رخوة جدا لغاصت فيها أقدام الحيوانات وما صلحت لمسعاها ولا لسكناها، فمن خصص الصخور بالصلابة فكانت مادة العمران وخصص غيرها بالتوسط بين الصلابة والرخاوة فصلحت لزرع غذاء الحيوانات أليس هو الحكيم الخبير والمدبر العليم؟ ٭

ونرى من كائنات الأرض المعادن التى تولدت فى احشائها مختلفة الخواص متباينة الأنواع والاصناف صالحة مع اختلافها وتباينها لمنافع سكان الأرض، فمنها الجامد والسائل والصلب وغير الصلب وقابل الانطراق وغير

قابله وقابل الذوبان وغير قابله والثقيل والخفيف والاصفر والابيض والاحمر والاسود وغير ذلك وكم فيها من مصالح للبشر باتخاذها آلات لطعامهم وشرابهم واسلحتهم وبيوتهم وفلاحتهم وزراعتهم وادويتهم ـ ولما كان الحديد من أنفعها وهو اشدها اخفاء في الأرض لا يشابهه معدن في الخفاء كما في كتب المعادن خصصه الله تعالى في القرآن بذكر المنة به والاشارة إلى نعمة الهداية اليه فقال تعالى (وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) ولم يذكر معدنا سواه بذلك.

ونرى من خواصها غرائب تعجز عقولنا عن تعليلها تعليلا يقينيا بل غاية ما يوصلنا اليه البحث فيها أن نقول هكذا خاصيتها وان قلتم نحن لا نقول ذلك بل لابد ان نقف على التعليل اليقيني قلنا لكم هذا المغناطيس المعدن الغريب صاحب خاصية الجذب لمثله وللحديد والفولاذ أنتم تقولون: ان سبب جذبه لما ذكر هو من حركة أجزائه الفردة وترتيب أوضاعها، وأقول ان هذا التعليل وان جاز ان يكون هو الواقع بخلق الله تعالى ولكنكم اتيتم به مبهما غير مقنع للعقل اذا وردت عليكم السؤالات الآتية وهي أولا لما نتج عن تلك الحركة والوضع جذب ماذكر ولم ينتج عن ذلك جذب بقية المعادن من نحو الذهب والنحاس اوضحوا لنا توجيه ذلك؟ ، وثانيا كيف أن المغناطيس اذا التصق بقضيب من حديد وجذبه اكسبه خاصية ذلك الجذب من دون أن يخسر من قوته شيئا فيصير ذلك القضيب يجذب كجذب المغناطيس مادام ملتصقا به واذا انفصل عنه بطلت منه تلك الخاصية وتقولون لتلك الحالة التي طرأت على الحديد تمغنط موقت وأما اذا التصق المغناطيس بقضيب من الفولاذ اكتسب ذلك القضيب خاصية ذلك الجذب ودامت فيه ولو انفصل عن المغناطيس وكذلك اذا دلك قضيب الفولاذ بالمغناطيس اكتسب تلك الخاصية دائمة ويقال لذلك تمغنط صناعي فاوضحوا لنا كيف حصل ذلك الاكتساب بمجرد ملامسة المغناطيس لقضيب الحديد والفولاذ اذا تغيرت أوضاع اجزائهما

ولوكانا بطول ممتدو اذا كان الأمر كذلك فهل رجع الوضع لاصله فى قضيب الحديد ولو فى لحظة من الزمان وبقى فى قضيب الفولاذ ام الحال غير ذلك؟ واوضحوا لنا هذا الفرق بين الحديد والفولاذ بل والحديد الصلب فانه بحكم الفولاذ يكتسب خاصية الجذب وتدوم معه بعد الانفصال، ثالثا انكم تقولون ان قوة الجذب فى المغناطيس فى طرفى القطعة منه وكلما اقتربنا لوسطها نجد أن القوة قد ضعفت حتى تكاد تغيب عند الوسط تماما وإذا قسمت تلك القطعة من عند وسطها رجع الطرف الذى عند القطع ذا قوة قوية كما فى الطرف الاصلى فاوضحوا لنا كيف ضعفت القوة عند الوسط وقويت فى الطرفين وكيف قويت فى الطرف المفصول بعد القطع أبالقطع تغير وضع الأجزاء مع ان وضعها لا يتغير باقوى العوامل الخارجية ام الأمر كان لغير ذلك ، وأيضا إذا لمس المغناطيس قضيب الحديد او الفولاذ من طرفه وتمغنط القضيب فلابد ان تكون القوة فى الطرف الآخر من ذلك القضيب تامة وأما القوة فى وسطه فهى قريبة التلاشى فماذا تقولون ان الحركة وتغير وضع الاجزاء قد وصلا الى ذلك الطرف من طريق غير الوسط أم مرا على الوسط فضعفا عنده ثم قويا بعد مجاوزته وما الذى أعاد لهما تلك القوة بعد الضعف، ورابعا تقولون ان المغناطيس يفقد قوة الجذب عند حصول الزلزلة ثم تعود اليه بعد مضيها وعلى ذلك عملت الآلة التى تنبه على قرب حصول الزلزلة فيحترس منها فاوضحوا السبب لتغير وضع الأجزاء وتبدل الحركة عند الزلزلة وكيف كان ذلك ولم كان ذلك؟ والذى أراه انكم لا تقدرون على اجوبة شافية عن تلك الاسئلة التى تقدمت، بل غاية ما تنتهون اليه أن تقولوا هكذا خاصة المغناطيس لها تلك الاعمال، واقول لكم ان أتباع محمد عليه السلام يقولون أيضا هكذا خاصة المغناطيس لها تلك الاعمال اذا شاهدوها وتبرهنت عندهم ولكن يسألونكم من الذى خصصها بذلك أحركة

الاجزاء بما ينشأ عنها من ترتيب وضعها تعمل تلك الاعمال الباهرة التى عجزت عقولكم عن تعليلها بما يقنع العقل ام الذى خصص ذلك التخصيص واتقن تلك الاعمال هو القادر العليم والمريد الحكيم أى الأمرين احق ان يعتقد (انصفوا) وبالحق ان المغناطيس من اعجب الأشياء وفوائده من أحسن الفوائد وأكمل العوائد اذ بالابرة المغنيطيسية سلكت البحار والقفار وأمن السفار من الاخطار اذ هى المرشد الامين والهادى المبين فسبحان من هدى الانسان سبل الرشاد بقطعة معدن من دوانى الجماد *

ونرى من كائنات الأرض النبات (١) ذلك العالم الذى اشتمل على العجائب والغرائب وحير الالباب بما أودع فيه من النظام المحكم والاسرار والحكم وأغرب

---

(١) لقد عنى العلماء قديما وحديثا بدراسة النبات دراسة عالية حتى اصبح علم النبات من العلوم الواسعة المدى التى لا يعرفها حق معرفتها الا من تفرغ لدراستها وانقطع للبحث والتنقيب فيها *

والنبات كالحيوان فصائل كثيرة فمنه الشجر كالنخل والزيتون والرمان ، ومنه الزرع كالقمح والشعير والذرة ، والفصائل تختلف عن بعضها باختلاف اعضاء التذكير والتأنيث فيها فلكل نبات ذكور واناث *

فاذا رأيت شجرة الذرة مثلا فان الذكور هى تلك المجموعة المكونة فى اعلى العود التى فيها مادة ناعمة تنزل الى (المطر) اى الكوز الذى فيه الحب المنظم بنظام بديع كنظام الجواهر : والطلع الذى فى الاعلى كالدقيق ينزل على تلك الخيوط الحمر والبيض المتصلة بذلك الحب فكل حبة بها خيط من تلك الخيوط : وذلك الخيط مثقوب من وسطه بثقب لا يرى فينزل فيه ذلك الدقيق الذى يقوم مقام الطلع فى النخل ثم ينزل الى الكوز فتتولد الحبة *

فالذكر ما فى اعلى العود والانثى اسفل ذلك الخيط والمتولد منها الحبة فلكل حبة اب وام فسبحان من دبر الكون واودع فى كل شىء من الاسرار ما يدل على قدرته الباهرة وعلمه المحيط وتدبيره الحكيم *

وفى كل شىء له آية * تدل على انه واحد

شانه وكل شؤونه غريبة كيفية تمثيله لاجزاء الأرض والماء والهواء لبنيته وتطويرها باطواره بينما هذه الأشياء عديمة النمو والحياة اذ نراها قد دخلت في تركيب النبات فانقلبت جسما ناميا متغذيا ذا حياة نباتية مكتسبا خواص لم تكن له من قبل . ثم ننظر الى ذلك الجسم النباتي فنراه من وجه عديم الارادة فاقد الادراك أشبه شيء بالجماد وننظر اليه من وجه آخر فنراه قد ضرب بعروقه في بطن الارض لتناول الغذاء فهو وان لم يسع على أقدامه كالحيوان في طلب رزقه ولكن يبلغ في باطن الارض ما لا يبلغه الحيوان، وترى أغصانه تتعالى أو يتعرش بشوكه ولباله على المرتفعات لينتفع بنور الشمس كالحيوان المتسلق على الاشجار لطلب الاثمار، وبينما نقول . انه لا يتغذى الا باجزاء الارض والماء والهواء نرى منه النباتات المفترسة وهي التي تنبت في غيرها من النباتات وتتغذى بعصارتها كما يعيش بعض الحيوان على بعضه ، ومنها ما احتوت أوراقه على عصار يغري الذباب أن يسقط عليها فاذا سقط على ورقة منها أحست به وانطبقت عليه ولا تتركه حتى تمتص رطوبته ثم تتركه ميتا لم يبق منه سوى القشر فهذا نبات يتغذى بحيوان أخذا بثار العالم النباتي الذي يتغذى به العالم الحيواني ، وبينما نرى ان النبات لابد أن تعلق جذوره ، إما في الارض وإما في بنية غيره من النباتات التي يفترسها نرى النباتات الهوائية وهي أعشاب لا أصول لها في التربة تتعلق على غيرها وتتناول غذاءها من الهواء ، ومن عجيب أمرها أن زهرها قد يشاكل الفراش والنحل وغيرها من أنواع الذباب واذا حركها الهواء يظنها الرائي فراشا يحوم على الاشجار أو نحلا يسعى في جنى العسل من الأزهار ، ومن أزهارها ما يشاكل الرتيلاء ، ومنها ما يشاكل الانسان الى غير ذلك من الصور المختلفة ، ومما نظرته بعيني وان كان ليس من النباتات الهوائية بل ينبت من بصيلات

فى الارض نبات يحمل زهرة هى صورة طير أصفر برأس وعينين ومنقار وعنق وصدر وجناحين منتشرين بعض الانتشار منتصب القامة كما ينتصب الديك، وعند أسفل بطنه صورة نحلة بلون سنجابى واضحة فمها ببطنه كأنها تمتص منه شيئا ، وهى ذات رأس وعينين وظهر منقوش وجناحين ممتدين من أصل فخذى الطير فهما مشتركان بين أن يكونا فخذين له وجناحين لها وكل تلك الأعضاء التى فيها واضحة بينة لأنها تقارب الأعضاء بمجرد مقاربة منظر يستوقف الطرف ويشهد بوحدانية خالقه وقدرته واحكامه ، وتوجد هذه الزهرة فى برية بيروت فى محل يقال له ظهور الاشرفية ويسميها بعض أهل تلك الجوار بزهرة الطير وبعضهم بزهرة النحلة ، وقد وجدت بعضكم يعلل لتكون تلك الأزهار على صورة الحيوانات بتعاليل واهية فاطلب منهم تعليل تكون هذه الزهرة بما يقنع العقل ، ولا أراكم تقدرون على ذلك ولا أرى مقنعا للعقل إلا إحالة تكوينها على صنع القادر (١) المريد الحكيم العليم

(١) قال باكون وهو من اساطين علماء الطبيعة (من أخذ علم الطبيعة رشفا بالشفاه ألحد ومن شربه عبا اوصله الى الخالق) وهذا كلام جليل فان من نظر فى هذا الكون العظيم ونظامه العجيب علم ان له الها حكيما دبره واتقنه ، وهذا عالم النبات وحده فيه من دلائل القدرة الباهرة وشواهد الحكمة البالغة مالا يبلغه العد ✿

تأمل فى هذه الاشجار الباسقة واجل فكرك فى اجزائها المختلفة من اول جذورها الضاربة فى اعماق الثرى الى رؤوس اغصانها السابحة فى اجواف الفضاء ، وسرح نظرك فيما اودعته اوراقها من الاعصاب الدقيقة والمادة الخضراء وما حليت به ازهارها من الالوان البديعة والروائح الشذية والهيئات الجميلة وما وضع فى باطنها من اعضاء الذكورة والانوثة وما هديت اليه تلك الاعضاء من التقارب فى حين التلقيح لاداء تلك الوظيفة ثم انتقل الى الثمرة وتأمل فى هيئة غلافها ولونها وطعمها ورائحتها وبذورها وما استقر فيها من الاجنة لانبات شجرة مماثلة لها وما احيطت به تلك الاجنة من المواد الحافظة لحيويته تأمل فى هذا كله مليا الا ترى فيه دلائل العلم المحيط الشامل وشواهد الارادة

لاعلى حركة أجزاء المادة، ولا على ناموس التباينات ، ولا على أمثال ذلك من الأمور العمياء الصماء البكماء ، وبينما نرى أن بعض النبات لايحس بأشد الملامسات ونحكم بأن من جملة الفوارق بينه وبين الحيوان الاحساس فى الحيوان دونه إذ نرى النباتات الحساسة ، ومنها السنط الحساس الذى اذا لمس أو حرك أحس وانضمت وريقاته وتشنج سائر أوراقه، ومنه النبات المفترس للحيوان الذى تقدم ذكره فانه يحس بوقع الذباب عليه فيمسكه ويمتصه ،وبينما نرى أن النبات لايتحرك إلا بفاعل خارجى كالهواء والحيوان اذ نرى النبات المتحرك بنفسه لغير قاسر ظاهر فهذا النبات يتحرك بنفسه حركات يرسم بها فى الهواء مخاريط هندسية، فورقته مؤلفة من ثلاث وريقات أكبرها العلياء فى الوسط والصغريان تحتها على الجانبين تتحركان مدة حياتهما ليلا ونهارا فى الحر والبرد والشمس والظل والصحو والمطر لاتنقطع حركتهما ترتفع الواحدة منها وتنخفض الأخرى على التوالى بحركة مستديرة، ومنه مالاتتحرك ورقته الوسطى الا صباحا ومساء بخلاف الجانبيتين فان احداهما ترتفع والأخرى تنخفض طول النهار ، وقالوا أنهم وجدوا على جانب نهر الكنج فى الهند نبتا تتحرك وريقاته كذلك ستين حركة فى الدقيقة فهو ساعة حية نامية لاتقف ولا تكلف صاحبها شيئا من النفقة، ومشركو الهند يقدسون هذا النبات وينسبون اليه قوة إلهية وما هو الاشاهد على انفراد خالقه بالربوبية ، ومنه مايتحرك زهره مع حركة الشمس فى قبة الفلك وهو كثير فى بلادنا ،ويسمونه بالفلك وبعابد الشمس لأن زهرته المستديرة المؤلفة من دوائر بديعة الاصباغ محكمة الصنع محاطة باهداب كخيوط

والاختيار والقدرة القاهرة والتدبير المحكم ماثلة امام بصرك ومشرقة فى سماء بصيرتك ولله در القائل «

ورق الغصون لدى الرياض دلائل * مشحونة بادلة التوحيد

الحرير وفى وسطه نوع منه شبيه كعقرب الساعة تستقبل تلك الزهرة الشمس فى أول شروقها ولا تزال تتحرك لاستقبالها كلما ارتفعت الشمس لقبة الفلك حتى تبلغ الهاجرة فتكون تلك الزهرة حينئذ سطحية الوضع ثم كلما مالت الشمس الى المغرب مالت معها حتى تفارقها فى المغيب فسبحان المبدع الخبير، ثم فى تباينات النبات ما يحير الأفكار ويشهد بأن مبدعه فاعل مختار لا يحكم عليه ناموس، ولا تدخل قدرته تحت تحديد ينبيء عن الاضطرار وعدم الاختيار وذلك انا نرى منه ما يبلغ من الكبر والارتفاع مبلغا يفوق الحد كما فى أرز لبنان وأم الاجمة التى توجد فى أميركا طولها ثلاثمائة قدم أو أربعمائة قدم وقطر بعضها عند الارض ثلاثة عشر قدما وسمك قشرها ثمانية عشر قيراطا، ومن أشجارها ما جوف ساقها وطرحت فكان الفارس يدخل جوفها منتصبا على صهوة حصانه فلا يمسها وبعض الأشجار فى اسكتلندا بلغ محيطها تسعين قدما وحسب عمرها بمقابلتها باصغر أشجار نوعها فكان خمسة آلاف سنة وفى كاليفورنيا شجرة صنوبر طولها ثلاثمائة قدم ومحيطها ثلاثون قدما وعمرها ستة آلاف سنة، وأغرب من ذلك كله شجرة عندم فى احدى جزائر كناريا فى الاقيانوس الاتلنتيك لا يحيط بساقها عشرة رجال يمدون أيديهم حولها يمس كل منهم أنامل مجاوره بانامله، وقد مر على اكتشاف تلك الجزيرة ما يقرب من أربعمائة سنة ولم يتغير منظر تلك الشجرة فان نمو هذا النبت بطيء، كما يشاهد من نمو صغاره فكم مر عليها من القرون، قال بعضهم: انى أقول: أنها كانت تنمو منذ قرون كثيرة قبل خلق الانسان، ونرى من النبات ما هو على غاية الصغر قد أظهره المكرسكوب وذلك كالطحلب الذى يعلو وجه الماء والعفونة التي تلتصق بالجدران وغيرها فكل ذلك يظهر تحت المكرسكوب كأنه بستان أو مرج أو

غابة كثيفة تحمل مع صغرها ودناءتها زهرا وبزرا ينتشر مع الهواء من جملة الهباء ويقع على الجدران وغيرها فاذا وافقته الأحوال استفرخ ونمى وأزهر وبزر والعين المجردة لاتراه الا كالغبار الأخضر، ونرى من النبات ما يتقابل فيه الاضداد ، ففى اختلاف أشكاله وأشكال أوراقه وأزهاره وأثماره. وبزوره. وروائحه .وطعومه. وألوانه. ومنافعه. ومضاره . ما يفوق الاحصـــاء ، فمنه الشجر والنجم والعشب والصيفى والشتوى والربيعى والخريفى والسهلى والجبلى والمكتفى بماء المطر والمحتاج الى سواه والمختص باقليم والذى يعيش بكل الأقاليم، ومن أوراقه المستدير والمستطيل والمسنن والعريض والرفيع ومع اشتراكها فى لون الخضرة فخضرتها مختلفة لانجد خضرة نوع تشبه خضرة نوع آخر وأزهاره أكثر اختلافا ، وأوفر تباينا فى الأشكال والالوان ،فمنها المستدير والمستطيل والمفرد والمضاعف وأشكال شتى لاتحصى ، ومنها الابيض والاحمر والأصفر والازرق والأخضر والمنقش بابدع النقوش ،والمجتمع فيه الضدان أو الاضداد من الألوان وروائحه من أبدع الخواص فمنها المستطابة التى تنعش القلوب والمستكرهة التى تميت النفوس ويكفى بالتنبيه على اختلافها انا لانجد رائحة زهرة من نوع تشبه رائحة زهرة من نوع آخر تمام الشبه واختلاف أثماره باشكالها وألوانها وروائحها وطعومها وأقدارها مما يتيه العقل فى تيهائه ،فمنها الكبير والصغير والعريض والطويل والمستدير والكروى والمحدب والمسنن وغير ذلك ، ومنها الاحمر والأصفر والابيض والاسود والازرق والمنتقش وغير ذلك، ومنها ذو الرائحة التى لم توجد فى زهره ولا ورقه من كل رائحة زكية ، وأخرى على الأنوف يليه ، ومنها الحلو والحامض والمز والمر ونحو ذلك من الطعوم التى لاتستقصى ، ومن

غريب أمر الاثمار أنك ترى قشرها بطعم ولون ورائحة لا توجد فى اللب وفى اللب من ذلك مالا يوجد فى البزر وفى البزر من ذلك مالا يوجد فى كامل أجزاء الشجرة، ومن الاثمار مايحتوى، على البزور المختلفة الاشكال والروائح والطعوم والالوان ، ومنها مايخلو عن البزور، ومنها ماهو مغلف بغلاف أو أكثر، ومنها ماليس كذلك، ومنها صغير وأصله شجر كبير كالجميز، ومنها ماهو كبير وأصله من الاعشاب كالبطيخ، ومن النبات مايعطى ثمرته بشهر أو أقل ومنه مالا يعطى ثمرته إلا بعد سنين ومنه ماينتفع بعروقه أو أصوله أو ورقه او زهره أو ثمره أو بزره أو قشره أو عصاره وما ينتفع منه بشيئين أو أكثر من ذلك وما ينتفع منه بجميع ذلك، ومنه ما أصله نافع وثمره ضار أو ورقه أو زهره ومنه بالعكس فيجتمع فى النبات الواحد الداء والدواء وبالاختصار نرى الشجرة الواحدة قد تتخالف خواص عروقها وساقها وقشرها وورقها وزهرها وثمرها وبزورها فلا تجد خاصة من تلك الخواص تنطبق تماما على خاصة أخرى منه ، وكل أنواع النبات تسقى بماء واحد ،وقد تتغذى بتربة واحدة وتمتص مايلزمها من هواء واحد وأعضاؤها انما هى قسمان أعضاء النمو وهى الجذور والسوق والورق وأعضاء التناسل وهى الزهر والثمر والبزر، ثم أنه من هذه الاعضاء البسيطة القليلة العدد تتألف الالوف من النباتات البالغة بحسب ماوصل اليه احصاء النباتيين مايتوف عن ثمانين الف نوع وهى التى تكسو جبالنا وتلولنا وأوديتنا وحدائقنا خضرة وتزينها بازهارها وتملأ مخازننا فواكه وحبوبا وتلبس أجسادنا وتعمر بيوتنا وسفننا، وتعالج أمراضنا، وتشعل نيراننا وتحفظ أمتعتنا وتفعل وتفعل إلى مايكبو فى مضمار احصائه القلم ويرتمى اللسان بالبكم، أكل تلك الصور وجميع تلك الاطوار وترتب تلك المنافع وظهور هاتيك الاسرار

مع اتحاد أصل المادة واتفاق جميع الاسباب الجوهرية يكون مصدرها حركة أجزاء المادة مع الضرورة العمياء ، أو الصدفة الصماء ، أو النواميس التى لا تعلم ولا تشاء أم ذلك كله من ابداع مبدع قادر وحكيم قاهر وعليم يعلم بما صار وبما هو صائر ؟ نعم أن جميع تلك الغرائب وعموم هاتيك العجائب ترفع اعلام الشهادة (١) بان للعالم الها عليما وصانعا حكيما يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ، ثم ان النبات وان كان كل نوع منه نعمة انعم بها الخالق سبحانه على خلقه ولكن بعضه تعظم فيه النعمة وتسمو فيه المنة وان يكن كل فرد منه غريبا ولكن قد يكون بعضه اعرق فى الغرابة فلنذكر من ذلك طرفا بالتفصيل ، فنقول من النعم المستغربة فى عالم النبات شجرة الخبز فى جزائر الباسفيك تحمل ثمرات كروية قطر اصغرها أربعة قراريط وقطر اكبرها سبعة وثقلها اربعمائة وعشرين درهما وهى تجنى

---

(١) ما كان ينبغى أن يختلف فى ذلك فان دلالة الأثر على المؤثر والنظام على المنظم والفعل المحكم على الحكيم بديهية بل ان ذلك مما يدركه الحيوان فضلا عن الانسان فانك اذا ضربت حيوانا أعجم التفت ليرى من ضربه لأنه مركوز فى فطرته ان الأثر لا يكون بلا مؤثر والفعل لا يكون بلا فاعل وما مثل من ينكر الخالق الا كمثل من رأى كتابا بديعاً فى مبانيه بليغاً فى معانيه وفيه من الفلسفة العالية والأفكار السامية ما يفوق أفكار أفلاطون وفلسفة أرسطاطاليس ومن الأدب الرائع والشعر البارع ما يسمو على شعر المتنبى وأدب أبى العلاء فلما نظر فيه عبث وبسر وفكر وقدر ثم قال ان هذا الكتاب الا أوراق كانت فى صندوق وكان معها شىء من حروف الطباعة ثم هز الصندوق هزات متوالية فوجد فيه ذلك الكتاب على ما ترون . أفلا ترمى صاحب هذه الفلسفة بالجنون واذا كنا لا نسلم ان ساعة توجد بلا صانع وان باخرة توجد بلا مهندس وان كلمة صغيرة توجد بلا كاتب فكيف نعلم ان هذا الكون العظيم الذى يبهر العقول ويحير الألباب قد وجد بلا موجد ونظم بلا منظم وكان كل ما فيه من نجوم وغيوم وقفار وبحار وليل ونهار وظلمات وأنوار وأشجار وأزهار وشموس وأقمار الى أنواع لا يحصيها العد ولا يأتى عليها الحصر قد وجدت بلا موجد يخرجها من العدم ويمنحها بما شاء من الخصائص المختلفة والمزايا المتباينة

مدة ثمانية اشهر متوالية من كل سنة وهى خبز لأهل تلك الجزائر يقتاتون به كما نقتات بالخبز الصناعى وهو جل طعامهم اعده لهم البارى تعالى من دون عناء مانكابده فى تدبير خبزنا وفى هذه الشجرة منافع أخرى ، فوائدهم من أخشابها وثيابهم من قشورها وقواربهم من سوقها ، ومن ذلك شجرة الحليب وهى شجرة يوجد منها فى الهند ما يسمى هياهيا يخرق ساقها فيخرج منه حليب جيد أخثر من حليب البقر وفى برازيل شجرة منها تسمى (ماساراندوبا) تزهر فى شباط وتثمر ثمرا طعمه كشراب الليمون ويستخرج من ساقها لبن أبيض شهى أفخر من حليب الماشية يتغذى منه السكان ويتخذونه جل قوام حياتهم ، ومن ذلك شجرة القشدة وهى شجرة هندية وافريقية تحمل ثمرا لبه كالقشدة قواما وطعما يبقى شهورا فى البلاد الحارة فى الآنية ولا يتغير لونه ولا طعمه ، ومن ذلك شجرة النارنجيل أى الجوز الهندى فان منافعها قل ان تحويها شجرة فقد قيل انه يتخذ من جوزها قبل نضجه شراب وبعد نضجه ما يحكى الحليب وتطبخ أوراقها كالخضر ويتخذ من عصارة ازهارها سكر ومن اخشابها وقشر جوزها أوان وصحون وجفان ، وتشاد من اخشابها أيضا البيوت وتنسج من أوراقها حصر ومظلات ، ويتخذ من خيوط اليافها ثياب ومناخل وقلوع وحبال ومن دهن جوزها زيت ومن نشارة اخشابها حبر للكتابة ومن أوراقها قراطيس للكتابة ايضا وشجرة النخل لا تقصر كثيرا عنها فى وفرة المنافع فترى ثمرها يؤكل زهرا وبسرا ومذنبا ورطبا وتمرا وهو فاكهة وقوت وذخيرة وينتفع باخشابها وجريدها وعراجينها واليافها حتى بنواها فيطحن ويجعل قوتا للجمال فسبحان المنعم المتفضل على عباده بغرائب نعمه وعجائب منته القادر على تنويع الانواع وتطوير الاطوار ، وخاتمة الكلام فى عالم النبات ان نقول : ان احق الناس بالاستدلال بشؤن النبات على وجود الصانع القادر العليم الحكيم هم العلماء

النباتيون الذين ملأوا المجلدات في شرح أحواله وشؤونه؛ فتراهم قد خاضوا في البحث عن كيفية استفراخه ونموه والتغيرات التي تطرأ عليه من أول زرعه الى ان يبلغ غايته. وعن كيفية تناسله وتلقيحه جنينه بمادة اللقاح التي هي كمني الحيوان. وعن تشريح ابنية جذوره وسوقه واغصانه واوراقه وبراعمه وأزهاره واثماره وبزوره، وعن أعضاء كل منها ونظامات قيامها فيه وخواصها ووظائفها ومنافعها وتقلباتها. وعن مدد حياته واختلاف أنواعها وعن انقسامه الى صفوف وعيال واسباط واجناس وانواع وتباينات وافراد الى غير ذلك مما يحير العقول ويدل على عظمة قدرة خالقه وحكمة مصوره جلا وعلا فتبارك الله رب العالمين، فهؤلاء العلماء يكاد العقل لا يصدق بوجود طبيعيين منهم منكرين للخالق سبحانه، كيف وقد اطلعوا على تفاصيل هذا العالم ودقائق صنعه المحتاجة الى صانع قادر ومدبر حكيم عليم؟ *

ثم نرى العالم الحيواني من سكان هذه الأرض ذلك المصنوع الذي بلغ أعلى منازل الغرابة واسمى درجات الأحكام والاتقان بينما نرى النبات الذي مثل بالغذاء والنمو المواد الجمادية الى بنيته النباتية ناجما على وجه الارض اذ نرى الحيوان قد التقمه وسلمه (١) لآلة فمه فسحقته وهضمته بالسحق ومزجه باللعاب

---

(١) يحسن بنا أن نأتي على وصف اجمالي للجهاز الهضمي فنقول

الجهاز الهضمي هو عبارة عن الآلات التي أودعها الخلاق العليم في أجسامنا لهضم الأغذية وتحويلها إلى مواد صالحة لتعويض ما تفقده من الخلايا بسبب الأعمال التي نزاولها والى حرارة غريزية تحفظ لنا الحياة: وهذه الآلات تتكون مما يأتي

الفم. والأسنان. والغدد اللعابية. والبلعوم. والمرىء. والمعدة. والأمعاء والأوعية اللبنية. والقناة الصدرية. والكبد. والبنكرياس

فالفم تجويف يحتوي على الاسنان واللسان وظيفته طحن الأغذية ومزجها باللعاب لاتمام الهضم الأول

ليحصل به بعض الهضم ثم ازدرده الى معدته وأمعائه فهضمته أتم الهضم بسبب الحرارة والعصارات المفرزة هناك واستخلصت منه المادة المغذية وجرت هناك أعمال تحتار عندها العقول، ثم انتقلت تلك المادة المغذية الى اعضاء سوى المعدة والأمعاء واخذت تتطور باطوار بسبب أعمال تلك الاعضاء فلبست صورة الدم ثم بعد تنظيفها بالدورة الدموية اخذت تتوزع على جسد الحيوان فدخلت اقسامها فى بنية كل عضو منه عوضا عما يتحلل من ذلك العضو ولبست حصة منها صورة منى الحيوان وبزوره ثم بعد التلقيح لبست صورة علقية ثم مضغية ثم أخذت تتصور وتتشكل وتنمو لها اعضاء يقوم كل منها بوظيفة الى أن يكمل تكوينها كالحيوان الذى تطورت تلك الاطوار داخل بنيته وحلت فيها الحياة الحيوانية الحساسة فكانت حيوانا طبق اصله سميعا بصيرا شاما ذائقا لامسا ثم ينفصل

والغدد اللعابية عددها ست وهى معدة الافراز اللعاب الضرورى لهضم المواد النشوية وانزلاق الطعام فى البلعوم والبلعوم عضو عضلى غشائى يعقب فتحة الفم الخلفية وهو يشبه أنبوبة قصيرة . والمرىء أنبوبة طويلة غشائية عضلية تصل بين البلعوم وفم المعدة. والمعدة تبتدىء بعد البلعوم وهى مؤلفة من ثلاث طبقات فالظاهرة تسمى الزلالية والمتوسطة العضلية والباطنة المخاطية . والامعاء قسمان دقيقة وغليظة فالدقيقة تبلغ نحو ثمانية أمتار والغليظة تبلغ مترا ونصفا. والاوعية اللبنية أنابيب دقيقة تنشأ فى باطن الامعاء الدقيقة وظيفتها افراز الخلاصة التى تم هضمها من الاغذية وتميزها عن الفضلات ثم تندفع تلك الخلاصة منها إلى القناة الصدرية فتوصلها إلى الوريد وهو يوصلها إلى القلب فيدفعها القلب إلى الرئتين وهناك تلامس الهواء فيحمر لونها وتصير دما بقدرة الله تعالى . والقناة الصدرية وعاء يبتدىء من خلف الكبد ويصعد امام العمود الفقرى وينتهي عند أسفل العنق إلى الاسفل ووظيفته نقل الخلاصة إلى القلب كما مر والكبد غدة كبيرة تحت الرئة اليمنى وفى أسفله كيس صغير يحتوى على الصفراء ووظيفته إفراز هذه المادة وصبها فى الامعاء الدقيقة لتحويلها بمساعدة العصير البنكرياس إلى جزئين جزء شبيه باللبن وهو مفيد وجزء غير مفيد يخرج من الامعاء الغليظة على شكل البراز . والبنكرياس عضو طويل مسطح يقع وراء المعدة وأسفلها ووظيفته فرز العصارة البنكرياسية التى بها يتم هضم الاغذية النشوية

عن أصله ويأخذ فى السعى على رزقه حسب نوعه وقد تنمو فيه قوة الادراك على قدر
ما يحتاج اليه فى تدبير معيشته وقد تزيد عن ذلك بمراتب حتى يصير ذلك الحيوان
عاقلا عالما وحكيما مدققا يجول فكره فى كل شىء ويتصرف فى كثير من الكائنات فى
هذا العالم فتبارك الخلاق العظيم الذى ينشىء هذا المصنوع من الماء والطين وهذا
المخلوق العجيب مع اشتراكه مع النبات فى بعض الخواص كالنمو والاغتذاء والتوالد
قد فارقه فى أن له ادراكا واحساسا بحواس ظاهرة وباطنة ليست فى النبات
وفيما هو أعظم من ذلك كله وهو القوة العاقلة التى يستدل بها ويستنبط ، ثم
هو ينقسم إلى أجناس وأنواع وأصناف متفاوتة أشد التفاوت فى صفاته
فمنه ما بلغ غاية عظيمة فى الكبر كالفيل الذى علو الكبير منه اثنتا عشرة قدما
ومنه الصغير جدا حتى لا يرى الا بالمكرسكوب الذى أظهر عوالمه المتوغلة
فى الصغر ، فتلك المخلوقات الخفية تسمى النقاعيات لانها اكتشفت أولا
فى نقاعة الأعشاب ، ومع أن ألوفا وربوات منها تسبح فى قطرة من الماء
دون أن تزدحم أو تتصادم فلها الحياة وكل آلاتها وهى اجناس وأنواع
وصنوف وصور مختلفة ، فمنها النقاعيات العصفورية التى يجتمع منها
خلق كثير لا يحصى على وجه البحر فتلمع وتتوقد كسيل من نار وكلها
لا تنام ليلا ولا نهارا ولم ترقط فى حال السكون إلا قبل خروجها من
جراثيمها ، وقد تبين من بحث علماء الحيوان أن مائة وستين مليونا من
صغارها لم تبلغ ثقل قمحة واحدة وأن فى قطرة واحدة من الماء ما يزيد
عن كل أهل الارض من البشر وراقبوا بعضها فرؤا الواحدة منها قد تلد
الوف الالوف فى زمن قصير ، ثم أن لتلك النقاعيات اعضاء كثيرة
مختلفة وعندها معرفة فى طلب معاشها وميل الى ما يلائم ونفور عما يضر
ونباهة تتقى بها الاخطار . ولا يصدم واحدها صاحبه أو يزاحمه مع أن

ألوفا وملايين وربوات تسبح فى قطرة واحدة من الماء كما قدمنا وهى سريعة الحركة جداء والغاية فى صغرها ماذكره بعضهم أن نوعا منها لايزيد الواحدة منه على جزء من ألفى جزء من الشعرة ، ولكل منها أعضاء خادمة لحياتها فتبارك الخلاق القدير، ومن الحيوان مايعيش (١) عمرا طويلا وما يعيش عمرا قصيرا ؛ وقد تخالف فى مدد أعماره تخالفا غريبا واختص كل منه بمدة لايصل العقل الى علة ثبوتها له على وجه قطعى فنرى الحيوانات الجماء تعمر أكثر من القرناء والجرثية أكثر من الجبانة والمائية والبرية أكثر من الهوائية لكن الرخمة والنسر والببغاء والغراب تعيش قدر مايعيش الانسان، ومما اشتهر أن النسر الذهبى يعيش مئتى سنة والسلحفاة مائتين وعشرين والفيل أكثر من مائة سنة والضفادع البرية والمائية أطول حياة من سائر الحيوانات التى تعدلها فى الحجم، وقد راقب بعضهم ضفدعا ستا وثلاثين سنة ولم يظهر شىء من علامات الكبر فيه والفرس يعيش غالبا ثلاثين سنة، ولم يعلم أن فرسا بلغ الستين. وأن معدل عمر الغنم خمس عشرة سنة. ومعدل عمر الكلب عشرون، وهكذا لكل حيوان من كبير وصغير عمر يخصه ولم يتوقف طول أعمارها وقصرها على المسكن والمعيشة أو كبر الجسم

---

(١) ذكر الباحثون وعلماء الحيوان أن من الحيوانات ما يعيش نحو الاربع مئة سنة كالفيلة، ومنها مالا يعيش الا بضع ساعات كبعض الحشرات وبين ذلك درجات متفاوتة فالدب يعيش نحو العشرين سنه وكذلك الذئب والثعلب ربما عاش أربعة عشر عاما أو ستة عشر ويعيش الارنب نحو سبع سنين،

والبجعة تعيش ثلاثمائة سنة وشوهدت سلحفاة ماتت بعد عمر دام مائة وتسعين سنة فسبحان من بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى جعل الموت والحياة آيتين من آياته يشهدان بانه الواحد الاحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد جل شأنه وعز سلطانه

أو صغره ولا على غير ذلك كما رأيت، فاذن لابد لها من مخصص خصص كلا منها بعمره الذى جعله له وهو الخالق الذى أبرزها من العدم وخصصها من القدم يفعل مايشاء ويحكم مايريد ، ومن الحيوان مايعيش فى الهواء وما يعيش فى الماء وما يعيش على سطح الغبراء ، ومايعيش فى اثنين من ذلك، ومنه مايمشى على قدميه ويداه آلتان لاعماله وتناوله غذاءه أو هما جناحان يركب بهما متن الهواء، ومنه مايمشى على أربع، ومنه مايمشى على أكثر من ذلك حتى يبلغ عدد العشرات كالحشرة المسماة أم أربع وأربعين، ومنه مايمشى على بطنه بواسطة الفلوس التى عليها ويتسلق الاشجار والجدران وذلك كالحية، ومنه مايتناول غذاءه بيديه، ومايتناوله بفمه وما يتناوله بمنقاره ومايتناوله بانفه كالفيل ، وما يتناوله بلسانه كالحرباء التى تمد لسانها الطويل المبتل بمادة لزجة تخطف به الذباب وأمثاله من الهواء ، ومنه ماتنقف بيوضه فى داخل جسده عن جنينه ويتم خلقه فيه ثم يلده كاكثر الحيوانات اللبونية ، ومنه ماتخرج بيوضه منه ثم يتخلق جنينه فيها مهيأ له داخلها جميع مايلزم له من الغذاء، وذلك كالطير وبعض الحيات والحرذون ومنه مالا يتم تلقيح بيوضه بمنى ذكره إلا إذا وصل المنى اليها داخله محفوظا من الهواء، وان لحقه الهواء فسد ، ومنه مايلقى ذكره منيه على بيوضه بعد أن تلقيها أنثاه خارج جسدها وذلك لبعض الاسماك فلا يفسد منيه بالهواء ولا بالماء ، ومنه مايرضع أولاده بما يعده الخالق من الحليب فى ثدييه أو أثديته التى تكون على عدد أولاده غالبا ، ومنه مايزق أولاده زقا كالحمام، ومنه مايسعى باولاده ويدلهم على أقواتهم كالدجاج ، ومنه مايشترك فى تربيتهم الذكر والانثى منه وذلك عندما تكون أولاده غير قادرة على السعى فى أول ولادتها، وذلك كالعصافير والحمام والانسان لأن انفراد الواحد بالتربية مع سعيه لرزقه أيضا يكلفه

فوق طاقته ومنه ما تنفر د أنثاه بالتربية وذلك عندما تكون أولاده قادرة على السعي مع أمها كالدجاج والحجل ومنه ما يبني الاعشاش لاولاده بكيفيات غريبة اما نقرا في الاشجار، واما عمارة بالطين وإما غير ذلك ، ومنه ما يحملهم على ظهره كالحيوان الآكل النمل في أميركا أو يحملهم في جراب عند بطنه يخرجهم منه وقت حاجة السعي على القوت ويدخلهم فيه عند المنام وهو حيوان في أوستراليا، ومنه ذو المخرج الواحد تشترك فيه فضلاته وبيوضه، ومنه ماليس كذلك، ومنه ماسفاده في وقت معين لا يعدوه، ومنه ماسفاده لا يعين في وقت ومنه مايعلو أنثاه عند السفاد ومنه مايدابرها، ومنه مايلصق جنبه بجنبها ويحا ككها حتى تلقي بيوضها وهو يلقي منيه على تلك البيوض فيلقحها وذلك كبعض الاسماك، ومنه ما بيوضه تحاكي بنقوشها ألوانه كالحجل وبعض الدجاج الهندي المسمى بين الناس بدجاج فرعون فان بيوضه مخططة بالوان تحاكي ريشه ومنه ما بيوضه بيضاء أو بلون آخر غير مشوب بغيره لاتحاكي ريشه في شيء ثم أن بيوضه مختلفة الاشكال والهيئات والمقادير فمنها الكروي والمستطيل والكبير والصغير وغير ذلك، ومنه مايلد الواحد ومنه مايلد الكثير حتى يبلغ عددا عظيما، ومنه مايكسي جسده بالريش الذي يحفظه من الحر والقر ويناسبه في طيرانه بتكوينه المحكم لننظر الى ريش الجناحين للطائر حيث لا بد من امتداده مقدارا كافيا لحمل جسده في الطيران فقد جعلت أوائله الثخينة مفرغة لتخف عليه في الطيران، ولكن مع تفرغها قد جعلت مادتها صلبة لدنة تتحمل الفواعل ولا تنقصف بسهولة وجعلت أواخر هذا الريش مملوءة بمادة لينة خفيفة لا يثقل حملها ذلك تدبير عجيب تجزم عند مشاهدته العقول بحكمة صانعه سبحانه ومع ذلك فقد أعطى الطيران غير ذي الريش وهو حيوان مكسو بالوبر ويطير بجناحين مكونين من جلد

رقيق ويخالف بقية الطيور أيضا بانه ذوفم باسنان وأكف صغيرة نابتة على جناحيه وذلك هو الخفاش الذى له خواص الحيوانات اللبونية فيشابهها فى هيكله ومنيه وتوالده وارضاعه ويخالفها بأنه يطير فى الهواء كسائر الطيور فسبحان من لا يحكم عليه فى مصنوعاته ناموس ولم تقصر قدرته على طريقة واحدة من طرق العمل فيلازمها ولا يتجاوزها الى غيرها بل يفعل ما يشاء وينوع مخلوقاته على ما يريد، ومنه ماهو مكسو بالصوف أو بالشعر أو بالوبر أو بالعظم كالسلحفاة أو بالقشور الغضروفية، ومنه ماليس عليه الا الجلد والبشرة ، ثم فى اختلاف هيآته واشكاله مايدهش العقول فمنه الطويل والمستدير ونصف الكرة ومنه طويل اليدين قصير الرجلين كالظراقة ومنه بالعكس كالارنب ومنه قصير العنق ، ومنه طويله حتى أن بعضه يلف عنقه كما يطوق الحبل ، وذلك كطائر أكبر من العصفور يوجد فى بلادنا ومنه ذو العينين ومنه ذو العيون كبعض العناكب، ومنه ذو الذنب ومنه ذو الالية ومنه مستطيل الأذنين ومنه مستديرهما . ومنه ذو الحافر وذو الظلف وذو الخف وذو القدم وذو البراثن ومنه ذو الكرش لخزن كمية من الطعام النباتى الذى يحتاج الى كمية كثيرة منه لكفاية الغذاء وذلك فى أكلة النبات ، ومنه ماليس له الا المعدة لأن غذاءه الحيوانى يكفى منه لتغذيته كمية قليلة ومنه ذو الاسنان الصالحة لتمزيق اللحم الذى يكون غذاءه ، ومنه ذو الاسنان التى تصلح لقضم النبات الذى هو غذاؤه وان فى تكوين الاسنان لاسيما فى الانسان وترتيب وضعها لعبرة لاولى الأبصار فقد وضعت القواطع منها فى مقدم الفم محددة صالحة لقطع ما يحتاج لقطعه ويكتنفها الانياب مرأسة تصلح للكسر والتفتيت بحسب شكلها الذى يحكى شكل المعاول ، وقد اكتنفتها الاضراس مستورة عن النظر

مكونة على شكل تصلح به للسحق والطحن ،وانظر لو خولف هذا الترتيب فوضعت الاضراس فى مقدم الفم وأخرت القواطع ماذا كان ينشأ من عسر تناول الغذاء وماذا كان فى منظر الفم من البشاعة فسبحان الحكيم الخبير، ثم فى اختلاف سلاح الحيوان مايبهر الألباب فمنه المخالب والانياب والقرون والخرطوم والذبان والسم الناقع والفساء الكريه كما فى الظربان وفى اختلاف تحصيله رزقه واحتياله عليه لاسيما الحيوان الاعجم عبرة لمن يعتبر، فمنه مايخرج من جسده مادة ويحيكها شبكة ينصبها لمثل الذباب ليعلق بها فيفترسه وذلك كالعنكبوت، ومنه مايحفر قليبا في الرمل ويستتر فى اسفله فاذا وقع فيه حيوان من نوع صيده افترسه واذا وقع فيه مالا يصلح لغذائه دفعه بحركة عجيبة تخرجه إلى خارج القليب وذلك كحيوان صغير يوجد فى الرمول يسميه البعض باسد النمل ومنه مايخطف الحيوانات الصغيرة الطائرة فى الهواء مثل الذباب وذلك كالخطاف، ومنه مايحفر الأرض للوصول الى رزقه ومنه مايتسلق الاشجار ومنه مايغوص فى البحار، ومنه مايطوف فى القفار، ومنه مايقف فى باب وكر صيده ويفسو فساء كريها حتى يميته بذلك ثم يأكله وذلك كالظربان مع الضب واختلاف اقواته وكيفية تناوله لها وادخاره اياها امر فى الغرابة عريق فمنه مايقتات بالحبوب. ومنه بالاوراق. ومنه بالاثمار ومنه باللحوم ومنه بالحشرات ومنه بانفس القوت ومنه باخبثه واقذره وانجسه وذلك كالخنزير الأهلى ومنه مايبلع قوته بلعا ومنه مايمضغه مضغا ومنه مالا يدخر قوتا ومنه مايدخر قوته فى الصيف لاوقات الشتاء وله تدبير عجيب فى ادخاره وذلك كالنحل والنمل وهذا الاخير اذا لحق ذخيرته رطوبة الأرض اخرجها فى الصحو الى نور الشمس حتى تنشف ثم يخرق الحبة التى يدخرها حتى لاتنبت من الرطوبة وقد يخرق بعض الحبوب أكثر من خرق لادراكه ان الخرق الواحد لا يمنع

نباتها وذلك كحبة الكزبرة فسبحان الهادي المبين ثم في اختلاف ألوانه ما يبهج النظر ويحير الفكر فمنه الأبيض والأحمر والأصفر والأزرق والأسود والمنقش بالألوان المختلفة ثم نرى الواحد منه متساوي الافراد في لون واحد أو متساويها في نقش واحد وذلك كالغراب والحجل وأنواع من العصافير ونرى نوعا آخر مختلف الافراد في الالوان كالخيل او في النقوش كالدجاج ومنه ما نقوشه منتظمة بكيفية واحدة كالنمر والطاووس، ومنه ما ليس كذلك كالدجاج والحمام والقطط والشيء بالشيء يذكر قد سمعت عن بعضكم أيها الماديون يعلل انتقاش جلد النمر بأنه في القرون الغابرة كان يجلس تحت الأشجار المظلة قليلا فتصل اليه أشعة الشمس من بين خلال أغصانها فانتقش جلده بذلك النقش(١) فأرجو هذا

---

(١) اذكرني هذا التعليل بكلمة جاءت في أحد اعداد المجلة الطبية البارسية وهي (ليست الفكرة الواحدة الا تحادا يشبه اتحاد حمض «الفسفوريك» والفكر نفسه ناتج من الفسفور الذي هو في تركيب المخ)

فرد عليها العلامة الطبيعي الشهير كاميل فلامريون قائلا : من اخبركم بذلك يا حضرات المحررين ان الناس يتوهمون إن معلميكم يعلمونكم هذه الهذيانات مع ان الامر بخلاف ذلك لان هذه الادعاوات ليست امام النظر العلمي الاهباء منثورا على اني لا ادري اي الامرين يستحق ان نتعجب منه اكثر ؟ امن هذه الجسارة الصادرة من هؤلاء الممثلين المحبين للعلم ام من سخافة ادعاءاتهم : ان نيوتن كان يقول (يظهر لي) وديكارت كان يقول (اني استنزل حلمكم في هذه الفروض) ولكن هؤلاء يقولون نحن نثبت . نحن ننكر . هذا موجود . هذا غير موجود ٭

العلم قد حكم . العلم قد اقر . العلم ادحض . مع انه ليس فيما يقولون ظل من البرهان العلمي الى ان قال انكم تتجاسرون ان تعزوا الى العلم هذا العبء الثقيل ولئن سمعكم العلم ايها السادة لضحك استهزاء من غروركم . انكم تقولون العلم يثبت العلم ينفي العلم يأمر العلم ينهى وبذلك فانتم تضعون على شفتي هذا العلم المسكين هذه الكلمات الضخمة وتدخلون الى فؤاده هزة الكبر والعجب امور لعمر الحق ان هذه هي بمنزلة تلك الطنطنة الجوفاء امام الفلسفة الصحيحة والعلوم الحقة ٭

المعالل أن يعلل لنا عن انتقاش ريش الطاووس باللون الذهبي والأخضر والأزرق والعسلي والأسود والكحلي وغير ذلك بأشكال منتظمة وتخاطيط محكمة. وعن انتقاش ريش الديكة التي لا يرى واحد منها إلا بانتقاش غريب عن كثير من أفراد نوعه وعن انتقاش ريش الورور. والحسون وأمثال ذلك كثير. ولست أجزم ببطلان تعليل هذا المعلل لانتقاش جلد النمر إذ ربما يكون السبب هو ماقاله بخلق الله تعالى كما جرت عادته سبحانه بترتيب المسببات على الأسباب ولكني أريد منه أن لا يجعل الأمر طبيعياً محضاً بل يرد كل تعليل إلى فعل الخالق سبحانه وتعالى وإلا فاني أستعجزه بطلب تلك التعليلات، ثم أقول: ومما يقضي منه العجب في الحيوان اختلاف أصواته ومناظره، فمنه المطرب الذي يهيج بصوته القلوب. ومنه ذو الصوت المنكر الذي يصم الآذان ومنه الجميل الذي يستوقف الطرف كالطاووس والظرافة وبعض الديكة. وأبدع الجميع جمالا وأظرفها أمثالا الحسان من نوع الانسان فهناك دهشة النظر وحيرة الفكر والأخذ بمجامع القلوب والسطوة على ألباب ذوي الأحلام والسلطة على أبهة الجبابرة والحكام فهل عند القرود من ذلك عين أو أثر لا وحق من زين العيون بالحور والجباه بالطرر. ومنه ماتقشعر منه الجلود وترجف القلوب كالرتيلاء والثعبان والخنزير والسعدان، ثم منه مايختص بأنثى. ومنه ماليس كذلك، ومنه الذي يسعى لرزقه منفرداً، ومنه مايسعى اليه متجمعاً أسرابا، وهذا منه ما يكون اجتماعه على نظام الجمهورية ومنه ما يكون على نظام الملكية ويقيم الحرس ويقدم الدليل والرائد للماء والكلأ واختلاف أخلاقه أمر عجيب قد ألفت فيه الكتب فمنه الجريء والجبان وقريب الألفة للانسان وبعيدها وغير ذلك وكذلك اختلافه في القوة والضعف والصبر على عدم القوت وضد ذلك ومقاومة

الفواعل الخارجية وعدم مقاومتها ، فمنه مالو نخس بإبرة فى نخاعه الشوكى لمات فى الحال وبطلت حياته كما قيل فى الانسان . ومنه مالو قطعته ثلاث قطع رأسه ووسطه وذنبه وتركته بعض أيام لرأيت الرأس قد نبت له بدن وذنب والوسط قد نبت له رأس وذنب والذنب قد نبت له رأس ووسط وكل منها قد رجع حيواناً والرأس يصير كذلك قبل سواه وذلك كحيوان يسمى الهيدرا من الحيوانات الصغيرة جداً فكل هاتيك الاختلافات دلائل شاهدة بأن صانع هذا العالم الحيوانى لا يحكم عليه فى صنعه ناموس ولا تلجئه ضرورة الى التزام طريقة واحدة فى ابداعه بل هو واسع القدرة والعلم والتدبير ينشىء نوعا على كيفية تكون كافية له فى معاشه وقيام نظام حياته كاملة فى زينة مرآه وينشىء نوعا آخر منه بكيفية هى بالضد من الكيفية الاولى وتكون كافية تلك الكفاية وكاملة ذلك الكمال تنبيها للعقول وايقاظا للافهام انه فاعل مختار لا يعجزه شىء ولا يعزب عن علمه غيب سبحانه وتعالى عما يقوله الجاهلون (١)

---

(١) عجيب امر هؤلاء الماديين كيف يكابرون الحق الصريح ويقفون مع الحسن لا يجاوزون حدوده الضيقة وليس هذا شأن الانسان وانما هو شأن الحيوان الاعجم الذى لا يعرف الا المحسوس ولا يرتقى الى مافوقه »

يقول توماس كارلين «انهم يحصرون هذا الكون وما به من شتى المناظر والاشكال والاصوات والحركات المديدة المدد والنجوم والغيوم والقفار والبحار فى اسم مركب من ثلاثة احرف (الكون) (او خمسة) (الطبيعة) فيطوون جلاله العظيم فى اثناء لفظ حقير الى ان قال «اما ظاهر الكون فقد عرف العالم عنه شيئا واما الباطن فهو سر عميق لا ينفع معه علم عالم ولا تجربة كيماوى وانما الاولى بالمرء فى مثل هذا المقام الاذعان والخشوع والجهل هنا افيد من العلم ومايستفيده المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره أكثر مما يكتسبه المتحدين العالم بمنظاره وكيميائه ماذا صنع العلماء فى اسرار الكون الا انهم زادوها خفاء واكتتاما بالباسها براقع من الاسماء والاصطلاحات . بئس العلم الذى يحجب عنا جلال ذلك الكون الرائع الذى يتضاءل العلم فى حضرته ويذل لعزته وعظمته الى ان قال : ان هذا الكون على رغم العلم ودعواه

ثم ما في الحيوان من التركيب العجيب وتكون الاعضاء والحواس الظاهرة والباطنة ووظيفة كل عضو منها واختلافات ابنيتها ودقائق صنعها وانطوائها على الفوائد الجمة والمصالح التي بنيت على الحكمة امور تدهش الالباب وتحير الافهام وترشد كل لبيب على ان لهذا العالم صانعا عليما ومدبرا حكيما قادرا على ما يشاء مبدعا ما يريد * ولنذكر بالاجمال بعضا مما اطلع عليه علماء التشريح والفاسلوجيا الباحثين عن حقائق اعضاء الحيوانات وأبنيتها ووظائفها ومنافعها والمقصود منها فنقول: اذا نظرنا إلى الحواس الخمس في الحيوان لاسيما الانسان نجد انها في اعلى طبقات الاتقان واسمى درجات الاحكام ما وضعت الا لحكم باهرة وفوائد ظاهرة ولم يكن حصولها بالصدفة ولا على وجه الضرورة شاهدة بان واهبها واسع الاحسان على مخلوقاته *

فالبصر هو القوة المودعة في العصبة المجوفة في العين المتصلة في الدماغ لتؤدى اليه صور المرئيات فتتركها النفس ثم العين هي آلة ترسم الصور بواسطة النور وهي أكمل الآلات البصرية اتقانا لانه قلما يعتريها الخطأ الذي يعترى سواها من الآلات البصرية وتحكم نفسها بنفسها لتحصيل الابصار جليا وهي موضوعة في تجويف من العظم يسمى الحجاج ومؤلفة من ثلاث طبقات وثلاث رطوبات مع ما يلزم لها من الرباطات والاوردة والشرايين والاغشية والعضلات فالطبقات أولاها الصلبة وهي غشاء لدن متين ظليل أي لا ينفذه النور ولا يرى ما وراءه يحيط بباقي الطبقات وجميع الرطوبات لوقايتها وحفظ نظام ترتيبها واوضاعها الا ان في مقدمه قطعة شفافة كزجاجة الساعة في شكلها في التحدب

لا يزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات ثم يقول:

لا اخال انه يجتمع الالحاد والتفكير في هذه القوى الفعالة الذاتية المحدقة بنا والتي لا تكل ولا تنى ولا تفتر ولا تعرف لها اولا ولا آخرا ولا مبدأ ولا نهاية) *

من الخارج والتقعر من الداخل ونازلة فيه كما تنزل زجاجة الساعة فى حلقتها النحاسية وهذه القطعة تسمى القرنية وثانيتها المشيمية وهى ناعمة كالمخمل سوداء اللون ومتوسطة بين الصلبة والشبكية ، وثالثتها الشبكية وهى مكونة من انبساط العصبة البصرية التى تنشأ من الدماغ وتدخل العين من مؤخرها والرطوبات اولاها المائية وهى سائل صاف شفاف موضوع فى غرفة وراء القرنية، وبعد هذه الغرفة من ورائها حجاب مثقوب من وسطه يسمى القزحية ولونها اسود أو ازرق أو أشهل أو غير ذلك ويسمى الثقب الذى فى وسطها البؤبؤ، وثانيتها البلورية وهى جسم لدن أملس شفاف كالعدسة المحدبة من وجهيها وهى أكثف فى الوسط منها فى الجوانب وموضوعة وراء القزحية؛ وثالثتها الرطوبة الزجاجية وهى جسم شفاف لزج كبياض البيض النىء وتشغل ما بقى من الخلاء وراء البلورية داخل العين حتى تصل إلى الشبكية ، ثم إن العامل برسم صور المرئيات فى العين هو النور الواقع على المرئيات والمنعكس عنها إلى داخل العين والنور له نواميس قد فطر عليها بها ينقل الصور ويرسمها ولكن من مقتضى بعضها أنه لو لم تدبر له الحكمة الالٰهية تدابير فى تركيب العين لما تم الأبصار ولكانت تتشوش على العين صور المرئيات، وبيان ذلك إن النور إذا وقع على جسم كثيف خشن انعكس عنه ورسم صورته على ما يقابله خصوصاً إذا كان المقابل صقيلا ولكن إذا وصل النور إلى المقابل على خطوط مستقيمة يرسم عليه الصورة غير واضحة لأن أشعته كلما امتدت انتشرت وتباعدت خطوطها فيحتاج فى رسمه الصورة واضحة على الجسم الصقيل المقابل أن تكون الخطوط عند وصولها اليه متجمعة ، ثم إن خطوط النور إنما تتجمع إذا مرت فى جسم شفاف عدسى الشكل أى محدب الوجهين

كالعدسة أو محدب الوجه الواحد ومستوى الوجه الآخر أو محدب الوجه الواحد ومقعر الآخر ، ثم الخطوط المتجمعة بسبب مرورها فى هذه الأشكال إنما يكون معظم تجمعها فى الوسط ولا تساويه أطراف هذه الأشكال فى الجمع لاسيما اذا كان الوسط اكثف منها ، وكذلك تتجمع خطوط النور اذا مرت على جسم شفاف كثيف بعد مرورها فى جسم الطف منه بخلاف ما اذا مرت فى جسم كثيف ثم مرت فى جسم أقل منه كثافة فانها تتباعد وتأخذ بالانتشار ، ثم ان النور ينعكس عن كل الألوان الا اللون الأسود فانه يتشربه فلا ينعكس عنه كما أنه لا ينفذ الجسم الملون بالأسود وما يقاربه وكل هذه الألوان تمتصه وتخفيه وأكملها فى امتصاصه اللون الأسود ، ثم انما يرسم النور الصورة واضحة بعد تجمع خطوطه اذا كان الجسم المرسوم عليه على بعد مخصوص من الجسم الذى انعكس عنه النور أو من الجسم الذى نفذ منه النور ، اذا تقرر جميع ذلك وعلمت ماذكر من نواميس النور فلنشرح كيفية الأبصار فنقول : اذا وقع النور على المرئيات انعكس عنها ودخلت خطوطه العين ورسمت على الشبكية صور المرئيات وهى تؤديها باحساسها الى الدماغ لكن بانعكاسه عن المرئى تكون خطوطه مستقيمة ولو بقيت سائرة بدون تجمع حتى وصلت للشبكية لكانت وصلت اليها منتشرة متباعدة فترسم الصورة غير واضحة فدبرت الحكمة الالٓهية أنه فى أول مايدخل النور العين يلاقى القرنية وينفذها وهى لتحدب وجهها الخارج وتقعر وجهها الداخل تجمع خطوطه بعض الجمع ثم ينفذ الرطوبة المائية وهى لكثافتها تجمع خطوطه أيضاً زيادة تجمع وتلاصق بينها التقوى على رسم الصورة ، ولكن لما كانت الشبكية التى ترسم الصورة عليها مقعرة فلو وصلت اليها جميع الخطوط التى تمر فى المائية على هذا المقدار من

التجمع لرسمت الصورة على وسطها وجانبيها فتكون حينئذ منبسطة مشوشة ولاسيما اذا كان النور كثيراً مجهرا للبصر بكثرته فدبر الحكيم سبحانه هذا الأمر ووضع غشاء القزحية خلف الرطوبة المائية مثقوبا من وسطه ثقبا حلقيا وهو البؤبؤ وجعل توسعته وتضيقه تحت ارادة الناظر بسبب العضلات التي ربط بها ذلك الغشاء حتى يدخل الناظر مايحتاج اليه من كمية النور النافذ من الرطوبة المائية فيوسعه اذا كان النور قليلا لتدخل كمية كافية ويضيقه اذا كان كثيرا لئلا تتشوش الصورة ثم صبغ أطراف القزحية المذكورة بلون أسود أو أزرق أو أشهل أو غير ذلك مما يمنع نفوذ النور ويخففه بالامتصاص حتى لاتنفذ الخطوط الواقعة على اطراف القزحية حول البؤبؤ وتصل الى أطراف الشبكية فتتشوش الصورة كما قلنا ثم تنفذ الخطوط الرطوبة البلورية التي هي محدبة الوجهين فتتجمع أيضا زيادة عما تجمعت أولا ولاسيما في الوسط لأن وسط البلورية أكثف من أطرافها ، وقد جعل الحكيم الخبير تلك البلورية تحت ارادة الناظر أيضا بان يزيد تحدبها أو ينقصه لان الخطوط النورية يزداد تجمعها كلما زاد تحدب الجسم النافذة هي منه وينقص كلما قل تحدبه فالناظر يتصرف بها بحسب احتياجه فيزيد تحدبها أو يقلله ثم تنفذ الخطوط في الرطوبة الزجاجية فتتجمع أيضا زيادة تجمع على ماقالوا حتى يكون التجمع كافيا للرسم الواضح ، وحجم هذه الرطوبة هو بمقدار كاف لمسافة امتداد النور من أول دخوله القزحية ونفوذه منها ومما بعدها حتى يصل الى الشبكية ، ثم لما تصل الخطوط الى الشبكية بعد تلك التجمعات وترسم عليها الصورة تنفذ منها لشفافتها كمية من الخطوط وتقع على الصلبة ولئلا تنعكس عنها وتصادم الاشعة

الواردة من الخارج فتتشوش الصورة جعل الحكيم جلت قدرته لون باطن الصلبة أسود حتى يتشرب تلك الكمية من الخطوط النافذة اليه من الشبكية ولا تنعكس ، ثم أن هذه الأوساط التي جمعت الخطوط النورية جمعا بعد جمع ولخصتها ذلك التلخيص الكافي لرسم الصورة واضحة بسبب الكثافة والشكل المحدب وتعيين المسافة بين الجسم النافذ منه النور والشبكية وتسلط الارادة على توسيع طريق مرور الاشعة وتضييقه وعلى زيادة التحدب وتقليله مع منع التشويش أيضا بواسطة الألوان فقد كان تعدد تلك الأوساط لحكمة أخرى باهرة كما قال بعضهم ، وهي أن النور اذا نفذ من جسم شفاف محدب انحل لالوانه المعروفة في فن الطبيعيات وهي ألوان قوس السماء فتظهر الصورة التي ينقلها بنفوذه من الجسم المحدب ملونة بتلك الألوان ، وهذا يسمى الخطأ اللوني وصناع الآلات البصرية يرفعون هذا الخطأ بضم جسم شفاف محدب الى الجسم الأول يحل النور عكس حل الأول فيعود الى لونه الابيض ويوصل الصورة غير ملونة ، ويرتفع الخطأ اللوني . فعلى مايقول ذلك البعض ان من جملة حكمة الباري تعالى في تعدد تلك الأوساط المذكورة وعدم الاكتفاء بامر واحد منها يجمع الأشعة دفعة واحدة دفع ذلك الخطأ اللوني فاذا نفذ النور من القرنية مثلا ، وانحل لالوانه تحله بقية الأوساط الجامعة لخطوطه من المائية والبلورية والزجاجية عكس ما حلته القرنية فيعود الى لونه الابيض ويرفع ذلك الخطأ ، هكذا يظن البعض وهو قريب من الصحة أقول أنهم قالوا أن مقتضى التجمعات التي تجمعها خطوط النور بواسطة ما مرت فيه من القرنية والمائية والبلورية والزجاجية أن لا تصل الى الشبكية إلا وقد تقاطعت وصارت الاشعة المنعكسة من أعلى المرئي واقعة على الطرف الاسفل من الشبكية والاشعة المنعكسة من أسفل المرئي تقع على الطرف الاعلى من

الشبكية وحينئذ تكون صورة المرئى مقلوبة ، وقد احتاروا فى التعليل عن كون العقل يدرك صورة المرئى قائمة ، وهى قد رسمت فى الشبكية مقلوبة، وأشهر ما عللوا فيه أن العقل اعتاد على رؤية الأشياء المرئية قائمة حيث أنها قد استوى جميعها فى هذا الانقلاب وشرحوا ذلك التعليل بكلام ركيك فالذى يخطر لى أن أشعة النور بعد نفوذها من الهواء فى القرنية والمائية والبلورية التى هى شديدة الكثافة فى الوسط تتجمع تجمعا كافيا لرسم الصورة واضحة قبل أن تتقاطع ، ثم اذا نفذت فى الزجاجية فلعل الزجاجية هى أقل كثافة من البلورية فتأخذ تلك الأشعة فى الافتراق فى مسافة سيرها فى الزجاجية كما تقدم ان النور تنتشر أشعته اذا مر فى جسم الطف مما مر فيه قبله حتى تصل الى الشبكية فترسم عليها الصورة قائمة لأنها وصلت اليها على الكيفية التى كانت عليها فى أول ما نفذت فى القرنية أى ان الاشعة المنعكسة من أعلى المرئى وقعت على الطرف الاعلى من الشبكية والاشعة المنعكسة من أسفل المرئى وقعت على الطرف الاسفل منها ، وحيث لم تتقاطع الاشعة فيلزم أن ترسم حينئذ الصورة على الشبكية قائمة ، هذا ما أراه على وجه الاحتمال وبه يرتفع الاشكال ويظهر للزجاجية فائدة لم تخطر قبل هذا فى بال ، وما قيل : أن البعض قد شاهد من فتحة فى مؤخر العين الصورة على الشبكية مقلوبة فهو كلام لم أتحقق صحته ، وان ثبت عندى فيكون لى عند ذلك مقال ه

هذا والى هنا وصل الباحثون فى كيفية الابصار ، فغاية ما عندهم أنهم اوصلوا رسم صور المرئيات الى الشبكية . وقالوا : انها تؤدى الصور الى الدماغ ولكن فى كيفية ادراك النفس أو العقل أو الدماغ على رأى من ينكر النفس لتلك الصور فلم نجد لهم كلاما شافيا . بل نجد الكثيرين منهم واقفين حيارى عند محاولة الكشف عن حقيقة ذلك ، فاذا تأملنا فى جميع ما تقدم من تراكيب

العين والتدبيرات التي وضعت لها لاتمام أبصارها أفيكون لادنى العقول مجال أن يصدق بان ذلك الصنع العجيب الغريب في العين قد حدث عن غير قصد وبدون حكمة بل الضرورة اقتضته والصدفة أوجدته والانتخاب الطبيعي أبقاه؟ كلا ثم كلا لايصدق بهذا الا كل ذي عقل سخيف (١) وما من صاحب رؤية الا و يعتقد عند الاطلاع على ذلك الصنع البديع أن له صانعا مريدا حكيما عليما مدبر الأمر وفق الاحكام والاتقان سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون علوا كبيرا ، ولو نظرنا الى أن قطر العين أقصر من قيراط ، ومع ذلك يرسم على شبكتيها صورة أرض واسعة بكل ما فيها من السهول والجبال والاودية والصخور .والمياه.والاشجار . والأبنية.والحيوانات

---

(١) ما أجدر الانسان الذي آتاه الله قسطا من الادراك والعلم فقميزه بهما عن سائر الحيوان ومنحه حظا من العقل ونصيبا من الفكر ان يربأ بنفسه عن هذه الغفلة المزرية والقصور المعيب والمكابرة في الحق بعدما اشرق نوره وسطع ضياؤه ؛

لا اكاد اصدق ان انسانا اوتي مسكة من عقل ثم اراد ان يكون على بصيرة من أمره فنظر نظرة صادقة في عجائب هذا الكون واسرار هذا العالم ورأى ما اشتمل عليه من الاتقان والاحكام وحسن التقويم وفضل التقدير والتدبير مما بلغ الغاية القصوى ثم بعد ذلك يقول ان هذا الجمال الباهر والاتقان العجيب والاحكام الذي لايجارى والتقويم الذي لايبارى انما اقتضته الصدفة وجاءت به الضرورة ولعمر الحق ان هذا هو الضلال البعيد والخسار الذي ليس بعده خسار

واى ضرورة عمياء واية صدفة خرقاء جعلت العين التي نبصر بها الاشياء على هذا الوضع العجيب وجعلتها طبقات بعضها فوق بعض وجعلت الملتحمة شفافة من جزئها المتوسط لدخول النور فيها وجعلت الشبكية على حالة تسمح لها بان ترسم صور المرئيات عليها واوجدت عدة اجسام شفافة في العين وهي المائية و البلورية والزجاجية وظيفتها كسر اشعة النور ليتم ارتسام الصور ثم جعلت للعين الاهداب وقاية لها من اشعة الشمس الشديدة ومن الاتربة المتناثرة في الجو الى غير ذلك مما يبهر الالباب ويملك النفوس ؛

وما هذه العين على جمال وضعها وكمال ترتيبها الا شاهد واحد من الشواهد التي لايأتي عليها الحصر الناطقة بقدرة خالقها وحكمة موجدها تعالت اسماؤه عما يقول الظالمون علوا كبيرا

مستوفية التفاصيل فكأن الشبكية شاطئ بحر وأمواج النور تجري اليه من كل النواحي وتنفقش عنده الوف الوف على ألوف الوف لحارت أفكارنا في دقة تلك الصورة التي رسمت على الشبكية وفي صغر حجمها محاكية لتلك الارض الواسعة وجميع مااشتملت عليه لم تغادر منه شيئا فما أسمى قدرة من أبدع ذلك ودبره بحكمته سبحانه ما أعظم شأنه ، وإذا راجعنا تشريح العين واطلعنا على ما احتوت عليه من العضلات والاعصاب القائمة بوظيفة حركتها والشرايين والأوردة الخادمة في تغذيتها وغير ذلك من الرباطات والرطوبات لزاد بنا العجب والحيرة ، ثم اذا انتقلنا الى خارج العين نجد من تدابير الباري تعالى في محافظتها وتسهيل طرق أداء وظيفتها أحكم صنع وأتقن وضع ، وذلك أن العين لما كانت لطيفة يخشى عليها من مصادمات الأجسام ولو صغيرة جدا وضعها(١) خالقها داخل الحجاج محفوظة به

---

(١) أيتصور عاقل ان وضع العين على هذه الحكمة العالية داخل الحجاج لتكون في منعة عن ان تصل اليها المؤثرات الضارة وان تصطدم بها الاجسام الصلبة وان سترها بالاجفان التي تكسبها قوة على المقاومة اذا ما تعرضت احيانا للمصادمة ببعض الاجسام مما لا يكاد يسلم منه انسان في يوم من الايام وكسوة هذه الاجفان بالاهداب التي تقي العين اشعة الشمس واتربة الجو وجعل هذه الاهداب سوداء اللون حتى تتشرب بعض النور الذي يصل الى العين قويا الى غير ذلك مما يحتاج تفصيله الى مؤلف مستقل انما حصل صدفة وجادت به الضرورة على الانسان والحيوان وما هذه الضرورة ما حقيقتها انها اسم بلا مسمى ومعنى لا وجود له الا في اذهان الذين ليست لهم قلوب يعقلون بها ولا أذان يسمعون بها ولا ضمائر حية تحاسبهم حسابا عسيرا على ما اجترحوا من الاوزار والآثام — ومن عجيب امر هؤلاء — وكل امرهم عجيب — انك اذا وضعت يدك في يد أحدهم وقلت له اترى هذا المنزل الجميل القائم على تلك الربوة البهجة التي تكتنفها الرياض الغناء والحدائق الفيحاء وتجري تحتها الانهار التي تحيي الارض بعد موتها وما فيه من اثاث ورياش وارائك مصفوفة وزرابي مبثوثة ماهو الا احجار جذب بعضها بعضا فتراصت وتلاقت تعلو شيئا فشيئا وتسمو رويدا رويدا حتى بلغت هذا العلو الشاهق الذي يحسر الطرف وكانت لهذا المنزل الجميل الذي ما وقعت العيون على احسن منه انك لو حدثته هذا الحديث لنفض يده

من كل جانب الا الجهة التي يدخلها النور لرسم الصور وجعل الطبقة الأولى منها وهى الصلبة مع القرنية لدنة حتى تقوى على المصادمة بعض القوة، وسترها أيضا بالاجفان لوقايتها لاسيما عند المنام، وللزينة أيضا ثم انبت على أطراف الاجفان الاهداب شعرا أسود ثخينا لدنا منتصبا مع ميل الاعلى منها الى فوق قليلا والاسفل الى تحت كذلك أما سواده فليتشرب بعض النور الوارد على العين لاسيما اذا كان قويا كما أن الحاجبين فوق العينين بلون السواد أو نحوه لاجل الزينة، ولهذه الحكمة وهو تشرب بعض النور الوارد على العين، ولذلك نرى من كان لون حاجبيه وأهدابه أبيض يجهر بصره ويتخازر، وانما لم يحصل الاكتفاء بتقليل كمية النور وتخفيفها بتضييق بؤبؤ القزحية لان ادامة تضييقه يلزم منه دوام تخازر العينين وبشاعة المنظر؛ وأما ثخن شعر الاهداب وانتصابه مع لدونته فلمقاومة الاجسام الصغيرة الواردة على العين فانها اذا ورد عليها حبة تراب مثلا وقعت غالبا على الهدب فصادفت شعراته كالحراب المشرعة تمنعها من الوصول الى الداخل وتدفعها بلدونتها الى بعيد، وأما كون شعر الهدب الاعلى مائلا الى فوق قليلا والاسفل إلى تحت كذلك فلتسهيل افتراقهما عند ارادة فتح الاجفان لانهما لو كانا متوازيين فى

من يدك قائلا اتتخذنى هزوا وهل يكفى لبناء منزل على هذه الهندسة الغريبة ان تتجاذب الاحجار ويتراص بعضها فوق بعض هذا مالا اصدقه بحال ولا يدور لى بخلد ❊

واذا كان يأبى ان يسلم ببناه منزل واحد وهو اذا ماقرن بعجائب السموات والارض ومافيهما من الاتقان والاحكام لم يكن شيئا مذكورا فكيف يسلم بان هذا العالم العظيم والسكون الذى لايحيط العقل باسراره وبدائعه انما جاءت به الضرورة وافرغته فى قالب الكمال الصدفة ❊

وليس يصح فى الاذهان شيء ❊ اذا احتاج النهار الى دليل

الانتصاب لانطبقا على بعضهما عند انطباق الاجفان وبسبب رطوبة الدمع يتلاصقان فيعسر افتراقهما. ولو كانا متقابلين فى الانتصاب بحيث تتداخل شعراتهما عند الانطباق لكان عسر افتراقهما مع الرطوبة الدمعية أشد ، وأيضا هذه الكيفية تجعلهما فى طريق النور فينقل صورتهما الى الشبكية فتتشوش صور المرئيات فوضعهما فى تلك الكيفية من الميل القليل الى فوق وتحت هو عين الاتقان والاحكام لايليق سواه، وفضلا عن هذه الفوائد فى الاهداب فالزينة بها لاينكرها إلا كل معدوم الذوق السليم ، ثم لما كان الغبار لايندفع عن العين لا بالحجاج ولا بالاجفان للاحتياج الى فتحها عند النظر ولا بالاهداب وهو يذهب بصقالة القرنية ويعطل وظيفة شفافتها اذا وقع عليها ومع ذلك فتراكمه على العين يجلب عليها الضرر دبر الحكيم سبحانه وتعالى لجلائه عنها افراز الدمع من الغدد الدمعية حول المقلة داخل الاجفان وجعل الأجفان متابعة الحركة بالانطباق والانفتاح على غاية من السرعة التى يضرب بها المثل حتى لايتعطل الأبصار ويتشوش ، فالدمع يغسل الغبار الذى يقع على المقلة والاجفان بحركتها تصقلها وتزيح الدمع الممتزج بالغبار عنها ، ثم ذلك الدمع الذى صار قذرا بالغبار لابد من خروجه عن المقلة على وجه مناسب فلو أنه كان يخرج دائما الى ظاهر الأجفان ويسيل على الخدين لرأينا هناك منظرا بشيعا ومسيلين من أقذر المسيلات فدبر الحكيم سبحانه لتسهيل انفصال ذلك الدمع عن المقلة تكوين أطراف الأجفان من الداخل بشكل يصلح لجريانه الى الموق أى الطرف الذى يجاور الانف ثم جعل هناك ثقبا رفيعا نافذا الى داخل الأنف يسمى القناة الدمعية يخرج الدمع منه ويصل الى داخل الانف ويختلط برطوبته ويتجمد هناك معها فيخرجه الحيوان بالاستنثار ونحوه. أقول: أن هذا القناة الدمعية لايصدق عقلى أنها

حصلت للحيوان بوجه الصدفة أو الضرورة فضلا عن جميع تلك التدابير . وأى ضرورة اقتضتها فسبحان الحكيم الخبير *

ولو نظرنا الى منافع البصر للحيوان وفوائده باهتدائه به الى طرق معاشه ونجاته من مخاوفه ورؤيته مباهجه وكشفه به ما يبعد عنه ملايين من الاميال كما يكشف به ما يقرب منه لجزمنا بان واهبه جزيل الاحسان واسع العطاء متفضل على مخلوقاته باتم النعم وأكمل المنن تعالى شانه وتقدس سلطانه ، ثم أن اتباع محمد عليه الصلاة والسلام عند اطلاعهم على تدبير كيفية الابصار بتلك الاوضاع وهاتيك النواميس يقولون ويعتقدون بان الابصار ما هو الا بمحض خلق الله تعالى وتلك الاوضاع وهاتيك النواميس المشروطة لحصوله ما هى الا شروط عادية أى أن الله سبحانه اجرى عادته بان يخلق عندها الابصار ولو أراد أن يخلقه بدونها لفعل كما انه لو لم يرد خلقه مع توفر حصولها ورفع الموانع لما كان ولا حصل ، ولهم على ذلك أدلة قاطعة مذكورة فى كتبهم يطول الكلام بسردها هنا وقد تقدم الكم فى اثبات صفات اله العالم ما يفيد انه لا اثر فى العالم الا بخلقه سبحانه وايجاده والابصار من جملة الآثار ، ومما يناسب مشربكم ايها الماديون فى طرق الاستدلال ويدل على ان تلك الامور شروط عادية للابصار وانه يوجد مع انعدام اقوى اركان شروط وجوده وهو النور قصة مشهورة محققة ذكرها كثيرون من كبار علماء الفلاسفة كما نقله بعض المؤلفين الباحثين فى هذا العصر وهى ان فتاة فى اميركا أصابها مرض كانت تقوم به ليلا وهى نائمة وتتكلم وتعمل اعمال المستيقظ ثم اشتد بها الامر الى ان صار يعتريها نهارا وليلا وكان بصرها يتغير عند حدوث هذا الحال تغيرا لم يعهد اغرب منه فتقرأ ادق الحروف فى الظلام الحالك وعيناها مغمضتان وهذه القصة وفق ما يعتقده اتباع محمد عليه السلام من أن الابصار

بمحض خلق الله تعالى فان بقية الاحساسات كذلك وان الشروط التى للابصار وغيره انما هى شروط عادية كما ذكرناه هذا واذا أردنا ايراد جميع شروح الباحثين لاعضاء السمع والشم والذوق واللمس وما اشتملت عليه من التراكيب الغريبة وكيفية الاحساس بها وتدبيرات اتمامه على نواميس طبيعية ومنافع هذه الحواس للحيوان وهبتها له على قدر احتياجه والقيام بحفظه وهدايته لوجدنا ما هو عظيم المنزلة فى المصنوعات ولشهدنا من صميم الفؤاد بان الواهب لتلك الحواس تام القدرة واسع العلم سامى الحكمة جزيل العطاء سبحانه وتعالى عما يصف الضالون ولكن ايراد تلك المباحث يطيل الكلام وربما يوقع فى الملال ، ولو تأملنا فى بقية أعضاء الجسد وأبنيتها ووظائفها وما اشتمل عليه الجسد الحيوانى من السوائل والجوامد ومنافع كل منها لرأينا هناك ما يشهد بان لجميع ذلك خالقا حكيما ، ومدبرا عليما ، ولنشر لبعض ذلك فنقول الا يكون للناظرين عبرة وللباحثين تدبر وامعان واذعان بوجود خالق للاكوان اذا نظروا لما احتوى عليه الجسم الحيوانى من مخ ومخيخ ومجموع عصبى وقلب ورئتين وكبد وطحال وكليتين ومعدة وامعاء وأوردة وشرايين وأوتار وعضلات وغدد وغضاريف وعظام وأنسجة وسوائل من دم وصفراء ولعاب وعصارة المعدة والامعاء والبنكرياس وغازات وعرفوا أبنية هذه المذكورات ووظائفها وحركاتها واعمالها فى الجسد من الهضم والتغذية والتنفس والافراز ، ونظروا الى أعضاء التناسل . وأعمالها واتقانها . وكيفية التوالد . والتدابير التى هيئت لحصوله ولحفظ الولد ونموه وتغذيته وغير ذلك مما يحتمل شرحه مجلدات ، نعم أن العلماء الذين يطلعون على تفاصيل هذه المباحث وتظهر لهم أسرارها ودقائقها وحكمها هم الجديرون بان يكونوا من أقوى الناس إيمانا بوجود الله العالم الخالق الحكيم المدبر العليم ، ولو قيل : انهم جديرون بذلك

أكثر من بعض علماء الكلام الذين يقيمون الأدلة الاجمالية على ذلك لما بعد عن التصديق فان أولئك القوم هم المطلعون على تفاصيل أعجب العجائب فى مصنوعات البارى تعالى ، وهل لنا دليل عقلى عليه سبحانه الا بمصنوعاته وغرائبها ؟ فاذا تأملها المتأمل واطلع على تفاصيلها وظهر له اتقانها والقصد والحكمة فى تكوينها وسقطت من البين الضرورة والصدفة تجد الايمان قد رسخ فى قلبه رسوخ الجبال وتسامى فوق الافلاك عن أن تطاوله يد الضلال »

《ولو قال قائل》 انا نرى بعض أناس ممن يدخلون فى المدارس (١) التى تدرس فيها علوم الكائنات لاسيما علم النبات والحيوان للتوصل الى علم الطب ونحوه يخرجون بعد درسها ومعرفة اسمها مارقين من الدين الاسلامى مروق السهم من

---

(١) ان للمدرسة صلة كبرى ورابطة محكمة فى تكوين اخلاق ابنائها وتهذيب طباعهم وطبعهم بطابع الفضل والكمال فالتلميذ صورة واضحة من صور المدرسة ومثال حى من امثلتها وما المدرسة الا معلموها واساتذتها لا جدرانها وحجرات الدراسة فيها ☆

فاذا ما كان الاستاذ محافظا على شعائر دينه متمسكا باهداب الفضيلة وعرى الآدب والاخلاق كان التلميذ ولا ريب بهذه المثابة ☆

ولقد كان من نتائج تأخر المسلمين وعجزهم عن مجاراة غيرهم فى العلوم الكونية الحديثة التى رفعت من شأن الامم الاوربية وعززت سلطانها ☆

ان هب المسلمون ليتلافوا هذا النقص الحيق بهم ويدفعوا عنهم شره المستطير فاقبلوا على العلم اقبالا يذكر بالفخر والاعجاب بيد انه كان من سوء الحظ ان كانت المعاهد التى تدرس فيها هذه العلوم اما معاهد تبشيرية تسعى جهدها لزلزلة العقائد الاسلامية من افئدة ابناء المسلمين او معاهد انشأتها الحكومة من اموال الأمة المسلمة ولكنها ليس فيها للتعليم الدينى أثر على حين ان كثيرا من الحكومات الاوربية جعلت التعليم الدينى اجباريا فى مدارسها ومعاهد علومها فنشأ التلاميذ وقد تسربت الى نفوسهم كثير من الشبه والمشاكل الدينية وامتلأت أذهانهم بكثير من العقائد الزائفة والاراء الخبيثة هذه احدى المصائب التى منى بها المسلمون فى هذا العصر وقاسوا من جرائها الاهوال وفق الله المسلمين الى ملافاة هذا الداء قبل استفحاله ☆

الرمية فتراهم قد رفضوا الاعتقاد بموجد العالم وأحالوا وجود الكائنات وآثار هذه الموجودات على المادة وحركة أجزائها والطبيعة والنواميس وأمثال هذه المسميات ، ومتى هدم عندهم هذا الركن فأى اعتقادلهم فى الدين الاسلامى يبقى وأى عبادة لهم فيه تقصد. وأى أدب من آدابهم يحمد ، ولا سيما اذا درسوا فن الطبيعيات واطلعوا على نواميس الكائنات . وكيفية تأثيرها فى المتفاعلات فان القول حينئذ بان الذين يطلعون على تفاصيل تلك العلوم هم الجديرون بقوة الايمان والاعتقاد بوجود خالق الأكوان فاقول انى أجيب ان شاء الله تعالى عن هذا الاشكال الجواب الكافى الشافى، وأرغب إلى أهل ملتنا المحمدية أن ينتبهوا من جوانى لما حل فى بعض أبنائهم من البلاء العظيم والمصاب فى الدين الجسيم وليتداركوا هذا الأمر قبل أن يعظم الخطب فليعلم أن هـذه العلوم التى تقدم ذكرها من علم النبات والحيوان ومثلها علم الفلكيات والجويات وباقى العلوم الطبيعية التى تبحث عن نواميس الكائنات من نحو نواميس النور والماء والهواء والكهربائية وغير ذلك لاشك ولا ريب أن مباحثها تدل باقوى الادلة على وجود الخالق لهذه الكائنات المبحوث عنها فى تلك العلوم وانه تام القدرة وسامى الحكمة إذهى آثاره ، وانما يستدل على المؤثر بالآثار لانه فى مباحثها انكشف للعقول أسرارها وحكمها ، وتظهر أنها مصنوعة لقصد وموضوعة بتدبير ، ولكن طريق الاستدلال على المؤثر يوجد فيها عقبة كؤود هى مزلقة اقدام ومزلة أفهام ، وذلك أن العقل البشرى عندما يرى الآثار ويشرع فى البحث عن مصدرها تراه إذ لم يدقق النظر فقد يصل الى مصدر ظاهرى فيظنه هو المصدر الحقيقى فيقف عنده فبعض من خاضوا فى تلك العلوم واطلعوا على تلك الآثار التى يبحث عنها فيها أخذوا يبحثون عن مصدرها بغير دقة نظر

تعمق فى البحث، ولم يكن عندهم ما يوقظ أفكارهم ويرشدهم إلى المصدر الحقيقى من نحو الاعتقاد بشرع صحيح فوصلوا الى مصادر لها ظاهرة من نحو المادة ونواميسها، وقدروا أيضا أن حركة أجزائها الفردة هى المصدر الفعال فاعتقدوا بوجودها ولقصور تدقيق نظرهم لم تتنبه عقولهم الى أن تلك الحركة والنواميس هل تصلح أن تكون مصدرا لتلك الغرائب والعجائب أم لا ولا الى أن المادة هل تصلح أن تكون مصدرا غير صادر عن شيء آخر أم لابد من صدورها عن غيرها لوجوب حدوثها ؟ فوقفوا عند ذلك الحد وأصبحوا معتقدين أن مصدر هذه الكائنات هو المادة ونواميسها وحركة أجزائها ومنكرين لوجود إله لهذا العالم ومرنوا على هذا الانكار وصاروا ينسبون كل أثر يظهر لهم إلى المادة وحركتها والنواميس التى اكتشفتها ويعبرون عن ذلك بعبارات شتى تقتنع بها عقولهم القاصرة فتارة يقولون هذا الاثر فعل الطبيعة وتارة يقولون هذا الاثر فعل النواميس وأمثال ذلك فبلغوا الغاية فى جمود الاعتقاد.

ثم ان منهم من أهلتهم زخرفة تلك العلوم بأن يقاموا معلمين فى المدارس التى تدرس فيها وجلبت بين أيديهم تلامذة احداث أغرار لم يعلموا من الدين الاسلامى عقائده الحقة ولا ما يجب أن يعتقده المؤمن فى كيفية حدوث هذه الآثار، وتكون هذه الكائنات وأنها بخلق موجد الارض والسموات فاخذ أولئك المعلمون يبثون لأولئك التلامذة فى غضون تعليمهم ما انطوت عليه ضمائرهم من المعتقدات الباطلة وكلما اطلعوا على غريبة من غرائب الكائنات وسر من أسرار الموجودات وحكمة من حكم المصنوعات فى أثناء درس تلك العلوم فعوضا عن أن يقولوا لهم: انظروا أيها التلامذة الى عجيب صنع الله وسامى حكمته فى ايجاد هذا الأثر الغريب يقولون: انظروا

الى فعل الطبيعة واعجبوا من أثر الناموس الفلانى وهلم جرا،ولا يزالون معهم على هذا النمط حتى ترسخ تلك الحالة فى قلوبهم وتنطبع تلك التخيلات على صحيفة أفكارهم فلا تنقضى مدة إقامتهم فى المدارس الا وقد أشربت قلوبهم أن لا فاعل فى الأكوان الا الطبيعة وحركة أجزاء المادة والنواميس وينحل عقد اعتقادهم بان للعالم الها خالقا فيخرجون من تلك المدارس وقد فارقوا دين آبائهم وملة أسلافهم، وقد كان فى رجاء أهل الملة الاسلامية أن يكتسبوا بهم رجالا عارفين ينفعون اهل دينهم ويحمون حوزة شريعتهم ويسعون فى نجاح أوطانهم فيخيب رجاهم ويخفق مسعاهم ويخسرون من عدادهم جما غفيرا يحسبون منهم وهم الأعداء الألداء للدين والدولة والوطن يخالفون أهليهم فى الاعتقاد ويفارقونهم فى سلوك مناهجهم وعزائم مقاصدهم فانا لله وانا اليه راجعون، فعلى أهل الحل والعقد من حماة الدين الاسلامى أن يتداركوا هذا المصاب الآتى بالأوصاب فلا ينتخبون معلمين لتلك المدارس الا كل من صحت عقيدته على المنهج الاسلامى وسلمت طويته من الزيغ والضلال وكان مؤمنا حقا وموقنا صدقا بل متحليا بآداب الشريعة قائما بتكاليفها على قدر الامكان فان التلميذ مرآة شيخه تنطبع فيه صورته كيفما كانت وعليهم أن لا يدخلوا التلامذة فى تلك المدارس حتى يقيموهم أولا مدة كافية فى مدارس دينية يصححون بها عقائدهم الاسلامية على أكمل الوجوه بحيث لا تزعزعهم الشبه ولا تهولهم الأغاليط وتصلح نفوسهم بالآداب وتألف القيام بالعبادات وان عسر ذلك لخوف فوت الوقت الذى يصلح لتعلم تلك العلوم الدنيوية ، فمن اللازم الضرورى ان يقام فى مدارسها معلمون للعقائد الاسلامية وبقية أحكام الدين المحمدى يكونون أكفاء لذلك يلازمون تعليمهم العقائد والأحكام الدينية مدة اقامتهم من أول

دخولهم فى تلك المدارس الى حين الخروج ولو فى كل يوم ساعة من الزمان ويكونون محافظين على عقائدهم وآدابهم وعباداتهم فى تلك المدة ويوفقون لهم بين أحكام الدين وما ظاهره مخالف له من تلك العلوم العقلية ففى هذين الشرطين وهما انتخاب معلمين لتلك المدارس من أهل الدين والاعتقاد الصحيح وتعليم التلامذة لعقائدهم الاسلامية وبقية أحكام ملتهم قبل الدخول فى تلك المدارس أو فى مدة اقامتهم فيها تحفظ عقائد أولئك التلامذة من الزيغ وتسلم آدابهم الدينية من الفساد وتصان عباداتهم من الاهمال بل تكون عقائدهم من القوة والمتانة فى مكان لما يكتنفها من مشاهدة تفاصيل مصنوعات الله تعالى وغرائب أعماله عند درسهم تلك العلوم اذ كلما شاهدوا صنعا عجيبا وسرا غريبا سمعوا معلمهم المؤمن يقول: انظروا الى صنع الله وسامى حكمته فى اتقان هذا المصنوع البديع فيسبحون الخالق جل وعلا ويمجدونه وتربو فى قلوبهم عظمته وتعظم فى أنفسهم قدرته فما تمضى مدة اقامتهم فى تلك المدارس الا وقد أصبحوا من خيار المؤمنين وأفاضل الموحدين ترى منهم (١) رجالا يحمون حوزة الدين الاسلامى

---

(١) ان المسلمين لن يستعيدوا مجدهم ولن يستردوا سالف عزهم الا اذا ساروا وسيرة اسلافهم السابقين واقتفوا آثارهم ونسجوا على منوالهم والذى يضمن تحقيق هذه الامنية ويكفل لهم بعثها من مرقدها ان يربوا ابناءهم تربية اسلامية صحيحة وان يغرسوا فى نفوسهم الفضائل والأداب والأخلاق العالية التى يحض الاسلام على التمسك بها والاعتصام بذروتها ✿

وحينئذ يرون ان ابناءهم قد نشئوا على مكارم الاخلاق ومعالى الآداب وطمحت نفوسهم على الأنفة والحمية وعزة النفس والصبر عند الشدائد والاقدام على المخاطر فى سبيل الدفاع عن الشرف الى غير ذلك من الكمالات النفسية التى لا تحيا امة حياة استقلالية الا اذا توفرت فيها هذه الوسائل المعنوية ✿

ولست ارى وسيلة لتربية ابناء المسلمين هذه التربية المنشودة الا باقامة المدارس الاسلامية والاكثار منها وتوحيد مناهجها واشراب نفوس النشء الروح الاسلامية الصحيحة ولعل الله

ويقيمون بناصر الدولة والوطن نسأله سبحانه وتعالى أن يوفق أولياء أمورنا لما فيه الخير لهذه الأمة المحمدية ويجعل مكافأتهم على فضل الله تعالى وشفاعة رسول الله عليه الصلاة والسلام ٭

هذا ثم أني أقول لكم أيها الماديون بعد جميع ما تقدم من النظر في أحوال المحسوسات لو خضنا في مبحث الحياة والروح والعقل وقوى النفس من الحافظة والذاكرة وغيرهما لتهنا في تيهاء هذا البر الشاسع وغرقنا في أعماق هذا البحر الواسع ولم نصل الى تصور ماهية هذه الحقائق حق التصور ومعرفة كيف تحفظ صور الأشياء عند الانسان وتذكر بعد أن تنسى وتزول عن صفحات الفكر ، وكيف تتصور المعقولات وتقوم كليات الأحكام وجزئياتها في الاذهان وكيف وكيف من كل مسئلة في هذا الباب لم تزل غامضة على أفكار العلماء واذهان الحكماء لم يفتح معماها ولم تكشف خباياها وغاية المدعين لكشفها أن يأتوا بكلام غامض مجمل لا يشفي الغليل ولا يأسو الطرف الكليل فكأن ستر هذه الحقائق عن العقول البشرية اعجاز لهم من الله تعالى لينبههم بذلك الأعجاز على أنه اذا قصرت أفكارهم عن ادراك حقيقة أنفسهم وعقولهم وقواها فانى لهم القدرة على ادراك حقيقة الذى خلق تلك الحقائق وأبدعها ، والغرابة في ذلك ان الانسان الذى خاض في عقله بحار المعارف وعرف الأفلاك والسيارات واطلع على عوالم الجمادات والنباتات والحيوانات هو عاجز عن معرفة نفسه وماهو القائم بادراكاته فسبحان من علم الانسان مالم يعلم وحجب عنه معرفة نفسه وقواها فأصبح لدى ذلك أعمى اصم أبكم ، فيا أيها الماديون ابعد جميع ما شرحته

سبحانه وتعالى يهب لهذه الامة رجالا مخلصين غيورين على مجدها الضائع فيعملون لذلك ما استطاعوا سبيلا على انشاء هذا النوع من المعاهد العلمية الدينية ويسجلون اسماءهم في سجل الخلود على صفحات هذا الوجود ٭

لكم من الدلائل على حدوث الكائنات ووجوب وجود خالق الأرض والسموات تصرون على قدم المادة وان حركة أجزائها هي المكونة للأكوان وتنكرون الله العالم الذى نصب لكم الشواهد على وجوده بما هو كالعيان انى أعيذ عقولكم من الاختلاط وأفكاركم من الاختباط أمعنوا النظر وحرروا الفكر ولا تغتروا بالشبه الواهية والأغاليط التى ترميكم بالداهية فمدة الحياة قصيرة سريعة الزوال وفى صحة مايقول أتباع محمد عليه الصلاة والسلام تلاقون بعد هذه الحياة عظائم الأهوال وهناك لاينفعكم الندم ولا تقال عثرات القدم والعاقل يتحرى الطريق الأحوط ويحترس من الموهوم البعيد الحصول فضلا عن القريب المأمول تأملوا فى حالكم وحال اتباع محمد عليه السلام تجدوا امثالكم معهم مثال رجلين دخلا قصراً مشيداً متقن البناء يشتمل على مخادع محكمة ومقاعد مزخرفة بابواب وشبابيك ومدارج ومداخل على غاية الاحكام وقد زينت تلك المخادع بالفرش الفاخر والسرر الرفيعة واقيمت فى أرجائه الاوانى الثمينة وزينت جدرانه بالساعات وموازين الحرارة وموازين ثقل الهواء واحتوى على المرتفقات اللازمة لسكناه واحيط باجمل المنتزهات وابهج المناظر الزاهيات التى قامت فيها الاشجار ورتبت فيها منابت الازهار وقد أجريت مياهه فى اقنيتها المتقنة وملات منها حياضه المحكمة وكمل كل شىء فيه من لوازم المعيشة من كل مايةول ناظره: انه وضع لحكمة وقصد وروية واحكام فقال أحد الرجلين الداخلين عند ماشاهد هذا القصر وما احتوى عليه: ان هذا الصنع لم يكن من نفسه البتة فلا بد أن صانعا صنعه واتقن جميع مافيه وهذا الصانع لاشك انه قادر على صنعه وعليم بطرق تأليفه ووضعه وقد أنشأه على غاية الحكمة واتم الاتقان موفيا لوازمه

ومكملا ادواته ليكون صالحا للاقامة وقضاء حق المعيشة فى نواديه وهذا الصانع وان كان غائبا عن نظرى ولم أره ولم اتصور فى فكرى حقيقته فانى لا اشك فى وجوده ولا أرتاب فى صفاته التى تقتضيها صناعة هذا القصر من قدرته وعلمه وحكمته واتقانه، ورؤية شخصه ليست شرطا فى اعتقادى بوجوده واتصافه بتلك الصفات لان اثره وهو هذا القصر وما اشتمل عليه يقنع عقلى فى اعتقادى ذلك البتة، ثم قال وان كان يشاهد فى مشتملات هذا القصر بعض اشياء لم تظهر لى حكمة وضعها فلا بد ان يكون وضعها الحكمة وان خفيت على لانى اقتنعت بما ظهر لى من الحكم فى هذه المشتملات ان واضعها حكيم فلا يضع شيئا بدون حكمة، وقال الرجل الآخر: انى لم اشاهد بنظرى الصانع الذى تعتقد انه صنع هذا القصر فانا لا اعتقد بوجوده ولا باتصافه بتلك الصفات ولكن وجود هذا القصر فى هذا الاتقان لا بد له من مصدر صدر عنه فاخذ يتأمل يمينا وشمالا وأماما وخلفا فنظر جبلا مطلا على هذا القصر وفى أصله نبع ماء منه تستمد المياه التى فى القصر فقال قد ظهر لفكرى المصدر الحقيقى لهذا القصر ولجميع ما فيه وذلك ان الريح تنحدر من رأس هذا الجبل من قديم الزمان الى البقعة التى فيها هذا القصر فمن ألوف من السنين لم تزل الريح تنقل الاتربة والأحجار وتجمعها فى هذه البقعة على اشكال وتضعها على أوضاع تتخالف وتتوافق ومياه الامطار تتصرف باشكالها وتجمعها وتفرقها كذلك واستمر تبدل تلك الاوضاع والاشكال تارة بغير انتظام وتارة بانتظام باعمال الريح والمطر حتى بلغت مع كرور الدهور إلى هذا الشكل المنتظم بمخادعه ومقاعده وأبوابه وشبابيكه ومدارجه وطرقه وحياضه وأفنيتها والتصقت اجزاؤه بخاصية الطين المبتل بماء المطر فاصبح قصرا مشيدا محكما بجميع ما فيه من الصنع، وأما مياهه فانها انحدرت اليه من هذا النبع الذى هو فى أصل الجبل ولم تزل تجرى فى ساحته

على طرق مختلفة تارة بغير انتظام وتارة بانتظام بسبب تحليلها لاتربة ارضه وبسبب فعل الريح والمطر فى طرقها حتى بلغت على كرور الزمان الحالة المنتظمة التى هى عليها الآن من سيرها فى الاقنية وانصبابها فى الحياض التى صنعتها الريح والمطر، وأما أوانيه وفرشه وساعاته وموازينه فهذه ربما وقعت من بعض المسافرين الذين ينزلون بقوافلهم فى هذا الجبل أو فى هذه البرية فلم تزل الريح تلعب بها وتنقلها من حيز الى حيز وتخالف بين أوضاعها فتقارب بينها وتباعد وتدخلها فى مخادعه وتخرجها حتى آل الأمر على كرور الزمان إلى ان الفرش فرشت بانتظام والاوانى صفت باحكام والساعات والموازين علقت بالجدران وكذلك الاشجار والزهور التى فى منتزهات ذلك القصر وهى على أوضاع متقنة قد نقلت بزورها الرياح الى بقاعه فنمت وبرزت هناك ولم تزل تنقل بزورها وتخالف بين أوضاعها حتى انتظم وضعها وترتبت حدائقها على الحالة التى عليها الآن، والحاصل ان كثرة حركات الريح وتصرفات المطر وكون كل حركة أو تصرف قد يوافق ماسبقه وقد يخالفه فينشأ عنه وضع غير الوضع السابق قد أوصلت هذا الصنع إلى ماهو عليه وحيث وصل الى درجة متقنة محكمة فقد قوى على الثبات امام فعل الريح والمطر ولم تتغير أوضاعه واوضاع مشتملاته بعد بلوغ هذه الدرجة كما تغيرت الاوضاع السابقة وزال اثرها لان تلك الاوضاع لم تكن متقنة قوية على الثبات وانا لا استغرب صدور هذا القصر ومشتملاته عما ذكرته لان الريح والمطر وان كانا غير عاقلين ولا عالمين ولا يفعلان عن إرادة وقصد لكن كثرة حركاتهما وتصرفاتهما والتباين فيها على مرور الزمان أوصلت هذا القصر ومشتملاته الى هذا الاتقان ؛ ودليلى على ان صنع هذا القصر لم يصدر عن قصد ومراعاة حكمة انه يوجد فى بعض مشتملاته مالم يظهر فيه اثر للقصد والحكمة ، فياايها الماديون إن أول هذين

الرجلين هو مثال اتباع محمد عليه السلام القائلين بان الذى اوجد هذه الكائنات هو اله مريد قادر عليم حكيم وان لم يصلوا إلى رؤية ذاته فقد استدلوا بمصنوعاته على وجوده ووجود صفاته وان لم يظهر لهم حكمة بعض الكائنات فقد سلموا بان لها حكمة خفيت عليهم لما شاهدوه من الحكم التى لا تحصى فى بقية الكائنات ، وثانيهما هو مثالكم ايها القائلون بان حركة المادة هى التى كونت هذه الاكوان على مرور الزمان بكثرة ما أحدثته من تباين أوضاع اجزائها على صور شتى حتى أفضى الامر الى ما هى عليه الكائنات الآن وبالانتخاب الطبيعى تم بلوغها الى درجة تقوى فيها على الثبات وهو الذى حفظ نظامها وابقى حسنها وتستدلون على عدم وجود الحكمة والقصد فى هذا العالم بان بعض الاشياء منه لم يظهر فيها من القصد والحكمة اثر وغفلتم عن الالوف المؤلفة من الحكم التى تشهد بان مصدر هذه الكائنات حكيم فتاملوا أى القولين من هذين الرجلين احق بان تقبله العقول السليمة وتذعن له الافكار الحرة الخالية عن التعصبات النفسانية والاهواء الشيطانية وعار ثم وعار على ذوى العقول ان يتركوا الحق بعد وضوحه ويكابروا فى المحسوس بعد ظهوره والله يتولى هدانا اجمعين ،

《هذا》 وبعد جميع ما أوردته لكم من الدلائل على وجود صانع العالم سبحانه واتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقصان وانه هو الموجد للمادة والماديات وجميع الكائنات مما يقنع عقولكم إن شاء الله تعالى ويسلك بكم فى سبيل الهداية فانى قد رأيت فى كتبكم شبهاً ربما تكون عقبة فى سبيل ايمانكم إن لم تعالجوا ازاحتها من أمامكم بقواطع البراهين وأما اذا تحريتم الوصول إلى الصواب ومكنتم تلك الادلة التى اقمتها لكم فى قلوبكم وتصورتم عظمة ذلك الآله وسلمتم بعجزكم فى سبيل المعرفة وقصور عقولكم عن الاحاطة به سبحانه وبجميع

اعماله فتلك الشبه تسقط من البين و يكون اعتقاد كم بوجود ذلك الآله وباحداثه الكائنات امر اسهلا عليكم لا يكلفكم ادنى مشقة وانا اذكر هنا اشهر تلك الشبه المذكورة فى كتبكم وادحضها عنكم ان شاء الله تعالى باوفى بيان فاقول الشبهة الاولى انكم تقولون لا يمكن ان تتصور عقولنا وجود شيء ليس بجسم ولا مادة جسم ولا صورة جسم ولا مادة معقولة فى صورة معقولة ولا له قسمة فى الكم ولا فى الكيف فهو له منه و ليس متصلا به تعنون بذلك الآله سبحانه و تعالى الشبهة الثانية انكم تقولون لا يمكن ان تتصور عقولنا وجود شيء من لا شيء تعنون بذلك انكم لا تعقلون حصول المادة من العدم ، الشبهة الثالثة انكم تقولون لو كان نظام الكائنات بقصد وحكمة لكانت علامة القصد والحكمة تامة فى كل شيء مع أننا نرى أشياء لا تنطبق على القصد والحكمة ، بل هي بخلافهما فلا تنطبق إلا على الضرورة ، فاقول : قد علمتم من جميع ما تقدم أن أتباع محمد ﷺ يستدلون على وجود إله العالم وصفاته بهذه الكائنات ، لأن وجودها بنفسها غير ممكن مع قيام الدليل على حدوثها ، وهذه الكائنات قد بلغت من العظمة والصنع الغريب ، والاتقان والاحكام درجة رفيعة جدا تعجز عن الاحاطة بجميعها العقول البشرية ، فهي إذا تدل على عظمة مبدعها ، وعظمة صفاته ، وسمو حكمته جدا جدا إلى درجة لا تدخل تحت الحصر ولا تحيط بها الافكار ، وهكذا شأن العقل البشرى أن يستدل على مقدار عظمة المؤثر بمقدار عظمة الآثار ، ها أنتم ونحن نستدل على عظم الامم السالفة ، وسمو مداركها بعظمة آثارها ، ثم اذا نظرتم إلى منزلتكم فى العلم ، وهى أنكم فى غاية القصور فيه ، ولو أنكم قابلتم كلما علمتموه من الحقائق بما هو باق تحت حجاب جهلكم لكان (١) نقطة من بحر ، وذرة من رمال بر هذا

---

(١) قال الفيلسوف الفرنسى (أجوست سبانية) فى كتابه فلسفة الاديان :

الشيء لاتدرونه البتة ، لنأخذ كتب الطب ، والكيمياء ، والتشريح ، والفاثالوجيا ، والباتلوجيا ، والجولوجيا ، والفلكيات ، والجويات ، وبقية العلوم التي برعتم فيها ، والفتم المجلدات الضخمة ، وطولتم الشروح ، فما نفتح صفحة أو صفحات إلا ونجدكم تقولون : الأمر الفلاني لم تزل حقيقته مجهولة ، أو لم تصل العلماء إلى شرح حقيقته شرحا كافيا ، واختلفوا فيه ، ولم يقر قرارهم على شيء قطعي في شأنه ، أو أن الشيء الفلاني لم تزل وظيفته مجهولة أو منفعته خفية الى غير ذلك من العبارات التي تدل على كثرة ماتجهلونه من حقائق هذه الأكوان ولا تزالون مجتهدين في كشف حقائق الكائنات ، وإبداء أفكاركم فيها لدى المجامع العلمية ، وكثير منكم من يظهر له خطؤه فيما اجتهد في كشفه ، وصرف مقدارا من الزمان لأجله ، هذا أمر مشاهد معلوم بينكم ، وبين جميع علماء هذا الزمان من غيركم ، الصارفين أوقاتهم

(ان العلماء اول المعترفين في كل فرع من فروع العلم بانهم لم يدركوا منه الاجزءا محدودا وان اكثرهم تواضعا هم اكثرهم علما . على انهم كلهم يعترفون بان ما حصلوه للآن من الاكتشافات وما درسوه من هذا الجزء اليسير من الطبيعة ليس الا عدما بالنسبة لما يجهلونه فهم مستعدون لتنقيح النواميس التي قرروها وتوسيع الفروض التي فرضوها وضم كل مايشاهدونه من المشاهدات الصحيحة الى ما لديهم منهم . نعم يوجد بين هذه المشاهدات مايدهشهم و يشوش افكارهم كما تراه كل يوم ولكنك لو تلاحظ موقف العالم الحق امام هذه الظواهر الجديدة تراه لايشك في انها تابعة لنواميس مجهولة ولكنها حقيقة وموجودة وتراه لاييأس من امكان عزوها الى تلك القوانين وزيادة لمواد العلم بها ونجاحه السابق يضمن له نجاحه في المستقبل وتراه يتتبع ابحاثه بدون طيش لانه لايعرف الجبن الادبي)

والذي يستنتج من كلامه ان علماء الطبيعة الذين يستحقون هذا اللقب عن استحقاق وجدارة يعترفون بعجزهم عن ادراك اسرار الكون العالية ويقرون بانهم ماحصلوا من العلم الاعلى مقدار يكاد لايذكر امام ماجهلوه وبقي محجوبا عن ادراكهم

للاكتشافات العلمية وأمثلته لاتدخل تحت الحصر ، وان كابرتم فى ذلك
ولم تقروا بكثرة جهلكم وقلة علمكم ، فجهلكم لحقيقة المادة التى ترونها
وتلمسونها ، وعدم اجماعكم على بيان ماهياتها وهى أم الكائنات عندكم هو
أكبر شاهد على ذلك ، ومثله عدم كشفكم لحقيقة ادراك الدماغ المرئيات
والمسموعات والمذوقات والملموسات والمشمومات ، فغاية ماتقولون فى
ذلك ان العصب ينقل صور الاشياء للدماغ وهو يدركها ، أما بيان
حقيقة ذلك الادراك بيانا كافيا فلم يتم لكم (ولن يتم) ومثل ذلك حقيقة
الحياة ، فانكم تقولون على مذهبكم فيها انها ظاهرة من ظواهر تفاعل
أجزاء المادة والعقل ظاهرة من جملة تلك الظواهر ، وأما بيان حقيقة ذلك
الظاهر بيانا شافيا كافيا ، فلم تظهروا عليه ، ومن ذلك مسألة جزئية ، وهى
أنكم تحققتم أن النور بمقتضى سير أشعته ونفوذها فى طبقات العين يرسم
صور المرئيات على الشبكية مقلوبة ، ولم تتحققوا كيف أن العقل يدركها
منتصبة ، وقد قدمت لكم احتمالا فى هذه المسألة لعله يرتفع به الاشكال،
وهذا باب واسع يطول فيه الشرح إن أخذت بتعداد كل ماتجهلونه فى
مباحث علومكم، ولكن الاختصار فيه البلاغ، والقول الشافى أن جهلكم
هو القسم الكبير ، وعلى هذا اذا تصورتم عظمة ذلك الاله بالاستدلال
بآثاره، ونظرتم الى منزلتكم فى جهل الحقائق كان من الانصاف والصواب
أن لاتتطاولوا الى معرفة حقيقة ذلك الاله فان الذى بان عجزه عن ادراك
حقيقة جميع أجزاء الساعة المصنوعة لايليق به أن يتطاول بمجرد رؤيتها
التى تدل على أن لها صانعا الى معرفة حقيقة ذلك الصانع وصورته وشكله
من أنه أبيض أو أسود أو طويل أو قصير ، أو سمين أو ضئيل الى غير
ذلك فان من يراه يتطاول الى هذه المعرفة يقول له : أن هذا الامر منك

سخافة عقل أن رؤية هذه الساعة انما تدلك على أن لها صانعا قادرا على صنعها عالما به ، واما أنها تدلك على حقيقته وشكله وصورته فليس من طبيعة رؤيتها الدلالة على ذلك ، كيف وأنت لم تعلم جميع أجزائها على الوجه التام ، وهى بين يديك مشاهدة حاضرة تكلف نفسك معرفة حقيقة صانعها الغائب عن نظرك فتكليفك نفسك بذلك تكليف شطط وسلوك سبيل غلط ، وان قلتم: اننا لا نروم فهم حقيقة ذلك الاله من مجرد النظر فى هذه الكائنات ، بل نعلم أن مجرد رؤيتنا إياها لا يدلنا على حقيقته ولا يشرحها لنا ، ولكن نقول : لا يمكن لعقولنا أن تتصوره بتلك الخواص التى ذكرتموها له ، بل تجزم عقولنا بانه لا يمكن وجود شيء متصف بهذه الخواص من أنه ليس بجسم ولا مادة جسم الى آخر ما مر اذ لا نعلم شيئا موجودا من كل ما اطلعنا عليه متصفا بتلك الأوصاف المذكورة قلت : عدم تمكن عقولكم من تصوره لا يلزم منه عدم وجوده فى نفسه إذ كثير من الحقائق لم تتمكنوا من تصورها حق التصور ، ومع ذلك فهى موجودة فى نفس الامر لقيام الدليل على وجودها وهذا الجزم منكم بأنه لا يمكن وجود شيء متصف بتلك الخواص قد نشأ معكم من قياس التمثيل كما يظهر من قولكم (إذ لا نعلم شيئا موجودا من كل ما اطلعنا عليه متصفا بتلك الخواص) فزعمتم ان كل موجود تلزمه اضداد تلك الخواص قياسا على ما شاهدتم ، وهذا القياس ليس دليلا قاطعا ، بل سماه أكبر رؤسائكم دليلا خادعا وهو كذلك لأنه كثيرا ما يخدع الانسان ، ويوقعه فى الغلط حتى يحكم على الشيء باحكام غيره ، مع أنه لم تكن له تلك الاحكام لفارق بينه وبين ذلك الغير لم يطلع عليه المستدل وحينئذ يقال لكم : ما المانع من وجود ذلك الاله الذى ليس بجسم ولا مادة جسم الى آخر ما تقدم ؟ وعدم اقتداركم على تصور حقيقته

لا يفيد استحالة وجوده ، وقياسكم إياه على ماشاهدتموه فى العالم المادى حتى جزمتم بأنه لا يمكن وجوده هو قياس مغلوط لوجود فارق بينهما ، وان قلتم ما الذى يدعو الى اعتقاد وجوده قلنا: هى آثاره التى دلت عليه ، وان قلتم ما الذى يدعو الى تنزيهه عن كونه جسما أو مادة جسم الى آخره قلنا: هو ما اقام معنا من الدلائل على أن المادة وما يتبعها من الماديات وخواصها حادثة ، ولا يمكن أن تكون قديمة وهو سبحانه يجب أن يكون قديما ولو كان مادة أو ماديا أو له خواص المادة لكان حادثا مثلها وهو محال ، وقد تقدم لكم شرح هذا فى صدر المذاكرة معكم، وان قلتم: اننا نروم دليلا يوصلنا الى تصور حقيقة ذلك الاله قلنا : لكم أن أتباع محمد ﷺ قد ظهر لهم بالبحث والتدقيق أن الوصول الى معرفة حقيقته وتصورها ليست بطاقة العقل البشرى وكذلك جاء فى ظاهر نصوص الشريعة المحمدية وذلك لأنه سبحانه عظيم جدا ومدارك العقول البشرية حقيرة جدا بالنسبة الى عظمته وحقير الادراك لا يصل بالمعرفة الى الحقيقة العظيمة العالية ، وقد أفهمتهم شريعتهم أن الذى يكلفون به من جانب ذلك الاله هو معرفتهم به المعرفة التى توصلهم اليها آثاره وهى الاذعان بانه موجود حى قادر مريد الى آخر ما مر من صفاته التى تقدمت فى صدر المذاكرة معكم وكلفتهم أيضـــا باعتقاد بعض صفات له تعالى ليس لاثباتها ولا لنفيها دليل عقلى فعرفتهم أياها فاعتقدوها وقد نهتهم عن الخوض والبحث فى حقيقة ذاته لأجل عجزهم عن ادراكها ولخشية أن يتصوروها فى عقولهم بخلاف ما هى عليه فيقعوا فى الجهل المذموم ، وقد حذر بعضهم من ذلك البحث فقال (كلما خطر ببالك فهو هالك والله بخلاف ذلك) *

ثم كما أن ذلك الاله عظيم جدا فاعماله فى غاية العظمة يظهر ذلك من

التأمل فى هذه الأكوان وما اشتملت عليه من الغرائب التى مر لنا ذكر شيء قليل منها، وانكم قد عجزتم عن ادراك كثير من مصنوعاته واكتشاف حقائقها، وأن يدلكم على ذلك هنا أنكم تقولون فى اكتشافاتكم الجديدة : أن الحركة تتحول الى قوة كهربائية والقوة الكهربائية تتحول الى حرارة والحرارة تتحول الى نور ، فاسألكم هل فى وسعكم أن تتصوروا كيف تتحول بعض هذه المذكورات الى البعض الآخر؟ ثم تعبروا عن تصوركم بعبارة تشرح لنا حقيقة هذه التحولات لا أخال أن فى وسعكم شيئا من ذلك غاية ماتقولون أن تلك التحولات ناشئة عن تغير حركات أجزاء المادة وأوضاعها، وأما إيضاح ذلك التغير وكشف حقيقته للاذهان وبيان الفرق بين التحول الاول والثانى وبين التحول الثانى والثالث ، وهكذا فدون ذلك خرط القتاد وكثير من أمثال هذا تعجزون عن تصوره وايضاحه ، فاذا كان عجزكم فاشيا فى كثير من أعمال هذا الاله فى مصنوعاته فما هو استغرابكم لعدم تصوركم انه كيف أحدث العالم من لاشيء؟ مع أن عدم تصوركم لحقيقة الامر لايكون دليلا على عدمه فى نفسه كما تقدم ، وان قلتم ان عقولنا تحيل حصول شيء من لاشيء لأن فى جميع ماشاهدناه مارأينا شيئا حدث من لاشيء ولا استطاع أحد منا أن يحدث شيء من لاشيء فلذلك حكمنا باستحالة ذلك قلت: أن عدم مشاهدتكم حدوث شيء من لاشيء لايلزم منه أن ذلك محال وعدم استطاعة احد منكم لذلك لايلزم منه ايضا عدم قدرة ذلك الاله فحكمكم هذا أيضا بامتناع هذا الامر قد جاءكم من قياس التمثيل الذى لايكون قطعى الدلالة بل كثيرا مايوقع فى الغلط كما تقدم وقد قستم قدرة ذلك الاله على قدرتكم وعلمه على علمكم وأعماله على أعمالكم ، وهذا مع سخافته هو ظاهر الفرق بين المقيس والمقيس عليه فشتان مابينكم وبين ذلك الاله الذى أوجد هذه الاكوان على هذا الاتقان

أنتم الى الآن مع طنطنتكم ببراعتكم فى صناعة الكيمياء لا تقدرون على تحليل العناصر ولا تركيب جسم حيوى يشتمل على خواص الحياة والصورة الحيوية وعجزكم عن عمل هذين الامرين البسيطين ، وعن أعمال كثيرة من أعماله تعالى لا يحتاج الى تطويل فى تحرير البرهان عليه والدليل ، أفلا تخجلون بعد ذلك أن تقيسوا أنفسكم بذلك الاله سبحانه وأعمالكم بأعماله على أنكم لو تأملتم فى أعمالكم لا تجدون لانفسكم صنعا حقيقيا فيها انظروا الى تحليلكم المعدن الفلانى مثلا الى عناصره أو تركيبكم المركب الفلانى من عنصرين أو أكثر يظهر لكم أنكم ما أجريتم الا الاسباب فى التحليل أو التركيب التى اطلعتم على أنها تكون سببا فى ذلك من نحو خلط كذا بكذا واحماء كذا وتغطيسه بكذا حتى يحدث التحليل أو التركيب ، أما حقيقة تميز العناصر وكيفية انفصالها عن بعضها أو حقيقة امتزاجها على أوضاع أجزائها التى ينشأ عنها المطلوب فانتم فى الحقيقة تعجزون عن تصور جميع ذلك حق التصور وعن شرحه بالشرح الواضح فضلا عن انكم أنتم الذين عملتم ذلك كله وخلصتم الاجزاء الفردة لكل عنصر من بين الأجزاء الفردة للآخر فى صورة التحليل وخلطتم الأجزاء لكل عنصر مع الاجزاء الفردة للاخر على الاوضاع اللازمة فى صورة التركيب وبهذا ظهر عجزكم فى الصناعة أيضا كما ظهر عجزكم فى الادراك والمعرفة ، أبعد ذلك تتطاولون الى قياس أعمال ذلك الاله على أعمالكم وقدرته على قدرتكم وتحكمون بأنكم اذا عجزتم عن احداث شىء من لا شىء انه سبحانه يكون عاجزا عن ذلك أعوذ بالله من الغرور ، فمن الواجب عليكم أيها المغرورون العاجزون فى العلم والعمل أن تسلكوا الطريق التى سلكها أتباع محمد ﷺ فانها المنهج العدل المستقيم الخالى عن كل عسف وهم قد امتطوا فيه متن الاحتراس والحذر والاخذ بالاحوط

وذلك أنهم قد قام عندهم الدليل القاطع على وجود اله العالم بمشاهدة آثاره الغريبة العظيمة الدالة على عظمة ذاته سبحانه ، وظهر لهم عجزهم عن تصور حقيقته لقصور مداركهم بالنسبة الى عظمة ذاته سبحانه ، وهذا العجز لا ينفي وجوده الثابت عندهم بدلالة الآثار ولا ينافي ايمانهم بوجوده الثابت عن دليل قطعي ثم قام عندهم الدليل القاطع على أن العالم حادث بعد ان لم يكن ولا بد من محدث أحدثه من العدم وهو الاله سبحانه ، ولكن عجزوا عن كيفية تصور ذلك الاحداث ، وهذا العجز لا يوجب استحالته ولا ينافي الايمان به الحاصل عن دليل قاطع فقد ظهر هنا سقوط قول بعضكم عندما يذكر اعتقاد أتباع محمد ﷺ بوجود ذلك الاله الذى ليس بجسم ولا له صفات الاجسام واعتقادهم بانه أحدث العالم من لا شىء (ان هذا الاعتقاد يحتاج إلى إيمان قوى ولا دخل له فى سبيل العلم) كأن ذلك البعض يظن أن الايمان هو التصديق بالشىء تسليما ساذجا وانقيادا أعمى بدون دليل جازم ولم يدرك ذلك الغر أنه لا يكمل الايمان فى الشريعة المحمدية إلا اذا كان عن دليل قاطع وأن الايمان الكامل فى هذه الشريعة هو العلم الجازم عن دليل قاطع بجميع ما جاء به محمد ﷺ مما ثبت مجيئه به قطعيا مع اذعان النفس وخضوعها لذلك فهكذا ايمانهم بوجود اله العالم سبحانه وبايجاده العالم من لا شىء ما كان الا عن دليل قاطع كما مر شرحه ، ولكنهم يقرون بالعجز عن ادراك حقيقة ذاته ، وعن كيفية احداثه للعالم من لا شىء ، والعجز عن تصور حقيقة الشىء الذى قام الدليل على وجوده فى نفس الامر لا ينافى الاعتقاد الجازم بوجوده عن دليل فما أسخف ظن هذا البعض وما أجهله فى تقرير الحق وما أسمج غلطه فى فصله الايمان عن العلم والحال ان الايمان أكمل أنواع العلم فقاتل الله الجهل الفاضح ＊

هـذا ثم أن أتباع محمد ﷺ قد شاهدوا من أسرار ذلك الاله فى مصنوعاته الحكم الباهرة التى تفوق الاحصاء ولم تزل تظهر لهم حكمة بعد حكمة ، يوما بعد يوم ، بعدما تخفى عليهم الأعوام فثبت عندهم أنه سبحانه حكيم حكمة بالغة لا تحيط بحكمه العقول فاذا شاهدوا شيئا من الكائنات لم تظهر لهم فيه حكمة لم يعتقدوا أنه وجد عبثا بدون حكمة بل يقولون ان الخالق سبحانه حكيم بدليل ما شاهدناه من حكمه التى لا تحد و كثير منها كان خفيا علينا ثم ظهر لنا فهذا الشىء الذى لم تظهر لنا حكمته نقول : ان الحكمة فيه قد خفيت علينا لا أنه وجد عبثا ، ومما يقنع عقولنا بذلك ان هذا الخالق عظيم جدا وانا نرى عظمة صفاته وأسراره وحكمه فى خلقه والعقول البشرية مهما بلغت من السعة فهى بالنسبة لذلك حقيرة جداً وادرا كها لا يعد شيئاً بالقياس الى ذلك فكان من الصواب فى شأنكم أيها الماديون أن تسلكوا أيضاً هذه الطريقة العادلة التى سلكها أتباع محمد فتذعن عقولكم فيما ظهر لديكم من حكم الكائنات التى تفوق الاحصاء والتى لا تزال تظهر لكم حيناً بعد حين بعدما تخفى عليكم سنين بأن الكون مبنى على الحكمة وانه لا شىء بدون حكمة ومن هنا تتوصلون الى أنه لابد للكون من (١) صانع حكيم ولا شىء فيه حاصل

---

(١) يقول الفليسوف (كاميل فلا مريون) من كلام له فى بعض كتبه:

(كيف يعقل ان الطبيعة الميتة تفكر فى ان تترتب على التعاقب فى شكل نباتى ثم حيوانى ثم انسانى وان تكون هذه الاعضاء التى تؤلف الكائن الحى وتكون كفؤا لحفظ الحياة فى خلال القرون وان تبنى هذه الاجهزة التى بها يكون الكائن الحى فى اتصال مستمر بالاشياء المغايرة له ؟

باى اتفاق مدهش تكونت هذه الاعضاء رويدا رويدا لأجل توصيل المؤثرات الخارجية الى الجسم ثم ارتبطت هذه الاعضاء بالمخ المدرك الذى هو وحده يحكم ويفهم وكيف اتفق ان تكون هذه الاعضاء على اكمل مايكون من البناء والتركيب وكيف حدث ان

بالضرورة العمياء وبدون قصد واذا رأيتم شيئاً لم تظهر لكم حكمته فعوضاً عن أن تجعلوه دليلا على أنه لا حكمة ولا قصد فى حصول الكائنات وتتوصلوا بذلك الى انكار الخالق تعالى أن تقولوا ان هذا الشيء له حكمة خفيت علينا قياساً على جميع ماظهر لنا من الحكم التى لا تحصى والذى يقنع عقولكم فى ذلك أن تتصوروا عظمة ذلك الاله وعظمة أعماله فى الكائنات وسمو حكمه التى اطلعتم عليها ، ثم تتصوروا أن العقول البشرية بالنسبة اليه تعالى والى أعماله وحكمه قاصرة جداً وادراكها لا يعد شيئاً بالنسبة الى ذلك .

(هذا) وانى بعد ماقدمته لكم فى دحض شبهكم الثلاث أريد أن أضرب لكم مثالا يظهر لكم فيه خطؤكم فى الالتفات اليها فأقول : تأملوا أيها الماديون فى الحيوانات المكرسكوبية التى يوجد منها فى نقطة الماء الصغيرة ألوف وملايين فهل تقدر بمالها من الادراك الذى معها على قدر احتياجها فى معيشتها أن تتصور حقيقة الانسان وتتصور تفاصيل أعضائه ووظائفها وكيفية سمعه وابصاره وشمه وذوقه ولمسه وكيفية تغذيه وأعمال أعضاء التغذية

اكثر الاجهزة كملت ولم تأت عديمة الجدوى ولا فاسدة الصنعة وكيف تستديم الاجسام الحية انواعها بالتوالد حافظة لكل صفاتها؟ ولماذا كانت الخليقة مؤلفة من اجناس وانواع وفصائل ولماذا يستطيع العقل الانسانى ان يرتب هذه الكائنات فى مجموعها ترتيبا مؤسسا ويجد فيه نظاما عاما؟ ولماذا لم تكن الطبيعة مجموعا من الكائنات المشوهة؟ انهم يجيبونك على كل هذه الاسئلة بقولهم العلة فى ذلك ناموس الانتخاب الطبيعى فتراهم يفسرون جميع المسائل بتكرار قولهم ان الطبيعة مدفوعة الى الترقى المستمر وانها تدع الخبيث وتأخذ الطيب نعم ولكن هذا الميل الى الامام وهذا الترقى الطبيعى وهذه الحاجة الى الكمال ماهو ان لم يكن عمل قوة عامة تقود العالم نحو غاية عالية وماهو هذا التدرج من جميع الكائنات نحو التكمل ان لم يكن مظهرا واضحا (لصانع عظيم) يعلم اين يوجه سفينة الكون وكيف يقودها (صانع) لا تستطيع المادة الخاضعة له ان تقوم امامه أقل العثرات

والدورة الدموية فيه وأعمال دماغه فى تصوراته وأفكاره وان تعلم أعمال الانسان ومصنوعاته من الآلات البخارية والمنسوجات والمطعومات والأدوية والتآليف والمطبوعات والآلات التلغرافية والفونغرافيـــة والتليفونية والفوطغرافية وكذا وكذا ، وان تعلم كيف اخترعها ، ومن أى أنشأها وكيف استخلص الحديد وبقية المعادن من بطون الأرض واصطنع تلك الأدوات الغريبة وان تعلم حكمة كل جزء من الآلات المصنوعة له ، ولأى شيء صنعه هكذا مثلا اذا نظرت الى عمد التلغراف منصوبا عليها أسلاكها فهل تقدر أن تعلم حكمة ذلك ؟ ولأى غاية فعل هذا ، وما وراءه من المكينات التلغرافية وهى لم تشاهد الا العمد وعليها الاسلاك فاذا فرض اطلاعها على أعمال الانسان العظيمة ، واستدلت بها على وجوده وعظمته ، وخفى عليها كثير من أعماله وكيفية عملها وفرض اطلاعها على حكم كثيرة فى مصنوعاته واستدلت بذلك على أنه حكيم تام الحكمة فهلا يكون من الواجب عليها أن تقول : انى بهذا المقدار الذى معى من الادراك الذى لا يذكر بالنسبة لعظمة ذلك الانسان وعظمة أعماله وواسع حكمه أقر بالعجز عن معرفة حقيقة ذاته العظيمة بل غاية ما عندى أن أذعن بوجوده وقدرته وحكمته لما شاهدت من أعماله ، وأقر بالعجز عن ادراك الكثير من كيفية عمـــله لمصنوعاته ولا أنكرها لعدم ادراك فكرى العاجز لها ، واذا شاهدت شيئا من مصنوعاته لم تظهر لى حكمته ، فعلى أن أقر بعجزى عن ادراك حكمته حيث أن كثير حكمه فى أعماله دلت على أنه حكيم ، وأقول : أن حكمة ذلك قد خفيت على فهمى القاصر فهى حينئذ اذا شاهدت عمد التلغراف مثلا وعليها أسلاكها لا تقول أنها وضعت فى الطرقات تحت الأمطار وحر الشمس للنلعب وبدون حكمة وفائدة بل تقول : لابد لها من حكمة ،

وان خفيت على فكذلك أنتم أيها الماديون ماعلومكم وادراكاتكم بالنسبة الى عظمة ذلك الاله وعظمة أعماله وسعة علمه ، وسمو حكمته الا كادراك تلك الحيوانات بالنسبة الى عظمة الانسان وقدرته وعلمه وحكمته فى أعماله، بل بفرق أكثر بكثير من ذلك فبعد ذلك ماهو استعظامكم لانفسكم واستكثاركم لمعارفكم لاأرى لكم شبيها إلا طائفة من مبتدعى الامة الاسلامية قد استعظموا أنفسهم بالنسبة لله تعالى فاخذوا يشرطون عليه الشروط فى معاملة الخلق ويوجبون عليه الأحكام فقالوا : أنه يجب عليه تعالى أن لايفعل إلا الصالح فى حق الانسان ، وقد غفلوا عن أنهم بالنسبة اليه سبحانه كتلك الحيوانات المكرسكوبية بالنسبة الى الانسان ، بل احقر بكثير بما لايحد وغفلوا عن أنه سبحانه هو الذى أوجدهم من العدم ، وهو المالك المطلق لهم ولارواحهم ، وهو الفاعل المختار المتصرف فى ملكه بما يشاء لاينسب اليه الظلم كيفما تصرف فيه ، ألايرى لو أن ملكا عظيما أخذ نقطة من الماء الذى هو ملكه وهى محتوية على الالوف من تلك الحيوانات المكرسكوبية والقاها فى النار حتى تلاشت وتلاشى جميع مااشتملت عليه من تلك الحيوانات التى ربما تبلغ عدد البشر على وجه الارض . هل يخطر فى البال أن ذلك الملك فعل محظورا عليه وظلم بفعله تلك الحيوانات الحقيرة ؟ وهل لأحد منازعته فى ذلك ؟ وهو المالك المطلق لتلك النقطة وجميع ماحوته لاينازعه الا كل موسوس متعرض لما لايساعده عليه مساعد ، نعم أن ذلك الاله سبحانه قد تفضل برحمته وفضله على جميع الخلق بالنعم التى لاتحصى ولكن لم يعطها لهم بطريق الوجوب عليه تعالى بل بطريق التفضل والاحسان ، ولو لم يعطها لهم وسلط عليهم جميع البلايا لما كان ذلك منه الا حسنا ، لانه متصرف فى ملكه

لاحق لأحد فى منازعته يفعل مايشاء ويحكم بما يريد ، فبعد ظهور الحق لديكم أيها الماديون وسقوط شبهكم الواهية فعليكم اذا نازعتكم أنفسكم وطلبت منكم التعرض لمعرفة حقيقة ذلك الاله سبحانه أن تقولوا لها : أن عقولنا البشرية تقصر عن ذلك ويكفينا من معرفته مادلتنا عليه آثاره من أنه موجود ومتصف بالصفات التى تدل عليها تلك الآثار، واذا طلبت منكم معرفة كيف أوجد العالم من لاشىء فقولوا لها : انالم ندر جميع أعماله وكيف يعملها فليكن هذا من جملة مالاندركه وعدم تصورنا له لا يقتضى أن ننكره واذاعرض لكم شىء ولم تعرفوا حكمته أن تقولوا : أن صانع العالم حكيم بدليل ماظهر من كثير حكمه فى مصنوعاته وعدم ادراك حكمة هذا الامر لا يقتضى عدم وجود حكمة له ولا يلزمنا انكار الحكم فى الكائنات ونلتجىء الى الضرورة العمياء ، هدانا الله وإياكم لما فيه النجاة فى العقبى اللهم آمين *

﴿ والى هنا ﴾ انتهى الكلام معكم أيها الماديون فى اثبات حدوث العالم وتنوعاته ، واقامة البرهان على وجود الاله الذى أوجده من العدم واتصافه سبحانه بصفاته اللائقة به تعالى ودفع أشهر شبهكم فى ذلك ، وبقى الكلام فى بقية ماذكرتموه لى من مذهبكم وهو يشتمل على اربع مسائل مهمة ﴿ الأولى ﴾ أن طريق حدوث تنوعات العالم من سماويات وأرضيات هو النشوء ، أى ان اجزاء الأثير تكون منها السديم . ثم الشمس . ثم انفصلت عنها الكواكب ومنها أرضنا. ثم تكونت فيها العناصر. ثم المعادن والمكون الأول البورتوبلاسم ، وأخذ هذا بالترقى والتوالد حتى بلغ أدنى نبات او حيوان ولم يزل هذان بما اكتنفهما من ناموس التباينات ووراثتها وتنازع البقاء ، والانتخاب الطبيعى يترقيان ويتنوعان و يشتق

من الأنواع أنواع حتى بلغا ماهما عليه الآن من الانواع كل ذلك بحركة أجزاء المادة الاضطرارية ، والجرى على هذه النواميس *

﴿ الثانية ﴾ ان الانسان ماهو إلا حيوان من جملة الحيوانات حادث بطريق النشو ترقى فى التحسين بالانتخاب الطبيعى حتى بلغ ماهو عليه الآن وبمقتضى مشابهته للقرد لايمتنع أن يكون قد اشتق هو واياه من أصل واحد وأخذ هو بالترقى عنه حتى فاق عليه *

﴿ الثالثة ﴾ أن الحياة وعقل الانسان ماهما الا ظاهر من ظواهر تفاعل أجزاء المادة المتحركة وعناصرها الممتزجة وان يكن أصل المادة خاليا عن الحياة والادراك ، وأن عقل الانسان لايخالف عقول بقية الحيوانات الا بالكم ولايخالفها فى الذات والحقيقة *

﴿ الرابعة ﴾ انكاركم لبقية المسائل التى وجدتموها فى الشريعة المحمدية من نحو البعث بعد الموت والسموات الى آخر ما مر ، وزعمتم أن ذلك لادليل عليه فى علومكم بل البعض منه ترفضه وتدل على استحالته فاقول وبالله التوفيق : اعلموا أن الكلام معكم فى هذه المسائل يحتاج الى تقديم مقدمتين *

﴿ المقدمة الاولى ﴾ أن النصوص التى ترد فى الشريعة المحمدية ويعتمد عليها فى الاعتقاد كما يعتمد عليها فى الاعمال والاحكام تنقسم الى قسمين متواتر ومشهور؛ فالمتواتر ماثبت قطعيا وروده فى هذه الشريعة لما توفر فيه من الأسباب الموجبة للعلم اليقينى بوروده فيها ، والمشهور هو ماثبت وروده فيها ثبوتا قريبا من القطعى لما توفر فيه من الاسباب الموجبة لطمأنينة القلب بوروده وهي فوق الظن ودون اليقين ، ثم أن كلا من المتواتر والمشهور إما أن يدل على معنى لايحتمل الدلالة على سواه فلا يقبل الصرف والتأويل الى معنى آخر

وهذا لا يوجد فى جميع ماورد منه فى الشريعة المحمدية مايناقض معناه الدليل العقلى القاطع ولنسم هذا القسم بمتعين المعنى، واما أن يدل كل من المتواتر والمشهور على معنى ظاهر متبادر منه ويحتمل الدلالة على معنى آخر وان كان بعيدا ، وهذا قد يوجد فيما ورد منه فى الشريعة المحمدية ماياقض معناه الظاهر الدليل العقلى القاطع ولنسم هذا القسم بظاهر المعنى ، ثم أن حكم النص المتعين المعنى فى الشريعة المحمدية أنه ان كان متواترا يجب التصديق بوروده وبمعناه المتعين وانكار وروده أو تكذيب معناه يوجب الكفر اى الخروج عن الدين الاسلامى ، ولا يجوز تأويله وصرفه الى معنى آخر اذ هو لا يحتمل التأويل ولا يناقض شىء منه الدليل العقلى القاطع حتى يحتاج لتأويله وان كان مشهورا فيجب أيضا التصديق بوروده وبمعناه وانكار وروده أو تكذيب معناه يعد ضلالا وفسقا، ولا يجوز تأويله وصرفه الى معنى آخر لما مر فى المتواتر وحكم النص الظاهر المعنى انه ان كان متواترا يجب التصديق بوروده وبمعناه المتبادر وانكار وروده أو تكذيب معناه بدون تأويل يكون كفرا أيضا ولا يجوز تأويله إلا إذا قام دليل عقلى قاطع يدل على ماينافض معناه المتبادر منه فحينئذ يؤول ويصرف الى معنى غير معناه المتبادر على سبيل الاحتمال بحيث يصح التوفيق بينه وبين مادل عليه الدليل العقلى القاطع وان كان مشهورا فحكمه حكم المتواتر الظاهر المعنى الا أن انكار وروده أو تكذيب معناه لا يوجب الكفر بل الضلال والفسق ، والملخص أن النص المتعين المعنى من المتواتر والمشهور لا يوجد فى العقل ماينافضه ولا يسوغ تأويله والنص الظاهر المعنى منهما لا يجوز تأويله وصرفه عن معناه المتبادر منه إلا اذا قام فى العقل دليل قاطع على ماينافض معناه الظاهر ، وانما جاز حينئذ تأويله لأن الجمود على اعتقاد المعنى المتبادر منه ورفض مايدل عليه الدليل العقلى القاطع

يقتضى هدم الاصل وهو العقل الذى ثبت به رسالة الرسول المتكلم بتلك النصوص الشرعية إذ لولا العقل لما وصلنا الى الاستدلال على صدقه فى دعواه الرسالة فاذا هدم الاصل هدم الفرع لامحالة فرفض الدلائل العقلية رجوع على الدلائل النقلية بالنقض وهو خلاف المطلوب ، هكذا الحكم فى كل نص ظاهر المعنى ناقضه الدليل العقلى القاطع يرجع فيه الى التأويل وذلك قاعدة كلية عند أتباع محمد ﷺ - كذا فى كثير من الكتب كتفسير الرازى فى قوله تعالى (لا يكلف الله نفسا) ومثله فى المقاصد والمواقف - مثلا قد ورد فى القرآن الكريم فى قصة ذى القرنين قوله تعالى : (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) ، فالمعنى الظاهر من هذا النص المتواتر ان الشمس تغرب فى عين من عيون الارض فلو لم يقم الدليل العقلى القاطع على ما يخالف هذا المعنى الظاهر ويناقضه لكان من الواجب فى الشريعة المحمدية اعتقاد هذا المعنى المتبادر ، ولا يجوز تأويله ، ويقال حينئذ: أن خبر الصادق دل بمعناه الظاهر على أن الشمس تغرب فى عين من عيون الارض فيجب الاعتقاد بذلك ، لكن قام الدليل العقلى القاطع على أن الشمس أكبر من الارض بكثير . ودخول الجسم الكبير فى الصغير مع البقاء على مقدارهما من المحال ، وقام الدليل العقلى القاطع أيضا على أن الشمس لا تغرب فى نفس الارض ، فحينئذ وجب تأويل هذا النص احتمالا وصرفه الى معنى غير ما يتبادر منه فيقال مثلا والله أعلم بمراده : يحتمل أنه تعالى أراد ان ذا القرنين لما بلغ ذلك المكان من بلاد المغرب وجد الشمس بحسب رؤية الرائى تغرب فى عين حمئة لأن الناظر الى الشمس فى سواحل البلاد الغربية يتخيل اليه أن الشمس تغيب فى بحرها الغربى المحيط بها ، وذلك البحر كثير الحمأة السوداء والظلمة وذو سخونة وذلك

اشارة الى أن الجانب الغربي من الأرض قد أحاط به البحر سواء قلنا ذلك الجانب هو ساحل أفريقيا الغربي أو ساحل أميركا الغربي ، وليس المراد أن الشمس تغرب فى عين من عيون الارض فى نفس الامر - يؤخذ هذا التأويل من الرازى والجلالين وتفسير الكواشى كما نقله الشيخ مرعى الحنبلى فى كتاب عجائب المخلوقات ، وما قاله أهل الاخبار من أن الشمس حقيقة تغرب فى العين كلام على خلاف اليقين وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة ؛ فلم يبق الا ان يصار الى التأويل كذا فى الرازى - وهكذا يقول الواحد منا : انى من المكان الفلانى وجدت الشمس تغرب فى البحر ، ومن المكان الفلانى وجدتها غربت خلف الجبل أو فى الوادى الفلانى ؛ والحال أن اعتقاده أنها لم تغرب فى واحد من تلك المذكورات ، وانما حكى صورة رؤيته هذا ، وأما اذا قام الدليل العقلى غير القطعى بل الظنى مناقضـــا للمعنى المتبادر من نص الشريعة ؛ فلا يسوغ تأويل ذلك النص وصرفه الى معنى آخر غير متبادر منه ، بل يجب البقاء على الاعتقاد بمعناه الظاهر ، ومن المعلوم أن الدليل العقلى القاطع هو الذى يدل على مدلوله دلالة يقينية لاتحتمل النقيض ، وأما الدليل العقلى الظنى فهو الذى يدل على مدلوله دلالة راجحة تحتمل النقيض ولو احتمالا بعيدا ، فبذلك الاحتمال ينزل عن درجة اليقين ولا يعتمد عليه فى المعتقدات الاسلامية فلا يكون معارضـا للمعنى الذى يظهر من نص الشريعة المتواتر أو المشهور ، ولا يسوغ عنده تأويل ذلك الظاهر البتة ، ثم قد يوجد فى الشريعة المحمدية نص لاتتوفر له الشروط التى يبلغ بها درجة المتواتر أو المشهور ، فلا يكون ثبوت وروده يقينيا ويسمى بالآحاد وهو ينقسم أيضا الى متعين المعنى ، وظاهر المعنى ، وحكمه فى الشريعة الاسلامية أن يعتمد عليه فى الأعمـال

الشرعية إذ يكفي في حقها الظن ولا يعتمد عليه استقلالا في المعتقدات الاسلامية حيث أن ثبوت وروده ظني لا يقيني فلا يكفر منكر وروده أو معناه - كما هو منصوص في كتب الأصول ، ولكن الآحاد اذا نقلها العدول وصارت معتمد الفقهاء في الفروع ، فلا يجوز انكارها حيث لم يعارضها معارض عقلي قاطع لئلا يجر ذلك الى انكار المتواتر والمشهور ، والعياذ بالله تعالى - نعم اذا اكتنف الآحاد مايقويه ويجعله مفيداً لليقين فيعتمد عليه حينئذ في المعتقدات أيضا كما يعتمد على المتواتر والمشهور فيها ﴿المقدمة الثانية﴾ أن الشريعة المحمدية ، بل وسائر الشرائع إنما يقصد منها بيان مايرشد الخلق الى معرفة الله تعالى باعتقاد وجوده واتصافه بصفات الكمال ، والى كيفية عبادته وأداء شكره والى الاحكام التي توصلهم الى انتظام المعاش وحسن المعاد ، وأما تعريفهم بمباحث العلوم الكونية من كيفية خلق العالم وما هي النواميس القائمة في السماويات أو في الارضيات وأمثال ذلك فليس شيء من نحو ذلك من مقاصد الشرائع ، بل هذه المباحث هي معارف تتوصل الناس اليها بعقولهم ، فربما ينتفعون بها في دنياهم وربما يكون حظهم منها مجرد الاطلاع ، والشرائع لا تلتفت اليها أولا وبالذات ولا تعتني بتفاصيلها ، نعم قد تذكر شيئا منها مجملا على قدر مايكون له دخل في مقاصدها فتذكر مثلا خلق السموات والأرضين ، وابرازها من العدم ، واختلاف أنواع المخلوقات في التنوعات وكيفية تدبير الأكوان واعطاء كل منها نظامه على سبيل الاجمال لاجل أن يكون ذلك دليلا عقليا للناس على وجود إله للعالم وعلى اتصافه بالعلم والقدرة والحكمة الى غير ذلك ؛ وقد تفصل بعض تلك المباحث لداع يدعو الى ذلك يكون مرجعه الى مقاصدها اذا فهمتم هاتين المقدمتين فاعلموا أن

الذى ورد فى الشريعة المحمدية من النصوص المتواترة أو المشهورة التى يعتمد عليها فى الاعتقاد فى خصوص خلق الأكوان وتنوع الأنواع انما هى نصوص لم يبين فيها تفاصيل الخلق وكيفياته لما قلنا : أن ذلك ليس من مقاصد الشرائع ، لكن ورد منها أن الله تعالى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ، وأنه تعالى استوى الى السماء وهى دخان فسواهن سبع سموات - أى قصد اليها وهى بخار ماء كما فى الجلالين - وقد اختلف أتباع محمد ﷺ فى تفسير هذه الايام الستة مستندا كل قائل الى دليل من دلائل الشريعة فاكثرهم قال: انها كايامنا اى مقدرة بها لأنه حينئذ لم تكن شمس ولا فلك ، وقال بعضهم: انها أيام من أيام الآخرة لأنه قد ورد فى اصطلاح شريعتهم أن يوم الآخرة الف سنة من سنينا - تفسير اليوم بالف سنة مروى عن ابن عباس كما فى مباهج الفكر للوراق - وقال بعضهم : أنه يطلق على خمسين الف سنة ، ومع ذلك فهم متفقون على ان الله تعالى قادر على خلق السموات والارض وما بينهما فى أقل من لحظة لما قام لديهم من دلائل عظمة قدرته سبحانه ، وانما خلق ذلك فى ستة أيام لحكمة هو يعلمها ، وقد قيل: أن من حكمة ذلك تعليم عباده بعد ابلاغهم كيفية ما أجراه فى خلقه ذلك على لسان الرسل أن طريق التأنى خير من طريق العجلة ، ولو علم العالم من نفسه العصمة عن الخطأ فى العجلة ، وورد أيضا من تلك النصوص أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقهما الله تعالى وفسر هذا النص بعض أتباع محمد ﷺ بانهما كانتا شيئا واحدا ملتزقا احداهما بالاخرى ففصل الله تعالى بينهما ورفع السماء حيث هى وأقر الأرض كما هى - رواه عكرمة عن ابن عباس ومثله عن عطاء والضحاك والحسن وهو قول سعيد بن جبير . وقتادة كما يؤخذ من الجمل على الجلالين والرازى

وجعله الرازى أولى وجوه التأويل كما فى سورة الانبياء - وفسره بعضهم بتفسير آخر ، وقد فهم بعض أتباع محمد ﷺ من نصوص الشريعة أن الارض خلقت قبل السموات ؛ لكنها غير مدحوة أى مبسوطة صالحة للسكنى ثم استوى الله تعالى أى قصد إلى السماء وهى دخان (أى كان خلقه قبل ذلك) فسواها سبع سموات ثم دحا الارض أى بسطها وجعلها تصلح للسكنى ، ومن قال بهذا تأول النص الذى ظاهره يخالفه، وفهم بعضهم أن السموات خلقت قبل الارض وتأول ماظاهره يخالفه - نقل هذا الجمل عن الخطيب عن الرازى فى فصلت ثم رأيته فيه - ولكل وجه يستند اليه موافق لاصول الشريعة المحمدية ؛ وورد من نصوصها المذكورة أن الله تعالى خلق الكواكب وجعلها زينة السماء الدنيا أى القربى من الارض فقال بعضهم هى مركوزة فى نفس السماء - هو قول جمهور المفسرين كما نقله فى مباهج الفكر للوراق - وقال بعضهم هى دون السماء بينها وبين الارض - نقله فى كنز الأسرار للقاضى الصنهاجى عن مكى فى تفسير سورة التكوير وأن صاحب بهجة النفس نقله عن وهب ونقله فى مختصر الهيئة السنية للقرمانى عن كثير من المفسرين وغيرهم ، وذكر مثله الشيخ مرعى الحنبلى المقدسى فى عجائب المخلوقات ونقل حديثا آحاديا يدل عليه ، وكذلك نقل هـــذا الحديث أبو جعفر محمد بن عبدالله الكسائى فى كتاب الملكوت ، ونقل الرازى أثرا عن كعب فى تفسير سورة القدر صريحا فى أن الشمس دون السماء الدنيا - أى وكونها زينة السماء الدنيا لايلزم أن تكون مركوزة فيها لجواز أن يراد زينتها بحسب مرآنا وان كانت تحتها ، أقول : ولعلهم يتأولون قوله وجعل القمر فيهن نورا أى فى السموات نظير هذا التأويل ، ثم الفلك الذى ورد أن الكواكب تسبح فيه قيل : هو جسم يحملها وقيل هو مدارها أى الحيز الذى

تسير فيه من الفراغ (وهذا قول الضحاك كما في الرازى) والنصوص تدل على وجود السموات وانها غير الكواكب كما يفهم مما مر ، وسيأتى بيان ذلك عند الكلام معكم على ما استنكرتموه مما ورد في الشريعة المحمدية والذى عليه جمهور أتباع محمد ﷺ أن السماء مرئية لنا ، وقال بعضهم: أنها غير مرئية وانما المرئى الهواء نقله في عجائب المخلوقات عن القاضى ابى بكر بن العربى ولعله يؤول النص الذى يدل ظاهره أنها ترى بتأويل مناسب - فهذا ملخص ما ورد من نصوص الشريعة المحمدية التى تعتمد فى الاعتقاد فى خلق السموات والارض والكواكب مع بيان ما ورد لعلماء تلك الشريعة من الأقوال في فهم تلك النصوص ، وأما تفصيل خلقها وكيفيات تكونها أو تكون الشمس والكواكب والأرض كما تزعمون من أن أصلها السديم ثم تكونت منه الشمس ثم انفصلت عنها الكواكب ومنها أرضنا على النواميس التى تذكرونها فى كتبكم أو على طريقة اخرى فلم تنص الشريعة المحمدية على شىء من ذلك ، ولم يرد من نصوصها ما يثبته أو ينفيه . لكن قد ورد فى القرآن الشريف ما يشير الى ذم التعرض للبحث عن ذلك ، إذ قال تعالى (ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) واذا نظرنا الى هذه التفاصيل التى تذكرونها فى تكون الشمس والكواكب والأرض بعين الانصاف ظهر أنها فروض وتخمينات كما يظهر من التأمل فى شرحكم لها فى كتبكم فيجوز أن يكون الله تعالى قد كونها على تلك الطريقة التى تقولون بها ويجوز ان يكون الحال بخلاف ذلك فما دامت تلك الفروض فى درجة الظن فاتباع محمد ﷺ لايجزمون بها فى اعتقادهم ويكفيهم فيه ما قد ورد فى شريعتهم على أحد الاوجه التى فهمها وقال بها علماؤهم ، نعم اذا ثبت تلك الفروض بالدلائل القاطعة التى لاتحتمل النقيض ولا مجال للعقل فى رفضها (وهيهات ذلك)

واقتنعت عقولهم بها فهم حينئذ يقولون بها اى مع اعتقاد أن الله تعـالى أوجد الشمس وكونها وفصـل منها الكواكب والارض على الكيفية التى تذكرونها والنواميس التى قلتم بها فى ذلك التكوين تكون عندهم أسبابا عادية لاتأثير لها فى نفسها كالنواميس التى وضعها الله تعالى فى تكون بقية العوالم ، فالنبات مثلا يتكون بواسطة الماء . والنور . والتراب ، وليس لذلك تأثير فى ايجاد النبات ، وانما المؤثر الحقيقى هو الله تعالى لكن جرت عادته فى وضع تلك الأسباب وايجاد مسبباتها عندها ، ومن الواضح حينئذ أن لاشيء من النصوص المتقدمة ينافى القول بهذا التكون الذى تقولون به كما لايخفى على المتأمل ،وعلى كل فالمقصود وهو الاستدلال بالآثار على مؤثرها حاصل ويمكنكم أيها الماديون اذا اعتنقتم الدين الاسلامى واعتقدتم حدوث مادة العالم بخلق الله تعالى كما أقمت لكم الدليل عليه فيما تقدم واعتقدتم بوجود سبع سموات كما سيأتى لكم بيانه وثبت لديكم بالادلة القاطعة تكون الشمس وانفصال الكواكب والارض عنها على الطريقة التى تقولون بها أن تقرروا اعتقادكم على وفق ماورد من نصوص الشريعة المحمدية التى يعتمد عليها فى الاعتقاد وعلى وفق مافهمه بعض علمائها منها فتقولون حينئذ هكذا ان الله تعالى خلق أولا مادة العالم شيئا واحدا ، وقد سماه الله تعالى عند ذكر مادة السماء دخانا وفسروه ببخار الماء وهو السديم المنتشر فى الخلاء ثم فتق الله السموات والارض أى أنه ميز مادة السماء عن المادة التى يريد أن يكون منها الشمس والكواكب والارض - ويجرى هذا على ماروى عن ابن عباس ومن معه فى تفسير الرتق والفتق كما تقدم قريبا - ثم رفع مادة السماء فوق مادة المذكورات . ثم كون الشمس وفصل عنها الكواكب والارض - وهذا يجرى على قول من يقول ان الفلك هو مدار الكواكب

أي حيزها من الفراغ كما تقدم ـ ولكن الارض كانت بعد فصلها غير مدحوة أي بصورة لا تصلح للسكنى ، ثم قصد سبحانه الى السماء وهي دخان أي بخار ماء وهو السديم فسواها سبع سموات ، والسماء لا ترى ، وانما المرئي هو الجلد ـ ويجرى هذا على قول أبي بكر بن العربي كما تقدم ـ ثم دحا الارض بعد ذلك وكل ذلك أجراه الله تعالى على نواميس مخصوصة وهي أسباب عادية وفي أزمنة مستطيلة هي التي سماها ستة أيام وهو قادر سبحانه على تكوين جميع ذلك بدون تلك النواميس وفي أقل من لحظة ، وعلى هذا فالشمس والكواكب والارض تكون قائمة تحت السماء بناموس الجاذبية الذي وضعه الله تعالى فيها وهو سبب عادي والفاعل الحقيقي هو الله تعالى ، ففي هذا التقرير يكون مذهبكم قد انطبق على ما ورد في نصوص الشريعة المحمدية المتقدمة وعلى ما قال به بعض علمائها في تكون السماء والكواكب والارض وفي مواقعها وعليه فلا مخالفة بين مذهبكم وبين الدين الاسلامي توجب اخراجكم من عداد أهله ، ولكن أتباع محمد ﷺ لا يلتزمون القول بهذا التفصيل الذي مر حتى تقوم عندهم الأدلة القاطعة على ثبوت الكيفية التي قلتم بها في تكون الشمس وانفصال الكواكب والارض عنها ، وإلا فهم يقتصرون في الاعتقاد على ما تقدم ذكره من النصوص التي وردت في شريعتهم ويتبعون رأي جمهور علمائهم على ما في ذلك من الاجمال ويفوضون علم تفصيل ذلك الى الله تعالى لانهم لم يكلفوا بالبحث عن تفصيل ذلك واذا سئلوا عنه أو عن أمثاله من كل ما لم يرد في شريعتهم تصريح فيه ولم تقم الأدلة القاطعة عليه ، بل كانت أدلته ظنية فان كان ينافي نصوص شريعتهم رفضوه وامتنعوا عن القول به وان لم يناف تلك النصوص قالوا يحتمل الصحة ويحتمل خلافها اذ هو أمر مظنون ٭

﴿هذا﴾ ثم المدار في اعتقاد أتباع محمد ﷺ في شأن عوالم الكون أن يعلموا علما جازما أنها حادثة (١) فلا بد لها من محدث وهو الله تعالى أحدثها وأوجدها من العدم ونوعها الى انواعها التى تشاهد الآن، وأن جميع ذلك لم يكن بتأثير طبيعة أو ناموس، والنواميس التى تشاهد فى تكوين بعض الكائنات انما هى أسباب عادية وضعها الله تعالى لذلك وهو غنى عنها قادر على احداث تلك الكائنات بدونها ، وهذا القدر من العلم الجازم يكفيهم فى الاستدلال على وجود الله تعالى واتصافه بالقدرة والعلم وسائر الصفات التى تدل عليها تلك الآثار فعلى موجب هذا الاعتقاد عندما يكون التفاتهم الى خصوص تكون عوالم الارض من معدن ونبات وحيوان كان من الواضح أنه لافرق عندهم بين أن يعتقدوا أن الله تعالى أوجد أنواع هذه العوالم الثلاثة بطريق الخلق أى أنه أوجد كل نوع منها ابتداء مستقلا عن غيره ليس مشتقا من سواه سواء أوجده دفعة واحدة أو أوجده بتكوين متمهل بان رقاه من أبسط مادة على تطورات عديدة حتى بلغ به ماهو عليه وكل من التكوين الدفعى والمتمهل من الجائزات العقلية الداخلة تحت تصرف قدرة الله تعالى وهو سبحانه فاعل مختار لاحجر عليه فى سلوك أى طريق اراد وبين أن يعتقدوا أن الله تعالى أوجد أنواع هذه العوالم بطريق النشوء أى انه أوجد المادة البسيطة ثم رقاها الى عناصر ثم الى معادن أو الى أبسط جسم حى (البرتو بلاسم) ثم الى أدنى النبات أو الحيوان ثم فرع من ذلك

---

(١) ومعنى حدوثها وجودها بعد ان لم تكن موجودة بحيث يفرض لوجودها بداية زمانية تنتهى اليها سلسلتها من جانب الماضى، ولا يجوز ان يوصف بالازلية الا الله وحده وصفاته عند القائلين بانها وجودية وقبل هذه البداية التى لا يمكن تحديدها لم يكن وجود سوى وجود خالق الكون ، ثم انه اراد ايجاد الكون فاوجده من العدم البحت وهذا هو الذى يظهر من الكتاب العزيز ، ومن اصدق من الله قيلا ٥

بقية الانواع واشتق بعضها من بعض ويختار ابقاء البعض ويبيد البعض ، وأجرى جميع ذلك على نواميس وضعها فى المادة يتسبب عنها ذلك الارتقاء والتنوع الى أن بلغت تلك العوالم أنواعها التى عليها الآن ، فكل من هذين الاعتقادين اى اعتقاد طريق الخلق واعتقاد طريق النشؤ فى إيجاد العوالم المذكورة مادام مستندا الى خلق الله تعالى وانه ليس لسواه تأثير كان من حقه أن يكفى أتباع محمد ﷺ لاستدلالهم على وجود الله تعالى واتصافه بالصفات التى تدل عليها تلك الآثار وبعبارة اخرى أن كلا من اعتقاد ان الله تعالى أوجد كل نوع من أنواع هذه العوالم مستقلا عن غيره ابتداء اما بدفعة واحدة واما بتمهل وتكون الاجناس بعد ذلك منتزعة فى العقول ومتصورة من تلك الأنواع، وليس لها وجود إلا فى الصور الذهنية ومن اعتقاد أنه سبحانه أوجد فى الخارج مادة الأجناس أولا ولم يزل يرقيها وينوع منها الأنواع ويشتق الأنواع من بعضها حتى بلغت ماهى عليه الآن هو كاف للاستدلال على وجود الله تعالى واتصافه بالصفات المذكورة لكن النصوص المعتمدة فى الاعتقاد التى وردت فى الشريعة المحمدية فى شأن خلق عوالم الارض هذه خلاصتها ورد أن الله تعالى جعل من الماء كل شىء حى ، وأنه خلق كل دابة من ماء ، وانه بث أى فرق فى الأرض الدواب، وأنه خلق من كل زوجين اثنين وأنه خلق من الأنعام أزواجا (أى ذكورا وأناثا كما فى التفسير) وأنه خلق الأزواج كلها (أى الاصناف كلها كما فى التفسير أيضا) وأنه خلق الزوجين (أى الصنفين كما فى التفسير أيضا) الذكر والانثى وانه جعل فى الارض من كل الثمرات زوجين اثنين (أى من كل نوع كما فى التفسير أيضا) فالنصوص الثلاثة الاولى يحتمل أن يجرى فى تفسيرها بحدذاتها على مذهب الخلق أو مذهب النشوء والنصان

الأولان يوافقهما القول الحديث لكم أبها الماديون أن تكون المادة الحيوية
من الماء ، وأما بقية النصوص المذكورة فالمعنى الظاهر المتبادر منها هو
أن الله تعالى اوجد أنواع العوالم بطريق الخلق اى انه اوجد كل نوع منها
مستقلا عن غيره ليس مشتقا من سواه اعم من ان يكون بايجاده دفعى
او متمهل كما لا يخفى على من يدرى أساليب الكلام العربى لأن من يقول
مثلا : قدمت لضيفانى من الاطعمة انواعا يتبادر من كلامه انه اصطنع كل
نوع مستقلا عن البقية وقدمه اليهم ، وأما كونه اصطنع جملة الطعام جنسا
واحدا ثم فرع منه الانواع بترقيه فى صناعة الطبخ واشتقاق نوع من نوع
فهو معنى بعيد عن الارادة لا يخطر فى البال وان كان جائز الوقوع وربما
يوجد فى النصوص الآحادية التى هى ليست مدار الاعتقاد مايؤيد هذا
المعنى الظاهر الذى تفيده تلك النصوص التى عليها المدار ، ولكن مع ذلك
كله لم يرد نص يفيد أن كل نوع أوجده الله تعالى مستقلا قد أوجده
دفعة واحدة أو بتمهل نعم قد ورد فى بعض النصوص الآحادية (فى حديث
مسلم) أن الله تعالى خلق الشجر فى يوم كذا من الأيام الستة التى أوجد
الله تعالى فيها السموات والارض ثم خلق بعده الحيوانات فى يوم كذا
منها ، لكن هذا لا يفيد إلا أن الحيوان تأخر عن الشجر فى الخلق ، وأما
ان كل نوع منهما كان إيجاده دفعيا أو بتمهل فلا يفيد شيئا من ذلك فعلى
ماتقدم من ظاهر تلك النصوص وبحسب القاعدة المتقدمة من أن
الواجب فى الشريعة المحمدية أن يعتقد أتباعها المعانى المتعينة أو المعانى الظاهرة
من نصوصها المتواترة أو المشهورة مالم يعارض المعانى الظاهرة دليل عقلى
قاطع يلجىء الى تأويلها يجب أن يكون اعتقاد أتباع محمد ﷺ أن الله خلق
كل نوع من عوالم الارض مستقلا ابتداء عن البقية ولم يخلقها بطريق النشوء

ويشتق نوعا من نوع، وان كان قادراً على كلتا الصورتين ، وأما أن كل نوع خلقه دفعة واحدة أو بتمهل وترق بسبب نواميس وضعها الله له فهذا سبيله عندهم التوقف حيث لم يرد في شريعتهم ما يفيد القطع باحد الأمرين، ولا يسوغ لهم بمقتضى حكم شريعتهم كما تقدم أن يعدلوا عن اعتقاد هذا الظاهر الى الاعتقاد بخلافه من نحو النشوء واشتقاق بعض الأنواع من بعض كما تقولون. أيها الماديون لان هذا خلاف ظاهر النصوص المتقدمة ولم يقم عليه دليل قاطع يضطرهم إلى تأويلها والأدلة التي تذكرونها في كتبكم على النشوء ماهي الاظنون وفروض لم تخرج عن دائرة الاحتمال الذي يسقط به الاستدلال كما يظهر من الاطلاع عليها مع خلو الغرض ، وما دام الحال كذلك فاتباع محمد صلى الله عليه وسلم لايصرفون تلك النصوص عن ظواهرها ولو مع اعتقادهم بان ذلك النشوء بخلق الله تعالى ، بل لايسوغ لهم الصرف مادام الحال كذلك، نعم لو قام الدليل العقلي القاطع على خلاف ظاهر تلك النصوص كان عليهم حينئذ أن يأولوها للتوفيق بينها وبين ماقام عليه ذلك الدليل جرياً على القاعدة المتقدمة ـ وأخال أن دون ذلك خرط القتاد ـ فانتم أيها الماديون لو فرض أن ادلتكم على النشو بلغت درجة اليقين وهديتم الى اعتقاد دين محمد صلى الله عليه وسلم الذي أساسه أن لاخالق لشيء الاالله تعالى فلا حجر عليكم في تأويل تلك النصوص وصرفها عن ظاهرها وتطبيقها على ماقامت عليه الادلة القاطعة من النشوء مع اعتقادانه بخلق الله تعالى ولاينافي ذلك والحالة هذه أن تحسبوا من أهل الدين الاسلامي ، ولايفوتكم شيء من الاستدلال بهذه الكائنات على وجود الله تعالى وكمال قدرته وعلمه وحكمته، ولكن أحذركم من الغلط وتوهم الدليل الظني الذي يقوم عندكم أنه دليل يقيني فعليكم بالتدقيق والله الهادي، هذا جميع ماحررت هنا هو في شأن تكون عوالم الارض بقطع

النظر عن الانسان ، وأما هذا فالكلام فى تكونه اذكر بيانه مستقلا .

فاقول: قد ورد من نصوص الشريعة المحمدية التى عليها مدار الاعتقاد فى خلق الانسان ان الله تعالى بدأ خلقه من طين وأنه خلقه من تراب ومن طين لازب ومن سلالة من طين ومن حمأ مسنون ومن صلصال كالفخار ، وورد أنه خلقه من ماء قال بعض أتباع محمد صلى الله عليه وسلم هو - الامام الرازى - ان التراب والماء أصلان للانسان أى انه خلق منهما فتارة تذكر النصوص هذا وتارة تذكر ذاك ؛ وورد أن الله تعالى خلقه بيديه، وهذه العبارة تدل على أن خلقه كان بصورة ممتازة عن بقية العوالم، وورد أنه سبحانه خلق البشر من نفس واحدة (آدم) وخلق منها زوجها (حواء) وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، فهذه النصوص تفيد ظواهرها ان الله تعالى خلق الانسان نوعا مستقلا لا بطريق النشؤ ولم يشتقه من نوع آخر كما تقولون لاسيما النص الذى يقول بدأ خلق الانسان من طين ، وقد جاء فى بعض النصوص الآحادية ماهو بين الصراحة جدا بان خلق الانسان كان مستقلا وليس هو مشتقا من غيره ، ولا شك أن هذه النصوص وان لم يكن عليها مدار الاعتقاد بانفرادها فلا أقل من أنها تقوى ظواهر تلك التى عليها المدار وتعضدها وأيضا يبعد كل البعد أن يكون اصل الانسان المادة البسيطة ثم ترقى الى العناصر ثم الى المادة الحيوية وهى البرتو بلاسم ثم الى أدنى حيوان ثم ترقى حتى بلغ القرد ثم الى القرد الانسان ثم الى الانسان كما تقولون ، ومع ذلك يهمل الله تعالى بيان جميع ذلك ويقتصر على قوله بدأ خلق الانسان من طين بل كان من حكمته أن يشرح تلك التطورات والترقيات ويفصلها حسبما جرى عليه فى تفصيل خلق ذرية الانسان فانه فصله فى نصوص الشريعة بانه خلقهم من تراب (أى لأن غذاء آبائهم الذى يستحيل منيا كان أصله التراب كذا يؤخذ من الرازى وفى تفسير آخر

أن معنى خلقهم من تراب خلق أبيهم آدم) ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم أخرجهم طفلا فان ذلك التفصيل له وقع في النفس في الدلالة على قدرة الخالق سبحانه لما فيه من نقل المادة من طور الى طور فسكوت النصوص المذكورة عن بيان النشؤ واشتقاق الانسان من نوع سواه واقتصارها على ماتقدم من البيان هو ظاهر في أن الانسان خلق نوعا مستقلا ليس مشتقا كما تقولون وان كان كلا الأمرين من الجائز العقلي الداخل تحت تصرف قدرة الله تعالى نعم ليس في تلك النصوص صراحة بان الله خلق الانسان الاول من تراب دفعة واحدة أو بتكوين متمهل على انفراده فسبيل هذا التوقف وعدم الجزم باحد الامرين حسب النصوص التي عليها مدار الاعتقاد وان كان قد يظهر من بعض النصوص الآحادية أن تكون ذلك الانسان (وهو آدم) كان بتمهل ومرت عليه مدة من الزمان ، والله قادر على كلا الطريقين ، وقد صرح بعض علماء أتباع محمد ﷺ -هو الامام الرازي- في تفسير قوله تعالى (خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) بان خلق الانسان كان مبتدأ مستقلا ليس مترقيا من الادنى حتى بلغ ماهو عليه وهذا ماقال ان اذا المفاجأة يقال: خرجت فاذا الاسد بالباب وهو اشارة الى أن الله تعالى خلقه ، يعني الانسان من تراب بكن فكان لا أنه صار معدنا ثم نباتا ثم حيوانا ثم انسانا ، وهذا اشارة الى مسئلة حكمية ، وهي أن الله تعالى يخلق أولا انسانا فينبهه أنه يحيى انسانا وناميا وغير ذلك لا انه خلق اولا حيوانا ثم يجعله انسانا فخلق الانواع هو المراد الاول ثم تكون الانواع فيها الاجناس بتلك الارادة فالله تعالى جعل المرتبة الاخيرة في الشيء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة الى مرتبة من المراتب التي ذكرها انتهى * فهذا تصريح بان ذلك النص يفيد ان الانسان كان تكوينه

بطريق الخلق مستقلا ابتداء لابطريق النشؤ كما تزعمون وطريق الخلق هو الذى تعطيه ظواهر بقية النصوص فاعتماد أتباع محمد ﷺ فى الاعتقاد عليه لاعلى النشؤ ولا يجوز لهم تأويل تلك الظواهر وصرفها عن معناها الظاهر إلا اذا قام دليل عقلى قاطع يدل على أن الله تعالى خلق الانسان بطريق النشؤ كما تزعمون (هيهات هيهات) فعند ذلك يضطرون الى تأويل ظواهر تلك النصوص كما هو القاعدة عندهم فى التوفيق بين الدليل النقلى والدليل العقلى المتعارضين، وبعد ذلك لايخفى ان النشؤ عندهم لو ثبت هو غير النشؤ عندكم لأنه لو ثبت عندهم كانوا يقولون هو بخلق الله تعالى لما قام عندهم من الدليل ، على أنه لاخالق ولا مؤثر سواه ، والنواميس التى ترافقه ماهى إلا أسباب عادية لاتأثير لها البتة، وأما النشؤ عندكم فهو على زعمكم بتأثير تلك النواميس فشتان مابين المعنيين ، ثم لتعلموا أن الأدلة التى تذكرونها فى كتبكم على النشؤ يظهر للناظر بعين الانصاف أنها لاتضطر أتباع محمد ﷺ الى تأويل ظواهر تلك النصوص والقول بالنشو لأنها أدلة ظنية مبناها الفروض وهم لايضطرون الى التأويل الا بمعارضة اليقين كما علمتم فانتم لو فرض وصولكم الى أدلة يقينية قاطعة على وجود الانسان بطريق النشؤ واعتقدتم بالدين الاسلامى الذى أساسه أن الله تعالى هو الخالق للاكوان ولا تأثير لسواه فيها ، فلا مانع يمنعكم من تأويل تلك النصوص وصرفها عن ظاهرها للتوفيق بينها وبين ماقام لديكم حينئذ من الادلة اليقينية ، ولا تخرجون بهذه الطريقة عن الدين الاسلامى، وأعيد تحذيركم من الوقوع فى الغلط بظن الأدلة الظنية انها يقينية فحرروا الدليل واستوضحوا السبيل ور بما يعارضكم حينئذ ماقاله جمهور أتباع محمد ﷺ من أن الانسان الاول (آدم) قد خلق فى جنة عدن التى هى غير أرضنا ، أو ماقاله بعضهم - هو السدى كما في كنز

الاسرار - أنه خلق في السماء الدنيا فان هذين القولين لا يوافقان النشوء الذى مبناه انه حصل فى الارض فلكم مناص عن ذلك بالجرى على ماقاله بعضهم - هو منذر بن سعيد البلاطى وجماعة كما فى كنز الاسرار أيضا - أنه خلق فى جنة من جنان الدنيا ، وبذلك تكونون قد وافقتم قولا لاتباع محمد صلى الله عليه وسلم يدفع عنكم مضادة الدين الاسلامى ، وربما يعارضكم أيضا أن الله تعالى بعد ما خلق الانسان الاول (آدم) خلق زوجته منه وأسكنهما الجنة (١) وتلك الجنة

---

(١) قال الامام الرازى فى تفسير قوله تعالى (وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة الآية)

اختلفوا فى ان الجنة المذكورة فى هذه الآية هل كانت فى الارض او فى السماء وبتقدير انها كانت فى السماء فهل هى الجنة التي هى دار الثواب او جنة الخلد او جنة اخرى فقال ابو القاسم البلخى وابو مسلم الاصفهانى هذه الجنة كانت فى الارض وحملا الاهباط على الانتقال من بقعة الى بقعة كما فى قوله تعالى (اهبطوا مصراً) واحتجا عليه بوجوه *

(احدها) ان هذه الجنة لو كانت هى دار الثواب لكانت جنة الخلد ولو كان آدم فى جنة الخلد لما لحقه الغرور من ابليس بقوله هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ولما صح قوله ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين

(وثانيها) ان من دخل هذه الجنة لا يخرج منها بقوله تعالى وما هم منها بمخرجين

(وثالثها) ان ابليس لما امتنع من السجود لعن فما كان يقدر مع غضب الله على ان يصل الى جنة الخلد

(ورابعها) انه لا يجوز فى حكمته تعالى ان يبتدىء الخلق فى جنة يخلدهم فيها ولا تكليف لانه تعالى لا يعطى جزاء العاملين من ليس بعامل *

(وخامسها) لا نزاع فى ان الله تعالى خلق آدم عليه السلام فى الارض ولم يذكر فى هذه القصة انه نقله الى السماء ولو كان تعالى نقله الى السماء لكان ذلك اولى بالذكر لان نقله من الارض الى السماء من اعظم النعم فدل ذلك على انه لم يحصل وذلك يوجب ان المراد من الجنة المذكورة جنة اخرى غير جنة الخلد (القول الثانى) وهو قول الجبائى ان تلك الجنة كانت فى السماء السابعة

(القول الثالث) وهو قول جمهور اصحابنا ان هذه الجنة هى دار الثواب والدليل عليه ان الالف واللام فى لفظ الجنة لا يفيدان العموم لان سكون جميع الجنان محال فلا بد من صرفها الى المعهود السابق والجنة التى هى المعهودة المعلومة بين المسلمين هى دار الثواب فوجب صرف اللفظ اليها *

(القول الرابع) ان الكل ممكن والادلة النقلية ضعيفة ومتعارضة فوجب التوقف وترك القطع والله اعلم *

هى دار الثواب التى وعدها الله تعالى عباده المؤمنين بعد الموت والبعث وهى غير أرضنا وهو قول جمهور أتباع محمد ﷺ فلكم مناص عن ذلك أيضا بالجرى على قول بعضهم - هو أبو قاسم البلخى وأبو مسلم الاصفهانى مفسر كبير كما نقله عنهما الرازى - أن تلك الجنة كانت فى الارض ويحمل أهباطهما منها على الانتقال من بقعة الى بقعة كما فى قوله اهبطوا مصرا وان أشكل عليكم أيضا ما يقوله الاكثرون من أتباع محمد ﷺ - وهو غير مشكل إذ هو من الجائز العقلى الداخل تحت تصرف القدرة الالهية هذا الحيوان الهيدرا يقسم ثلاثة أقسام ثم يعود كل قسم حيوانا مستقلا كما تقدم ، ولكن جارينا الخصم لتسهيل الامر عليه - من أن الله تعالى بعد ما خلق الانسان الأول (آدم) خلق منه زوجته (حواء) أى من ضلع من أضلاعه اليسرى لما ورد فى شريعتهم من النصوص الآحادية أن المرأة خلقت من ضلع أعوج فان ذهبت تقيمها كسرتها ، وان تركتها وفيها عوج استمتعت بها ، ولتصريح بعض أجلاء أتباعه بذلك - هم ابن مسعود وابن عباس وبعض الصحابة كما فى تفسير أبى السعود - فلكم مخلص عن ذلك أيضا بالجرى على ما اختاره بعضهم - هو أبو مسلم الاصفهانى - كما فى الرازى مؤولا النص الذى ورد فى الشريعة من أن الله تعالى خلق من الانسان الاول زوجته بان المراد بخلقها منه انها من جنسه كما قال فى نص آخر جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وبهذه الطريقة أيضا تكونون قد وافقتم بعضا من علماء أتباع محمد ﷺ بنوع من التأويل ، وبهذا لا تصادمون الدين الاسلامى مصادمة تخرجكم من عداد أتباعه اذ لم تكذبوا نصا معتمدا فى الاعتقاد ولم تخالفوا اجماع أتباع محمد ﷺ على أمر معلوم من الدين بالضرورة ، غاية ما اجريتم أنكم خالفتم الاكثر ووافقتم البعض وتأولتم النصوص بتأويل يوفق بين الادلة النقلية والعقلية ،

والله الهادى الى سواء السبيل ٭

ثم بما تلخص بما قررناه من أن أتباع محمد ﷺ يعتمدون فى الاعتقاد ظواهر نصوص شريعتهم التى عليها مدار الاعتقاد لثبوت ورودها قطعيا ولا يؤولونها ويصرفونها الى غير الظاهر اذا عارضتها أدلة عقلية ظنية بل اذا عارضتها أدلة عقلية يقينية قد يخطر فى البال أن لكم ايها الماديون مجالا أن تقولوا: سلمنا أن أتباع محمد ﷺ لا يسوغ لهم ترك اعتقاد معنى النصوص المتعينة المعنى ولكن النصوص التى هى ظاهرة المعنى مادامت تحتمل معنى غير ظاهر وان كان بعيدا فهى ظنية الدلالة على المعنى الظاهر وان كانت يقينية الورود فقد تساوت فى الدلالة مع مايقوم عندنا من الأدلة الظنية فما الحامل لهم على ترجيح تلك الظواهر على أدلتنا فاقول فى الجواب أن النصوص الظاهرة المعنى وان كانت ظنية الدلالة على المعنى الظاهر منها فى حد ذاتها إذ يحتمل أن يراد منها المعنى البعيد غير الظاهر ولكن الأصل فى التخاطب ارادة المعنى الظاهر دون خلافه الا لداع يدعو اليه فارادة المعنى البعيد من غير داع يكون خللا فى الافادة والاستفادة وخروجا عن الاصل ، وفى ذلك من المفاسد مالا يخفى فلذلك اجمع أتباع محمد ﷺ على اعتماد المعنى الظاهر وعدم الالتفات الى المعنى غير المتبادر الا لداع يدعو اليه ـ وهو معارضة الدليل العقلى القاطع ـ ويكون ذلك الداعى كالقرينة على ارادة المعنى غير المتبادر من اللفظ ويصير هذا المعنى بسبب ذلك الداعى هو الظاهر ، وهكذا كلفوا من جانب شريعتهم ، أن يعتمدوا المعنى الظاهر ولا يلتفتوا الى خلافه إلا عند الداعى ، فلو فرض أنهم اعتقدوا الظاهر من اللفظ قبل ظهور الداعى الذى يدعوهم للانصراف عنه يكونون قد أتوا بما كلفوا به ولا اثم عليهم فى ذلك ، ولو فرض أنه ظهر لهم الداعى الى الانصراف عن الظاهر بعد ذلك وانصرفوا به يكونون أيضا قد أتوا بما كلفوا به ولا اثم عليهم فى ذلك اذ هو حكم شريعتهم وانما انحصر

الداعى الى ترك الظاهر بمعارضة الدليل العقلى القاطع لأن رفض هذا الدليل رفض للاصل الذى ثبت به صدق الرسول وهو العقل كما تقدم ورفض العقل يوجب رفض الشرع ، وأما معارضة الدليل الظنى فلا يكون داعيا لترك الظاهر لان رفض الدليل الظنى لا يوجب رفض العقل كما هو ظاهر لاحتمال انه فاسد ، فلو تركوا الظاهر واعتقدوا ما يدل عليه الدليل الظنى لكانوا فى معرض أن يكون اعتقادهم خطأ ، وحينئذ لا تعذرهم الشريعة فى ذلك ، اذ لا ضرورة تدعوهم اليه كما تدعوهم الضرورة عند معارضة الدليل القاطع على أن اتباع الادلة الظنية وترك الظواهر يوجب اختباطا واختلاطا فى الاعتقاد لا يحد، فان الظنون كثيرة كل يظن ظنا ويخمن تخمينا ، والاعتقاد يعتمد فيه اليقين، فكان من الصواب أن يتمسك أتباع محمد ﷺ بظواهر نصوص شريعتهم اليقينية الورود ولا يتحولون عنها الى خلافها لمجرد الظنون والله الهادى.

(وقد آن) أن أبين لكم ان أدلتكم التى ذكرتموها فى كتبكم على النشوء وتوجيهاتكم له كل ذلك ظنى لا يضطر أتباع محمد ﷺ الى تأويل نصوص شريعتهم الظاهرة المعنى بان وجود العوالم بطريق الخلق، ولا أريد أن أتصدى لمناظرتكم فى ابطال ذلك والرد عليكم فى كل ما قررتموه فى اثبات تلك الدعوى لان ذلك يحتمل كلاما كثيرا نخرج به عن موضوع بحثنا الذى نحن بصدده ومن حقه أفراد كتاب لذلك اعاننى الله على جمعه، ولكن أريد أن أبين لكم ان معتمد أدلتكم على النشوء وتوجيهكم له لم يتجاوز الظن والتخمين، وبذلك كفاية لما هو غرضنا فاقول : أن معظم ما استندتم عليه فى الاستدلال على نشو الانواع من أصل واحد انكم شاهدتم الاعضاء(١)

---

(١) من الشبهات الكبرى للماديين التى سولت لهم القول بنفى الخالق تعالى الله عما يقول

الظالمون شبهة الاعضاء الاثرية قالوا انا نجد فى بعض الحيوانات اعضاء زائدة لا فائدة لها وهى التى يسمونها أثرية قالوا ومثالها الاسنان القواطع التى توجد فى اجنة بعض الحيوانات المجترة فهذه تكون فى سمك عظم بين الفكين ولا تبرز أبدا وهى لا فائدة لها فما الغاية من وجودها

ومن هذا القبيل العيون الاثرية التى لا تبصر فى بعض الحيوانات التى تقطن الكهوف او تقيم تحت الارض . وفى اكثر ذوات الفقار يوجد زوجان من الاطراف زوج امامى وزوج خلفى ويكون احد هذين الزوجين ضامرا غالبا وفى النادر يكون الاثنان ضامرين كما فى الحيات

وهناك بعض الافاعى له زائدتان عظميتان فى القسم الخلفى لا فائدة لهما وانما هما اثران لطرفين كانا موجودين فى اجداده

وهى شبهة واهية كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ومن اين جاء لهؤلاء ان هذه الاعضاء لا فائدة لها ولا مصلحة ترجى من ورائها

هل شاهدوا هذه الحيوانات وعرفوا اطوارها واحوال معيشتها وما تتقلب فيه من شئون مختلفة واطوار مختلفة اللهم ان شيئا من ذلك لم يكن ولكنها الاهواء تعمى وتصم *

ان من اوليات قواعد المنطق ان الحكم على الشيء فرع عن ادراكه والعلم به حتى يكون الحكم صحيحا مقبولا *

وهؤلاء القوم كلما اصابوا شيئا من الاشياء لم يقفوا على سره ولم يحيطوا بكنه حقيقته ذهبوا فى تعليله مذاهب شتى ما انزل الله بها من سلطان وطفقوا يفرضون له ابعد الفروض عن حقيقته مما لا تجد له اذا ما نظرت اليه ظلا من حقيقة ولا مستندا من يقين ولا اساسا من برهان *

ويا ليتهم يقفون موقف المتردد أو ينتهون الى حظيرة الشك بل سرعان ما يخلعون عليه حكما خضفاضا واسما لا يمت اليه بصلة ولا يصل اليه بسبب من الاسباب فتراهم يقولون ان هذه الاعضاء كانت نامية فى اجداد كانت لازمة فيها وضمرت حيث لم يبق لها لزوم وفى البعض زالت بالكلية يا لفضول الانسان وجهله وتماديه فى غروره وسفهه ! اجل فكرك فى هذا الادعاء وقلب فيه نظرك وانا زعيم بانك لا ترجع بعد البحث والتنقيب بطائل ولا تصل الى نتيجة ترضاها وتحل منك محل القبول والاذعان والا فبأى تفكير ناضج ونظر ثاقب جاء لهم أن هذه الاعضاء كانت نامية فى الاجداد الاولى لتلك الحيوانات وكيف وصل لعلمهم أن هذه الحيوانات هى فصيلة من فصائل تلك الاجداد التى نمت فيها تلك الاعضاء وهل استطاعوا ان يميزوا بين جميع أنواع الحيوانات الحية ويرجعوا كل نوع الى جنسه وكل بطن الى عشيرته وفرغوا من ذلك ووقفوا فيه مستيقنين لا تأخذهم خلجة شك ولا خطرة ريب ثم احاطوا علما بسائر الحيوانات المنقرضة ونقبوا عنها تحت أطباق الثرى فى معالم الارض ومجاهلها ورتبوا اجناسها وانواعها ترتيبا يقره العقل السليم ويعترف به النظر الصحيح اللهم ان شيئا من ذلك لم يكن ولكنه الغرور يفعل الافاعيل ويقرر الاباطيل *

الاثرية في بعض الحيوانات لا في كلها ولا في غالبها ، وهي آثار أعضاء توجد في الحيوان كآثار أرجل مثلا غير كاملة بل الذي يظهر منها مبدأ تكونها فقلتم أنه لو كان كل نوع مخلوقا مستقلا كما هو مذهب الخالق لما كان لهذه الآثار فائدة لأن مذهب الخالق يقتضي أن يكون في كل نوع أعضاؤه اللازمة له ذات الفائدة لا أقل ولا أكثر ، وهذه الاعضاء الاثرية لا فائدة لها الآن فيظهر انها آثار أعضاء في نوع قديم وقد كانت لازمة له ثم لما طرأ على هذا النوع تغيرات تقتضي استغناءه عنها أخذت تتلاشى حتى لم يبق الآن إلا اثرها أو أن هذا النوع كان خاليا عن تلك الاعضاء فطرأت عليه تغيرات تؤهله لأن ينقلب الى نوع آخر يحتاج الى تلك الاعضاء التي ظهرت آثارها فابتدأت تظهر فيه الآثار ، والخلاصة أن تلك الآثار اما آثار أعضاء كانت قديمة وأخذت تتلاشى ، واما مبادىء أعضاء سوف تكمل ، وعلى كل فقد ثبت صحة التغير للانواع وانتقال نوع الى نوع آخر ، وذلك يدلنا على صحة النشوء والارتقاء ، والا فما هذه الآثار . ومما استندتم عليه بالاستدلال على النشوء والارتقاء انكم وجدتم في اكتشافاتكم الجيلوجية أن الاسبق في طبقات الارض هو أدنى النبات وأدنى الحيوان ثم بعده الأرقى فالأرقى حتى كان أرقى الجميع هو المتأخر في زمن وجوده ومكانه من طبقات الارض العليا والادنى قد تلاشى بعدما وجد الذي هو أرقى منه ، فلو كان مذهب الخالق هو الصحيح لكان يوجد من كل نوع من الارقى والادنى في الازمنة الجيلوجية المتقدمة والمتوسطة والمتأخرة ، وكان يشاهد ذلك في الطبقات السفلى والوسطى والعليا من الارض ، ولكن ذلك لم يكن فلولا أن الانواع مترقية عن بعضها البعض ، فاصل الموجودات هي الدنيا ثم أخذت تترقى حتى بلغت ماهي عليه الآن ، وكان الارقى يلاشي الادنى بتنازع

البقاء لما كان الحال كما اكتشفنا ثم احلتم ذلك الارتقاء وتحول الانواع بعضها وملاشاة الادنى بالارقى على أربعة نواميس ، الأول ناموس الوراثة أى ان الفرع يرث صفات الاصل ، الثانى ناموس التباينات ان كل فرع مع ارثه لصفات كانت فى أصله لأبد ان يباينه فى صفات اخرى ، الثالث ناموس تنازع البقاء أى ان الأنواع تنازع بعضها فى التسابق الى اسباب المعيشة ويطرأ عليها كوارث خارجية كالحر والقر ويهلك الضعيف بتغلب القوى أو بالكوارث ، ويبقى القوى المتحمل لها ، الرابع ناموس (١)

(١) لست اعقل كيف يتصور هؤلاء القوم الانتخاب الطبيعى من غير عقل ولا ارادة وكيف أهتدت تلك المادة العمياء التى لا تبصر ولا تسمع ولا تعقل الى ناموسي الانتخاب الطبيعى وآثرته على سواه من شتى النواميس ، واذا كانت كل معضلة تحل بمثل هذا الحل فلم يبق اذن معضلة فى الكون ولا مشكلة فى العالم *

وأن عقلاء الامم قاطبة وحكماء المذاهب والاديان كافة ليعجبون غاية العجب مما أتى به الماديون من تلك الخيالات ثم افراغ ما بها من التمحلات فى قالب المعلومات . ذلك أنه لم يعهد فى الفلسفة أن يكون عمادها الفرض والوهم ولا صح فى العلوم الحقيقية أن تناقض قضايا العقل ولا ان يكون الابهام رائدها وعدم التجلى للنفس قائدها فان العقول السليمة والقواعد القويمة تبرأ الى الحق أن تركن الى أمور فرضية او تعقد على مباحث وهمية او تزول عند كل ناقل أو تستوحش لشبهة أى قائل او تقبل ما ينابذ الفطرة الصحيحة أو يعاند الاقيسة الصريحة الا ان تكون اصيبت بخلل او خبل والجنون فنون وليست محنة الامم بهؤلاء الماديين بأعظم من محنة العقل الذى لم يزالوا يعبثون به حتى لو تجسم لمسا السمو الى ذمها او تمثل دار الجهدوا فى هدمها كأنهم لم يخلقوا الا ليطمسوا اعين النور ويقلبوا أعيان الأمور وأى علم هو ذلك الذى يوجب هذا التبجح وتلك الكبرياء التى جعلتهم يحكمون على السموات والارض ، يخرجون على الله ورسوله وينفون جازمين ويثبتون موقنين وكلما عرتهم مشكلة فى الكون حلوها بعبارة فارغة لا معنى لها عند من لا يقدسهم ولا يهابهم مثل كلمة (الانتخاب الطبيعى) لاجرم ان ذلك ضلال وتضليل للعقول وتشويه للحكمة وعبث بالاصول ومن السفه التلاعب بقواعد الفلسفة فانها علم العلوم وصناعة الصناعات فمن المحال أن تعطى فى موضع الشك اليقين وفى موضع الظن العلم بل تعطى فى كل شيء ماهو خاصته وحقيقته أن شكا فشك وان يقينا فيقين فرأيهم هذا لا يكون من الفلسفة حتى يكون الجهل من العلم والظلام من النور والليل من النهار والسواد من البياض *

الانتخاب الطبيعي أي ان القوى والانسب هو الباقي والضعيف وغير الانسب هو المتلاشي فنتج عن ذلك انتخاب الطبيعة للانواع الحاضرة وتقررون النشؤ والارتقاء على وجود هذه النواميس ، هكذا تقولون ان أول موجود من الاجسام الحيوية هو المكون الاول البرتو بلاسم تكون من اجتماع بعض العناصر بسبب حركة أجزاء المادة ثم أخذ ذلك المكون في التوالد فصارت فروعه ترث صفات منه وتباينه في صفات اخرى، وهكذا جرت الفروع مع الاصول ، ويحدث الترقي بسبب ذلك الى أن بلغت رتبة أدنى الحيوان والنبات ودام الحال على ذلك فنشأ من ارث الفروع لصفات الأصول ومباينتها لها في صفات أخرى على كرور السنين ، وكثرة التباينات الموروثة ان صار الحال الى تنوع الانواع واشتقاق بعضها من بعض، ونشأ من تنازع البقاء هلاك الضعيف وبقاء القوى ، ونتيجة ذلك على طول الزمان حصول الانتخاب الطبيعي ، ومن ذلك كله وصلت الانواع الى ماهي عليه الآن وأصلها واحد ، ولما رأيتم الانسان يشبه القرد ويقاربه في صورته وبعض أعماله قلتم لامانع أن يكونا اشتقا من أصل واحد وبتلك النواميس ترقى الانسان عنه حتى وصل الى ما وصل اليه هذا واني رأيت بعض اخصامكم في مذهبكم هذا قد حاولوا ابطال مستنداتكم بتطويلات تورث السآمة بلا نتيجة كافية وأنتم تروغون منهم وتحشدون الأدلة لاثبات مذهبكم وطالت في ذلك بينكم المناظرة وألفت فيها كتب ورسائل بتطويل من دون طائل ولست متصديا الآن لما تصدى اليه أولئك الأخصام ولكن أريد أن أبين لكم أن ماتعتمدون عليه في الاستدلال على الارتقاء والنشؤ أمور ظنية لايعتمد عليها في الاعتقاد عند اتباع محمد عليه السلام ولاتعارض ظواهر نصوص شريعتهم فتضطرهم الى تاويلها اذ لايضطرهم الى ذلك إلا معارضة اليقين

كما قدمناه

فأقول: اعلموا أن الدليل متى طرأ عليه الاحتمال ولو كان احتمالا بعيداً سقط به الاستدلال أعنى الاستدلال على اليقين وهذا حكم لاينكر عند كل العقلاء ولا أخال أنكم تنكرونه، اذا تقرر ذلك فاعلموا أن استدلالكم بالأعضاء الأثرية على النشوء بأنها تدل على تغير الأنواع فتوافق مذهب النشوء ولاتوافق مذهب الخلق هو استدلال لانتيجة له إلا الظن وليس من اليقين فى شىء لتطرق الاحتمال فيه إذ لقائل أن يقول: ما المانع أن تلك الأعضاء الأثرية لها فائدة وفيها حكمة قد خفيت عليكم كما خفى عليكم فوائد أشياء كثيرة توجد فى أجسام النباتات والحيوانات كما يظهر من مراجعة كتب الفاتولوجية ؟ مثلا هذه المادة الملونة فى جسد الحيوان مجهولة الفائدة فى أكثر أجزاء الجسد إلا فى المقلة فالحكمة منها فى المقلة امتصاص أشعة النور الزائدة وأمثال ذلك كثير فأنتم لم تحيطوا علماً بفائدة كل كائن حتى تجزموا بأن تلك الأعضاء الأثرية لافائدة لها البتة سلمنا أنها لافائدة لها وأنها تدل على تغير النوع الذى هى فيه لكن نقول انها لم توجد إلا فى بعض الأنواع ولم توجد فى كلها بل ولا فى غالبها وعلى ذلك فما المانع من أن التغير قد يوجد فى بعض الأنواع وهى التى وجدت فيها تلك الأعضاء فيتحول نوع الى نوع آخر بأسباب وضعها الله لذلك وأما باقى الأنواع التى لم توجد فيها تلك الأعضاء فقد خلقت مستقلة ولم يطرأ عليها ذلك التغير فلم يثبت مذهب النشوء الذى قلتم بعمومه فى كل الأنواع، مثلا يمكن أن يكون قد حصل تغير فى نوع من الحيات التى وجدتم فيها الأعضاء الأثرية فكانت أولا مثل الحرذون ذات أرجل، ثم لما استشعر الانسان أو غيره من الحيوان باذيتها تسلط عليها بالقتل

فصارت تحذره وتسلك فى اوكار الارض وتنسل فى التراب وتهمل استعمال ارجلها لاستغنائها عنها فعلى طول الزمان غير الله خلقها بذلك السبب العادى واخذت تتلاشى ارجلها بخلق الله تعالى وينتقل ذلك التغير الى فروعها ويورث ذلك التلاشى حتى بلغت الى ماهى عليه الان ولم يبق الا آثار تلك الارجل هنا مجال لما ورد فى بعض الاثار الاحادية عن ابن عباس وابن وهب وغيرهما من المفسرين ان الحية كانت من حيوانات الجنة فتوسطت لابليس بدخوله ليوسوس لآدم عليه السلام فاهبطها الله تعالى الى الارض ومسخ صورتها وقد كانت حسنة الصورة ذات قوائم اربع نقله فى كنز الاسرار وهكذا يقال فى بقية ماشوهد فيه الاعضاء الاثرية واما بقية الانواع وهى الاكثر فنقول انها لم يحصل لها ادنى تغير بل هى كما خلقت فعلى هذا التقرير يكون حكمكم على جميع الانواع بالتغير وباستنتاج النشوء منه حكما مبنيا على الظن الذى نتج معكم من الاستقراء الناقص الذى لا يفيد اليقين الا ترون انه لو فرض ان اناسا كانوا يسكنون البرارى البعيدة عن البحار والانهار ولم يشاهدوا الا حيوانات البر التى لا تعيش فى الماء وحكموا بما استقروه من ذلك الحيوانات بان الحيوان لا يعيش فى الماء يكون استقراؤهم ناقصا وحكمهم خطاء واذا وردوا شطوط البحار والانهار وشاهدوا حيواناتها ظهر لهم خطؤهم فى حكمهم السابق هذا ثم ان مشاهدتكم فى اكتشافاتكم الجيلوجية ان الاسبق فى طبقات الارض هو ادنى النبات وادنى الحيوان ثم بعده الارقى فالارقى حتى كان ارقى الجميع هو المتاخر فى زمن وجوده ومكانه من طبقات الارض وانه قد تلاشى الادنى فالادنى الى آخر ما تقدم من تقريركم واستدلالكم بذلك على الترقى والنشوء وان ذلك لا يوافق مذهب الخالق فاقول : دلالة هذا الحال فى الاكتشافات

بعد تسليمه على الترقي والنشؤ مظنونة ايضا *

اذيقال : ما المانع من ان اول ما وجد فى طبقات الارض ادنى النبات وادنى الحيوان ثم أوجد الله تعالى ما هو ارقى منهما مستقلا كل نوع منه ليس ناشئا عن نوع من انواع ذلك الادنى، ثم اباد الادنى لاسباب كونية من نحو ان الدور الزمانى لم يبق مناسبا له وانما يناسب ما وجد بعده أو ان الارقى تغلب عليه او غير ذلك من الاسباب ثم بعد دور آخر اوجد ما هو ارقى من الثانى مستقلا كل نوع منه ايضا غير ناشىء عما قبله ، ثم اباد الثانى لاسباب أخرى كونية كما تقدم ، ثم بعد دور آخر اوجد ما هو ارقى من الثالث مستقلا كل نوع منه ايضا ، ثم اباد الثالث وهكذا الحال حتى وصل الدور الى انواع النبات والحيوان الموجودة الآن مستقلة انواعها غير ناشئة عما قبلها وقد اباد ما قبلها بمثل تلك الاسباب فبقيت احافيرها وآثارها فى طبقات الارض واذا كان هذا الاحتمال قائما فاين اليقين فى استدلالكم على الترقى والنشوء فيما اظهرته اكتشافاتكم الجيلوجية ؟ ، وبهذا الاحتمال لا تخالف تلك الاكتشافات مذهب الخلق ، ونظير وجود نباتات وحيوانات تلك الادوار الجيلوجية مستقلة غير ناشئة عن بعضها بل كان وجود كل رتبة منها لمناسبة دورها الزمانى ما نشاهده كل عام فى تولد كثير من النباتات والحيوانات عند انقضاء فصل الشتاء وقدوم الربيع والصيف فان اول ما ينبت عند ذلك النبات الدنى مثل الطحالب والاعشاب ثم يتدرج الامر الى الارقى فالارقى من النبات كلما تزايد الحر وهلم جرا ، واول ما يتولد او تنفرج عنه بيوضه الحيوان الدنى مثل البكتوريا . والحيوانات المتولدة فى العفونة والبراغيث . والذباب ، ثم يتدرج الامر كذلك الى الارقى فالارقى حتى يصل الدور الى بروز النباتات والحيوانات العلياء ، وليس

شيء من تلك الأنواع ناشئا عن نوع آخر ومتحولا عنه ونرى الأنواع
التى تنشأ أولا فى أول تلك المدة كلما تقدم زمن الحر يهلك كثير منها الأسباب
كونية من نحو تأثير الحر بها أو سطوة الأنواع التى توجد بعدها أرقى منها
ونحو ذلك وعند انتهاء مدة الصيف لا يبقى غالبا إلا الأنواع العليا التى هى
منتخبات جميع ما تولد فى تلك المدة والتى هلكت تبقى لها بقايا فى الأرض
كبقايا الأحافير فهذا الحال السنوى يكون حاكيا وممثلا للحالة الجيلوجية
التى اطلعتكم عليها اكتشافاتكم من أن أول ما وجد الأدنى ثم الأرقى
فالأرقى حتى وصل الحال الى الأنواع الحاضرة وهلك ما قبلها فقد سقط
استدلالكم باكتشافاتكم على النشوء كما هو ظاهر للمنصف ، ثم النواميس
الأربعة التى احلتم الارتقاء والنشوء عليها ليست هى أدلة تقوم عليهما بل هى
لكم بمنزلة واسطة توجيه كيفية جريان الترقى والنشوء فى عالم النبات
والحيوان فأنا لا أسلك معكم مسلك أخصامكم الذين أخذوا فى محاولة
ابطال تلك النواميس وأخذتم فى محاولة اثباتها ولكنى أبين لكم منزلتها
من الثبوت ومقدار ما ينتج عنها متى ثبتت فاقول : اما أرث الفروع صفات
الأصول فهذا أمر مشاهد لا ينكره أتباع محمد عليه السلام ويقولون : انه
جائز الحصول بخلق الله تعالى سواء كان لأسباب عادية أم لا ، وكذلك
تنازع البقاء لا مانع من حصوله وانه ينتج عنه ان بعض الأنواع تبقى
وبعضها تهلك والمرجع فى ذلك الى الله تعالى ونحن الى الآن لم نزل نشاهد هذا الناموس
بين الخلق حتى فى أصناف البشر ولكن هذان الناموسان يصح أن يحصلا مع النشوء
أو مع الخلق فاى مانع من كون الأنواع وجدت مستقلة ومع ذلك ترث الفروع صفات
الاصول وتتنازع الانواع البقاء فيبقى القوى ويهلك الضعيف مع أن كل
نوع منها مستقل ليس ناشئا عن سواه من الانواع ، وأما ناموس التباينات

وهو ان كل فرع مع ارثه صفات أصله لابدأن يباينه في صفات أخرى فهذا الناموس قد نازعكم فيه أخصامكم بان التباينات التي تحدث في الفروع هي عرضية ليست جوهرية حتى توجب تغير النوع وانتقاله الى نوع آخر ، وأنتم قلتم: انها على مرور الملايين من الزمان وتكرر تلك التباينات وتتابعها تصير جوهرية وتوجب تغير النوع وتحوله إلى نوع آخر وخضتم معهم بهذا المبحث وبنيتم المباني الشاهقة تطويل بدون طائل ، واقول :ان ناموس التباينات أى ان الفرع يباين أصله في صفات ليست فيه هو مشاهد في النبات والحيوان ٭

واقول . ان الله تعالى قد جعله في المخلوقات لاجل التمايز إذ لو كانت أفراد الانواع على صورة واحدة في كل نوع لحصل من ذلك اشتباه بينها ونشأ عنه اختلال في نظام العالم لاتدرى نهايته فكان الرجل لايعلم ابنه ولا زوجته ولا هما يعلمانه ولا يعلم فرسه، وفي ذلك من فساد المعاملات وضياع الحقوق مالا يخفى، وليس هذا الناموس خاصا في النبات والحيوان ولا في الفروع مع الاصول ، بل هو عام في كل الموجودات فلا ترى شيئا يشابه شيئا آخر تمام المشابهة سواء كان فرعه أم لا حتى في صنائع البشر ، فلا ترى كتابا يشابه كتابا آخر تمام المشابهة ولو حصل كامل التحرى من صانعها في اكمال المشابهة باختيار أوراقها وطبعها بمطبعة واحدة ، ولا ترى قدحا يشبه قدحا ولا حبة خردق تشابه حبة أخرى تمام المشابهة ، ولو تحرى الصانع كامل الاسباب المفضية الى تمام المشابهة ، بل لابد من تباين هناك ولو كان خفيا جدا يظهر عند تدقيق النظر، وما ذلك الا لطف من الله تعالى لاجل التمايز كما قلنا ، فالتباين في الموجودات هو ناموس وهي من الخالق سبحانه وليس بطبيعى كما تقولون ، والا فان نظر فيه طبيعيا بين الفروع والاصول فقد كان من حق الفرع أن يأتي طبق أصله ويرث جميع صفاته ولا يباينه في شيء إلا

عند عروض سبب موجب ولكن مهما اتفق من توحد الاسباب المشابهة لاتتم بين شيئين أصلا لابين الفرع وأصله ولابين الفرعين المتحدين في جميع أسباب التكون كمثل التوأمين اللذين يولدان في كيس واحد ومشيمة واحدة ثم يتحرى في تربيتهما توحيد الاسباب التكوينية على غاية الدقة فلا بد من التباين بينهما والتماس أسباب وهمية للتباين حينئذ كما نسمعه عن بعضكم ماهو إلا تعسف بارد وخارج عن دائرة الانصاف اذا علمتم ذلك فنقول : ما المانع من أن تباين الفروع للاصول الذى اعتمدتم عليه في تغير النوع وتحوله الى غيره على طول الزمان يكون محدودا بمقدار لايخرج النوع الى نوع آخر ، وبذلك المقدار تتم فائدة التمايز بين الافراد فيمكن أن الله تعالى قد جعل فروع الفرد الاول من النوع تباينه في صفات وفروع الفروع تباين اصولها أيضا ، وهكذا الى حد محدود من سلسلة النسب يجرى في ملايين من الافراد والصور الى درجة لايخرج بها النوع الى نوع آخر ، ثم يكر سبحانه على الفروع فيعطيها صور أجدادها السابقة ، وهكذا حتى يتم الدور الثاني لاستيفاء الفروع صور الجدود ثم يعيد ذلك العمل في الفروع التي تجيء بعد ذلك ، وهكذا حتى ينقضي هذا النوع أو ينقضي هذا العالم وربما يتبرهن هذا الحال للاجيال الآتية بعدنا إذ وصلت لأيديهم صور من الصور الشمسية لاهل هذا الزمان ، ثم قابلوا بينها وبين فروعها التي تكون في أيامهم فيظهر لهم تكرار صور الاجداد الظاهرة للنظر في فروعهم ، ثم نقول اذا تصورنا ما يحدث من تكاثر الصور والاشكال بسبب أدنى تغير بين الفروع وأصولها نجد أن الصور تتكاثر كثيرا في تلك الكيفية التي قررناها ولا تخرج النوع ولاتحيله الى نوع آخر لأنها محدودة كما فرضنا ، انظر والنوع الانساني وما يوجد منه على وجه الارض من الملايين ، وما بين أفراده من التباين الواسع كما بين الزنجي

والرومى هل اخرج ذلك التباين صنفا منه عن النوع وأدخله فى نوع آخر كلا ؟ ولا تستغربوا رجعة الفروع الى صور الاجداد القديمة فانكم قد قلتم بمثل هـذا الناموس وهو ناموس (الاتافيسم) أى الرجوع الى الجد ويسميه بعضكم بالدور الوراثى أو الرجعة : فقلتم ، أن الصفات قد تكمن فى أجيال ثم تظهر فى الاولاد بعد ذلك كمثل ما اذا تزوج زنجى برومية فقد تأتى أولادها بيضا مثلها ثم بعد اجيال ربما يظهر فى بعض نسلها بعض أولادهم ما كان فى جدهم الزنجى من الصفات والتكوين، وكذلك يجرى هذا الناموس فى العوائد والاخلاق. والامراض ﴿والملخص﴾ أن ما فرضناه من تجدد التباينات بين الفروع والاصول وتكرارها هو أمر جائز الوقوع لا ترفضه العقول، وقد ورد فى الشريعة المحمدية ما يشير الى رجوع صور الاجداد فى الفروع، اذ قد نقل عن صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام فى تفسير قوله تعالى فى القرآن فى خطاب الانسان (فى أى صورة ماشاء ركبك) ان النطفة اذا استقرت فى الرحم احضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم وصورها فى أى شبيه شاء، (كذا فى تفسير روح البيان) فما دام الاحتمال قائما فى ناموس التباينات فى أن يكون محدودا فى كل نوع الى درجة لا تخرج النوع الى نوع آخر وتعـاد تباينات الاصول فى الفروع وهلم جرا فبلوغه الى درجة يصير بها التغير جوهريا حتى يحيل النوع الى نوع آخر هو أمر مظنون فلا يعتمـد عليه فقد سقطت أهمتـكم فى تقرير هذا الناموس وإحالة تغير الانواع به على الملايين من السنين، والملخص ان هذا الناموس وهو التباين غير المحدود على زعمكم وان كان جائزا عقلا والتغير به جائز أيضا وكل داخل تحت تصرف القدرة الالهية ، ولـكن وقوع ذلك الناموس مظنون غير يقينى لحصول نتيجته وهو تغير الانواع الى بعضها يكون مظنونا فاتباع محمد ﷺ لا يعبئون بهذا الناموس

ولا يعتبرونه منتجا للنشوء فلا يضطرون الى تاويل ظواهر نصوص شريعتهم الدالة على الخلق ووجود الانواع مستقلة بل يدومون على اعتقادهم بانها وجدت بالخلق إلا اذا فرض قيام دليل يقيني قاطع يدل على خلافه - وهيهات هيهات - فحينئذ يجرون على القاعدة المتقدمة فى التأويل للتوفيق بين الدليل العقلى والنقلى ((وأما ناموس الانتخاب الطبيعى)) فهو عندكم بمنزلة نتيجة للنواميس الثلاثة المتقدمة فنتاجه عنها يكون مظنونا وبعد تسليم حصوله يقال : يمكن أن يكون هذا مع وجود الانواع بطريق الخلق بان يكون قد وجد أولا الادنى منها ثم وجد الارقى مستقلا غير ناشىء عن الادنى فنازع البقاء مع الادنى واباده ثم وجد أرقى من الثانى مستقلا ونازعه واباده وهلم جرا الى ان وصل الحال الى الانواع الموجودة الآن بدون أن يكون نوع ناشئا عن نوع ، فقد ظهر أن وجود الاحسن والانسب الآن ليس لازما خاصا للنشوء بل يمكن أن يكون مع الخلق واستقلال الانواع فحصوله لا يدل على النشوء ((والملخص)) انه يمكن تقرير هذه النواميس الاربعة مع القول بالخلق واستقلال الانواع بان يقال يمكن ان الله تعالى خلق أولا الانواع الدنيا ثم خلق أنواعا أرقى منها مستقلة ليست ناشئة عنها ثم أباد الاولى باسباب كونية وتنازع البقاء مع الثانية ثم وثم حتى بلغ الحال الى هذه الانواع الموجودة الآن وهى أحسن وأنسب من جميع ما مر من الانواع ، فهذه الحال تضمنت ناموس التنازع وبقاء الاحسن والانسب ومع ذلك أيضا قد أجرى سبحانه ارث الفروع لصفات الاصول ومباينة الفروع للاصول فى صفات أخرى ولكن ذلك التباين الى حد محدود بحيث لا يحول النوع الى نوع آخر وحكمته التمايز كما قلنا ، وهذه الحال قد تضمنت الناموسين الباقيين وهما الارث والتباين المشاهدان مع ان الأنواع قد وجدت بالخلق والاستقلال عن بعضها ، وا كتشافاتكم

الجيلوجية لاتنافى شيئاً من هذا التوجيه فهل عندكم دليل على امتناعه؟ كلا ثم كلا
وبعد جميع ما تقدم لا يكون النشوء راجحاً على الخلق فى نظر العقل بل هما على حد
سواء فكل منهما محتمل جائز داخل تحت تصرف القدرة الالهية، وبهذا تبين
ان النشوء ليس مظنوناً أيضاً فى نظر العقل بل هو مشكوك، ولكن
أتباع محمد عليه السلام يرجحون عليه القول بالخلق واستقلال الأنواع
ويجزمون به لظواهر نصوص شريعتهم وأنتم لاداعى لكم الى ترجيح
النشوء والجزم به بعدما أظهرت لكم منزلته من الثبوت، هذا وبعد ما تقدم
اذا لم يثبت النشوء فلا يبنى عليه اشتقاق الانسان . والقرد من أصل واحد
كما تزعمون ، وقولكم : أنه يقتضى مشابهته للقرد لا يمتنع أن يكون قد اشتق
هو وإياه من أصل واحد شبهة فى غاية السقوط لأن المشابهة الصورية
لا توجب هذا الأمر ولا تقتضيه كما هو ظاهر ، وان قلتم : نعم هى لا توجبه
ولكن لا أقل من أنها تحدث الظن به قلت : ان أتباع محمد عليه السلام لا يعتمدون
الظن فى باب الاعتقاد ولا يعتبرونه معارضاً لظواهر نصوص شريعتهم
على أن تلك المشابهة يعارضها أمر يدفع ما احدثته من الظن وهو اننا نرى
الانسان فى أول ولادته فى غاية من الضعف عقلا وجسداً لا يقدر على
مشى ولا جلوس بنفسه ولا ادنى حركة جسدية تكون منتظمة وهو فى غاية
البلادة والبله لا يدرى ماهو محيط به ولا يعرف الأرض من السماء ولا النار
من الماء فلا يتجنب مؤذياً ولا يختار نافعاً حتى لا يدرى كيف يأخذ ثدى
امه فتعالجه الأيام حتى يهتدى اليه ، ثم بعد كل ذلك الضعف وجميع تلك
البلادة نراه قد اخذ يترقى فى القوة والادراك حتى يبلغ درجة فيهما لم تكن
منتظرة منه فيما لو قيس على بقية الحيوانات التى تكون عند ولادتها اقوى
منه حالا جسداً وادراكاً ، وهذه الحالة فيه من اعجب اعمال الخالق سبحانه

وتعالى ودليل ساطع على عظمة قدرته فى ترقية اضعف حيوان وابلده الى
درجة لم يلحقه فيها لاحق فيغدو قويا جبارا يقتلع الصخور ويشيد المبانى
الهائلة بعد ان كان فى غاية الضعف والعجز ويصبح عالما مدققا وفيلسوفا
محققا بعد ماكان مغموسا فى تلك البلادة الصماء ويتسلط بقوته وادراكه
ويقهر حيوانات البحار . ووحوش القفار . ومحلقات الأطيار . ويضبط نظامات
الشموس والأقمار وهو اما مقر بخالقه الواحد القهار واما منكر له اشد
الانكار ، واما القرد فهو مثل غالب الحيوانات يولد على نوع من القوة
تؤهله للحركة الكافية حينئذ فى مساعدة امه البهيمة على تربيته وعنده من
الادراك مقدار ليس عند طفل الانسان منه اثر فيهتدى الى غذائه المعدله
فيلتقم ثدى امه بدون تلك المعالجة التى تعالجها ام الانسان ويجتنب المؤذى
ويختار النافع وفى اقرب مدة لا يتأهل فيهما طفل الانسان للجلوس على
اليتيه يقوى هو على السعى فى جلب رزقه ويتم ادراكه لأعمال حياته بمقدار
يجعله بمنزلة الكبير من بنى نوعه وهو لم يزل (قشة) اى جروا صغيرا
فشتان ما بينه وبين الانسان فلو كان الانسان مشتقا هو والقرد من اصل
واحد ومترقيا عنه لكان من حقه ان لا يكون فى تلك الحالة التى ذكرناها
فيه فلا يكون عند ولادته دون القرد الذى ترقى هو عنه ، اذ يقال ما السبب
فى ذلك الانحطاط فى القوة والادراك فى طفل الانسان مع أن شريكه
فى الاشتقاق من أصل واحد الذى ترقى هو عنه نراه أكمل منه فيهما ؟ ولو قيل : أنه
ترقى عن شريكه فى حسن الصورة وانحط عنه فى القوة والادراك لأسباب أوجبت
ذلك قلنا فما الذى أكملهما له عند الكبر ورقاه فيهما على القرد بكثير فالحق
ان هذا مما يوهن كل الوهن قولكم باشتقاق الانسان والقرد من أصل
واحد اذا لم نقل أنه يبطله ، فاذا تأملتم أيها الماديون بعين الانصاف ظهر

لكم أن المشابهة الصورية بين الانسان والقرد لاتقاوم هذا الفرق العظيم الذى شرحناه لكم بينهما هدانا الله تعالى وإياكم لما فيه الصواب ، فهذا ما أردت الآن إيراده عليكم وهو كاف فى بيان أن دلائلكم ومعتمداتكم فى النشوظنية لاتعارض نصوص الشريعة المحمدية وقد رأيت أخصامكم قد خاضوا معكم فى ابحاث لاحاجة لنا فيها فانكروا عليكم تغير الأنواع وقمتم تبرهنونه حتى بتغيرها الصناعى وانكروا وجود الحلقات بين نوع ونوع آخر تزعمون أنه نشأ عنه فقلتم : أن الحلقات قد وجدت فى البعض ومنيتم أنفسكم بأنها سوف توجد بالاكتشافات الجيلوجية فى الباقى وكل ذلك خبر يحتمل الصدق والكذب ، فمن منا رافق الجيلوجيين فى اكتشافاتهم وشاهد تلك الحلقات فسبحان العليم بحقيقة الأمر على أنه لو ثبت فلا يزال الاحتمال حاصلا فى أنها انواع مستقلة كما قدمنا فبقيت ادلتكم مظنونة فبالاختصار لاداعى لنا الى الخوض معكم فيما خاضت فيه اخصامكم ويكفينا ما قررناه لاعتماد ظواهر النصوص الشرعية ، ولو اردنا الخوض معكم فى ذلك لارينا كم قيمة تلك الأدلة التى اعتمدتموها واظهرنا لكم ان اساسها الوهم واركانها الفروض وان وفق الله تعالى كتبت فى ذلك الموضوع مايشفى الغليل *

(هذا) ثم قولكم: ان الحياة وعقل الانسان ماهما الا ظاهر من ظواهر تفاعل اجزاء المادة المتحركة وعناصرها الممتزجة وان يكن اصل المادة خاليا عن الحياة والادراك، وان عقل الانسان لايخالف عقول بقية الحيوانات الا بالكم ولا يخالفها فى الذات والحقيقة فجميع ذلك يمكن انطباقه على مافى الشريعة الاسلامية اما الحياة فقد عرفها اتباع محمد عليه السلام بانها صفة وجودية زائدة على نفس الذات مغايرة للعلم والقدرة مصححة لاتصاف الذات بهما كذا فى روح البيان ومثله فى الرازى فهم اذا عرض عليهم كلامكم هذا فى الحياة من انها ظاهر

من ظواهر تفاعل اجزاء المادة الى آخره يقولون : ان الحياة عندنا صفة عرضية لامادة ، فهذا الظاهر الذى تقولون : بانه الحياة صفة عرضية فلا مانع من أن تكون الحياة هى هذا الظاهر ، ولكن أتباع محمد ﷺ يقولون : حدوثها فى الحيوان بخلق الله تعالى لا كما تقولون بانها حدثت بحركة أجزاء المادة التى تزعمونها بلا دليل كما تقدم وان كان من الجائز ان تكون تلك الحركة موجودة ايضا بمحض خلق الله تعالى وتسبب عنها ذلك الظاهر الذى هو الحياة كعادته تعالى فى انتاج المسببات عن الاسباب .

﴿ وأما العقل ﴾ فقد اختلف فيه أتباع محمد ﷺ فبعضهم اختار الوقف عن شرح حقيقته لأنه قال: هو من المغيبات التى لم يشرحها لنا الشرع فالاولى والادب الكف عن الخوض فيه وعلى هذا فهما قلتم فى تفسيره مما لا ينافى شيئا من نصوص الشريعة المحمدية فاتباع محمد ﷺ يقولون لكم : ان تفسيركم محتمل الصحة لا مانع ان يكون هو الصواب فقولكم : انه ظاهر من ظواهر تفاعل اجزاء المادة يمكن ان يكون صوابا ، ولكن ذلك الظاهر حدث بخلق الله تعالى لا كما تقولون من انه حدث بمحض تلك الحركة وبعضهم خاض فى تفسير العقل واقوال جلهم متطابقة على كونه عرضا وجلها انه من قبيل العلوم اى ملكة تدرك بها العلوم النظرية وقول بعضهم انه نور ، وكذا ورد فى بعض الآثار الآحادية ـ كما فى ادب الدنيا والدين للماوردى ـ يريد انه نور معنوى فلا يخالف انه من جنس العلوم ، ومنهم من قال : انه جوهر وقد رد هذا القول ـ كذا يؤخذ من عبد السلام وحاشية الامير عليه ـ هذا كله فى العقل الغريزى، اما العقل المكتسب الذى هو نتيجة العقل الغريزى فهو نهاية المعرفة وصحة السياسة واصابة الفكرة ـ كذا فى ادب الدنيا والدين للماوردى ـ فعلى هذا فمن الواضح انه لا منافاة بين قول جل من خاضوا فى تفسير العقل

الغريزى وبين قولكم إذ ان القولين متفقان على انه عرض فاذا قيل لاتباع محمد ﷺ عند جريهم على هذا القول ان ذلك العرض هو ظاهر من ظواهر تفاعل اجزاء المادة فلامانع يمنعهم ان يقولوا : يمكن ان يكون هو هو وذلك الظاهر هو الذى يحصل به الادراك للعلوم ، لكن وجوده ووجود الادراك به بمحض خلق الله تعالى فلا ينافى ذلك عقائدنا وانتم حينئذ ما بينكم وبينهم إلا ان تقولوا ان ذلك الظاهر حدث بخلق الله تعالى ، واما قولكم : ان عقل الانسان لا يخالف عقول الحيوانات الا بالكم ولا يخالفها فى الذات والحقيقة فهو ايضا لا يصادم شيئا من نصوص الشريعة المحمدية المعتمدة فى الاعتقاد اذ غاية ماتفيده تلك النصوص ان الانسان قد خص بالعقل عن سائر الحيوانات وبه كلف بالشرائع دونها ، واما كونه مغايرا لادراكها فى الذات والحقيقة ام لا فلم يرد فى تلك النصوص ماهو تصريح بشىء منهما فاتباع محمد ﷺ اذا سئلوا عن هذا يقولون : لامانع ان يكون ادراك الحيوانات الذى أعطيته لتدبير معيشتها وعقل الانسان هما من مقولة واحدة هى عرض من الاعراض يحصل بخلق الله تعالى ولكنه قد زاد حتى بلغ فى الانسان درجة تؤهله لاستنباط العلوم والتمييز بين الأخلاق الحميدة وغيرها والاستحصال على بقية مايتميز به الانسان عن الحيوان ، وهذه الدرجة هى التى تجعله أهلا للتكليف الشرعى وسميت عقلا لأنها تعقله عن ارتكاب خلاف الصواب ، فالقول بأن العقل الانسانى لا يخالف ادراك الحيوانات الا بالكم لا ينافى الدين الاسلامى وهو قابل للانطباق عليه ، وعلى هذا فجميع مايرد فى الشريعة من تعظيمات عقل الانسان من نحو انه نور ومدار التكليف وغير ذلك فانما هى تعظيمات لتلك الدرجة السامية من الادراك لا لشىء مغاير لادراك الحيوانات فى أصل الحقيقة والله أعلم *

((وأما انكاركم)) لبقية المسائل التي وجدتموها في الشريعة المحمدية لادليل عليها في علومكم او انها مرفوضة فيها فقد ورد لنا معكم من المباحث ماقد انجز الكلام في بعضها وانا انبه على ذلك فيما سيأتي والباقي منها سأبين لكم تحقيق الكلام فيه بعون الله تعالى وأريكم أنه لا يوجد منه ماترفضه العقول بل كل منطبق على قواعد العقل السليم فاستمعوا ما أقول ه اما أن مادة العالم حدثت بعد أن كانت معدومة وان الذي أوجدها بعد العدم وكون منها أنواع الكائنات على هذا النظام هو الآله وانه قادر على ملاشاتها واعدامها من الوجود كما أوجدها بعد العدم وإن الله تعالى خلق الانسان نوعا مستقلا عن بقية الحيوانات وخلق انثاه واسكنهما في دار تسمى الجنة ثم اهبطهما الى الأرض لمخالفتهما مانهاهما عنه وان جميع مايحدث في هذا العالم فهو بقضاء الله تعالى وتقديره أى أنه يعلمه ويريده ويبرزه إلى الوجود بقدرته وان جميع مايقضيه فهو بخلقه يوجد ويكون لا خالق سواه ، وانه وان يكن قد ربط المسببات بالأسباب وجعل الأولى تنشأ عن الثانية فهو الخالق للثنتين يخلق السبب ويعقبه بخلق المسبب وجميع الأشياء إنما يوجد تأثيرها المشاهد لنا بخلقه وايجاده ولا شيء يؤثر بطبعه أو بقوة أودعت فيه وانه سبحانه موجود قديم دائم يستحيل عليه العدم . واحد أحد في ذاته وصفاته . غني عن كل ماسواه ، مفتقر اليه جميع ماعداه . لا يشبه شيئا من جميع الموجودات ولا يشبهه شيء منها . مريد أتم الارادة . عالم أكمل العلم . يعلم ما كان وما يكون وما هو كائن . لا يعزب عن علمه شيء ، قادر على كل شيء من الجائز العقلي مهما كان عظيما جسيما حي متصف بصفات الكمال التي تليق به منزه عن صفات النقصان ((فهذه المسائل)) قد تقدم في المباحث التي بسطتها لكم مافيه الكفاية في الكلام عليها لأن منها ما أقمت

لكم برهانا على تحققه وثبوته وذلك كحدوث المادة ووجود الاله سبحانه واتصافه بصفاته ، ومنها ما وفقت بينه وبين ما يعارضه من علومكم وذكرت لذلك توجيها موافقا أو هديتكم الى الطريق الذى بسلوكه لا تصادمون الدين الاسلامى مصادمة توجب رفض اعتقاده ، والذى لم أصرح به من ذلك فقد يؤخذ من المباحث المتقدمة بادنى تأمل ، ويوجد بسط الكلام عليه فى كثير من الكتب الاسلامية فليرجع اليه من يريد ه

وأما ان الله تعالى خلق سبع سموات فوقنا وخلق جسما كبيرا يسمى كرسيا فوق تلك السموات وجسما أكبر منه فوقه يسمى عرشا وان بيننا وبين تلك الأجسام مسافات عظيمة وانه خلق جسما كبيرا يسمى لوحا وجسما آخر يسمى قلما لاثبات ما يكون وتسطيره لا عن حاجة الى ذلك ، وانه يجرى نعيم الانسان فى دار خلقها تسمى الجنة وعذابه فى دار تسمى جهنم يدخلهما البشر بعد خراب عالم الأرض والسموات وبعثهم بعد الموت فأقول : أنتم وأتباع محمد عليه السلام تقولون بالخلاء الممتد وهو البعد الشاسع الذى تتيه الأفكار فى سعته ثم أنتم تقولون : ان الشمس والكواكب قائمة فى الفراغ الشاسع بناموس الجاذبية وفى أقوال بعض أتباع محمد عليه السلام ما يوافق قولكم هذا فى أن الشمس والكواكب ليست مركوزة فى السماء بل هى قائمة فى الفراغ وفلكها هو مدارها فيه كما تقدم فما المانع من أن يكون وراء تلك الكواكب فى ذلك البعد الشاسع قد خلق الله تعالى تلك الأجسام المذكورة وهى السموات السبع - وكونها غير مرئية يجرى على قول بعض أتباع محمد كما تقدم وهو أبو بكر ابن العربى - والعرش والكرسى واللوح والقلم والجنة وجهنم وأقامها هنالك بقدرته سبحانه سواء أقامها بناموس من النواميس التى يضعها فى نظام مخلوقاته أم بغير ناموس

اذ هو قادر على ذلك حسب اعتقاد اتباع محمد عليه السلام من أن النواميس أسباب عادية كما أقام الشمس والكواكب فى الفراغ التى هى فيه ثم الجميع بعيد عنا بمسافات شاسعة كما بينها مسافات كذلك وما أدركناه من عظمة ذلك الاله وعظمة قدرته فى مصنوعاته التى نشاهدها لا يبعد عنده شيء من ذلك عليه فكل ذلك جائز ممكن لا يحيله العقل وقدرة الاله صالحة لتعلقها بايجاده وعدم وصولكم الى ادراكه بحواسكم أو بوسائط أخرى لا يقتضى عدمه، ومن تقرير هذا المقام يظهر أنه لا مانع أيضا من وجود سبع ارضين كما ورد فى بعض نصوص الشريعة المحمدية وتكون الأرضون الستة قائمة فى الفراغ الذى فيه أرضنا وسائر الكواكب ولا مانع من اشتمالها على عوالم كما تظنون أنتم فى اشتمال الكواكب على ذلك، وان قلتم انا لم نرها بالنظارات المكبرة قلت يحتمل أنها ليست منيرة تصلح للرؤية بها، ويحتمل أنكم رأيتموها وحسبتموها فى عدد الكواكب القائمة فى الفراغ وان قلتم سلمنا ان جميع ذلك جائز الحصول، ولكن ما الدليل على أن ذلك حاصل بالفعل؟ وما الذى حمل أتباع محمد ﷺ على القول به قلت : الذى حملهم على ذلك وهو دليلهم عليه نصوص شريعتهم الصريحة فى وجود تلك الاجسام وهى نصوص واردة ورودا قطعيا عن رسولهم عليه السلام وهو الصادق فى جميع ما يخبر به لانه معصوم عن الكذب لثبوت رسالته من عند الله تعالى بالبراهين القاطعة التى قامت عند اتباعه ، وان قلتم : ولم خلق الله تعالى هذه الاجسام ؟ قلت كما خلق الكواكب والارض وبقية العوالم التى تشاهدونها فهو اعلم بحكمة خلق الجميع وهو فاعل مختار لا يسئل عما يفعل ، وقد قدمت لكم فيما سبق البرهان على قصور العقول عن الاحاطة بادراك جميع أسرار أعماله سبحانه فارجعوا اليه ، وقد ذكر أتباع محمد ﷺ حكما واسرارا لخلق تلك الاجسام يطول بنا الشرح اذا بسطناها فارجعوا الى كتبهم اذا شئتم ٭

﴿ وأما ﴾ ان ذلك الاله خلق أجساما نورانية تسمى الملائكة قادرة على التشكل وانها تقطع المسافات التى بين السموات والارض فى مدة قصيرة جدا وانها تمر أمامنا ولا نراها وانها تفعل افعالا تعجز عنها القوى البشرية وان السموات مملوءة بها كما انه اوجد اجساما اخرى تشابه الملائكة المذكورين فى بعض خواصهم من نحو الاقتدار على التشكل والاحتجاب عن الابصار وقدرتها على أفعال عظيمة ، ولكنها تخالفهم فى انها ليست نورانية مثلهم الى آخر مامر ، وتسمى هذه الاجسام جنا فأقول ما المانع ان الله تعالى خلق اجساما بتلك الخواص تسمى ملائكة واجساما أخرى نظيرها فيما تقدم تسمى جنا ويمكن أن تكون مادتها كمادة الاثير الذى تقولون بانه مالىء الكون ولم تروه أو كمادة الهواء كونها الله تعالى وجمع أجزاءها بكيفية تجعلها صالحة لتلك الخواص التى ذكرت لها كما كون الحيوان من العناصر الجمادية بكيفية أكسبته الحياة وجميع قواها من الادراك والحركة وغير ذلك بعد ان لم يكن للعناصر شىء مما ذكر فيحتمل أن عدم رؤيتنا اياها لشفافتها ولطافتها كالهواء والاثير على ان الأمر ظاهر جدا على اعتقاد أتباع محمد ﷺ بان الرؤية بمحض خلق الله تعالى كما مر تقريره لكم واقتدارها على التشكل مع انه جائز عقلا داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى يمكن توجيهه بان الله تعالى كون تلك الاجسام على كيفية يقتدرون بها على تناول كمية من الهواء أو الاثير أو نظير ذلك وتكثيفها وتكوينها على الصورة التى يريدونها ثم يلبسونها كما يلبس احدنا ثوبه فيظهرون للابصار بتلك الصورة وفى الاعمال الكيماوية التى أقدر الله البشر عليها من تحويلات الاجسام الى بعضها كتحويل الكثيف لطيفا وبالعكس مايقرب فهم ماقررناه الى العقول ، وحيث ان تشكل تلك الاجسام كيفما كان مسند الى عظمة قدرة الله تعالى الذى تدهش أعمالة الافكار فيما أعطاه للحيوان والنبات من

الخواص فلا غرابة فيه اصلا *

(واما) انها تعمل اعمالا تعجز عنها القوى البشرية مع انها اجسام لطيفة فبعد النظر الى اعمال الرياح التى تقلع الاشجار العظيمة واعمال قوة الكهربائية التى تجر الاثقال التى تعجز عنها الوف الرجال ، فلا غرابة فى اعمال الملائكة والجن لا سيما ان الذى يقدرهم على ذلك هو الله تعالى الذى لا يعد ذلك بالنسبة الى عظمة قدرته شيئا صعبا ، واذا نظرنا الى ان بعض الناس يكسر بقوة ذراعه الحديد وما هى قوة ذراعه الا عمل أعصابه التى تنتهى اخيرا الى مخه اللطيف النحيف الذى هو مبدأ الحركة كما تقولون وهو لا يحتمل ادنى مصادمة من جسم غريب بل صعود نقطة دم زائدة على القدر اللازم اليه قد تعدمه وتعدم صاحبه الحياة ظهر لنا ان الله تعالى قادر على اعطاء اللطيف قوة لا توجد فى الصلب الكثيف سبحانه من قادر قاهر *

(واما كون الملائكة) يقطعون المسافات الشاسعة بين تلك الاجسام السماوية بمدة قصيرة جدا فاقول: لا مانع منه عقلا لان سرعة الحركة ليست محصورة بحد محدود ، وهذا النور تزعمون انه يصل الينا من الشمس التى بيننا وبينها ما ينوف عن تسعين مليون ميل فى مقدار ثمان دقائق وكسور وان قلتم: ان النور عندنا حركة وعرض قلت فى علومكم الطبيعية ان الجسم الساقط الى الارض فى اول ثانية من سقوطه تكون سرعته ستة عشر قدما وكسورا ، واذا كان سقوطه الى الشمس تكون سرعته فى تلك الثانية اربعمائة وخمسين قدما وكسورا ، ثم ان الجسم يسقط فى أى عدد كان من الثوانى ما يساوى مقدار ما يسقط فى اول ثانية مضروبا فى مربع ذلك العدد من الثوانى فبالتأمل فى هذا الناموس يعلم ما تبلغه سرعة حركة الاجسام من العظامة التى يحتار فيها الفكر ، وهذا نجم المشترى على ما فى علوم الهيئة عندكم يجرى ثلاثين الف ميل فى الساعة

أى أسرع من كلة مدفع ثمانين مرة فيجرى تسعة أميال كلما تنفس الانسان وسرعة أجزائه الاستوائية فى دورانه على محوره أربعمائة وسبعة وستون ميلا كل دقيقة، وهو اكبر من أرضنا بالف واربعمائة مرة على مايقول الفلكيون منكم ومن غيركم فالاله الذى جعل هذا الجسم الكثيف العظيم يقطع تلك المسافة الشاسعة فى تلك المدة الجزئية لايبعد على قدرته أن يجعل الملك يقطع تلك المسافات فى مدة قليلة جدا وان كانت هذه المسافات أكثر بكثير من المسافة التى يقطعها المشترى، ولكن النظر الصحيح فى سير ذلك الكوكب يقنع العقل بأن قدرة ذلك الاله الذى سيره ذلك السير صالحة لاعظم مايكون من جنس هذا العمل لاسيما وناموس الاجسام الساقطة قد بين عظمة سرعة حركة الاجسام، وان قلتم أن سير المشترى بواسطة الجاذبية على ماهو مفصل فى علومنا وكذلك سرعة الاجسام الساقطة قلت: وماهى تلك الجاذبية التى تطنطنون بها وتنسبون اليها اعمالا عظيمة فى الكائنات وأنتم لاتعلمون حقيقتها ؟ وما الموجب لقيامها فى الاجسام . ولا تقدرون على الافصاح عن ذلك ؟ غاية مايكون انكم قلتم بها لتعليل الحوادث التى حيرت عقولكم من نحو النظام الشمسى وغيره وعلى تسليم ثبوتها فمن الذى اوجدها وجعلها خاصة الاجسام وأنشأ عنها تلك الأعمال العظيمة فى الكائنات أغير الاله الذى ابدع الخلق من العدم ووضعه على أتم نظام واسمى حكم ؟ فاذا كان ذلك الاله قادرا على إيجاد مثل هذه الجاذبية وأحداث تلك الاعمال عنها فلا يعجز أن يجعل الملك يقطع تلك المسافات فى مدة وجيزة اما بناموس وضعه فيه ، واما بغير ناموس فالكل جائز عقلا وقدرته العظيمة صالحة لأى كان .

﴿ وأما كون ﴾ السماء مملوءة بالملائكة فلا استغراب فى ذلك فهم خلق

من جملة مخلوقات الله تعالى أسكنهم تلك السموات كما اسكن عوالم الارض في الارض وكما اسكن الملايين من الحيوانات المكرسكوبية في نقطة من الماء لاحرج على قدرته في أعظم عظيم وأدق دقيق وعلى زعمكم كثير من الفلكيين منكم ومن غيركم انه يوجد في الكواكب عوالم ذات أعمال كالانسان يستدلون عليها بما يتخيلونه بنظاراتهم المكبرة من آثار أعمالها في تلك الكواكب كفتح الطرق وحفر الترع وأمثال ذلك أمور تشخص لنا المثل الجارى ان رجلا وقف على المقابر وقال :- كل هؤلاء الاموات كانوا عبيد ابي فقال له آخر : مافيهم من يكذبك - فما استغرابكم من وجود الملائكة في السموات وملئهم لها بعد هذا البيان ، وان قلتم أيضا : مادليل اتباع محمد ﷺ على جميع ماتقدم من ثبوت الملائكة والجن وثبوت تلك الخواص فيهم وملء الملائكة للسماوات ؟ قلت أيضا : دليلهم على جميع ذلك النصوص التي نطق بها الرسول عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدق لثبوت رسالته بالبراهين القاطعة القائمة لديهم وهو الذى حملهم على الاعتقاد بذلك وهو جائز عقلا لايستلزم محالا فآمنوا به من دون تأويل *

﴿ واما ﴾ ان للانسان نفسا تسمى روحا وهي غير جسده وان لها تعلقا بجسده ينشأ عنه حياته وعندما تنفصل عنه يحله الموت وان تلك الروح باقية بعد انفكاكها عنه تدرك وتلتذ وتتألم ، وان الانسان بعد حلول الموت فيه وفنائه يعيده الاله سبحانه ويعيد تعلق الروح به ويثيبه على اعماله الخيرية التي عملها في مدة حياته في الارض او يعذبه على أعماله الشرية هناك ، وان الذى يقوم فيه اللذة والالم عند تعلق الروح بالجسد وقيام الحياة فيه هو مجموع الروح والجسد وان لبقية الحيوانات ارواحا مثل الانسان وعندها من الادراك مايكفي لتعيشها وليس عندها من الادراك والعقل مثل ماعند الانسان

فلذلك كلف بعبادة الاله سبحانه دونها، فاقول : اذا أبيتم التصديق بما ذكر حيث لم توصلكم عاومكم الا الى هذا الهيكل الانسانى ولا تعلمون وراءه شيئا من نحو الروح، وكذلك فى بقية الحيوانات فاعلموا أن أتباع محمد ﷺ قد اتفقوا على أن لكل انسان روحا لها تعلق بجسده ، ولكن اختلفوا فى البحث عن حقيقتها فبعضهم ترك الخوض فيه حيث لم يرد عن الشارع دليل على ذلك، وعلى طريقته يكفى فى تصديق النصوص الشرعية التى وردت فى وجود الروح ان يعتقد ان لكل انسان روحا وهو شىء موجود الله اعلم بحقيقته ، وليس فى القول بوجوده ما يخالف العقل ، وعدم الاحساس به لا يقتضى عدمه اذ ربما لم نحس به للطافته كالاثير الذى تقولون به ولم تحسوا به أو لدقته جدا كالحيوانات المكرسكوبية أو لغير ذلك، وبعضهم خاض فى البحث عن حقيقتها قال بعض محققيهم : — هو الشيخ النووى كما فى الامير على الجوهرة — واصح ما قيل فيها ما قاله بعضهم — هو امام الحرمين — انها جسم لطيف شفاف حى لذاته . مشتبك بالاجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الاخضر، ثم قال بعضهم : انه لا يعلم مقرها من الجسد، وقال بعضهم : أن مقرها البطن، وقيل بقرب القلب، وقيل به ، ثم اختلفوا فى نفس حقيقة الانسان فقال بعضهم — هم جمهور المتكلمين كما فى الرازى وغيره — ان الانسان هو الجسد ولكن له روح كما تقدم تتعلق به وبتعلقها تحصل حياته بخلق الله تعالى ، وقال بعضهم : ان الانسان هو مجموع الروح والجسد ، وقال بعضهم وهم القليل ان الانسان هو الروح فقط والجسد انما هو قالب لها ولكن بعد ذلك اتفقوا جميعا على ان الله تعالى بعد موت الناس وفناء أجسادهم لابد أن يبعثهم باعادة اجسادهم واعادة أرواحهم اليها ويحاسبهم ويدخل بعضهم الجنة دار الثواب وبعضهم جهنم دار العقاب ، وهذا البعث وما يتبعه هو من اصول

دينهم القطعية قد انعقد اجماعهم عليه وهو من معلومات دينهم الضرورية بحيث ان انكار جوازه أو وقوعه يكون خروجا عن الدين الاسـلامى وكثيرا ماتصرح به نصوص شريعتهم وتنصب عليه الدلائل ، ويكفيهم التصديق بتلك النصوص واعتقاد البعث المذكور ان يعتقدوا انه لابد من البعث باعادة الاجساد بعدفنائها واعادة الارواح اليها للحساب ومايعقبه على وجه لايستلزم محالا عقليا بل يكون فى دائرة الجواز العقلى وهو داخل تحت تصرف قدرة الله تعالى ولا يلزمهم أن يعلموا تفصيل تلك الاعادة وبيان كيفيتها الجائزة عقلا لأن شريعتهم لم تكلفهم بذلك، ولكن لما ورد عليهم من أخصامهم المنكرين للبعث اشكالات تستلزم بظواهرها محالات عقلية فى اعادة الاجساد احتاجوا لاقناع عقول أخصامهم فى تلك الاعادة وبيان جوازها عقلا الى الخوض فى تفصيلها وبيان كيفيتها على وجه يقنع العقول ولا تضطرب عنـده افكار الضعفاء فى الدين ،ومن أشهر ماورد عليهم من الاشكالات فى البعث والاعادة من طرف أخصامهم قولهم :ان الانسان ليس انسانا بمادته بل بصورته وانما تكون الافعال الانسانية صادرة عنه لوجود صورته فاذا بطلت صورته عن مادته وعادت المادة الى أصولها من العناصر فقد بطل الانسان بعينه،ثم اذا خلقت فى تلك المادة بعينها صورة انسان جديدة حدث منها انسان آخر لاذلك الانسان الاول فان الموجود فى الثانى من ذلك الاول مادته لاصورته ولا يكون هو محمودا ولا مذموما ولا مستحقا لثواب أو عقاب بمادته بل بصورته فيكون الانسان المثاب والمعاقب ليس الانسان المحسن والمسىء ، بل انسان آخر مشارك فى مادته ، وقولهم أيضا: اذا اكل انسان انسانا فصار بالاغتذاء واحدا فكيف يتعلق روحان بانسان واحد عند البعث .

وأيضا ان الغالب على ظاهر الارض اجزاء جثث الموتى القديمة وقد زرع فيها زروع كثيرة وغرس فيها اشجار واغتذى منها الناس وانعقد فى ابدانهم ذلك لحماً ودماً فكيف يكون مادة واحدة وأصل واحد حاصلة لصور اناسى كثيرة انتهى *

وفى مقابلة هذه الاشكالات يصلح لاتباع محمد ﷺ أن يقولوا فى دفعها اجمالا ان سعة علم الله تعالى وعظمة قدرته المبرهن عليهما بمشاهدة عجائب مصنوعاته وغرائب أعماله ودقائق افعاله لا يبعد عليهما أمر البعث على كيفية لا تستلزم تلك المحالات التى تضمنتها تلك الاشكالات، ونحن يكفينا الايمان بالبعث والاعادة واعتقاد أن ذلك يحصل على وجه لا يستلزم محالا ولا يلزمنا لصحة ايماننا بيان الكيفية التى يجريها الله تعالى فى ذلك ونفوض علمها الى الله تعالى ولكن لاقناع العقول بالتفصيل والمحافظة على أفكار الضعفاء فى الدين من الاضطراب نقول: ان المعاد من الجسم هو جميع أجزائه الاصلية أى الباقية من اول العمر الى آخره لا الاجزاء الفضلية ـ كذا نقل القول بالأجزاء الاصلية والاجزاء الفضلية فى اليواقيت عن جمع الجوامع وحاشية الكمال عليه فى الجواب عن شبهة ا كل انسان انسانا وهو يصلح جوابا عن بقية الشبه كما سنقرره ـ أى فما المانع من ان الله تعالى الواسع العلم العظيم القدرة يحفظ تلك الأجزاء الاصلية للانسان من التفرق ومن زوال صورتها ومن الدخول فى تركيب أجزاء اصلية لحيوان آخر وان دخلت فى تركيب اجزاء فضلية فتنفصل عنها عند انحلال هذه ثم عند الاعادة والبعث يعيد الله تعالى تعلق الروح بها ويضم اليها اجزاء فضلية سواء كانت هذه عين ما كانت قبل الموت أو غيرها ويكون الاحساس بالتنعيم أو بالتعذيب انما هو للروح ، ولهذه الاجزاء الاصلية ، ويصدق على هذه الكيفية انها اعادة اذ قد أعيد تعلق

الروح بالاجزاء الاصلية بعدان فارقتها وأعيد لهذه الاجزاء الاصلية الحياة واعيدت اليها اجزاء فضلية لا تتوقف صحة الاعادة على اعادتها باعيانها فلا يقال: ان الانسان المنعم أو المعذب غير الذى كان قبل الموت ولا ان الروحين تتعلقان بجسد واحد ولا ان مادة واحدة حاصلة لاناسى كثيرة بل الاجزاء الاصلية التى كانت مع الروح المتعلقة بها قبل الموت انسانا هى بعينها مع الروح المتعلقة بها عند البعث والاعادة ذلك الانسان بعينه وعلم الله تعالى وقدرته يصلحان لاجراء هذه الكيفية التى لا تتضمن محالا اصلا سواء كان ذلك بدون واسطة ناموس أم بواسطة ذلك وعدم احساسنا بها لا يستلزم عدمها إذ يحتمل اننا نشاهد تفرق الاجزاء الفضلية ولا نشاهد الاجزاء الاصلية إما لدقتها وإما للطافتها وإما لغير ذلك، وكم من العوالم تزل فى حيز الخفاء محجوبة عن حواسنا ولا مانع أن تكون هذه من هذا القبيل * فالملخص ان نصوص شريعتنا نطقت بالاعادة والبعث فنحن نؤمن بذلك ونعتقد انه سيكون على وجه لا يستلزم محالا ولا يلزمنا بيان الكيفية على وجه التفصيل وان احتجنا الى هذا البيان نجد ان مثل تلك الكيفية التى قررناها كافية وافية فى اقناع العقول ودفع الاشكالات والله اعلم *

﴿ أقول ﴾ ويمكن ايضاح هذا المقام وتوجيهه بما لا يخالف شيئا من نصوص الشريعة المحمدية التى عليها مدار الاعتقاد بعون الله وتوفيقه وذلك يحتاج الى تقديم جملة من كلام علماء الامة المحمدية يظهر من التبصر بها قبول ما سنورده من التوجيه فاعلموا ان من اكبر علماء الشريعة المحمدية من استدل على ان الانسان هو غير تلك البنية — هو الامام الرازى فى تفسيره الكبير — بقوله: ان العلم البديهى حاصل بان اجزاء الجثة متبدلة بالزيادة والنقصان كما فى السمن والهزال، والعلم الضرورى حاصل بان المتبدل المتغير

مغاير للثابت الباقي، ويحصل من مجموع هذا الكلام العلم القطعي بان الانسان ليس عبارة عن مجموع هذه الجثة ثم قال: وان الانسان قد يكون حيا حال مايكون البدن ميتا فوجب كون الانسان مغايرا لهذا البدن، والدليل على صحة ماذكرناه قوله تعالى: (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فهذا النص صريح فى ان أولئك المقتولين أحياء والحس يدل على ان هذا الجسد ميت، ثم قال على ان الانسان يحيا بعد الموت وكذلك قوله عليه السلام « انبياء الله تعالى لا يموتون ولكن ينقلون من دار الى دار »، وكذلك قوله عليه السلام: « القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » كل هذه النصوص تدل على أن الانسان يبقى بعد موت الجسد، وبديهة العقل والفطرة شاهدان بان هذا الجسد ميت ولو جوزنا كونه حيا جاز مثله فى جميع الجمادات وذلك عين السفسطة واذا ثبت أن الانسان حى وكان الجسد ميتا لزم أن الانسان شىء غير هذا الجسد، ثم قال: ان الذين قد دلت النصوص الشرعية على مسخهم يقال: ان الانسان هل بقى حال ذلك المسخ أو لم يبق؟ فان لم يبق كان هذا اماتة لذلك الانسان وخلقا لذلك الحيوان الممسوخ اليه وليس هذا من المسخ فى شىء وان قلنا: أن ذلك الانسان حى حال حصول ذلك المسخ فنقول على ذلك التقدير: ذلك الانسان باق وتلك البنية وذلك الهيكل غير باق فوجب أن يكون ذلك الانسان شيئا مغايرا لتلك البنية، ثم قال: ان الانسان يجب أن يكون عالما والعلم لا يحصل الا فى القلب فيلزم أن يكون الانسان عبارة عن الشىء الموجود فى القلب واذا ثبت هذا بطل القول بان الانسان عبارة عن هذا الهيكل وهذه الجثة، ثم استدل على أن للانسان علما وانه فى القلب بما يطول نقله، ثم اعلموا أنه قد ورد فى نصوص القرآن الشريف

قوله تعالى: (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا) وقد ورد تفسير هذا النص فى الصحيح عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بان الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهره كلهم كهيئة الذر قال بعض العلماء من أتباع محمد عليه السلام — كما فى الجمل عن الخازن — أخرج الله أولا ذرية آدم من ظهره ثم أخرج من هذا الذر الذى أخرجه من آدم ذريته ذراً ثم أخرج من الذر الآخر ذريته ذرا وهكذا الى آخر النوع الانسانى وخلق فيهم العقل والفهم والحركة والكلام وخاطب الجميع بقوله (الست بربكم) فقال الجميع بلى أى أنت ربنا ثم أعاد الجميع الى ظهر آدم وقال بعضهم: وهل هذا الذر استحال منيا أو تخرج ذرة كل انسان فى منيه الذى يتخلق منه والله أعلم بحقيقه الحال (كذا فى الجمل باختصار) وقال بعضهم: — كما فى الجمل عن الشعرانى — ان الأقرب كما قيل: ان الله تعالى استخرجهم من مسام شعر ظهره يعنى آدم. ثم قال انهم أجابوا بالنطق وهم أحياء عقلاء اذ لا يستحيل فى العقل ان الله تعالى يعطيهم الحياة والعقل مع صغرهم — اقول: ومن نظر الى الحيوانات الميكروسكوبية وما عندها من الادراك الذى به تسعى على رزقها وتتوالد وتجتنب المؤذيات وتحيد عن طريق ملاقيها لا يستغرب ذلك ولا يستبعده على علم الله تعالى وقدرته ، ويحتمل أن يكونوا مصورين بصورة الانسان لقوله تعالى: (من ظهورهم ذرياتهم) ولم يقل ذراتهم ولفظ الذرية يقع على المصورين، ثم قال والظاهر أنه استخرجهم أحياء لأنه سماهم ذرية والذرية هم الأحياء فيحتمل ان الله تعالى أدخل فيهم الأرواح وهم فى ظلمات ظهر أبيهم ويخلقها فيهم مرة أخرى فى ظلمات بطون أمهاتهن ويخلقها مرة أخرى ثالثة فيهم وهم فى ظلمات بطون الأرض خلقا بعد خلق فى ظلمات ثلاث ، وهكذا جرت سنة الله تعالى

ثم قال : والظاهر أنه لما ردهم الى ظهره قبض أرواحهم قياسا على ما يفعله اذا ردهم الى الأرض بعد الموت فانه يقبض أرواحهم و يعيدهم فيها انتهى باختصار .

وقال بعض الأئمة الأعلام - هو الامام أبو طاهر فى كتابه سراج العقول كما يؤخذ من اليواقيت للشعرانى - فى الجواب عن الشبه المتقدمة الواردة على البعث ما ملخصه ان الذرة التى قبضت من الأرض أولا فى كل انسان باقية لا تتبدل البتة وهى الجزء القائم الذى أخذ عليه الميثاق - يعنى كما فى آية خطاب الذر المتقدمة - ويتوجه عليه فى القبر السؤال ويتولى الجواب برد الروح اليه على مادلت عليه الأخبار ، ثم ينضم اليه سائر الأجزاء حيث كانت بقدرة الله تعالى حتى يقوم الشخص تاما كما كان فى الدنيا ، هذا شيء لا يخالفه عقل ولا شرع انتهى ببعض اختصار ، فاذا دققنا النظر و تفهمنا بامعان ما نقلته من تلك الدلائل التى اقامها ذلك العالم (الرازى) على ان الانسان ليس هو هذه البنية وما نقلته من تفسير الآية المتقدمة التى تذكر اخذ العهد على ذرية آدم وما قيل فيها من جانب بعض العلماء المحمديين - الخازن والشعرانى كما تقدم عن الجمل واقره - وما قرره ذلك العالم المحمدى - ابو طاهر - فى رد شبه البعث وذكر انه لا يخالفه عقل ولا شرع ظهر جليا انه يسوغ لاتباع محمد ﷺ أن يفسروا الاجزاء الاصلية التى تقدم لهم القول بها بتلك الذرات التى أخرجت من ظهر آدم وأخذ عليها العهد فيقولوا ان هذه الذرات هى الاجزاء الاصلية لكل انسان وبقية البنية المشاهدة لنا هى الاجزاء الفضلية التى تذهب وتتبدل فيكون الانسان الحقيقى المخاطب المكلف المعاد المنعم المعذب هو تلك الذرات مع الروح التى تحل فيها والهيكل الانسانى المشاهد هو الاجزاء الفضلية ولا عبرة بها فى تحقق الاعادة سواء اعيدت باعيانها أو بامثالها بل العبرة فى تحقق الاعادة هو الاجزاء الاصلية التى لا يطرأ عليها الا مفارقة الروح وانسلاخ

الاجزاء الفضلية عنها وفى البعث تعاد اليها الروح وتعاد الاجزاء الفضلية وتنضم اليها، وقد تقدم ان بعضهم يكتفى فى بيان الروح أن يقول : انها شيء موجود الله اعلم بحقيقته ، وبعضهم يفسرها بانها جسم لطيف شفاف حى لذاته مشتبك بالاجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الاخضر فعلى جميع ماقدمناه يمكن تقرير المقام على مايأتى وهو يدفع جميع الشبه التى ترد على البعث. وسؤال القبر . وأمثال ذلك ويحفظ أفكار الضعفاء من الاضطراب فيقال: ماالمانع ان الله تعالى كون الارواح من اجزاء فردة من مادة لطيفة كمادة الاثير الذى تقولون بوجوده على ترتيب وكيفية ووضع يحصل بها جميع الخواص التى تذكر للروح وتفهم من نصوص الشريعة من انها حية بنفسها أى لاتحتاج إلى انضمام شيء آخر تحيا به وانها ذات ادراك واذا حلت بالجسم اكسبته الحياة والادراك وبقية صفات الحى - وهكذا المغناطيس بدلكه بالفولاذ يكسبه خاصية جذب الحديد - وهى مع ذلك ذرة صغيرة جدا لاتدركها حواسنا، ثم كون من أجزاء فردة ذرات صغيرة جدا على كيفية تقبل عند تعلق الروح بها الحياة وبقية خواصها من الادراك ونحوه وجعل لها أعضاء الانسان كما للحيوانات المكرسكوبية اعضاء وهذه هى الأجزاء الأصليه التى تقدم ذكرها ، ثم كون هيكل آدم وهو الأجزاء الفضلية وجعلت ذرته فى موضع من هيكله ويحتمل أنه القلب لذلك الهيكل وهو الأقرب ، وسيأتى نقل عبارة الفيسولوجيين التى تقرب أن القلب هو مركز ذلك - ثم وضع ذرات جميع ذريته فى ظهر هيكله ولا غرابة فى اتساعه لملايين هذه الذرات فان نقطة الماء الصغيرة تحتوى على حيوانات مكرسكوبية عدد البشر الموجودين على وجه الأرض كما تقولون فلا مانع من اتساع ذلك الظهر لذرات بنى آدم الذين يوجدون

فى مده الدنيا ثم أنه سبحانه أحل روح آدم فى ذرته التى فى داخل هيكله، وكأن اليه الاشاره فى القرآن الشريف بقوله : (ونفخت فيه من روحى) أى من الروح التى انفردت بابداعها ومعرفة حقيقتها وحقيقة تكوينها فعندحلولها فى تلك الذرة نشأ عنها حياتها وسرت الحياة الى بقية الهيكل لأنه سبحانه قد كون الهيكل على هذا الاستعداد، ثم أنه اخرج جميع ذرات بنى آدم من ظهره وأحل ارواحها فيها فاصبحت حية مدركة فخاطبها وأخذ عليها العهد ثم فصل عنها ارواحها وأعادها الى ظهر آدم وادخلها فيه من مسامه كما أخرجها منها ، وهكذا تدخل الحيوانات المرضية فى الاجساد وتخرج منها كما تقولون ، ثم حفظ تلك الارواح حيث شاء من الكون ثم صار يخرج تلك الذرات فى مادة المنى الذى ينفصل من آدم الى رحم زوجته عند الجماع فتحل فى البزور التى تنفصل من مبيض زوجته فيكون هياكلها من تلك البزور مع السائل المنوى ويطورها أطوارا حتى تبلغ صورة الهيكل الانسانى ، وأول ذرة من اولاده نقلها الى بزرتها نقل معها عدد الذرات التى تكون اولادا لها ثم ينقل تلك الذرات فى المنى الذى ينفصل فيما بعد عن هيكل هذه الذرة الاولى ، وهكذا الحال فى بقية أولاده وأولادهم يفعل تلك الكيفية على هذا الترتيب الى آخر الدهر ، ولعل اليه الاشارة على ماقاله بعضهم فى تفسير قوله تعالى فى حق الرسول عليه السلام (وتقلبك فى الساجدين) أى تنقلك فى أصلاب الآباء وأرحام الامهات، وعند بلوغ كل هيكل الى حد محدود يرسل الله تعالى الروح فتحل فى ذرتها وتسرى فيها وفى هيكلها الحياة والحركة فكل انسان هو مجموع الروح والذرة، وهذه الذرة هى الاجزاء الاصلية التى قال بها اتباع محمد ﷺ وأنها الباقية مدة العمر وهى المعادة باعادة الروح اليها بعد أن تفارقها بالموت، والهيكل هو الاجزاء الفضلية التى تروح وتجىء

وتزيد وتنقص فاذا أراد الله تعالى موت الانســان فصل عن ذرته الروح ففارقتها الحياة وفارقت الهيكل أيضا الذى هو الأجزاء الفضلية وحلهمــا الموت فيأخذ الهيكل بالانحلال ويجرى عليه من التفرق والدخول فى تركيب غيره ما يجرى والذرة محفوظة بين اطباق الثرى كما تحفظ ذرات الذهب من البلى والانحلال وان دخلت فى تركيب حيوان فانما تدخل فى تركيب هيكله الذى هو الاجزاء الفضلية محفوظة أيضا غير منحلة فاذا انحل ذلك الهيكل عادت محفوظة فى اطباق الثرى ولا تدخل فى تركيب الاجزاء الاصلية لذلك الحيوان التى هى حقيقته غاية ما يطرأ عليها بالموت مفارقة الروح لها وانحلال هيكلها واذا أراد الله تعالى حياتها أعاد الروح اليها فتعود اليها الحياة وبقية خواصها وان كان هيكلها منحلا ، ومن هنا تنحل شبه سؤال القبر ونعيمه وعذابه وأمثال ذلك من امور البرزخ التى وردت النصوص الشرعية بها وانها تكون قبل البعث ، ثم اذا اراد الله تعالى أن يبعث الخلق للحساب أعاد تكوين هياكل الذرات الانسانية التى هى الاجزاء الفضلية سواء كانت هى الاجزاء السابقة قبل الموت أو غيرها اذ المدار على عدم تبدل الذرات واحل الذرات فى تلك الهياكل وبتعلق الروح بها تقوم فيها وفى هياكلها الحياة ويقوم البشر فى النشأة الآخرة كما كانوا فى هذه الدار ، وجميع ما تقدم يمكن أن يكون حاصلا فى بقية الحيوانات غير الانسان فى جميع تفصيله ؛ واذا تصورنا سعة علم الله تعالى وعظمة قدرته وآثارهما فى الكائنات لا نستبعد شيئا من جميع ما تقدم سواء كان اجراء ذلك بواسطة نواميس وضعها الله تعالى لذلك تجرى عليها جميع تلك الاتصالات والانفصالات والتكونات للاجزاء الفضلية أو بدون نواميس ، واذا تأملتم أيها الماديون فيما تقولونه باكتشافاتكم المكرسكوبية للحيوانات الصغيرة جدا وكثرتها فى نقطة ماء وحياتها وحركتها وادراكها

فى أمر معيشتها واحترامها على نفسها تبين لكم انه لاغرابة ولا استحالة فى أن ذرات الانسان يمكن أن تحلها الحياة وجميع خواصها وان الارواح تكون بتلك الخواص التى ذكرت لها، واذا تأملتم فى ان المسام فى الهيكل الانسانى كثيرة جدا حتى قلتم: ان فى الشبر المربع منه يوجد اربعة ملايين من المسام لم تستبعدوا خروج تلك الذرات من ظهر آدم ثم أعادتها اليه ، ويزيد ذلك تقريبا لعقولكم دخول الحيوانات المرضـــية مثل الملاريا فى الاجساد وانتقالها الى أجساد اخرى بالعدوى وسريانها فى دورة الدم وأمثال تلك الحقائق المذكورة فى كتب علومكم الطبية على ماتقولون *

ثم انكم تقولون بوجود حيوانات منوية فى السائل المنوى الذى ينفصل من خصيتى الذكر ويلقح بزور الانثى وهى حيوانات صغيرة جدا تشاهد بالمكرسكوب طول الواحد منها من جزء من خمسمائة جزء الى جزء من ستمائة جزء من القيراط وطول رأس الواحد من جزء من خمسة آلاف جزء الى جزء من ستة آلاف جزء، ولها حركة فى السائل المنوى بواسطة تحريك اذنابها بحيث تندفع رؤوسها الى جهات مختلفة، ويظهر أن حركتها مستقلة لاتتعلق بالكيفيات الخارجية بشرط أن لاتتغير كثافة السائل المنوى الطبيعية ، وقد تدوم الحركة فى داخل جسد الانثى سبعة أيام أو ثمانية وخارجه نحو اربع وعشرين ساعة واتجاه سيرها غير معلوم ،وقال بعض الفيسيولوجيين: انها تقطع قيراطا فى ثلاث عشرة دقيقة وغاية مايعلم من فائدتها هو انها تكاد توجد فى منى جميع الحيوانات وان ملامستها للبيضة أى بزرة الانثى ضرورى لاجل التلقيح كذا فى كتب الفيسيولوجيا ، فأى مانع ان تلك الحيوانات المنوية جعلها الخالق تعالى تحمل ذرات بنى آدم التى هى أصغر منها وتسير بها فى السائل المنوى حتى تلقيها فى البزور المنفصلة من مبيض الام ويبتدأ

عند ذلك تكون الهيكل الانسانى الذى هو الاجزاء الفضلية بنمو البزرة ويكون الانسان الحقيقى الذى تحله الروح وتسرى الحياة فيه ؛ ثم منه الى الهيكل هو ماحملته تلك الحيوانات وادخلته فى البزرة وتدخل معه الذرات التى هى عدد مايكون له من الذرية وتبقى هذه فى هيكله حتى تخرج فى منيه وتنتقل الى هيكل فروعه وهلم جرا ، واذا كان الحال على هذه الكيفية التى لايمنع منها عقل ولاشرع يتحقق كلام اتباع محمد ﷺ بل كلام كثير من العقلاء ان كل انسان فهو منتقل من ابيه الى رحم امه خلاف ماتقولون انتم ان الانسان هو من بزرة امه وانما منى ابيه لمجرد التلقيح فانتم نظرتم الى الهيكل الانسانى ولم تعلموا سواه فلذلك قلتم بذلك وسوالم وصل الى ماوراء الهيكل فقال : ان الانسان منفصل من ابيه وليس لامه الا الهيكل وانفصاله من ابيه هو ماتذعن اليه عقول الجم الغفير ويستأنس له بعواطف الآباء على الاولاده

ثم ان الفيسيولوجيين اختلفوا فى سبب نظام عمل القلب أى حركته وعللوا ذلك بتعليلات واهية ثم رجعوا عليها بالنقض ، والذى استظهروه أخيرا ان سبب ذلك العمل مستقر فى القلب نفسه ، ثم قالوا : انه يظهر ان نظام حركته هو ناشىء عن العقد العصبية الموجودة فيه فهى المراكز الحقيقية للعمل النظامى غير انه لاتعلم الى الآن لماذا تعمل هذه المراكز العصبيه عملا منقطعا منتظما لاعملا دائما ، ثم قالوا قد ظهر من تجارب كثيرة ان القوه الدافعة الناشئة من انقباضات القلب هى وحدها كافية لدورة الدم انتهى * فاذا تأملتم فى هذا الكلام ظهر لكم وقرب فى عقولكم أن يقال ان مركز الذرة الانسانية هو القلب من الهيكل الانسانى ، واذا حلت فيها الروح أورثتها الحياة وأخذت تتحرك تلك الحركة المنتظمة ونشأ عنها

دورة الدم وسرت الحياة منها الى سائر الهيكل ، وصغرها وصغر الروح لا يمنع أن ينشأ عنها ذلك العمل الكافى لحياة الهيكل ولا عمال أعصابه وعضلاته فكم من آلة صغيرة جدا اذا حركها طفل صغير يتولد عنها حركة تدير آلة كبيرة جدا وينشأ عنهـا أعمال عظيمة تحتاج مباشرة الى قوة عظيمة ، وهذا مشاهد فى عمل الانسان فما بالك فى عمل الاله العليم القادر الذى ركب مصنوعاته على كيفيات ينشؤ عنها خواص تحتار فيها الفكر وتذهل العقول،وخلاصة ماتقدم ان الانسان الحقيقى على هذا التقرير هو الذرة التى تحل فى القلب وتحل فيها الروح فتكسبها الحياة وتسرى الحياة الى الهيكل ثم الهيكل انما هو آلة لقضاء اعمال تلك الذرة فى هذا الكون ولا كتساب معارفها بسببه وتلك الذرة مع الروح الحالة فيها هى المخاطب بالتكاليف والمعاد والمنعم والمعذب الى آخر ماورد فى حق الانسان، وعلى هذا التقرير نجد أن الشبه التى وردت على ماجاء فى الشريعة المحمدية من البعث وسؤال القبر ونعيمه وعذابه وحياة بعض البشر فى قبورهم ونحو ذلك قد سقطت برمتها كما يظهر بالتأمل الصادق والله أعلم ه

﴿فان قيل﴾ انا نرى نصوصا فى الشريعة المحمدية تذكر إعادة نفس الهيكل الانسانى أو تنص على إعادة بعضه كما فى قوله تعالى (١) :(من يحيي العظام

---

(١) قال الامام الرازى رحمه الله تعالى فى تفسير هذه الآية:

المنكرون للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلا ولا شبهة واكتفى بالاستبعاد وادعى الضرورة وهم الأكثرون ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم فى كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال أئذا ضللنا فى الأرض، أئنا لفى خلق جديد. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون، فكذلك ههنا قال (قال من يحيى العظام وهى رميم) على طريق الاستبعاد فبدأ أولا بابطال استبعادهم بقوله (ونسى خلقه) أى نسى انا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الأجزاء ثم جعلنا لهم من النواصى الى

وهى رميم؟ قل: يحييها الذى أنشأها أول مرة) فكيف ينطبق هذا مع التوجيه الذى ذكرته للبعث والاعادة قلت: مقتضى ماقدمته من التوجيه ان البعث كما يكون للأجزاء الأصلية التى هى الذرات بالكيفية التى قدمتها كذلك يكون للهيكل الانسانى الذى هو الأجزاء الفضلية ولكن الاشكالات المتقدمة على البعث تندفع بما ذكر فى اعادة الأجزاء الأصلية التى هى الذرات

الاقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الاجرام وهو النطق والعقل الذى بهما استحقوا الاكرام فان كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة لم تكن محل الحياة أصلا ويستبعدون اعادة النطق والعقل الى محل كانا فيه . ثم ان استبعادهم كان من جهة مافى المعاد من التفتت والتفرق حيث قالوا من يحيى العظام وهى رميم اختاروا العظام للذكر لانه أبعد من الحياة لعدم الاحساس فيه ووصفوه بما يقوى جانب الاستبعاد من البلى والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من جهة مافى المعيد من القدرة والعلم فقال وضرب لنا مثلا أى جعل قدرتنا كقدرتهم ونسى خلقه العجيب وبدأه الغريب . ومنهم من ذكر شبهة وان كانت فى آخرها تعود الى مجرد الاستبعاد وهى على وجهين (أحدهما) أنه بعد العدم لم يبق شيئا فكيف يصح على المعدم الحكم بالوجود وأجاب عن هذه الشبهة بقوله تعالى (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) يعنى كما خلق الانسان ولم يكن شيئا مذكورا كذلك يعيده وان لم يبق شيئا مذكورا (وثانيهما) ان من تفرق أجزاؤه فى مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه فى أبدان السباع وبعضه فى جدران الرباع كيف يجمع وأبعد من هذا هو أن انسانا اذا أكل انسانا وصار أجزاء المأكول فى أجزاء الآكل فان أعيد فاجزاء المأكول اما أن تعاد الى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه واما أن تعاد الى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء فقال تعالى فى ابطال هذه الشبهة (وهو بكل خلق عليم) ووجهه هو ان فى الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية وفى المأكول كذلك فاذا أكل انسان انسانا صار الاصلى من أجزاء المأكول فضليا من أجزاء الآكل والاجزاء الاصلية للآكل هى ما كان له قبل الاكل والله بكل خلق عليم يعلم الاصلى من الفضلى فيجمع الاجزاء الاصلية للآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الاجزاء الاصلية للمأكول وينفخ فيها روحه وكذلك يجمع الاجزاء المتفرقة فى البقاع المبددة فى الاصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة

ثم ان اعادة الهيكل الذى هو الأجزاء الفضلية سواء كان باعادتها بأعيانها أو بايجاد امثالها لا يرد عليها تلك الاشكالات بعد اندفاعها بكيفية إعادة الأجزاء الأصلية على الوجه المتقدم وانما نصت تلك النصوص على اعادة الأجزاء الفضلية التى هى الهيكل لدفع اشكالات أخرى كانت تعرض لأفكار أهل الجاهلية فى اعادتها اذ عند ذكر البعث لا تنصرف أفكارهم الا الى اعادة هذا الهيكل المشاهد لهم فيقولون : كيف تعود الحياة للعظام بعد أن تصير رميما؟ وكيف تجتمع تلك الأجزاء المتفرقة فى أعماق الثرى؟ فتدفع تلك النصوص اشكالاتهم هذه بان الله تعالى قادر عليم لا يعجزه ذلك فهو يحيى العظام كما بدأها أول مرة وعلمه محيط بجميع الموجودات وقدرته شاملة لجميع الجائزات الى غير ذلك من الردود ، وهذا لا ينافى التوجيه الذى تقدم فى اعادة الأجزاء الأصلية التى هى الذرات لتدفع به الاشكالات الأخرى التى تقدمت فليتأمل ، ولتعلموا بعد جميع ما تقدم بسطه لكم أيها القوم أنى لست أقول : ان ذلك التوجيه والتفسير للأجزاء الأصلية بالذرات والأجزاء الفضلية بالهيكل الى آخر ما حررته فى هذا المقام هو مصرح به فى كلام أتباع محمد عليه السلام كما شرحته ، أو انه يجب عليهم اعتقاده بهذا التفصيل والبيان كلا انما أقول : أن علماءهم قرروا أن للانسان أجزاء أصلية وأجزاء فضلية ودفعوا بذلك الشبه التى وردت على البعث ونحوه وأنا قلت لكم : انه يؤخذ من كلام كثير من أجلاء علمائهم - كالامام الرازى . وأبى طاهر صاحب سراج العقول . والشعرانى . والخازن وغيرهم - ان لا مانع ان يراد بالأجزاء الأصلية التى ذكروها فى دفع الشبه هى الذرات المذكورة فى تفسير الرسول عليه السلام للنص القرآنى الذى يذكر فيه أخذ العهد على ذرية آدم وأن تكون الارواح مع تلك الذرات هى أفراد الانسان

الحقيقى وأن يراد بالاجزاء الفضلية الهياكل الانسانية ويؤخذ من كلام علمائهم أيضا أن مقر الانسان الحقيقى هو القلب من الهيكل فيكون ذلك الهيكل المتغير المتبدل آلة للانسان الحقيقى فى قضاء أعماله فى هـذا الكون . واكتساب معارفه، وهذا شىء يوضح لكم اندفاع الاشكالات المتقدمة على البعث ولا يمنع منه عقل ولا شرع ويسوغ لهم أن يقولوا به لدفع تلك الشبه والا فيكفى فى صحة اعتقادهم أن يقولوا : انا نعتقد أن لكل انسان روحا الله أعلم بحقيقتها وكذلك لجميع الحيوانات ولا بد ان الله تعالى يعيد الانسان بعد الموت ويحاسبه وينعمه أو يعذبه كل ذلك على كيفية لا تستلزم محالا ولا يلزمنا تفصيلها والله أعلم بها فان ذلك من الجائز العقلى وسعه علم الله وقدرته لا يستحيل عليها ذلك، فيا أيها الماديون تأملوا فى هذا المقام ودققوا النظر فيه فانكم لا تجدون لتفصيله ما يمنعكم فى علومكم من تجويز جميع ماتقدم أن لكل انسان نفسا يسمى روحا الى آخر ما ذكر فى صدر هذا البحث إلا أن يكون المانع لكم هو العناد ، وان قلتم : سلمنا جواز جميع ماتقدم عقلا ولكن ما الحامل لاتباع محمد ﷺ على اعتقاد حصول ذلك بالفعل قلت : الجواب ماتقدم نظيره هو ان الحامل لهم على ذلك ماورد فى نصوص شريعتهم على لسان رسولهم الصادق عليه السلام التى تصرح بحصول ذلك وبمجموعها لا تحتمل التأويل ، وما دام ذلك منطبقا على العقل وجائزا فى أحكامه فلا يسوغ لهم أن يتركوا ظواهر تلك النصوص ويميلوا الى التأويل بوجه من الوجوه على أن البعث بخصوصه وان كان المشهور ان دليل جوازه عقلى نظير ماقدمنا ودليل وقوعه بالفعل نقلى هو نصوص الشريعة المحمدية ، ولكن اذا دقق النظر يتبين لوقوعه بالفعل أدلة عقلية ان لم تكن برهانية قاطعة فهى اقناعية تذعن لها العقول ، وتطمئن عندها القلوب وبتوارد

مجموعها على الفكر يجزم العقل بوقوع البعث ولا يعير للشك فيه اذناصاغية فاستمعوا لما أتلوه عليكم من ذلك على ماأفاده بعض علماء الامة الاسلامية ـ الرازى ـ مع ماأزيده عليه من توضيح أو استحسن فيه من اختصار *

﴿ فاقول ﴾ انه بعد اقامة البراهين القاطعة على وجود إله العالم واتصافه بصفاته الكاملة وسمو حكمته وعدله فى خلقه ورحمته لهم لاشك أن كل معتقد لذلك يظهر له ان من حكمته تعالى وعدله بعد ان خلق الخلق وأعطاهم عقولا يميزون بها بين الحسن والقبيح . وقدرا بها يقدرون على الخير والشر ان يمنعهم عن ذكره بالسوء وعن الجهل والكذب وإيذاء الصالحين من خلقه وغير ذلك من القبائح . ويرغبهم بعمل الخير والاتصاف بالاخلاق الفاضلة التى ينتظم بها معاشهم ، ومن المعلوم ان هذين الأمرين لا يتمان إلا بربط عمل الخير بالثواب وعمل الشر بالعقاب ، وكل من الثواب والعقاب غير حاصل فى دار الدنيا فلا بد من دار أخرى يحصل فيها ذلك ، ولا يقال: انه يكتفى فى الترهيب والترغيب بما أودع فى العقول من تحسين الخيرات وتقبيح المنكرات لأن الهوى والنفس يدعوان الانسان الى الانهماك فى الشهوات الجسمانية واللذات الجسدية ، واذا حصل هذا التعارض فلا بد من مرجح قوى ومعاضد كامل وما ذاك إلا ترتيب الوعد والوعيد والثواب والعقاب على الفعل والترك *

﴿ ثم ﴾ ان صريح العقل يقضى ان من حكمة الحكيم أن يفرق بين المحسن والمسيء ، وحصول هذه التفرقة ليس فى هذه الدار لانا نرى كثيراً من أهل الاساءة فى أعظم الراحة ، وكثيراً من أهل الاحسان بالضد من ذلك فلا بد انه بعد هذه الدار من دار أخرى تحصل فيها تلك التفرقة *

﴿ ثم ﴾ انه لو لم يكن للناس زاجر من خوف المعاد لكثر الهرج والمرج

ولعظمت الفتن وفسد نظام المعاش ولم يجد المكلف وقتا لاداء ما كلف به فلا بد من حصول دار الثواب والعقاب لتنتظم أحوال العالم وتصان عن الفساد ، وان قيل: يكفى لبقاء نظام العالم مهابة الملوك وسياستهم ، وأيضا فالأوباش يعلمون انهم لو حكموا بحسن الهرج والمرج لانقلب الامر عليهم ولقـــدر غيرهم على قتلهم وأخذ أموالهم ، فلهذا المعنى يحترزون عن اثارة الفتن قلنا: ان مجرد مهابة الملوك لاتكفى بذلك لأن الملك اما أن يكون قد بلغ فى القدرة الى حيث لايخاف من الرعية ، وإما أن يكون خائفا منهم ، فان كان لايخاف الرعية مع انه لاخوف له من المعاد أيضا فحينئذ يقدم على الظلم والايذاء على أقبح الوجوه لأن الداعية النفسانية قائمة ولا رادع لها فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وإما ان كان يخاف الرعية فحينئذ الرعية لايخافون منه خوفا شديدا فلا يصير ذلك رادعا لهم من القبائح والظلم فثبت ان نظام العالم لايتم ولا يكمل إلا بالرغبة والرهبة فى المعاد *

(ثم) ان السلطان العادل الحكيم الرحيم اذا كان له جمع من الرعية وكان بعضهم أقوياء وبعضهم ضعفاء كان من حكمته وعدله ورحمته أن ينتصف للمظلوم الضعيف من الظالم القوى ، والله سبحانه وتعالى سلطان حكيم عادل رحيم ، فمن حكمته وعدله ورحمته أن ينتصف لعبيده المظلومين من عبيده الظالمين ، وهذا الانتصاف لم يحصل فى هذه الدار لانا نرى المظلوم قد يبقى فيها مهانا فى غاية الذلة والقهر . مسلوب المال . مفضوح العرض . مهدور الدم والظالم يبقى فى غاية العزة والقدرة فلا بد من دار أخرى يظهر فيها هذا العدل وهذا الانصاف .

(ثم) انه لو لم يحصل الانسان معاد لكان الانسان أخس من جميع الحيوانات فى المنزلة والشرف ، وبيان ذلك أن مضار الانسان فى الدنيا أكثر

من مضار جميع الحيوانات فان سائر الحيوانات قبل وقوعها فى الآلام والاسقام تكون فارغة البال طيبة النفس لأنه ليس لها فكر وتأمل ، أما الانسان فانه بسبب مايحصل له من العقل يتفكر أبدا فى الأحوال الماضية والأحوال المستقبلة فيحصل له بسبب أكثر الأحوال الماضية أنواع من الحزن والاسف ويحصل له بسبب أكثر الأحوال الآتية انواع من الخوف فثبت أن حصول العقل للانسان سبب لحصول المضار العظيمة فى الدنيا والآلام النفسانية الشديدة القوية ، أما اللذات الجسمانية فهى مشتركة بينه وبين سائر الحيوانات لأن السرقين فى مذاق الجعل طيب كما أن أفخر الحلويات فى مذاق الانسان طيب فلو لم يحصل للانسان معاد به تكمل حالته وتظهر سعادته لوجب أن يكون كمال العقل سببا لمزيد الهموم والغموم والأحزان من غير جابر يجبر ذلك ، ومعلوم أن كل مايكون كذلك فانه يكون سببا لمزيد الخسة والدناءة والشقاء والتعب الخالية عن المنفعة فثبت انه لولا حصول السعادة الاخروية لكان الانسان أخس الحيوانات حتى الخنافس والديدان ، ولما كان ذلك باطلا قطعا علمنا انه لابد من الدار الآخرة والانسان خلق للآخرة لا للدنيا ، نعم ان هذه الدار هى كالمميز بين الخيرى منه والشرير ليجزى الأول بالثواب والثانى بالعقاب لأن كل من كان شريرا فالنار أولى به ويكون حظه من الوجود مايحصله من لذات هذه الدار فلذلك نراها موفورة للاشرار منغصة على الاخيار »

« ومن هذا المقام » تعلمون أيها الماديون انه يصدق فيكم قول أخصامكم أهل الشرائع والملل ان مذهبكم سيما فى انكار المعاد شر لا يماثله شر لأنه يلزم عنه انه لا حلال ولا حرام ، ومع هذا يمتنع العمران ، وجوابكم بأن نظام العالم يكمل بمعرفة الانسان ماله من الحقوق وما عليه من الواجبات فهذه المعرفة تكمل له بالعلم الصحيح التام العام فاقول : قد غفلتم فى هذا

الجواب عن أن الاهواء والشهوات وحب الذات لا يقاومها مجرد النواميس التي يقيمها العلم فلابد من وازع آخر يزع النفوس عن المضار ومرجح يرجح اتباع طريق الخير وهجران سبيل الشر وهو الايمان بالمعاد والمكافئة على الأعمال ان خيرا فخير وان شرا فشر ، والا فليتأمل العاقل ان الانسان اذا كان يعتقد أنه مثل نبات الأرض ينبت ثم يزول لا الى رجعة وليس له حظ من وجوده الا لذاته الحيوانية التي ينالها مدة حياته فهب ان له العلم من الضوابط لمعرفة ماله من الحقوق وما عليه من الواجبات فاذا قدر على قتل سواه وأخذ ماله الذي يبلغ الملايين بدون أن يطلع عليه أحد من الناس أو على هتك أشرف عرض وبلوغ أشهى لذة بدون اطلاع أحد فهل يظن أن تلك القوانين التي سنها له العلم تردعه عن ارتكاب ذلك؟ لا يقول بذلك الا مكابر ان الانسان مفطور على حب ذاته فمن يدري به حق الدراية لا يأمن له في شيء الا اذا وجده مرتبطا بالدين واعتقاد المعاد انا نرى بعض الأمم تعتقد المعاد ويظهر فيها مايظهر من الفساد فكيف يكون حالها لو نسخ هذا الاعتقاد منها فبلاشك أن فسادها بالدرهم يصير بالقناطير على أننا نرى الأمم التي انتشر بينها العلم في هذه الأزمان لا تزال آخذة في سبيل الشرور بل كلما ازداد علمها ازدادت شرورها وفشى فيها الزنا الذي يضيع الأنساب ويحل عقد التناصر وقتل النفس والانتحار وازالة العقول بالمسكرات والاحتيال بعلومها وصناعتها على سلب الأموال والغش والخديعة وكثير من الأخلاق المخلة بنظام الهيئة الاجتماعية وماذلك الالأن علومها التي برعت فيها ليس لها في اعتقاد المعاد نصيب ويظهر أن تلك الأمم لو لابقية من اعتقاد المعاد قائمة بينها لوجدناها قد هوت للدمار وأخذت تنمحي من لوح الوجود ، ومما يضحك الثكلى انكم لما لاحظتم أن العلم لا يتكفل بنظام الهيئة الا اذا كان

تاما عاما فى جميع الأفراد الانسانية اشترطتم فى تكفله بذلك أن يكون تاما عاما ، ثم قلتم : لابد من ذلك يوما ما الا أن ذلك بعيد جدا وربما يلزم له ألوف من الأجيال فانتم فى رفضكم لاعتقاد المعاد وتمنيكم فى العلم هذه الأمانى الواهية مثل الطبيب الأحمق الذى يقول للمريض بالمرض القاتل اترك الحمية وكل ماشئت وانى بعد كذا كذا من السنين آتيك بدواء يكون به شفاؤك فقد صدق هذا المثل الدارج ـ الى حينما يأتى الترياق من العراق يكون ملسوع الهوى فارق ـ على أنه ليس من حسن التدبير وكياسة الرأى والأخذ بالحزم مع اعتقادكم لمذهبكم من انكار المعاد أن تجاهروا به بين العموم وتدرسوه للاحداث حتى تروا أن العلم الذى تزعمونه بمجرده متكفلا بحفظ نظام العالم قد تم وعم والا فانتم بمجاهرتكم بهذا المذهب الباطل قد فتحتم باب الدمار على العالم ونعوذ بالله أن يشيع هذا الفكر بين الأمم ومعاذ الله أن يشيع والعقول السليمة تأباه هدانا الله واياكم لما فيه خير الأنام *

وأنى أنصح لكم أن تأخذوا بالحزم والاحتياط وتتصوروا أنكم اذا صدقتم بالمعاد وتأهبتم له فان كان حقا نجوتم وان كان باطلا لم يضركم هذا الاعتقاد غاية مافى الباب أن يقال انه تفوتكم اللذات الجسمانية الا أن هذه اللذات يجب على العاقل أن لايبالى بها لأمرين ، أحدهما انها فى غاية الخساسة لأنها مشترك فيها الخنافس والديدان والكلاب ، والثانى انها منقطعة سريعة الزوال والفناء ، فالحرص عليها لايساوى ترك الحزم والاحتياط فى الأمر الذى تخشى عواقبه *

(هذا) وقد بقيت مسألة من المسائل التى ذكرتم فيما تقدم انكم تنكرونها من النصوص التى فى الشريعة المحمدية وهى مسألة نزول المطر من السماء . وذلك انكم تقولون : ان اختباركم فى علومكم دل على ان الامطار تتولد

من ابخرة ترتفع من الارض والبحار وتتصاعد الى الطبقة الباردة من الهواء فتجتمع هناك بسبب البرد وتنزل بعد اجتماعها، وذلك هو المطر فاقول: ان النصوص التي وردت في الشريعة المحمدية من المتواتر الذي عليه الاعتماد في الاعتقاد بشأن المطر هي على قسمين منها ماتصرح بان المطر ينزل من السماء، ومنها ماتصرح بانه ينزل من السحاب، ثم السماء تطلق في اللغة العربية التي وردت الشريعة المحمدية بها على عدة معان كما في قواميس تلك اللغة منها السماء التي هي مسكن الملائكة، ومنها سقف كل شيء وكل بيت، ومنها كل ماعلا الشيء فهو سماؤه، ومنها السحاب ومنها المطر وقد تقدم لكم ان القاعدة المقررة عند اتباع محمد ﷺ أن يعتقدوا ظواهر النصوص الشرعية والمعاني المتبادرة منها مالم يقم دليل عقلي قاطع على خلافها، وان قام دليل كذلك أخذوا بتأويلها والتوفيق بينها وبين ذلك الدليل، فعلى هذا فهم يعتقدون المعنى الظاهر المتبادر من لفظ السماء المذكور في انزال المطر وهو الجسم الذي هو مسكن الملائكة كما هو المراد في كثير من الاستعمالات الشرعية ويوفقون بين النصوص التي تصرح بنزول المطر من السماء، والتي تصرح بنزوله من السحاب بان الله تعالى قادر على انزاله من السماء الى البخارات المجتمعة المسماة بالسحاب ثم ينزله منها الى الارض فتارة تذكر النصوص الشرعية محل نزوله الأول، وتارة تذكر محل نزوله الثاني والله أصدق القائلين، وان ثبت لديهم ماتقولونه من أن المطر ليس إلا بخارات الارض وبحارها وتحقق ذلك بالبرهان القاطع ساغ لهم على موجب القاعدة المتقدمة أن يؤلوا النصوص التي يتبادر من ظواهرها ان المطر ينزل من السماء التي هي مقر الملائكة بان المراد بالسماء في هذه النصوص هي ماعلانا وصار سقفا لنا وهو السحاب ـــ ذكر هذا التأويل الامام الرازي في تفسير سورة البقرة، وأشار اليه الشيخ الشرنبلالي

فى مراقى الفلاح — أو أن يقال : انه لما كان نزول المطر باسباب سماوية من جملتها حرارة الشمس التى تثير وتصعد الأجزاء المائية من أعماق الارض أو من البحار والانهار الى جو الهواء فتنعقد سحابا فتمطر كان الانزال من السحاب حقيقة، ومن السماء مجازا باعتبار السببية والله مسبب الأسباب — ذكر هذا حقى افندى فى تفسير سورة النبأ — فبعد هذا البيان أى اشكال لكم أيها الماديون فى نصوص هذا المقام مادامت تنطبق على العقل باقرب تأويل وقد بقى كثير من نصوص الشريعة المحمدية أخال انكم باطلاعكم عليها تنكرونها فى أول الأمر لعدم معرفتكم توجيهها وبماقاله علماء الشريعة فى معانيها وكيفية اعتقادها ، ولكن اذا سألتم أهل الذكر والمعرفة من أتباع محمد ﷺ لاتجدون شيئامنها إلا له انطباق صحيح على قانون العقل لايخالفه بادنى مخالفة، ولكن المدار على المذاكرة مع علماء هذه الشريعة المتبحرين فيها ، العالمين بقواعدها ، المحيطين بماقاله اجلاؤها فى تفسير نصوصها الذين شافهوا الرسول عليه السلام لا مع الضعفاء الذين لايعلمون منها إلا رسوم العبادات وأحكام المعاملات فتظنونهم من أفاضل العلماء وأساطين الحكماء ، فهؤلاء ربما يكونون عقبة فى سبيل أيمان امثالكم لجهلهم بقواعد الدين المحمدى وعدم معرفتهم فى طرق التوفيق بين نصوصه والأدلة العقلية ، ومتى يجب ذلك التوفيق فقد يسلكون بغفلتهم سبلا يقصدون فيها المحاماة عن الدين الاسلامى فيجعلون التنفير عنه عوضا عن التاليف اليه ، فهم بذلك أضر على الدين من أعدائه الألداء — قد سمعت عن بعض هؤلاء الضعفاء انه يقول : لايجوز فى الدين الاسلامى الاعتقاد بوجود قارة اميريكا لان اعتقاد ذلك يستلزم اعتقاد ان الارض كرة وهو خلاف الاعتقاد الاسلامى انتهى، فهذا المسكين قد كاف بجهله أهل الاسلام أن يكابروا بالمحسوس

ويجعلوا دينهم سخرية بين الامم ، وحاشا الدين الاسلامى أن يكون بهذه المثابة وأن ينحط الى هذه الدرجة السافلة وهو أعظم الأديان متانة فى العقول وأبعدها عن الاعتقادات الباطلة والتصديق بما ترفضه العقول السليمة ، وقد كان لهذا المسكين مناص عن تعسفه فى هذا الطريق الحرج بان لا ينكر وجود اميريكا الثابت وجودها بالعيان وبالتواتر ، واذا وجد كما زعم ان الاعتقاد بوجودها يستلزم قطعا الاعتقاد بان الارض كرة فله أن ياخذ بقول من قال من أجل علماء الملة الاسلامية بكروية الارض كالامام الرازى ويؤول الظاهر من النصوص الشرعية التى يتبادر منها ان الارض مبسوطة بتأويلات موافقة فيقول مثلا فى النص القرآنى الذى يقول (والارض بعد ذلك دحاها) ان المراد بالدحو تسوية ظاهرها بجعلها صالحة للسكنى كما قاله بعض المفسرين ، ولا يضر حينئذ هذا الاعتقاد فى الشريعة المحمدية مادام موافقا لقول من أقوال علمائها الذين تعتمد أقوالهم فى الدين ، وفى فهم النصوص الشرعية وجاريا على وجه من أوجه التأويل الصحيحة ، ولكن من أين لهذا المسكين أن يدرك هذا المدرك وهو لا يعلم إلا شقشقة اللسان ببعض الفاظ الاحكام فهو صديق للدين ولكن صديق احمق سالك فى سبيل عدو ألد ذلك من وفور جهله وقلة عقله وفقنا الله جميعا للتحلى بالعلم الحق وسلوك منهج الصواب اللهم آمين *

(هذا) ولما بلغ العالم المحمدى فى كلامه مع هذه الطائفة المباديين الى هذا الحد من البيان الذى كشف كل شبهة قامت لهم فى الشريعة المحمدية وأراهم منزلة مذهبهم فى نظر العقل السليم استيقظوا من غفلتهم وانتبهوا من رقدتهم وبعثت البابهم من لحود الاوهام وخلصت أفكارهم من قتار الظلام وقالوا له: انا لك من الشاكرين أيها الناصح الامين والمرشد المبين فقد ازلت

من أمامنا صعوبات ومهدت عقبات ولكن أنت أزلت المانع من تصديق محمد ﷺ فبقي علينا المقتضى لتصديقه وهو يكون عندنا متى وجدنا الادلة التي قامت عند أتباعه صحيحة دالة على صدقه دلالة قاطعة فقال لهم ذلك العالم: ان هذا الامر اليكم وسهل بمشيئة الله تعالى عليكم فشرعوا في النظر في تلك الأدلة وتدقيق البحث فيها مفصلة وجملة فظهر لهم بعد امعان النظر واجالة الفكر انها من الصحة بمكان دالة على صدق محمد ﷺ دلالة لا يعتريها الريب لاسيما بمجموعها، فان العقل السليم يحيل أن تتفق جميعها على صحة دعواه عليه السلام وهي تكون غير صحيحة ، واعتقاد الصدفة في اتفاقها لا يذعن به العقل ، على أن منها ماليس لمحمد عليه السلام في اقامته دخل ولا يقول بحصول الصدفة والاتفاق في ذلك إلا مكابر — وتفصيل هذا قدم في صدر كلام هذه الطائفة عند ما أخذت تستوضح حال محمد ﷺ ، وسيأتي في الردود على الطائفة التي تروم تشكيك اتباع محمد ﷺ في أدلتهم فارجع الكل في مرجعه ولا حاجة الى التكرار هنا — فعند ذلك صدقت هذه الطائفة محمدا ﷺ في دعواه الرسالة من عند الله تعالى مقرين بوجوده سبحانه مصدقين برسله وكتبه والبعث وجميع ماجاء به وآمنوا بذلك إيمانا ثابتا عن بيان كاف وتوضيح شاف ، فاصبحوا من أكرم أشياعه عليه السلام وأثبت أتباعه، والله على كل شيء قدير .

(هذا) وقد كان يوجد من كل طائفة من الطوائف المتقدمة أناس لهم رئاسة في قومهم ، أما رئاسة دينية واما رئاسة امارة وسياسة، ولهم نفوذ تام وسطوة على القلوب فلا يعصى لهم أمر ولا يرد لهم رأي هم المتبوعون في الأقوال والأفعال وسائر قومهم لهم أتباع وهم المسامحون اذا سطوا على الاموال والاعراض والدماء لمكان رئاستهم وعزة عصبيتهم، فعندما

ادعى محمد عليه الصلاة والسلام الرسالة من عند الله تعالى وجرى ما جرى له مع الطوائف المتقدمة وآخر الامر صدقوا دعواه بما ثبت لديهم من الدلائل على صدقه قام فى نفوس أولئك الرؤساء المذكورين صدق دعواه أيضا وجزموا بذلك أكمل الجزم لوضوح دلائله ، ولكن حب الرئاسة ومالهم من التميز بين أقوامهم حال بينهم وبين الاذعان والخضوع له عليه الصلاة والسلام والاقرار بتصديقه ، وذلك انه خطر لهم أنهم اذا اتبعوه وخضعوا له سلبوا تلك الرئاسة وحرموا ذلك التميز ولزمهم أن يكونوا أتباعا بعدما كانوا متبوعين وتجرى عليهم أحكام شريعته لا يميزون عن سواهم فى شيء كما هو شأن تلك الشريعة من التسوية بين جميع أتباعها وانهم لا ينالون شيئا من أموال قومهم التى تدخل تحت تصرفه عليه السلام إلا إذا عملوا عملا يعود على أتباعه بالنفع ، وان من يسطو منهم على أحد فى مال أو عرض أو دم لا يسامح بمثقال ذرة إلا أن يعفو صاحب الحق فكتموا ما قام فى نفوسهم من صدقه عليه السلام وأخذوا يتفكرون فى أمر يعاكس شأنه ويفرق عنه أتباعه ، فرأوا ان الاقرب فى بلوغ ذلك المأرب أن يلقوا الشبه على الطوائف الذين اتبعوه ليوقعوا فى نفوسهم الشك فحاولوا توهين الدلائل التى استدل بها أولئك الطوائف بطريق الاحتمالات فيها وإيراد التأويلات حتى تعود فى نظرهم غير يقينية فيقولون لهم حينئذ : أن هذه الدلائل التى اعتمدتم عليها فى تصديق محمد عليه السلام ما هى إلا دلائل ظنية ولا يليق بكم أن تتركوا عوائدكم المألوفة وما كان عليه آباؤكم من المعتقدات وما تلقيتموه من الاديان التى جاءت بها الرسل المتقدمون لمجرد دلائل ظنية ، والظن لا يعتمد عليه فى مثل هذا الحال فرتبوا فى أفكارهم تلك الشبه الواهية والاحتمالات الباطلة .

وجاءوا للطائفة التي صدقت محمدا عليه السلام حينما تحدى بالقرآن وقال انه يستعجز الفصحاء والبلغاء بسورة منه، وهم كانوا من أهل الفصاحة والبلاغة فعجزوا عن المعارضة وصدقوا بسبب ذلك دعواه بالرسالة فقالوا لهم: يحتمل أن محمدا عليه السلام قد حصل له درجة من الفصاحة والبلاغة لم توجد في أحد منكم فعجزتم عن معارضته، وكثيرا ما يوجد بين أهل كل صناعة من يبلغ الدرجة القصوى فيها حتى يقر له سائر أهلها بانه رئيسهم وهم عاجزون عن شق غباره، فاجابتهم تلك الطائفة بان صناعة الفصاحة والبلاغة وان كان أساسها استعداد صاحبها في أصل فطرته، ولكن لابد لكمالها وبلوغها فيه درجة سامية من ممارسة وتدرج في طرقها من نحو قول الأشعار، وروايتها ومعانات الخطب ودراستها ومحاورة الفصحاء ومغالبة البلغاء حتى تقوى فيه ملكتها ويصبح من زمرتها حسب استعداده الذي فطر عليه، وإيضا مهما بلغت درجتها من السمو فلابد لها من نظير من نوعها ومثال من صنفها ولو كان دونها في درجات، ونحن نرى محمدا ﷺ وان كان في أصل فطرته مستعدا لتلك الصناعة، ولكنا لم نجده من أول نشأته الى أن بلغ الاربعين سنة من عمره التي هي سن التحصيل والممارسة قد مارس تلك الصناعة ممارسة تستلزم له بلوغ تلك الدرجة، ولم يكن في تلك المدة له معاناة في الاشعار لاقولا ولا رواية، وكذلك الخطب والرسائل لم يكن له فيهما عناية ولم نجده في تلك المدة أبدا مولعا بمحاورة الفصحاء ومغالبة البلغاء وهو بين أظهرنا لايخفى علينا حاله، وكيف يخفى؟ ومن يعاني تلك الصناعة يشتهر بيننا كالشمس في رابعة النهار لأنها من أعظم مفاخرنا فعندما بلغ سن الاربعين وادعى الرسالة وتحدانا بالقرآن، مارأينا إلا ماوجدناه في قرآنه من تلك الفصاحة البارعة والبلاغة الصادعة اللتين رمينا عندهما بالعجز وأصبنا

بالوهن، وأيضا قد انفرد ذلك القرآن فى منهجه الذى سلكه فى الفصاحة والبلاغة بما لا نجد له نظيرا فلا هو من الاشعار ولا الأراجيز ولا من نوع الخطب والرسائل ولا له مثال يحتذى عليه، وهذا يكون أعرق فى الغرابة فعلى من مارس محمد عليه السلام هذه الطريقة التى جاء بها فى قرآنه وهى لم تعهد بين العرب اجمع ، أيكون هو أول مخترع لها ويبلغ فيها هذه الدرجة التى لا تلحق ؟ ماهذه عادة المخترعين للاشياء بل عادة كل مخترع أن يصدر عنه اختراعه كالطفل وسواه يربيه حتى يبلغ الغاية التى تمكن فيه ، واما ان المخترع يبلغ باختراعه الغاية القصوى التى لا تستطاع وليس بعدها منزلة فهذا شيء لم يعهد فى المخترعين من البشر ولا يبعد أن يقال : انه غير ممكن فى قدرتهم حسب الاستقراء إلا أن يكون الاختراع طفيفا جدا ، فعدم ممارسة محمد عليه السلام لتلك الصناعة فى الماضى من عمره بما يبلغه تلك الدرجة التى لا تلحق وانفراد قرآنه فى ذلك الاسلوب الذى بلغ الغاية فى الفصاحة والبلاغة حتى عجزنا عن معارضته هو مبطل للاحتمال الذى جوزتموه وأردتم ادخال الشك علينا به ، فنحن لا نزال مصدقين محمدا عليه السلام فى دعواه بدون شك ولا ريب، ونقول: ان ذلك القرآن ليس الاتيان به فى قدرة البشر بل هو منزل من عند الله تعالى كما ادعاه محمد عليه السلام .

فانعطف أولئك المشككون الى الطائفة الذين صدقوا محمدا عليه الصلاة والسلام بسبب أنهم وجدوا القرآن الذى جاء به مشتملا على الصفات الفاضلة التى لا يمكن اجتماعها فى كلام الا أن يكون من عند الله تعالى والى الطائفة الذين صدقوه بسبب انتظام حال شريعته عليه السلام واحتوائها على كل فضيلة وتكفلها بانتظام حال متبعيها فقالوا : لهاتين الطائفتين: قد بلغنا أن محمدا قبل دعواه الرسالة قد سافر الى

بلاد الروم فى تجارة مرتين ، وبلغنا أنه اجتمع هناك ببعض رهبانهم — بحيرا الراهب الذى عند مارآه مع تجار قريش فى طريق الشام تفرس به أنه نبي آخر الزمان كما هو منقول فى السير النبوية — ه

فلعله نقل هذا القرآن المشتمل على الفضائل عمن ذكر وتعلم منه تلك الشريعة وجاء بلاده وادعى الرسالة وعند دعواه بذلك القرآن وتلك الشريعة، ولعدم وجود أحد فى بلاده من أهل المعرفة الذين يمكنهم معارضته بالاتيان بمثل ماجاء به توهمتم ان ماجاء به حصل له من جانب الله تعالى دون صنيع البشر فاجابتهم الطائفتان المذكورتان بان مثل ذلك القرآن المحتوى على تلك الصفات الفاضلة التى مرشرحها فى استدلالنا وبيان أن اكبر العلماء والحكماء والسياسيين يعجزون عن جمعها فى مثل ذلك الكتاب ، وان مثل تلك الشريعة المشتملة على ماتقدم شرحه أيضاً فى استدلالنا من العقائد الحقة والأخلاق الحسنة والعبادات المبنية على الحكم والأسرار الباهرة والأحكام التى تتكفل بانتظام أحوال الأنام وغير ذلك مما سبق أن استيفاء عدده يحتاج الى مجلدات كل ذلك لوفرض جواز تعلمه من الغير لاحتاج الى زمان مديد يبلغ العشرات من السنين ولو كان المعلم من أبرع الحكماء والمتعلم من أعظم الأذكياء ومحمد عليه السلام انما غاب عن بلده مكة فى جميع عمره الذى عاشه بين أظهرنا مع تجار قريش الذين كانوا يأتون البلاد الرومية للتجارة أياما معدودة هى مدة الذهاب والاياب بين مكة وبلاد الروم وقضاء مصالح التجارة وهذه مدة لاتكفى لأن يتعلم فيها محمد عليه السلام بابا واحدا من أبواب شريعته التى جاء بها وكل واحد منا يعلم صعوبة التعلم واحتياجه الى الزمان الكافى على ان تعلم ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام للكاتب القارىء هو من الصعوبة والاحتياج الى الزمان

المديد بمكان ؛ فكيف ومحمد عليه السلام أمي لا يقرأ ولا يكتب فكيف يجوز العقل تعلمه جميع ذلك مع أميته وقصر زمان غيبته عن بلده وأميته عليه السلام التي طالما نسمعه يدعيها لنفسه ويذكر في القرآن الذي يتلوه بين العام والخاص انه النبي الأمي ، ويذكر فيه أيضا في الاحتجاج على أن ماجاء به هو من عند الله تعالى ليس بتعلم من البشر قول ربه له : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون) هي أي تلك الأمية ثابتة عندنا بلا ريب لأنه عليه السلام قد نشأ بين أظهرنا ولم نعلم أنه عاني صنعة القراءة والكتابة ولا رآه أحد منا أو نقل الينا انه خط سطرا واحداً يوما من الأيام ، ولو أنه كان يعرف تلك الصنعة بين قومه الذين لا يوجد منهم من يعرفها الا الأفراد القلائل لما خفي علينا حاله في تلك المدة ولو تقصد اخفاءها وكيف يتقصده ولا داعي يدعو اليه بل الداعي يدعو الى اظهار حاله لما فيه من الصفة الكمالية بين تلك الأمة الأمية والعقل لا يصدق ان هذا الرجل من قبل تعلم تلك الصنعة صمم على أنه يتعلمها ويخفي حاله ثم يستعين بها على تعلم ذلك القرآن وتلك الشريعة من بعض رهبان الروم ثم يدعي الرسالة من أين ضمن لنفسه تمام ذلك ، ثم تم له اخفاء حاله في تعلم تلك الصنعة وتم له تعلم ماجاء به وادعى تلك الدعوى لا يقول بذلك الا كل مكابر أو منقاد للأوهام ، وبعد ذلك كله فان العقل لا يصدق بوجود معلم قد حوى جميع تلك المعارف التي اشتمل عليها القرآن وتلك الشريعة وأحاط بأطراف تلك العوارف لا في بلاد الروم ولا في غيرها ، وقد ظهر لنا بعد مخالطتنا للروم ان ماجاء به محمد عليه السلام لا يوجد عند علمائهم أجمعين فضلا عن وجوده عند بعضهم بل رأيناهم بعد المخالطة

والاطلاع على ماجاء به محمد عليه السلام يعجبون من حسن انتظام الشريعة ويقتبسون منها مايوافق سياسة بلادهم فكيف يكون ذلك عند علمائهم ولا يشيعونه بينهم ويبقى خفيا حتى يظهره ويجاهر به محمد عليه السلام فيقتبسون منه مايقتبسون على أنه يوجد فيما جاء به كثير مما يخالف دين الروم في العقائد والأعمال والأخلاق ويذم ذلك منهم غاية الذم، فكيف يقنع العقل أن بعض رهبان الروم علم محمدا ذلك وأى داع دعاه اليه على أنه لو غض النظر عن جميع الموانع المتقدمة التي تمنع من تعلم محمد عليه السلام ماجاء به من بعض رهبان الروم فانه يوجد مانع آخر قوى يمنع من ذلك البتة وهو أن محمدا عليه السلام ماجاء بالقرآن والشريعة دفعة واحدة وأظهر ذلك للناس فى أول دعواه بل جاء بذلك مفرقا منجما من أول دعواه الرسالة إلى أن تم دينه وانتشر بين الطوائف الذين اتبعوه والأمم الذين صدقوه فكان يأتى بالآية والآيتين والسورة والسورتين من قرآنه على حسب الحوادث التي تحدث بينه وبين أخصامه أو فيما بين اتباعه مشتملا ذلك على مايقتضيه الحال من استدلال أو دفع شبهة أو جواب سؤال أو غير ذلك، وكذلك أحكام الشريعة كان يبلغها للناس شيئا بعد شيء على حسب المصالح والحوادث والمشاكل والسؤالات فيأتى فى مقابلة كل شيء من ذلك بطبق المرغوب (والملخص) أنه كان يأتى فى مقابلة كل حادث يحدث معه فى مدة دعواه بما يناسبه ويوافقه من القرآن والشريعة وهذه الكيفية معلومة بالضرورة لنا ولمن نقل لهم خبره وسيرته بالتواتر الصحيح، وحينئذ يقال: ما الذى أعلم بعض رهبان الروم بجميع الحوادث المستقبلة التي سوف تقع وتتفق لمحمد عليه السلام بينه وبين أخصامه أو اتباعه فعلمه لكل منها ما يناسبه من القرآن ومن الشريعة فعرف جواب كل سؤال سوف يرد عليه ودفع كل شبهة وحكم كل حادثة يتفق حدوثها فى مدته وهو أورد لكل شيء من ذلك ما يجب له فى وقته

مسدداً مقنعا للافكار وانا نرى من تلك الحوادث ما لا يخطر فى بال أحد انه سوف يقع أو يتفق وقوعه الى آخر الدهر ومن يطالع على جميع ما حدث من الحوادث فى مدة دعواه عليه السلام يعلم أن احاطة بعض رهبان الروم الذى تزعمونه بجميع ما سوف يحدث فى تلك المدة واستحضار ما يلزم له هو من المحال البتة لا يقول به الا كل عنيد، وان قلتم أنه يوجد فى اتباع محمد عليه السلام رجل - قيل هو سلمان الفارسى رضى الله عنه ، وقيل غيره - هو من أمة شهيرة بالمعارف ونظامات الممالك فما المانع من أن محمدا عليه السلام يتعلم من ذلك الرجل أحكام ما يرد عليه من الحوادث واجوبة ما يلقى عليه من المسائل ودفوع ما يعارض به من الشبه وغير ذلك ؟ كل شىء يأخذه عنه فى وقته ، فكلما ورد عليه أمر من ذلك لجأ إلى ذلك الرجل وسأله عنه فيعلمه ما يقتضيه الحال قلنا : أن توهم هذا الأمر من السخافة بمكان أولا لا يخفى أن أمر التعلم لا يتأتى فى جلسة واحدة ولا فى جلسات قليلة ولا يتم فى الخفية بل التعليم انما يتم اذا اختلف المتعلم الى المعلم أزمنة متطاولة ومدداً متباعدة، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر بين الخلق أن محمدا عليه السلام يتعلم العلوم من فلان والحال ليس كذلك . وثانيا لو كان ذلك الرجل معلما لمحمد عليه السلام جميع تلك العلوم التى وجدت فى قرآنه وشريعته لكان فى غاية الفضل والتحقيق يشار اليه بالبنان والحال ان ذلك الرجل الذى تزعمونه ليس بهذه الدرجة السامية بل ولا هو من المشاهير بالمعرفة بين الناس، ويوجد كثير من أتباع محمد عليه السلام يفوقونه فى الاحاطة باحكام الشريعة بدرجات وهو نفسه يكتسب منهم، وممن دونهم، ويتعلم ما يحتاج اليه ويخضع لديهم خضوع المتعلم للمعلم ولا يصدق العقل ان يقتدر على اخفاء حاله بهذه الدرجة، وثالثا لو كان هو المعلم لمحمد عليه السلام لاضطر محمد الى تقديمه فى المرتبة والمقام بين

أتباعه على جميعهم ولو لم يقمه محمد فى تلك المنزلة لما صبر هو على ذلك ونحن نراه بين أتباع محمد دون كثير منهم فى الرتبة وهو راض بذلك غير متنكر منه؛ ورابعا انا قد خالطنا فيها بعدامة ذلك الرجل فلم نجد عندها جميع ما جاء به محمد عليه السلام من العلوم والأحكام والشريعة الجامعة لكل خير، وكثير منها لم يوجد عندهم منه عين ولا أثر بل وجدناهم يقتبسون من شريعته ما يرونه مناسبا لسياسة بلادهم، فمن أين جاء ذلك الرجل جميع تلك المعارف وامة محرومة منها؟ فكل ذلك يبطل هذه الاحتمالات التى أوردتموها علينا أيها المشككون ويلقيها فى حيز الاهمال فنحن لا نزال مصدقين بدعوى محمد عليه الصلاة والسلام بدون شك ولا ريب ه

فقال أولئك المشككون إلى الطائفة الذين استدلوا على صدق محمد عليه السلام باقرار أهل الفصاحة والبلاغة بالعجز عن معارضة قرآنه وبشهادة أهل المعرفة فى فضائل الكلام باشتمال القرآن على الصفات الفاضلة التى يعجز عن جمعها في مثله كل أحد من البشر ويعجز بعض أهل الفصاحة والبلاغة عن معارضة قرآنه أيضا بدليل عدم التعرض لها بل انحازوا إلى محاربته التى سببت قتل أنفسهم وسبي ذراريهم وتخريب ديارهم وجلاءهم عن أوطانهم فتركوا الطريق السهل وهو المعارضة لو تمكنهم، وسلكوا سبيل المحاربة التى هى أصعب السبل فقالوا لهم: وما يدريكم أن الطائفتين اللتين أحداها أقرت بالعجز عن المعارضة والأخرى أقرت باشتمال القرآن على الفضائل التى لا تلحق واتبعوا جميعا محمداً (عليه الصلاة والسلام) كان ذلك منهم لغرض من الاغراض وغاية يبلغوها فى ذلك الاتباع فاقروا بذلك الاقرار واتوا بتلك الشهادة ليكون ذلك حجة لهم على من يلومهم* وأما الطائفة الذين تركوا المعارضة وانحازوا إلى المحاربة التى سببت لهم تلك الاضرار فربما يكون

محمد (عليه الصلاة والسلام) هو الذى ابتدأهم بالمحاربة وبسبب استعار نار الحرب لم تبق لهم فرصة للمعارضة ولم يمكنهم محمد (عليه الصلاة والسلام) من ذلك وبهذا السبب تركوا الطريق السهل وسلكوا السبيل الصعب فهم قد الجؤا لذلك الجاءاً فاجابتهم هذه الطائفة بان قولكم فى حق الطائفتين الأولين أنه يحتمل أن يكون ما حصل منهم من الاقرار والشهادة والاتباع لغرض من الأغراض وغاية ينالونها فى ذلك فهو قول مسربل بالمجازفة ومجرد عن كل روية لأنه لا يخفى أن أصعب شىء على العاقل مفارقة دينه الذى يرجو فيه النجاة فى الدنيا والآخرة ، وأصعب شىء بعد ذلك عليه مفارقة عوائده التى مرن عليها وتلقاها عن اسلافه حتى أن البعض وان استشعر برداءة عوائده يصعب عليه مفارقتها وتحكم عليه نفسه بملازمتها ، وعلى هذا فالعاقل لا يفارق دينه الا إذا تيقن النجاة فى دين سواه ولا يهجر عوائده لاسيما الموروثة الا لسبب قوى قاهر ، فهاتان الطائفتان نراهم قد فارقوا دينهم الذى يرجون به نجاتهم وعوائدهم التى مرنوا عليها وصاروا يذمون جميع ذلك أشد الذم وأقروا بالعجز عن المعارضة وشهدوا بفضل القرآن بمجرد اطلاعهم عليه بدون أدنى خوف من جانب محمد عليه السلام لما لهم من العصبية القوية بدون احتياج الى أموال فى يده بل قبل أن تقوم له عصبية وأن يحصل فى يده شىء من الأموال وبدون سبب من الأسباب الملجئة لذلك يعلم ذلك من استقصاء حالهم وحاله والاطلاع على كيفية اتباعهم له فلولا انهم جزموا بالعجز عن المعارضة وباحتواء القرآن على تلك الفضائل التى يعجز عن جمعها البشر لما أقروا وشهدوا بذلك ، ولما كان منهم ذلك الاتباع الذين فارقوا به دينهم الذى يعتقدون به نجاتهم وكابدوا مشقة هجر عوائدهم وهم عقلاء فطناء آمنون « وأما قولكم » فى حق الفصحاء البلغاء الذين ظهر عجزهم عن

المعارضة بتركهم اياها وسلوكهم سبيل المحاربة التي جاءتهم بالأضرار أنه ربما ابتدأهم محمد عليه السلام بالمحاربة ولم يجدوا فرصة للمعارضة ولم يمكنهم محمد منها فنقول: لو كان ما حصل بينهم وبين محمد عليه السلام من دعوته لهم وامتناعهم قد حدث في واقعة واحدة وفي مدة وجيزة لربما كان العقل يصدق بذلك الاحتمال الذي قلتم به ولكن الحال ليس كذلك فانهم ما تحاربوا معه عليه السلام حتى تحداهم بالقرآن مرارا ونادى على رءوس الاشهاد بعجز البشر عن معارضته ومضى على ذلك مدة من الزمان ليست بقليلة وهو في قسم كبير من اولها لم يكن عليه الصلاة والسلام ذا أتباع يصلح عددهم للمحاربة ، ثم بعدما استعرت نار الحرب بينه وبين هذه الطائفة لم يزل متحديا بذلك ويدعوهم الى المعارضة كلما وجد فرصة لها وقد كان يحصل بينه وبينهم هدن كثيرة ويجتمع هو وأصحابه معهم في أوقاتها ، فكان يمكنهم في اثناء تلك الهدن والفرص أن يأتوا بالمعارضة لو أمكنتهم ويرسلوا اليه ما يعارضون به وينشروه بين أحياء العرب ولا يعدمون نصيرا ولكن لم نجدهم حاولوا ذلك لا في أول دعواه . ولا في وقت الحرب . ولا في زمن السلم وما التجؤا الى فصاحتهم وبلاغتهم الا في هجائه وهجاء أتباعه * وأما المعارضة فما تفوهوا في جانبها ببنت شفة ، ولو حصل منهم شيء منها لما خفي علينا ولكانت نقلته الرواة الى المشارق والمغارب، فهذه الاحتمالات التي أردتم تشكيكنا بها باطلة زاهقة لا يجوزها الا كل عديم التدقيق غبي عن حقيقة أحوال أولئك الطوائف مع محمد عليه الصلاة والسلام ، فنحن نرفض جميع تلك الاحتمالات الواهية ولا نزال مقرين مصدقين بدعوى محمد عليه السلام معتمدين على دليلنا المتقدم بدون ارتياب *

فانعطف أولئك المشككون الى الطائفة الذين صدقوا دعوى محمد

عليه السلام لما شاهدوه من خوارق العادات ومخالفة النواميس الطبيعية التى ظهرت على يديه فقالوا لهم : يحتمل أن جميع ما أظهره محمد عليه السلام من الخوارق كان من نوع السحر فسحر اعينكم حتى تخيلتم وقوع ذلك فاجابتهم تلك الطائفة بأن حالة محمد عليه السلام ليست حالة ساحر فانه يأمر بالخير وينهى عن الشر ، والذى يعهد من السحرة انهم اشرار شهوانيون يأتون بأعمال السحر لنوال مآربهم الخسيسة ومحمد عليه السلام لا يظهر شيئاً من الأعمال الخارقة للعادات لأجل غرض خسيس ولا يأتى بذلك إلا ليقنع العقول باتباع ماجاء به من الشريعة التى تحتوى على مكارم الأخلاق وتأمر بالتخلى عن الشرور والتحلى بالخيرات فحالته حالة الرسل الذين تقدموه من كمال الصفات وسلوك سبيل الاستقامة وهداية الخلق الى الحق . والسير فى منهج النجاح وهو مؤيد دعواه بمثل ما أيدوا دعواهم من خرق النواميس الكونية التى لا يقدر على خرقها إلا الله تعالى وذلك يكون كالتصديق منه تعالى لدعوى ذلك الرسول كأنه تعالى يقول صدق عبدى فيما يبلغ عنى وخرقى للنواميس الكونية على يديه هو تصديقى له فى دعواه - وقد تقدم توضيح ذلك باوفى بيان فارجع اليه ان شئت - على أن بعض تلك الخوارق التى ظهرت على يدى محمد عليه السلام لا يصدق العقل ان للسحرة قدرة عليها وذلك كانشقاق القمر الذى شاهده الحاضر والبادى فانه كما رآه الحاضرون عند محمد عليه السلام الذين طلبوه منه فقد شاهده وأخبر به المسافرون الواردون من امكنة بعيدة تساوى افقهم مع أفق الحاضرين فهب أن محمداً عليه السلام سحر أعين الحاضرين عنده حتى شاهدوا ان القمر قد انشق فهل فى قدرته ان يسحر أولئك المسافرين الذين كان كل فريق منهم فى مكان من البادية ؟ لا يقول بذلك الا كل مكابر او جاهل بمقدار

قدرة السحرة فى أعمالهم على أننا بعد ماصدقنا محمدا عليه السلام بسبب تلك الخوارق وأطلعنا على شريعته أتم الاطلاع وخالطناه أشد المخالطة ودققنا النظر فى أحواله عليه السلام لم نجد فى شريعته الا كل استقامة وكل مايؤول على العامل بها بجلب الخير ودفع الضير كشرائع الرسل المتقدمين فى أصل الاستقامة فائقة عليها باستيفاء أبواب الكمالات ولم نجد فيه عليه السلام ماينكره العقل أو يرتاب فيه الفكر وليس شأنه شأن السحرة ولا حاله حال المحتالين على تحصيل حطام الدنيا ونوال شهواتها بل دأبه هداية الناس الى منهج الاستقامة واداء شكر المولى تعالى وصلة الارحام واطعام الطعام للمساكين والايتام مع شفقة منه على اتباعه كشفقة الوالد الحنون لاطمع له فى اموالهم ولاميل فيه الى ملذاتهم بل هو يتفضل عليهم بالاحسان شأن الرسل قبله عليه وعليهم أفضل الصلاه والسلام فعلى جميع ماقدمنا لم يبق لنا ريب فى صدق دعواه وهذا التشكيك منكم ذاهب ادراج الرياح وساقط فى نظر كل منصف فنحن لانزال مصدقين محمدا عليه السلام فى دعواه مؤمنين بكل ماجاء به من عند الله تعالى والله ولى التوفيق ٥

فانعطف أولئك المشككون إلى الطائفة الذين استدلوا على صدق محمد عليه السلام بسبب أن العلامات التى وردت فى الكتب المنسوبة للرسل المتقدمين التى تكون فى رسول يرسله الله تعالى بعدهم قد انطبقت عليه فقالوا لهم: وما أدراكم ان تلك العلامات قد انطبقت على رسول قد مضى قبل أن قام محمد (عليه الصلاة والسلام) بدعواه فاجابتهم تلك الطائفة باننا قد بحثنا فى تاريخ أحوال الرسل الذين تقدموا محمدا عليه الصلاة والسلام وجاؤا بعد ورود تلك العلامات فى تلك الكتب فلم نجد واحدا منهم قد انطبقت عليه جميع تلك العلامات ولوكان واحد منهم كذلك لما خلا ذكره من جميع تواريخ

الرسل ولكانت أخباره تنقل الينا ولو فى بعض الاقاصيص لأن مثله لا يندرس ذكره هذا الاندراس نعم قد وجد من وجد فيه بعض تلك العلامات ولكن لم يوجد من توفرت فيه باجمعها وقداوضحنا هذا فى تقرير استدلالنا - فليراجع هناك - فقالوالهم : وما أدرا كم انه قديأتى فى الزمن المستقبل رسول من طرف الله تعالى تنطبق عليه جميع تلك العلامات ويكون هو المرادفى تلك الكتب وانطباق العلامات الآن على محمد (عليه الصلاة والسلام) كان بطريق الصدفة والاتفاق وان كان وجود تلك العلامات وتوفرها فى شخصين بعيدا جدا ولكن العقل لا يحيله فاجابتهم تلك الطائفة بانا نعتقد أن الله تعالى الذى ينسب اليه ارسال أولئك الرسل الذين جاؤا بتلك الكتب وايحاؤها اليهم هو عليم حكيم فلابد أن يعلم كل مستقبل يأتى فاذا كان يعلم أنه سوف ياتى محمد عليه الصلاة والسلام ويدعى الرسالة وتنطبق عليه جميع تلك العلامات والحال أنه غير مراد وانما المراد من ياتى بعده فلابد بمقتضى حكمته سبحانه أنه كان ينبهنا على ذلك ولو بعبارة واحدة بان يقول فى تلك الكتب: أنه ياتى واحد يدعى الرسالة وتنطبق عليه جميع تلك العلامات التى تذكر فى كتب رسلى ولكنه غير المراد لى وانما المراد من يأتى بعده وحيث لم يرد منه سبحانه شيء من ذلك فوجب أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام هو المراد قطعا واحتمال وجود العلامات فى شخصين الذى قلتم أن العقل لا يحيله قد تبين بهذا التقرير أنه محال لأنه يقتضى اما جهل الله تعالى فى حوادث المستقبل أو اجراء أعماله سبحانه على خلاف الحكمة ووقوع التلبيس منه تعالى على عباده وكل ذلك محال فما ادى اليه يكون محالا فاذاوجود تلك العلامات فى شخصين لا يجيزه العقل فمحمد عليه الصلاة والسلام الذى وجدت فيه باجمعها هو المراد البتة ، وقد شرحنا ذلك فى تقرير استدلالنا

باكمل بيان ـ فليراجع ـ هناك فنحن لانزال مصدقين بدعوى محمد عليه الصلاة والسلام بلاشك ولا ريب *

فمال أولئك المشككون إلى الطائفة الذين استدلوا على صدق محمد عليه الصلاة والسلام بانه لو لم يكن صادقا فى دعواه لما اتفق على تصديقه أولئك الطوائف العقلاء بعد ما كانوا مخالفين له أشد المخالفة ومكذبين أشد التكذيب ومتعصبين لعقائدهم وعوائدهم ولما توفرت لهم تلك الأدلة لكن قد اتفقوا وتوفرت لهم تلك الأدلة فيكون صادقا فقالوا لهم: يحتمل أن يكون كل دليل من أدلة أولئك الطوائف دليلا ظنيا لا يفيد اليقين واذا كان الحال كذلك فمجموع الأدلة يكون ظنيا إذ ليس حقيقة المجموع الا تلك الأفراد فكيف يعتمد على ذلك فى الاعتقاد ومفارقة الدين؟ ويحتمل أن محمداً بقوة حجته وحدة خاطره التى فطر عليها قد صور لكل طائفة من تلك الطوائف دليلا ظنيا وحلاه بحلية اليقين فاجابتهم تلك الطائفة بان كل طائفة من تلك الطوائف المستدلة بتلك الأدلة إذا تأمل العاقل فى شأنهم من أنهم عقلاء متعصبون لما هم عليه من العقائد والعادات لا يصدق عقله بانهم يعتمدون فى مفارقة دينهم وعوائدهم على دليل ظنى ويتساهلون فى تحرير دليلهم واعتماد اليقين فيه لأن أقدامهم على ما اقدموا عليه ليس أمرا طفيفا حتى يهملوا التحقيق والتدقيق فيه فالذى يقنع به العقل السليم ان كل طائفة منهم لم تعتمد فى اتباعها محمدا عليه الصلاة والسلام الا على دليل يقينى يفيد الجزم وعلى فرض ان هذا التقرير لا يفيد القطع بان كل دليل من تلك الأدله هو يقينى فاتفاق تلك الأدلة على نتيجة واحدة ـ وهى صدق محمد عليه الصلاة والسلام ـ مما يفيد صحة دعواه ويكون ذلك دليلا لنا مستقلا يوجب لنا الجزم بذلك وقولكم اذا كان كل دليل على حدته ظنيا فمجموع الأدلة يكون كذلك اذ ليس

المجموع الا تلك الأفراد هو قول ممنوع لأنه وان يكن المجموع ليس الا الأفراد ولكن حكم كل فرد غير حكم المجموع فى المحسوسات والمعقولات كما لا يخفى - قد مر بسط الكلام فى هذا المقام فى الرد على المؤولين لأدلة الطوائف الذين صدقوا الرجل المرسل من عند الملك ويزاد هنا على ذلك بعض البيان - ألا ترون أن الحبل الثخين هو مجموع خيوط كل منها على حدته يستقل بقطعه الولد الصغير وأما مجموع تلك الخيوط وهو الحبل فيعجز عن قطعه أقوى الرجال وكذلك الحال فيما لو خرج جماعة كثيرون من مجتمع حضروا فيه خطيبا خطب بينهم واخبر كل واحد منهم ان الخطيب فى اثناء خطبته سقط عن منبر الخطبة وشج راسه فخبر كل واحد منهم على حدته وان كان ظنيا يحتمل انه كذب ولكن مجموع أخبارهم يفيد اليقين ويحيل العقل أن هؤلاء الجماعة الكثيرين قد تواطئوا على الكذب وهم مختلفون فى الأفكار ولا جامع يجمعهم على اختلاق ذلك الخبر ، وكذلك اذا قال جماعة ان الأمير قد حضر من سفره الى البلدة فاحدهم قال لأنى رأيت اليوم ثيابه قد حضرت مع بعض خدمه والآخر قال : لأنى رأيت خدامه الخاصة بخدمته قد حضروا والآخر قال : لأنى رأيت ولده العزيز الذى من عادته أن لا يفارقه لا سفرا ولا حضرا قد حضر والآخر قال : لأنى سمعت أصوات المدافع قد ضربت فسألت عن ذلك بعض المدفعيين فقال لى : ان الأمير قد حضر ، والآخر قال : لأنى رأيت أرباب الوظائف فى الحكومة مسرعين لملاقاته والسلام عليه عند خروجه من السفينة وهم أخبرونى بذلك ، والآخر قال : كذا والآخر قال كذا وكل منهم أتى بدليل اذا نظر اليه بحد ذاته يكون ظنيا فان العقل لا ينظر الى كل دليل على حدته بل يعتبر مجموع تلك الأدلة ويقول ان اتفاقها لا يكون بطريق الصدفة ويجزم بسببها بحضور الأمير البتة فقد ظهر أن

الأفراد من الأدلة وان كان كل منها ظنيا ولكن مجموعها قد صار يقينا بالاجتماع يفيد الجزم، وأما قولكم يحتمل أن محمدا عليه الصلاة والسلام بقوة حجته وحدة خاطره التي فطر عليها قد صور لكل طائفة دليلا ظنيا وحلاه بحلية اليقين فهذا كلام من لم يعرف حقيقة الأدلة التي اعتمد عليها أولئك الطوائف فان اكثرها لم يتحصل بصنع من محمد عليه الصلاة والسلام فكيف يقال انه هو الذي صوره وحلاه تأملوا كيف يمكن لمحمد عليه الصلاة والسلام أن يحدث في الفصحاء والبلغاء العجز عن معارضة قرآنه اذا لم يكن نفس القرآن معجزا ـ وقد مر رد الشبه الواردة على هذا في أول الكلام مع الماديين فليراجع هناك ـ هب ان محمدا ألزم نفسه بالعلامات المذكورة في الكتب المنسوبة للرسل المتقدمين التي هي من نوع الأخلاق والأفعال الاختيارية على زعم أنه أطلع على تلك الكتب مثل أنه يحب البر ويبغض الاثم ويحكم بالعدل ويحارب ونحو ذلك فهل يمكنه أن يحدث في نفسه العلامات الجسدية مثل أن علامة ملكه بين كتفيه وكونه قويا وهل يمكنه أن يحدث العلامات التي ليست اختيارية بل هي من قبيل الحظوظ في العالم مثل كون الشعب تحته . وكون الهدايا ترد اليه من الملوك . وكون الأغنياء تنقاد له وان البرية ترفع صوتها بذكره وهي الديار التي يسكنها قيدار . وكونه الحجر الذي رفضه البناؤن وصار رأس الزاوية . وانه أعطى سلطانه على الأمم . وان الحبشة تجثو له . وان ملوك اليمن تأتيه بالقرابين وهذه الأمم تخضع له وتدين له بالطاعة . وكونه يعطى من ذهب سبا وهو وأتباعه مثل الزرع الكثير على وجه الأرض وان سلطانه يكثر يوما فيوما وانه بعد ظهوره تكسرت الاصنام والقيت الى الارض وأن الطيور تأكل لحم الملوك الذين يحاربونه وأن اتباعه يقودون الملوك ويسوقونهم بالسلاسل والاغلال وان

الله اغاريهم شعب اسرائيل اغارهم واغضبهم بشعب جاهل ـ قد مر تطبيق هذه العلامات فى كلام الطائفة الذين استدلوا بها فليراجع هناك ـ فقد ثبت بما قررناه أن كل احتمال اوردتموه لتشكيكنا هو غير جائز لا يصدقه العقل السليم الخالى عن التعصب فنحن لانزال مصدقين دعوى محمد عليه الصلاة والسلام بدون ارتياب ٭

فانعطف أولئك المشككون الى الطائفة الذين كانوا ماديين طبيعيين ثم صدقوا محمدا واتبعوه بما شرح لهم العالم المحمدى وابانه من الدلائل التى تدل على بطلان مذهبهم فى انكار إله العالم والوحى وتدل على صحة دين محمد عليه السلام وموافقته للعقل واحكامه اليقينية مع دفع الشبه التى كانت عقابا فى سبيل تصديقهم فرأى أولئك المشككون بعد اطلاعهم على ما جرى بين هذه الطائفة وبين ذلك العالم المحمدى من المذاكرات والمباحثات أن كل شبهة يرجون بها ادخال الشك على هذه الطائفة قد دفعها ذلك العالم فى مباحثاته واظهر بطلانها فسقط فى ايديهم وقالوا: لم يبق لنا مع هذه الطائفة الا اننا نشككهم فى كلام هذا العالم الذى كان كلامه سبب اقناعهم فى اتباع محمد (عليه الصلاة والسلام) فقالوا لهم لعل هذا العالم يكون قوى الحجة كثير الاطلاع متضلعا فى اساليب المباحثات فسحر عقولكم بسحر بيانه حتى خيل لكم بطلان ما يخالف شريعته من مذهبكم وصحة دين محمد (عليه الصلاة والسلام) فكان عليكم أن تتثبتوا ولا تتركوا اعتقادكم المبنى على علومكم الطويلة العريضة لمجرد مذاكرة ذلك العالم ومباحثته فاجابتهم تلك الطائفة باننا قوم أصحاب عقول ولنا باع طويل فى المناظرات وفطنة تامة فى تلقاء من يناظرنا فلا نخال ان ذلك العالم المحمدى أو أعظم منه بكثير يقدر على تمويه الحجج علينا واقناع عقولنا بغير الصواب وكل ما ناظرنا فيه واقنع به عقولنا قد سلك فيه

سبيل البيان العقلى الواضح وجرى فى ذلك على مقتضى صريح العقل فأثبت
لنا أولا حدوث مادة العالم بدليل واضح مبنى على اكتشافاتنا فى حقائق
الكائنات ثم أقام لنا الدليل على وجوب وجود إله محدث للعالم ووجوب
اتصافه بالصفات التى تدل عليها آثاره فى هذه الاكوان ودفع عنا شبها
كانت مانعة لنا من التصديق بوجود ذلك الاله وضرب لنا الأمثلة على
ذلك باوضح بيان، وأيقظ عقولنا للاستدلال على وجود ذلك الآله
سبحانه وعظمة صفاته ووفور حكمته بما ذكرنا به من تفاصيل الكائنات
وأسرارها المنطوية فى مباحثنا المدونة فى كتب علومنـــا على أكمـــل
تبيان، ثم وفق لنا بين ماورد فى شريعة محمد عليه السلام وبين ماجاء فى
علومنا مما ظاهره المخالفة لهـا حتى زال نفورنا عما ورد فى تلك الشريعة؛
ثم أبان لنا الاضرار التى تنشأ فى العالم البشرى من الاعتماد على اعتقاداتنا
لاسيما من انكار البعث للانسان ثم بعد ذلك تأملنـا فى الأدلة التى
اعتمدها الطوائف الذين اتبعوا محمدا عليه السلام وصدقوه بسببها فظهر
لنا أنها صحيحة دالة على صدقه يقينية الدلالة لاسيما مجموعها الذى لايحتمل
توفره بوجه الصدفة والاتفاق فعند ذلك ظهر لنا الحق وليس بعد الحق
الاالضلال، ونحن دائما بين الأنام نطنطن باننا أحرار الأفكار نذعن
للحق أينما كان فكيف بعد ذلك كله نكابر ونخالف الصـواب ولا سيما
مكابرة تعود علينا بالشقاء الأبدى وخسارة أنفسنا فلم يسعنا بعد ذلك إلا
تصديق محمد عليه السلام وأتباعه فصدقناه واتبعناه بأكمل إيمان وأحكم
إيقان، فايرادكم هذا التشكيك فى كلام ذلك العالم المحمدى لايجديكم نفعا
فكفوا عنا بسلام فعند ذلك رجع أولئك المشككون عن أولئك الطوائف
صفر الأيدى بخفى حنين، والله لايصلح عمل المفسدين *

هذا وقد كانت طائفة من أولئك الجماهير الذين قام بينهم محمد عليه السلام بدعواه خامدة الأفكار جامدة فى تعصبهما جمود الاحجار فعندما سمعوا بدعوى محمد عليه السلام وشاهدوا الطوائف الذين اتبعوه رأوا بسوء اختيارهم أن يلتزموا التعصب الاعمى لمعتقداتهم وعاداتهم ويكذبوا دعواه عليه السلام بدون استناد الى شىء سوا قولهم انا وجدنا آباءنا على هذه الاعتقادات والعادات فلا نترك شيئا منها الدعوى (محمد عليه الصلاة والسلام) وكيف نترك شيئا من ذالك وقد مضى عليه اسلافنا وعملنا سنين عديدة فاصروا على هذا الجمود البارد والفكر الخامد ، فهؤلاء القوم قد بقوا فى ضلالهم مع اتباع خطة دنية وخلة وبية لم يتبعوا الصواب ولم يناضلوا عن مختارهم مناضلة ذوى الألباب فسقطوا فى مهاوى الخسران وانحطوا فى دركات الهوان والله سبحانه وتعالى لا يعذرهم فى ذلك العناد ولابد أن ينتقم منهم فى يوم التناد ، وان قيل: ان هؤلاء القوم كما ذكرت عنهم أفكارهم خامدة فلعل ذلك يكون لهم عند الله تعالى عذرا فيقولون : ياربنا لم يكن عندنا من الفكر عندما ادعى محمد عليه السلام الرسالة ما يوصلنا الى استيضاح دعواه فلذلك بقينا مصرين على تكذيبه قلت : ان خمود أفكارهم ليس لنقص فى أصل خلقتهم وضعف فطرى فى عقولهم وجبلتهم ينزل بهم الى درجة المجانين أو الحيوانات العجم حتى يعذروا عند الله تعالى فى جمودهم على تكذيب دعوى محمد عليه السلام وعدم استيضاحهم لها ويسقط بذلك عنهم التكليف الالهى الذى كلف الله تعالى به عباده على ألسنة رسله عليهم السلام بل ذلك الخمود فيهم قد نشأ من انغماسهم فى الشهوات والتفاتهم الى اللذات وانهماكهم فى تحصيل رغائبهم الدنوية وبلوغ اهوائهم الدنية فاستثقلوا لأجل ذلك سلوك سبيل الاستبصار وركنوا الى الذلة والصغار ، والدليل على ذلك اننا

تراهم فى تحصيل رغائبهم ومجادلة اخصامهم فى مقاصدهم أصحاب افكار وانظار واستدلالات ذات اخطار يدققون النظر لبلوغ الوطر ويعملون الفكر فى تحصيل الاربِ فاى مانع منهم من الاستبصار فى دعوى محمد عليه الصلاة والسلام بعد ما سمعوا بها ماهو الا البطر وهوى النفس والاخلاد الى هذه الدنيا الفانية فهم يستحقون من الله تعالى الانتقام يوم الزحام على قانون العدل لا يظلمون فتيلا - وهكذا ترى كثيرا من المنهمكين فى اللذات وتحصيل الرغائب الفانية يهملون أنفسهم من تصحيح عقائدهم وتعلم عباداتهم ومعاملاتهم، واذا قيل لهم ان الشريعة تكلفكم بتعلم ذلك يقولون ان عقولنا لا تطيق فهمه ولا تستطيع علمه ومن أين لنا أفكار تبلغ هذه الانظار وأنت تراهم فى تحصيل رغائبهم الدنوية ومخاصمة أخصامهم فى أدنى أمنية فلاسفة مدققين وحكماء محققين فلو وجهوا عقولهم التى وهبها الله تعالى لهم الى تعلم ذلك القدر الذى فرضه الله تعالى عليهم لوجدوا فيها قبولا للتعلم واستعداداً للتفهم ولكن استهواهم الكسل والانهماك فى الشهوات والسعى لتحصيل حطام الدنيا فى جميع الأوقات يزينون ظواهرهم بالملابس وبطونهم بالمطاعم وعقولهم عطلى من حلى المعارف الحقة فهم بذلك غير معذورين فى نظر الشريعة المحمدية وسوف يسئلون عما كلفوا به من التعلم فى يوم الحساب ويستحقون هنالك على تفريطهم أنواع العقاب - »

﴿هذا﴾ ولم يزل محمد عليه الصلاة والسلام مع الطوائف الذين أصروا على انكار رسالته عنادا وجهلا وضلالا يقيم لهم البراهين على صدق دعواه ويورد لهم المواعظ ويؤلف قلوبهم بكل ممكن ويرشدهم الى منهج الحق ومعالم الصدق ومضت له مدة من قيامه بدعوى الرسالة وهو لم يؤمر الا بوعظهم البالغة ومجادلتهم بالتى هى أحسن لكن لما ظهر وتبرهن للعقول

السليمة والانظار القوية ان أولئك القوم لا يعمل معهم البرهان ولا تنفع
فيهم الموعظة ولا يثمر لديهم الارشاد بل هم فضلا عن ضلالهم وغشهم
لأنفسهم بعدم قبول الدين الحق وسلوك سبيل الاستقامة لا يفترون عن اذاه
عليه الصلاة والسلام واذى اتباعه كلما سنحت لهم الفرصة ينصبون لهم المكائد
ويقيمون فى سبيل دينهم المعاثر ويخترعون لهم بدائع الاضرار ويعاملونهم
معاملة الأشرار اذن الله تعالى له عند ذلك بجهاد أولئك الاعداء والاخصام
الالداء والاغرار البلداء استبدالا للترغيب بالترهيب ودفعا للاذى والفساد
وقطع جرثومة العناد وقد يسمح بالاشرار لسلامة الاخيار ويقطع العضو
المريض لوقاية صاحبه من البوار ولكن شرع الله تعالى ذلك الجهاد على
حدود تبقى للرفق مجالا وللشفقة والعدل منالا وذلك ان يدعى المخالفون
للدين أولا بالموعظة الحسنة الى الاسلام وتوحيد الملك العلام والتصديق
بجميع ما جاء به عليه الصلاة والسلام فان قبلوا فبها ونعمت ويكونون
مثل سائر المسلمين وان لم يقبلوا فان كانوا من مشركى العرب الذين جاء
الشرع المحمدى بلغتهم وليس لهم شبهة كتاب أو شرع سماوى بل هم عبدة
أصنام او نيران أو نحو ذلك فحكمهم القتل - كما كان هذا الحكم فى الشريعة
الموسوية فى حق الأمم السبعة وهم الحيثيون ومن ذكر معهم كما فى سفر
الاستثناء ، وفى حق المرتد والذابح للاوثان والداعى الى عبادتها - وان كانوا
من غير مشركى العرب يدعون الى الصلح بقبول الجزية والاطاعة فان
قبلوا صارت دماؤهم كدماء المسلمين وأموالهم كأموالهم واعراضهم
كأعراضهم لا يسامح أحد بشىء من ذلك ولو مثقال ذرة حتى لا تجوز
غيبتهم أو شتمهم او أذيتهم بادنى مكدر الا بما يجوز مثله على المسلمين
بوجه شرعى من نحو التأديب مثلا وان لم يقبلوا بدفع الجزية والاطاعة

فيحاربون وتباح دماؤهم وأموالهم للمسلمين واسترقاقهم كما كان مثل ذلك في الشريعة الموسوية في حق الامم غير السبعة ، ولذلك حدود لا يجوز تعديها فلا يقتل صغير . ولا امرأة . ولا من يتخلى لما اتخذه عبادة إلا أن يكون احد هؤلاء له نكاية في المسلمين ولو باعطاء الرأى في تدبير الحروب *

وقد كان بعض من اتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم من اهل الشرائع المتقدمة انكروا أمر الجهاد في أول الأمر لما فيه من ازهاق الانفس وسلب الاموال واسترقاق البشر؛ ولكن بعد ما حكموا الانصاف ، وقابلوا بين شريعة محمد صلى الله عليه وسلم وبين الشرائع المتقدمة لم يجدوا في الشريعة المحمدية ما يعاب عليها من تلك الامور ويشذ عن الذى يعهد في الشرائع ، بل وجدوا فيها تخفيفات قد خلت عنها الشرائع المتقدمة ، فان الشريعة المحمدية مع حكمها بقتل مشركى العرب اذا لم يؤمنوا قد حرمت قتل صغارهم ونسائهم بخلاف الشريعة الموسوية في حق الحيثيين وبقية الامم السبعة المذكورين في سفر الاستثناء فانها حكمت بقتل كل ذى حياة منهم ذكورهم واناثهم وأطفالهم ، وذكر هناك ان هؤلاء الامم أكثر من بني اسرائيل عددا فسمح الله تعالى بهم لسلامة بنى اسرائيل المؤمنين وشدد في اهلاكهم تشديدا بليغا فقال في سفر العدد : فأبيدوا كل سكان تلك الارض ثم انتم ان لم تبيدوا اسكان الارض فالذين يبقون منهم يكونون لكم كأوتاد في اعينكم ، ورماح في اجنابكم ويعسفون عليكم في الارض التى تسكنونها وما كنت عزمت ان افعله بهم سأفعله بكم ، واما حكم الشريعة الموسوية في حق غير الامم السبعة فهو كحكم الشريعة المحمدية بان يدعى المخالفون اولا الى الصلح فان رضوا به وقبلوا الاطاعة بالايمان أو أداء الجزية فيها ، وان لم يرضوا يحاربوا فاذا حصل الظفر عليهم يقتل الذكور منهم ويسبى نساؤهم وأطفالهم ، وينهب دوابهم واموالهم وتقسم على المجاهدين كما في السفر المذكور المشهور في الكتب

الاسلامية ان الغنائم ما كانت تحل للامم السابقة بل كان يجب عليهم حرقها فليتأمل، ثم ان يوشع عليه السلام بعد موت موسى عليه السلام جرى على الاحكام المندرجة فى التوراة فقتل المليونات الكثيرة كما يؤخذ من كتابه من الباب الاول الى الباب الحادى عشر ، وقد صرح فى الباب الثانى عشر من كتابه انه قتل احدا وثلاثين سلطانا من سلاطين الكفار وتسلط بنو اسرائيل على مملكتهم ، ويؤخذ من سفر صموئيل ان داود عليه السلام كان يخرب كل الارض وما كان يبقى رجلا ولا امرأة من اهل جاسور . وجزر . وعمالق . وينهب دوابهم وامتعتهم ، وفى السفر المذكور ان الموابيين صاروا عبيدا لداود يؤدون اليه الخراج ، وانه ضرب هدر عازار واخذ منه الف وسبعمائة فارس ومن رجاله عشرين الفا ، وضرب من ارام اثنين وعشرين الفا ، وانه قتل من السريانيين سبعمائة مركب وأربعين الف فارس ، وانه اخذ الشعب الذين كانوا فى قرية رابة اخذهم ونشرهم بالمناشير ، وداسهم بموارج حديد وقطعهم بالسكاكين ، وكذلك صنع بجميع قرى بنى عمون ، ويؤخذ من سفر الملوك الاول ان ايليا عليه السلام ذبح أربعمائة وخمسين رجلا من الذين يدعون انهم انبياء بعل ، ثم ان داود قد عد اعماله من الحسنات ومن جملتها جهاداته إذ قال فى الزبور الثامن عشر ويجازينى الرب مثل برى ومثل طهارة يدى يكافئنى لأنى حفظت طرق الرب ولم أكفر بالهى لان جميع احكامه قدامى وعدله لم ابعده عنى واكون معه بلا عيب لأنه حفظنى من اثمى وقد شهد الله تعالى ان جهاداته وسائر افعاله الحسنة كانت مقبولة عنده تعالى حيث قال فى سفر الملوك الاول : هكذا داود عبدى الذى حفظ وصاياى وتبعنى من كل قلبه وعمل بما حسن امامى ، وقد شهد بولص لاولئك الانبياء بان أعمالهم فى الجهاد للكفار كانت من جنس البر لا من جنس الاثم ، وكان منشؤها قوة الايمان ونيل مواعد الرحمن

لاقساوة القلب والظلم وان كان افعال بعضهم فى صورة أشد انواع الظلم سيما قتل الصغار غير المتدنسين بذنب اذ قال فى الرسالة العبرانية هكذا وماذا اقول أيضا لانى يعوزنى الوقت ان اخبرت عن جدعون . وباراق. وشمسون. ويفتاح. وداود. وصموئيل. والانبياء الذين بالايمان قهروا ممالك صنعوا برا نالوا مواعيد سدوا أفواه اسود أطفأوا قوة النار . نجوا من حد السيف. تقوا من ضعف صاروا أشداء فى الحرب هزموا جيوش غرباء، ﴿وان قال قائل متجرى﴾ ان جهادات داود كانت لاجل سلطنته ومملكته قلنا: هذا القول من قلة الدين لان قتله لاولئك البشر لاسيما النساء، والاطفال لايخلو إما أن يكون مرضيا لله تعالى وحلالا له أو مبغوضا عند الله تعالى ومحرما عليه ، فان كان الاول فقد ثبت ان الجهاد مشروع من الله تعالى فى الشرائع المتقدمة ، وان كان الثانى لزم والعياذ بالله تعالى كذب شهادة الله تعالى فى حقه التى مر نقلها عن سفر الملوك ، و كذب قوله هو فى حق نفسه و كذب شهادة بولس فى حقه ، وهذا شيء لايسلم به كل من يعتقد تلك الكتب التى تقدم نقل هذه الأقوال عنها ولزم أن يكون دماء الوف من المعصومين وغير واجبى القتل فى ذمته ودم البرى الواحد يكفى للهلاك فكيف تحصل له النجاة الأخروية ، وبالاختصار اذا لم يكن لنا دليل على مشروعية الجهاد عند الله تعالى وقتل المخالف لشرائع الله تعالى إلا أن عيسى عليه السلام يقتل الدجال وعسكره عند نزوله كما هو مصرح به فى الباب الثانى من الرسالة الثانية الى اهل تسالونيقى ، والباب التاسع من المشاهدات لكان ذلك دليلا كافيا ؛ واذا نظرنا الى عادة الله تعالى الفاعل المختار الذى لاتوصف افعاله بالظلم بل كل أعماله عدل وحكمة وجدنا ان من عادته سبحانه أن يبغض الكفر ويجازى عليه فى الآخرة يقينا، وكذا

ببعض العصيان وقد يعاقب الكفار والعصاة فى الدنيا أيضا فيعاقب الكفار تارة بالاغراق عموما كما فى عهد نوح عليه السلام فلم ينج حينئذ إلا اهل السفينة وبالاغراق خصوصا كما اغرق فرعون وجنوده وبالاهلاك مفاجأة كما اهلك اكبر أولاد كل انسان وبهيمة من اهل مصر فى ليلة خروج بنى اسرائيل من مصر كما فى سفر الخروج . وتارة بامطار الكبريت والنار وقلب المدن كما فى عهد لوط عليه السلام فانه اهلك اهل سادوم، وعاموره، ونواحيهما بذلك وتارة بالامراض كما اهلك الاسدوديين بالبواسير كما فى سفر صموئيل الاول، وتارة بارسال الملك كما فعل بعسكر الاشوريين إذ قتل منه الملك فى ليلة واحدة مائة وخمسة وثمانين الفا كما فى سفر الملوك الثانى ، وكذا يعاقب العصاة أيضا تارة بالخسف والنار كما اهلك قورح، وداثان. وابيرم. وغيرهم لما خالفوا موسى عليه السلام فانفلقت الارض وابتلعت قورح. وداثان. وابيرم. ونساءهم. وأولادهم. واثقالهم ثم خرجت نار فاكلت مائتين وخمسين رجلا كما فى سفر العدد، وتارة بالاهلاك مفاجأة كما اهلك اربعة عشر الفا وسبعمائة لما خالف بنو اسرائيل فى غد هلاك قورح. وغيره. ولو لم يقم هارون عليه السلام بين الموتى والاحياء، ولم يستغفر للقوم لهلك الكل بغضب الرب فى هذا اليوم كما يؤخذ من السفر المذكور، وكما اهلك خمسين الفا وسبعين رجلا من أهل بيت شمس، على انهم رأوا تابوت الله تعالى كما يؤخذ من سفر صموئيل الاول ، وتارة بارسال الحيات المؤذية ، كما أن بنى اسرائيل لما خالفوا موسى عليه السلام مرة أخرى ارسل عليهم الحيات المؤذية فجعلت تلدغهم فمات منهم كثير كما يؤخذ من سفر العدد، فقال اولئك القوم بعدما تأملوا فى جميع ما تقدم من احكام الشرائع المتقدمة فى الجهاد واعمال الانبياء فى الكفار وعادة

الله تعالى مع الكفارة والعصاة ان محمدا عليه السلام مادام رسولا بشريعة من عند الله تعالى وثبت ذلك بالادلة القاطعة فاى شيء يعاب عليه فى مشروعية الجهاد فى شريعته وفى قتله لمن يخالفونه. ونهب اموالهم واسترقاقهم ؟ لاسيما وقد وجدنا الجهاد فيها اخف من الجهاد فى الشرائع السابقة ، فشريعته لم تخالف تلك الشرائع ، ولم تكن ضدا لعادة الله تعالى مع المخالف لشرائع انبيائه بالكفر أو بالعصيان ، فعلى كل من يصدق بالوحى ويؤمن بتنزيل الشرائع من عند الله تعالى على الانبياء أن لا يلقى بالا لهذه الشبهة والطعن فى الشريعة المحمدية من خصوص مشروعية الجهاد فيها ، وأما من لم يؤمن بوجود إله العالم ولا بتنزيل الشرائع فهذا يقدم له أولا الاستدلال على وجود الله تعالى إله العالم واثبات الوحى — كما تقدم ذلك مع منـاظرة الماديين — فبعد أن تقام عليه الحجة ويلتزم التصديق بالشرائع يبقى بمنزلة المليين المصدقين بها فنلزمه استحسان ماشرعه الله تعالى فيها ، وعند ذلك يجد أن شريعة محمد ﷺ لم تخالف الشرائع المتقدمة فى شأن الجهاد ، بل انها اشتملت على تخفيفات فيه لم تكن فى تلك الشرائع كما تقدم بيانه.

(ثم) أن طائفة اخرى بعدما شاع دين محمد ﷺ وشرع الجهاد فيه توهموا ان هـذا الدين ماقام وانتشر إلا بالسيف ، واذا كان الحال كذلك فهذا شيء يوقع في النفس ريبا وشـكا ويجعل للانسان مجالا أن يقول: ان هؤلاء الاتباع لمحمد ﷺ قد اجبروا على الدخول فى دينه اجبارا خوفا من القتل ، ولـكن تلك الطائفة التزمت الانصاف واستقصت عن أول نشأة دين محمد ﷺ فتحقق عندها بعد الفحص والتدقيق ومراجعة تاريخ أول تلك النشأة أن محمدا ﷺ أول ماقام بدعوى الرسالة كان وحيـدا فريدا ليس صـاحب سلطان . ولا متمكنا بعصـبية عشـيرة قادرة ، بل انه عنـد قيامه بتلك الدعوى بين جماهير الامم

فضلا عن ان عشيرته ليست ذات سطوة على بقية الأمم وليس عندها كفاية لمقاومتها فهى كانت أول من كذبه فى دعواه وعاداه أشد المعاداة وتسلطت عليه اشرارها بالاذى وتسفيه الرأى ولكن هو عليه الصلاة والسلام لم يزل مقبلا على دعواه صابرا على اذى من أذاه يدعو الخلق الى الحق ويقيم لهم البراهين ويظهر لهم محاسن دينه ويوضح لهم معائب ماهم عليه حتى وضح الحق لمن أراد الله تعالى هدايته فأخذت العقول السليمة تقبل دينه وتستحسن شريعته ويتبعه الافراد والجماعات وهو حينئذ لم يومر باراقة قطرة من دم احد. ويتلو قرآنه المتضمن قوله تعالى :(لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)وقوله تعالى فى خطاب من اتبعه :(ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل اذا اهتديتم) وقوله تعالى :(ومن كفر فعليه كفره) وأمثال ذلك من الآيات ، وقد تبعه فى زمن التزامه هذه الطريقة وقبل مشروعية الجهاد الجم الغفير كما يعلم من مراجعة تاريخ سيرته، فاسلم أبو ذر. وأنيس أخوه، وأمهما رضى الله تعالى عنهم فى أول ذلك العصر فلما رجعوا الى قبيلتهم أسلم نصف قبيلة غفار بدعوة أبى ذر رضى الله تعالى عنه. وفى السنة السابعة من بعثته قبل أن يهاجر الى المدينة ويشرع الجهاد هاجر من أتباعه من مكة الى الحبشة ثلاثة وثمانون رجلا وثمانى عشرة امرأة لما كانوا يجدون من أذى المشركين، وقد بقى فى مكة اناس أيضا من المسلمين، وقد أسلم نحو عشرين رجلا من نصارى نجران وكذا أسلم ضماد الأزدى قبل السنة العاشرة من البعثة ، وأسلم الطفيل بن عمرو الدوسى قبل الهجرة وكان شريفا مطاعا فى قومه، وأسلم أبوه وامه بدعوته بعد مارجع الى قومه، وقد أسلم قبل الهجرة قبيلة بنى الاشهل فى المدينة المنورة فى يوم واحد ببركة وعظ مصعب ابن عمير رضى الله تعالى عنه فما بقى منها رجل ولا امرأة الا أسلم غير عمرو

ابن ثابت فانه تأخر اسلامه وبعد اسلامهم كان مصعب رضي الله تعالى عنه يدعو الناس إلى الاسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار الا فيها رجال ونساء مسلمون الا ما كان من سكان عوالي المدينة ـ أي قراها ـ من جهة نجد.

ولما هاجر محمد عليه الصلاة والسلام الى المدينة أسلم بريدة الاسلمي مع سبعين رجلا من قومه في طريق المدينة طائعين، وقد أسلم النجاشي ملك الحبشة قبل الهجرة أيضا، ووفد قبل الهجرة أبو هند. وتميم. ونعيم، وأربعة آخرون من الشام وأسلموا. وهكذا أسلم آخرون. واسلام أبي بكر. وعمر. وعثمان وعلي ونحوهما من مشاهير أتباعه عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة أمر مشهور — كما يعلم جميع ما ذكر من كتب سيرته عليه الصلاة والسلام الصحيحة فليرجع اليها — فبالتأمل المنصف نجد أن دين محمد عليه الصلاة والسلام قد شاع قبل هجرته من مكة إلى المدينة وقبل مشروعية الجهاد فيها وقبلته العقول السليمة. واستحسنته الطباع الصحيحة. ولا خوف هنالك ولا ترهيب فاين التهمة بان دينه قام بالسيف وشريعته شاعت بالاجبار؟ لا يقول بذلك منصف، ومن نظر الى ما كان يحدث في بقية مدته عليه الصلاة والسلام وبعدها من دخول الناس في دينه أفواجا أفواجا حتى إلى هذا الزمان بدون أدنى خوف بل مع الخوف من الدخول من أذية أعداء دينه انمحت من مخيلته هذه التهمة اللهم إذا كان منصفا حر الفكر، نعم لما توفرت كثرة اتباعه عليه الصلاة والسلام وظهر أن الموعظة وقوة البرهان ليس لهما تأثير مع من بقي من المخالفين. وان مداومة المعاملة للمخالفين بالرفق والتودد يزيد طغيانهم ويشوش أمر الدين على أتباعه ويجرؤهم عليهم بالأذى فلذلك شرع في دينه الجهاد على ما فيه من الحدود العادلة التي تتكفل بدفع أذى المؤذين ولا تبلغ حد القسوة ويكتفي ممن لم يتبع الدين المحمدي أن يخضع

لسلطانه ويدفع من ماله مايكون عونا لأهل الدين فى قيام دولته ودفع ضرورات أهله الدنوية ، وهو أيضا يكون فى مقابلة حماية أهله لاولئك الدافعين الخاضعين لسلطان الدين وأمرهم فى الآخرة مفوض لرب العالمين. أو يوضع على من لم يتبع حكم الرق ليكون دافعا لشوكة اذاهم وعونا لأهل الدين فى قضاء مصالحهم فى دار الدنيا، وقد كان بعض من أتباع الشرائع السابقة نفروا من جواز الاسترقاق. ومشروعيته فى الدين المحمدى نظراً لما ينشأ عنه من دخول الرقيق تحت الحجر، ولا سيما وقد شاهدوا الرقيق فى بعض الممالك يكابد انواع الظلم . كما كان جاريا من زمن ليس ببعيد فى أوربا والى الآن فى بعض ممالك أميركا - فيضرب الرقيق فيها ويهان ويذوق الجوع والعرى ويقيد كالبهائم ويحمل من مشاق الخدمة مالا يطاق ويعد كأنه ليس من النوع الانسانى لاسيما إذا كان أسود اللون ولا يعد تحريره من مثوبات الدين ولا يحرر الا فى نادر الأحوال، وحالته هناك اتعس من حالة أدنى الحيوانات ، فظن هؤلاء القوم أن الدين المحمدى يبيح الاسترقاق مع إباحة تلك الفظائع ومعاملة الرقيق بها ، وسهوا أيضا عن مشروعية الاسترقاق فى الشرائع السابقة ولكنهم عادوا فدققوا النظر فى كيفية مشروعيته فى الدين المحمدى وما اشتملت عليه تلك الكيفية من اعانة أهل ذلك الدين على ضرورات دنياهم وما فيها من كف أذى اعدائه بوضع الرق عليهم وكسر شوكتهم به باستخدام مخالفيهم مع وصايا كثيرة تحفظ راحة الرقيق وتتكفل بمساواة معيشته لمعيشة سيده وبذلك يحصل تهذيبه وتمدنه ان كان وحشيا، والشريعة المحمدية تنهى أشد النهى عن اجراء أدنى شيء من الفظائع التى تجريها بعض الامم مع الرقيق وتوعد عليها بالعقاب الأخروى، ومع ذلك ترغب فى تحريره بحصول الثواب الجزيل فيه وشرعته

وسائط تقتضى كثرة التحرير وشيوعه وتقصير مدة الاسترقاق وجعلت للرقيق وصلة بينه وبين سيده ولو بعد التحرير كوصلة النسب لا فرق فى ذلك بين الأبيض والأسود، ووجدوا أن أهل هذا الدين نظرا لما وجدوه من ترغيب الشريعة بالاحسان الى الرقيق قد سلكوا طرائق عديدة ترجع عليه بالبر والاحسان، وكثيرا ماتخوله نعمة لا يمكنه نوالها لولا دخوله تحت الرق، ثم لاحظوا نصوص الشرائع المتقدمة فوجدوا أن الرق مشروع فيها مصرح به فى الكتب المنسوبة اليها فعند ذلك رجعوا عن اعتراضهم على مشروعية الاسترقاق فى الدين المحمدى وقالوا: مادام أن أهل هذا الدين يعلمون بالبراهين القاطعة عندهم أنهم على دين مشروع من عند الله تعالى ودينهم اباح لهم استرقاق مخالفيهم لنفعهم بخدمتهم ولكسر شوكة اذاهم عنهم، وقد شرط عليهم شروطا تتكفل براحة أرقائهم ومساواتهم لهم فى المعيشة، وفتح لهم أبوابا مرغبة فى تحريرهم وتقصير مدة استرقاقهم ونتج عن ذلك تهذيب كثير من الارقاء، وتحسين معيشتهم. وايصال احسانات اليهم، ما كانوا ينالونها لولا الاسترقاق. وحجر على اسيادهم ظلمهم واذاهم، ووجد فى الشرائع المتقدمة مشروعية الاسترقاق فهو ليس أمرا مبتدعا فلا شىء يعاب على الدين المحمدى وأهله فى الاسترقاق البتة *

(اما الوصايا) التى تحفظ راحة الرقيق وتتكفل بمساواة معيشته لمعيشة سيده فهى فى الشريعة المحمدية كثيرة جدا ولنقتصر على ما يأتى منها قال الله تعالى فى القرآن الكريم: (واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا) فقد قرن الله تعالى الوصية بالمماليك مع الامر باخلاص

العبادة له تعالى التي هي اساس الايمان ومع الاحسان للوالدين اللذين نعمتهما على الانسان بعد نعمة الرحمن ومع الاحسان الى من تقتضي الشفقة والمرحمة والانسانية الاحسان اليهم، وطلب الاحسان للمماليك يشمل كل احسان ممكن ورفع كل اذى يناقض الاحسان، وقد يؤخذ شرح ذلك من قول الرسول عليه الصلاة والسلام: « عبيدكم اخوانكم جعلهم الله تحت ايديكم اطعموهم مما تأكلون والبسوهم مما تلبسون ولا تعذبوا عباد الله » وقال عليه السلام في التحذير من احتقار الارقاء والتحاشي عن الكبرياء: « ولا يقل احدكم عبدي وليقل فتاي وفتاتي وغلامي » وقد كان من آخر كلامه عليه الصلاة والسلام من الدنيا قوله: « الصلاة وما ملكت أيمانكم » فليتامل المنصف قرنه عليه السلام بين الوصية بالصلاة التي هي عماد الدين المحمدي وفيها قرة عينه من الدنيا كما قال: « وجعلت قرة عيني في الصلاة » وبين الوصية بما تملكه ايمان اتباعه وكون ذلك الكلام كان من آخر كلامه لاصحابه فان ذلك كفاية في الدلالة على استكمال الوصية بالارقاء لا يحتاج معها إلى زيادة بيان في ذلك، والنهي عن أذى الارقاء شهير في نصوص الشريعة المحمدية حتى ورد أنه عليه الصلاة والسلام اعتق عبد رجل قد مثل به حيث وجده مع جاريته وجعل ولاءه لله ولرسوله، وأوصى به المسلمين وجعلت بعد ذلك نفقته في بيت مال المسلمين، وأعتق خليفته ـ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ـ جارية رجل اقعدها في مقلى حار فاحرق عجزها وأوجعه ضربا، وأمثال ذلك كثير، والوعيد على أذى الرقيق في يوم الحشر شهير .

« وأما الترغيب » في تحرير الرقيق فنصوصه الشرعية أكثر من أن تذكر فتحصر ولنقتصر أيضا على ما يأتي، كان من حاله عليه الصلاة والسلام أنه يحث على عتق الرقاب، وفي نصوص شريعته « من اعتق نسمة اعتق الله

بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى كان الرجل يستحب أن يعتق الرجل لكمال أعضائه ، والمرأة تعتق المرأة لكمال اعضائها» — كذا فى عقود الجواهر المنيفة عن حماد عن ابراهيم قال : وهذا حكمه حكم المرفوع — وفى لفظ آخر « من اعتق رقبة اعتق الله بكل عضو منها عضوا من اعضائه من النار حتى فرجه بفرجه » وروى فى تفسير قوله تعالى : (فك رقبة) « أن اعرابيا جاء الى الرسول ﷺ فقال : يارسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال : عتق النسمة وفك الرقبة قال : يارسول الله أو ليسا واحدا قال : لا عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها » — كذا فى الرازى والنصوص فى ذلك كثيرة وافرة .

﴿ وأما بيان ﴾ ان الشريعة المحمدية شرعت وسائط تقتضى كثرة التحرير وشيوعه وتقصير مدة الاسترقاق فهى انها جعلت العتق كفارة لجنايات فى الشرع . مثل القتل خطا . والافطار فى رمضان . والحنث فى اليمين . وفكا لبعض ما يحظر على الانسان مثل كفارة الظهار ، فان المظاهر من زوجته لا يجوز له قربانها ودواعيه حتى يكفر وأول ما يطالب به للكفارة عتق رقبة ، ثم مع ندبها للعتق والوعد عليه بالثواب لاحظت حال من لم يسمح بذهاب ماله بعتق رقيقه فشرعت المكاتبة ، وهى أن يتفق السيد مع رقيقه على انه ان أدى اليه كذا من المال صار حرا فعند ذلك يملك الرقيق حرية السعى على تحصيل المال فاذا أدى المشروط عليه صار حرا ، وشرعت العتق على جعل بان يقول السيد لرقيقه : انت حر على الف درهم فاذا قبل العبد عتق وكان عليه أداء ما شرط عليه ، ولاحظت حال من لا يستغنى عن خدمة رقيقه مدة حياته فشرعت باب التدبير وهو أن يعتق السيد عبده عن دبر منه بأن يقول له : أنت حر بعد موتى فعند ذلك يمتنع

بيعه وهبته والتصدق به ورهنه. وبعد موت السيد يصير العبد حراً وشرعت باب الوصية بالعتق ولاحظت أن بعض المالكين للرقيق ربما لا يتفق لهم شيء مما مر من دواعي العتق ولا يوفقون لرغبة الثواب فيه ولكن ربما عند رغبتهم في منفعة أو رهبتهم من مضرة تسمح نفوسهم بعمل الخير الذي يرجون من الله تعالى بسببه بلوغ مآربهم فشرعت نذر العتق على أن يأتوا به عند حصول أحد هذين الداعيين أو ربما عند إرادتهم إلزام أنفسهم بعمل أو كفها عن عمل يشرطون عليها مايصعب عليهم الاتيان به لأجل وفائهم بما التزموا فشرعت لهم الحلف بالعتق على أن يخالفوا ما التزموه فيحصل العتق، فاذا تأمل المتأمل في جميع ماتقدم يجد أن المقصود منه الوصول الى العتق المرضى في الشريعة بسبب من تلك الأسباب وأنعم بتلك الوسائط لتكثير العتق وشيوعه وتقصير مدة الاسترقاق، ثم حيث أن الشريعة المحمدية جعلت للسيد ملك رقبة الرقيقة فقد جعلت له ملك بضعها وأباحت له التسرى بها حرصاً على عدم تعطيل تناسلها وكونها تحت كنف سيدها يحفظها من اختلاط نسب ذريتها فهي إذن كالزوجة محفوظة نسب أولادها خلافا لما يحصل في الزنا، ثم من جملة المراعاة التي جعلتها لها في مقابلة أباحة بضعها لسيدها، ومن جملة الوسائط الموصلة للعتق أن حكمت للرقيقة التي تلد من سيدها ولو سقطا مستبين الخلق بأنها تصير مستولدة أي أنه عند ذلك يحظر على سيدها بيعها وهبتها ورهنها وأمثال ذلك من التصرف وبعد موته تصير حرة صرفة فالتأمل في هذا الحكم يرى من ماللشريعة المحمدية من مراعاة الرقيقات والنظر في شؤنهن . ومن وسائط تكثير التحرير في الشريعة المحمدية وفيه صلة رحم ودفع الوحشة بين الأرحام ماشرعته تلك الشريعة من أن من ملك ذا رحم محرما منه عتق عليه .

ومن مراعاة المرحمة والشفقة للأرقاء أن الشريعة كرهت التفرقة بين الأم وولدها الصغير بنحو بيعه لآخر أو بينه وبين أبيه أو بين كبير وصغير بينهما محرمية . أو بين صغيرين كذلك ﴿ والملخص ﴾ أن هذه الشريعة العادلة ما تركت شيئاً من مرغبات العتق وتقصير مدة الاسترقاق . وموجبات المرحمة للرقيق إلا حثت عليه وفتحت له أبوابا، فبالتأمل الصادق فى سياستها فى الاسترقاق تجد أنها انما شرعته على قدر الضرورة وقدرت الضرورة بقدرها بأساليب تنكسر به شوكة مخالفيها وتنفع أتباعها وتحفظ على الرقيق راحته وتمنع عنه الاضرار وتعجل عليه الفرج وتدفع عنه بقدر الامكان الحرج .

﴿ وأما ﴾ أن الشريعة المحمدية جعلت للرقيق وصلة بينه وبين سيده فانها قد حكمت بالولاء بينهما بعد عتق الرقيق ومن أحكام ذلك الولاء أنه إذا جنى العتيق جناية خطأ توجب الدية توزع تلك الدية على مولاه وعاقلته كأنه ابنه أو أخوه . وناهيك بذلك من مراعاة لشأن ذلك العتيق أبعد جميع ما تقدم يجوز أن يقال : أن المسلمين يعتبرون الرقيق لاسيما الأسود منه منحطاً عن درجة البشر ؟ كلا ثم كلا لا تعتبره شريعتهم إلا من أولاد آدم وحواء ولكنها تعاملة بما يدفع شره ولا يحرمه حقوق الشفقة والمرحمة وتخفيف مدة الحجر عليه .

﴿ وأما ﴾ كون أهل الشريعة المحمدية نظراً لما وجدوه من ترغيبها فى الاحسان الى الرقيق قد سلكوا طرائق عديدة ترجع عليه بالبر والاحسان وكثيراً ما تخوله نعمة لا يمكنه نوالها لولا دخوله تحت الرق فذلك ظاهر مما يشاهد بين أهل الاسلام من وقف الأوقاف على أرقائهم وعتقائهم والوصية لهم بالميراث ، وكثير منهم صار بسبب تلك الميراث أغنى من ذرية سيده . وكثير منهم من تزوج من بنات سيده بل كثير من الأسياد

من يتبنى رقيقه بعد عتقه بل يكون عنده أعز من ولده، أو يزوجه بنته.
وكثير من الأرقاء من صار أميراً أو سلطانا ـ كما فى ملوك مصر المشهورين، وسلطنة كافور الأخشيدى معلومة عند الجميع ـ وما بلغ كثير من العتقاء من مراتب الجاه والمناصب العالية كالقضاء والافتاء بل مرتبة الاجتهاد ـ وناهيك حال عطاء بن أبى رباح الامام الجليل فى الفقه الذى كان الخليفة يتمنى زيارته ويتلقاه للباب ويجلسه بجانبه ـ هو كاف واف ببيان ما يناله الأرقاء من النعمة التى ما كانوا ينالونها لولا دخولهم تحت الرق بل كانوا يبقون فى بلادهم الوحشية على حالتهم الخشونية، أبعد ذلك كله يقال: أن الشريعة المحمدية تعتبر الأرقاء دون مرتبة البشر ولا تعطيهم حقوق الانسان؟ نعوذ بالله من الافتراء*

﴿وان قيل﴾ انا نجد بعض أهل الاسلام يعامل الارقاء تلك المعاملة القاسية قيل: نعم وقد يوجد من الحمقاء الذين لا يتمسكون باحكام الشريعة العادلة الراحمة من يعامل أولاده بمعاملة لا ترضاها الشريعة ولا تقبلها المرحمة، وهؤلاء من الندرة بمكان أيقال عند النظر لهؤلاء القساة ان عموم المسلمين يعاملون أولادهم بتلك الفظاظة؟ وتكون النتيجة أنه على المسلمين أن لا يستولدوا أولادا أنها لنتيجة خرافية ناشئة عن دليل هذيان، من المعلوم عند كل عاقل أن الأحكام لا تبنى إلا على الفعل العام الشائع لا على القليل النادر أن القسوة التى نسمع عنها أنها موجودة فى بعض الممالك المتمدنة تجرى على الخدمة والارقاء بما تقشعر منه الجلود شائعة بين أولئك المتمدنين الذين يدعون الحرص على رحمة البشر لو كانت موجودة بين المسلمين على ارقائهم شائعة بين عمومهم مجازة من جانب شريعتهم لكان لاستقباح الاسترقاق فى الشريعة المحمدية وجه ظاهر ولكن ذلك لم يكن

البتة يعلم ذلك من الاستقراء والاستقصاء ومراجعة تاريخ الأمة الإسلامية ومن يقل خلاف ذلك من دون اقامة البرهان بل لمجرد اشاعات أصحاب الغايات السيئة والاعتماد على اخبار غير المدققين فهو رجل مفتر على المسلمين وشريعتهم بالتهمة الباطلة والظنة السافلة أعاذنا الله تعالى من الافتراء والبهتان والكذب المحط بشرف الانسان *

﴿وأما﴾ كون الرق مشروعا في الشرائع السابقة على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ومصرحا به في الكتب المنسوبة اليها فيكفي في بيانه ما في كثير من آيات التوراة التي تدل على اتخاذ المخالفين عبيدا، ومن ذلك ما في كتاب الاستثناء وإذا دنوت من قرية لتقاتلها أدعهم أولا إلى الصلح فان قبلت وفتحت لك الأبواب فكل الشعب الذي بها يخلص ويكونون لك عبيدا يعطونك الجزية ٥ويؤخذ من سفر العدد أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسل اثنى عشر ألف رجل لمحاربة أهل مديان فانتصروا عليهم وقتلوا كل ذكر منهم وخمسة ملوكهم وسبوا نساءهم وأولادهم ومواشيهم كلها واحرقوا القرى والعساكر والمداين بالنار، فلما رجعوا غضب موسى عليه الصلاة والسلام وقال لم استحييتم النساء؟ ثم أمر بقتل كل طفل مذكر وكل امرأة ثيبة وابقاء الابكار ففعلوا كما أمر وكانت الغنيمة من الغنم ستمائة وخمسة وسبعين ألفا. ومن البقر اثنين وسبعين ألفا. ومن الحمير أحدا وستين ألفا. ومن الابكار اثنين وثلاثين ألفا. فهذا مع دلالته على جواز قتل الأعداء في تلك الشريعة حتى الأطفال. والنساء الثيبات يدل على جواز استرقاق النساء الابكار، وفي سفر صموئيل وكان الموابيين عبيدا لداود يؤدون اليه الخراج ٥وفي الاصحاح السادس من رسالة بولس الأولى الى تيموتاوس مانصه جميع الذين هم عبيد تحت نير فليحسبوا سادتهم مستحقين

كل اكرام لئلا يفترى على اسم الله وتعليمه والذين لهم سادة مؤمنون لا يستهينوا بهم لأنهم اخوة بل ليخدموهم أكثر لأن الذين يتشاركون فى الفائدة هم مؤمنون ومحبوبون علم وعظ بذلك انتهى ، وهذا النص يفهم منه تقرير الاسترقاق فى الشريعة العيسوية وان الأرقاء مكلفون باطاعة اسيادهم بكل اكرام ولولا أن استرقاق ساداتهم لهم مشروع فى تلك الشريعة لما أمروا بطاعتهم وخدمتهم اذ لا يؤمر المكلف حسبما يعهد من الشرائع بأن يأتى بما هو ممقوت عند الله تعالى ، ويفهم منه أن اطاعة ساداتهم واجبة عليهم وان كانوا غير مؤمنين حيث عمم أولا ، ثم خصص السادات المؤمنين بحكم عدم الاستهانة وبالخدمة أكثر: ولو كان الاسترقاق غير مباح فى تلك الشريعة لما قررت المؤمنين على الاسترقاق بالزام ارقائهم بمراعاتهم وأكثرية خدمتهم وكل ذلك ظاهر ، وفى رسالة بولس إلى تيطس فى الاصحاح الثانى مانصه والعبيد أن يخضعوا لساداتهم ويرضوهم فى كل شىء غير مناقضين غير مختلسين بل مقدمين كل امانة صالحة لكى يزينوا تعليم مخلصنا الله فى كل شىء انتهى ، وهذا النص قريب من الأول فى الافادة ويزيد عليه بحسب ظاهر عموم قوله فى كل شىء أن العبيد يجب عليهم إطاعة ساداتهم حتى فى الأمر الذى يكون معصية لله تعالى كما إذا أمر السيد عبده أن يزنى لكن فى الشريعة المحمدية غير واجب على العبد ان يطيع مولاه فى ذلك لأن القاعدة فيها أن لا طاعة لمخلوق مع معصية الخالق ، فعلى العبد أن يطيع مولاه فى غير معصية لله تعالى إلا أن يجبر ويهدد بمثل القتل فحينئذ حكمه حكم غير المملوك فيما لو أجبر بذلك فبعض المعاصى تباح له بالاجبار وبعضها لا يباح كما هو مفصل فى تلك الشريعة اللهم إلا أن يقال: أن ذلك العموم المفهوم من نص رسالة بولس

فى قوله فى كل شيء مخصص بنصوص أخرى مذكورة فى غير هذا الموضع من الكتب المنسوبة للشريعة العيسوية ، وفى رسالة بطرس الاولى فى الاصحاح الثانى ايها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ليس للصالحين المترفقين فقط بل للعنفاء ايضا انتهى ، وهذا النص وان لم يذكر العبيد بل ذكر الخدام ولكن قرينة قوله للسادة تعين ان المراد بالخدم العبيد ، وفيه قد جعل الاطاعة واجبة حتى للعنفاء وان لم تعتبر هذه القرينة عناداً فيكفى فى اثبات المطلوب النصان السابقان فعند ماظهر لاولئك القوم المعترضين على الشريعة المحمدية بالاسترقاق ماتقدم شرحه من حكمة مشروعيته فى هذه الشريعة ، ومن حدوده وتلطيفاته التى تحفظ راحة الرقيق بل قد تجلب له النعمة وتقصر عليه مدة الاسترقاق ، وتأملوا هذه النصوص التى فى الشريعة الموسوية والشريعة العيسوية التى تدل على مشروعية الاسترقاق وتقريره فى هاتين الشريعتين قالوا : لااعتراض على الشريعة المحمدية فى هذا الامر فهو حكم عادل مرتكب فيه أخف الضررين وهو القاعدة المعقولة ومراعى فيه جانب الشفقة والمرحمة والانسانية على قدر الامكان فيه ، ومقدرة فيه الضرورة بقدرها وكل منصف ومصدق بالوحى والشرائع لاوجه له فى الاعتراض بعد هذا البيان *

((هذا)) وأما سلب أموال الاعداء ووضع الخراج عليهم فيقال فيه نظير ماقيل فى الاسترقاق اعتراضا وجوابا فلا حاجة للتطويل بل قد مر فى مسئلة الاسترقاق والجهاد من الحجج ونصوص الشرائع المتقدمة ماهو مغن عن التصدى للكلام فيه استقلالا كما يظهر ذلك بالتامل الصادق والله ولى التوفيق *

ثم بعد مشروعية الجهاد فى الشريعة المحمدية وشروع محمد ﷺ فى محاربة مخالفيه ومعاملتهم بماشرعه الله تعالى فى ذلك كان يقتل بعضهم دفعا لاذاهم وحماية لاتباعه ونصرة لدينه لان ذلك كله لايتم الا بقتلهم ، ويسترق

بعضهم ويضع على البعض الآخر الخراج ويجعله صاحب ذمة وعهد بحيث يكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وتجب حمايته ومراعاة حقوقه وتحرم اذيته فى النفس والعرض والمال ويشترط عليه الخضوع لاحكام من شريعته تكفى فى السلامة من تعديه وافترائه على حقوق سواه ويتركه وما يدين من الاتيان بطقوس ما يعتقده على وجه يحفظ ابهة الدين المحمدى ولا يصدع افكار اتباعه ويفوض امره لله تعالى فى يوم البعث والنشور ويجرى كلا من الاسترقاق ووضع الخراج على الصورة المتقدمة عندما يجد ان ذلك كاف فى دفع اذى المسترقين والموضوع عليهم مع عود النفع فى ذلك على اتباعه وقد كان حاله ﷺ فى محاربته لاعدائه سجالا فتارة ينتصر عليهم وتارة لا وذلك سنة الله تعالى فى رسله ولكن آخر الامر كان النصر لا يتم الا له (والعاقبة للمتقين) حتى استولى على بلاد كثيرة وخضعت له قبائل عديدة واظهر الله دينه على الدين كله ولا يزال ظاهرا ولن يزال ان لم يكن بالسيف فبالحجة والبرهان واستحسان العقول الرزان •

ثم ان البعض من اعداء دينه التجأوا للحصون والمعاقل فلم يزل يترقب بهم الفرص ويراسلهم بالحجج حريصا على هدايتهم موصيا اتباعه بان لا يهملوا دعوتهم الى دينه على المنهج الذى شرعه فى معاملتهم كلما وجدوا لذلك فرصة من الزمان هذا حكم ماض الى يوم القيامة •

ثم ان البعض من الاعداء اظهروا الخضوع لدينه عليه السلام والانخراط فى سلك اتباعه وانصاره وهم يضمرون التكذيب والحامل لهم على ذلك اما الخوف واما الطمع فيما فتحه الله على يديه وايدى اتباعه من الغنائم فكان صلى الله تعالى عليه وسلم فى اول الامر يعدهم فى جملة اتباعه مع علمه بحقيقة حالهم وسوء طويتهم ولا يفضح سرائرهم ولا يبيح اضرارهم خشية اشاعة

الاعداء ان محمداً عليه السلام يكذب أتباعه في تصديقهم ويرتاب في اخلاصهم ويقتلهم لاغراض سيئة وهو امر يوجب التنفير ويثني عزم المقبلين لاسيما والدين في اول نشأته، ولكن لما قويت شوكة الشريعة، وكثرت انصارها، وسطع نورها، وظهرت معاملته لأصحابه عليه الصلاة والسلام بمحض النصيحة وخالص الشفقة ولم يبق لتلك الاشاعات الباطلة مجال اذنه ﷺ مولاه بفضيحة أولئك المنافقين وتقريعهم وتبكيتهم وتحذير أتباعه المخلصين منهم، وهم بعد ذلك انقسموا فرقتين: فبعضهم لما خالط أهل الدين واطلع على حقيقة تلك الشريعة الطاهرة العادلة وقابل بينها وبين ما كانوا عليه من الاعتقادات الباطلة والعادات السافلة خلصت نيته وصفت سريرته وعاد مؤمنا بعد ان كان منافقا وأصبح من خيار الأتباع وأكابر الأنصار، والله الهادي الى سواء السبيل، وبعضهم بقي على نفاقه متجرعا الغصص في اشفاقه. فهذا ان حمى نفسه من طائلة السيف فله في الآخرة عذاب أليم، وقد جعل ﷺ لهذا القسم علامة هي عنوان نفاقه ودليل الهوان وهي انه اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان نسأل الله تعالى الحماية والسلامة في الدين والدنيا والآخرة .

﴿هذا﴾ وقد خرج ﷺ من الدنيا واختار الرفيق الأعلى بعد أن أتم الله تعالى على يديه الدين (جزاه الله تعالى عنا أحسن الجزاء بما هو أهله) بما أنزله من القرآن الكريم وما أوحاه اليه من هديه القويم وقد امتن علينا سبحانه بتلك المنة العظمى والكرامة الكبرى فأنزل على رسوله الكامل قوله تعالى جل من قائل في يوم كان لنا العيد الأكبر: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) فيالذلك من نعمة كاملة ومنة فاضلة فله سبحانه وتعالى الحمد والشكر كما هو أهله والحمد لله

الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله " وقد كان نزول هذه الآية الكريمة نعيا لنفسه عليه الصلاة والسلام كما فهم ذلك صديقه الاكبر عليه الرضوان عند ماسمعها فبكى رضى الله تعالى عنه لأنه وضح له بنور بصيرته - والمؤمن ينظر بنور الله تعالى - أن ارساله عليه الصلاة والسلام ووجوده الشريف فى الدنيا لحكمة تبليغ الدين فما دام أن الدين قد كمل فما بقى بعد ذلك الا انتقال رسوله عليه الصلاة والسلام من دار الفناء الى دار البقاء التى هى دار القرار ، فخرج ﷺ من الدنيا راضيا مرضيا وهاديا صراطا سويا مبلغا جميع ماجاء به من عند الله تعالى ناصحا للامة تاركا لهم على المحجة البيضاء التى ليلها كنهارها مودعا فى قلوبهم محبة لاتبلى ووداداً لايفنى مفديا عندهم بالأرواح محمودا مشكورا مثنى عليه بكل لسان ثناء مبروراً فجزاه الله تعالى عن الأمة أحسن الجزاء وأعطاه الوسيلة والدرجة العالية الرفيعة فى دار البقاء وعليه من مولاه سبحانه أشرف الصلوات وأزكى التحيات وعلى آله الكرام أنوار الهدى وأصحابه العظام مصابيح الدجى ماتعاقب الملوان ، وكر الجديدان اللهم آمين *

واذ قد انتهى بنا الكلام إلى هنا وبلغنا الله تعالى على قدر الامكان فى بيان حقيقة وحقية الملة الاسلامية المنى فلنجعل نهاية الكلام خاتمة وتنبيها وبالله سبحانه وتعالى التوفيق *

(أما الخاتمة) فهى أن يعلم حقا أن الدين المحمدى بعقائده التى هى الأصول وأحكامه التى هى الفروع مأخوذ من القرآن الشريف والأحاديث النبوية التى ثبتت عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام لم يشذ شىء من تلك الأصول أو الفروع عن هذين المأخذين الكريمين وهما المتكفلان به البتة بدليل الآية المصرحة باكمال الدين المحمدى فى حياته عليه الصلاة والسلام ولكن

العقائد وان كانت تدخل تحت عدد يمكن للالفاظ ان تعبر عنه صراحة او قريبا من الصراحة ولكن الفروع لواريد افادتها بالالفاظ صراحة أو قريبا منها لاحتاجت الى الفاظ تستغرق المجلدات، وناهيك أنها تتجدد بتجدد الحوادث الزمانية فالقرآن الشريف والأحاديث الكريمة قد صرحا بالكفاية من العقائد و كثير من الفروع وجاءا بقواعد وضوابط تتضمن الجم الغفير منها أو تشير أو ترمز الى كثير من ذلك حتى يصح أن يقال: أن كل مايحتاج اليه فى الدين المحمدى هو مضمن فى القرآن والأحاديث اما صراحة واما رمزا واشارة ،وحيث أن فهم ذلك جميعه لايمكن لكل فرد من افراد الأمة فقد شرع الله تعالى طريقين آخرين لأخذ الأحكام من ذينك الأصلين العظيمين وبسطها لعموم الأمة، فاحد هذين الطريقين اجماع الأمة المحمدية أى أهل المعرفة الكافية منهم اذ جعل اجماعهم معصوما عن الخطأ لأنهم لايجمعون الا على أمر فهموه من نصوص القرآن والأحاديث وان لم يصرحوا بمأخذهم، وثانيهما اجتهاد من فقهه الله تعالى في الدين وأعطاه الفهم لاحكام القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الكريم فاجاز الله تعالى الاجتهاد لمن هو أهله وأعطى هذا المنصب لمن بان فى الأمة فضله فاخذت الأحكام تستنبط من ذينك المأخذين بهذين الطريقين حتى اكتفت الأمة من التصريح باحكام دينها ووجدت مايلزم لها فى عباداتها ومعاملاتها وآدابها وحدودها وقد بحث علماء الامة المحمدية عن الصفات التى يلزم وجودها في الشخص حتى يبلغ درجة الاجتهاد واستنباط الاحكام من القرآن والأحاديث فوجدوا أن ذلك ينحصر فيما سيأتى ، الاول أن يحوى ذلك الشخص علم القرآن الشريف بان يعرفه بمعانيه لغة وشريعة، امالغة فبان يعرف معانى المفردات والمركبات في خواصها فى الافادة فيفتقر إلى علم اللغة الذى يعلم به المعانى التى وضعت لها مفردات اللغة العربية

التى انزل القرآن بها .وعلم الصرف الذى يعرف به احوال ابنية المفردات العربية وصيغها .وعلم النحو الذى يعرف به احوال المفردات العربية عند تركبها وما لها عند ذلك من الاعراب والبناء والدلالة على المعانى التى تحدث بالتركيب .وعلم المعانى الذى يعرف به احوال الكلام العربى التى يطابق بها مقتضى الحال.وعلم البيان الذى يعرف به تأدية المعنى الواحد بطرق مختلفة سواء علم تلك العلوم بالتعلم او كان يعلمها بالسليقة كما كان لمجتهدى الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، واما شريعة فبان يعلم المعانى المؤثرة فى الاحكام مثلا يعرف فى قوله تعالى:(أو جاء أحد منكم من الغائط) ان المراد بالغائط الحدث. وان علة الحكم خروج النجاسة من بدن الانسان الحى .ويعلم أقسام القرآن التى تذكر فى اصول الفقه من الخاص.والعام.والمشترك .والمجمل.والمفسر .والمحكم . والمطلق.والمقيد: والصريح.والكناية.والظاهر.والنص.والخفى.والمشكل.والمتشابه.والدال بعبارته.والدال باشارته،والدال باقتضائه.والدال بدلالته ، والمفهوم المعتبر وما يقتضيه الامر والنهى وغير ذلك مما هو مذكور فى علم الأصول الذى هو من أعظم العلوم الدينية، وبان يعلم ان هذا خاص وذاك عام، وهذا ناسخ وذاك منسوخ الى غير ذلك، وهذا الأخير يتوقف على معرفة تواريخ نزول النصوص بان هذا سابق وذاك مسبوق،وهذه الامور مغايرة لمعرفة المعانى، ثم المعتبر هو العلم بمواقع ماذكر بحيث يتمكن من الرجوع اليه عند الطلب للحكم لا الحفظ عن ظهر القلب،والمراد بالقرآن قدر ما يتعلق بمعرفة الأحكام*

الثانى علم السنة قدر ما يتعلق بالاحكام بان يعرف متن الاحاديث أى يعرف معانيها لغة وشريعة كما مر فى القرآن ويعرف اقسامها من الخاص والعام وغيرهما مما مر نظيره فى القرآن أيضاً ويعرف مستندها وهو طريق

وصولها الينا من تواتر أو شهرة أو آحاد، ويندرج فى ذلك معرفة أحوال الرواة الذين رووا هذا الحديث من كونهم معدلين أو مجروحين، وهذا علم واسع يحتاج الى اطلاع تاريخى صحيح، ولكن عند طول الزمان بين المجتهد وبين زمنه عليه الصلاة والسلام وصيرورة معرفة أحوال الرواة عسيرة جدا يكتفى بتعديل وتجريح الأئمة الموثوق بهم فى علم الحديث. الثالث معرفة وجوه القياس، أى الطريق الذى يتوصل به المجتهد الى استنباط الاحكام فيعرف شرائط تلك الوجوه واحكامها وأقسامها، والمقبول منها والمردود كما بين فى كتب الاصول. الرابع أن يعرف المجمع عليه من علماء الدين الذين يعتبر اجماعهم لئلا يخالف اجماعهم فى اجتهاده، ومن المعلوم أنه يشترط إيمان المجتهد وعدالته، ولا حاجة الى بسط الكلام فى هذا لأنه ظاهر فاذا كملت تلك الشروط فى شخص جاز له أن يستنبط الأحكام الشرعية من القرآن والسنة، وجاز لغيره ممن ليس من اهل الاجتهاد أن يقلده ويعمل بما استنبط، ثم المعتمد عند علماء السنة ان الحق واحد عند الله تعالى والمجتهد ان اصاب الحق بعد ان استفرغ وسعه فى استظهاره فله اجران وان اخطأ فهو معذور ومأجور باجر الكد والتعب إذ ليس عليه إلا بذل وسعه وقد فعل فلم ينل الحق لخفاء دليله، نعم ان كان الدليل الموصل الى الصواب بينا فاخطأ المجتهد لتقصير منه وترك مبالغة فى الاجتهاد فانه يعاقب وما نقل عن بعض السلف من طعن بعضهم ببعض فى مسائلهم الاجتهادية كان مبنيا على أن طريق الصواب بين فى زعم الطاعن، وكل هذا فى الاجتهاد فى المسائل الفرعية لأن المطلوب فيها تحصيل غلبة الظن، وأما الاجتهاد فى الاصول والعقائد فالمخطىء فيها يعاقب أو يضلل أو يكفر لأن المطلوب فيها اليقين الحاصل بالادلة القطعية، والصحيح ان القادر على الاستدلال ولو بدليل

اجمالي اذا قلد غيره بعقيدة يكون عاصياً بترك الاستدلال، ولو كان ذلك الغير الامام أبا حنيفة النعمان ، فمن هنا ترى العجب العجاب ممن يقطع بكلام الفلكي. أو الجيولوجي الفلاني من دون دليل يقيني ، و يكون ذلك الكلام مصادما لعقيدة اسلامية أو لظاهر نص شرعي متواتر نعوذ بالله من الجهل الفاضح ، نعم اذا ثبت قول ذلك القائل المصادم بالدليل القاطع فعلينا التوفيق بالتأويل كما مر ـ كل ما تقدم في الكلام على الاجتهاد فهو في الاجتهاد المطلق وهو مأخوذ من التنقيح وحواشيه مع بعض توضيحات زدتها عليه،

وأما الاجتهاد المقيد اي في مسئلة مخصوصة فليس الكلام فيه ـ ومن هذا المقام يعلم سبب اختلاف المذاهب بين المسلمين فتجد أناسا منهم اتباع الامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت . وأناسا أتباع الامام مالك بن أنس. وأناسا اتباع الامام محمد بن ادريس الشافعي ، وأناسا أتباع الامام احمد بن حنبل رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، فان كلا من هؤلاء المذكورين قد بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق واستنباط الأحكام من نصوص الشريعة المحمدية القرآنية والأحاديث النبوية حسبما أداه اليه اجتهاده وأوصله اليه كمال علمه واستعداده مع السير في المنهج القويم والتحري التام . فاتباع هؤلاء الأئمة يقلدونهم في العمل بما استنبطوه وفهموه من الشريعة وهم ناجون عند الله تعالى في ذلك التقليد حيث ان الله تعالى قد اذن المجتهدين أن يجتهدوا واذن المقلدين أن يقلدوا فقال تعالى في القرآن الكريم :(فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) ؛ والمجتهدون هم أهل الذكر والمعرفة في دين الله تعالى، ثم اذا سئل كل مقلد عمن قلد غير امامه يقول: هو ناج عند الله تعالى لأنه قلد مجتهدا مستكمل شروط الاجتهاد، وقد كان في صدر الاسلام جملة من المجتهدين غير هؤلاء الأربعة الذي تقدم ذكرهم رضي الله تعالى عنهم من الصحابة والتابعين ومن

بعدهم ولكن لم تتوفر لهم أتباع تنقل اقوالهم بالتواتر أو بطريق صحة موثوق به فلذلك درست مذاهبهم، وأما هؤلاء الاربعة فقد وفق الله تعالى لهم أتباعا من العلماء الاعلام نقلوا اقوالهم الى هذا العصر بالتواتر أو بطريق موثوق وحفظوها ودونوها فى الكتب وتلقوها عن بعضهم بالمشافهة والتدريس جيلا بعد جيل، فلذلك بقيت مذاهبهم ذات أتباع الى الآن . وكل فريق من هؤلاء الاتباع لا يطعن فى الفريق الآخر ولا يضلله ولا يفسقه. ويسوغ لكل شخص أن يقلد اماما من أولئك الأئمة، ثم بعد تقليده يجوز له أن يترك تقليده ويقلد اماما آخر منهم ، ولا يعد ذلك معيبا عليه فى دينه اذا كان ذلك الانتقال لغرض شرعى صحيح وكل ذلك واضح مما يشاهده كل مطلع على احوال المسلمين اتباع هؤلاء الأئمة إذ يرى انهم يتنا كحون فيما بينهم فيأخذ الحنفى شافعية. أو مالكية. أو حنبلية .أو بالعكس ،ومساجدهم واحدة وخليفتهم واحد. ويصلون مع بعضهم ولاشىء بينهم يشعر بادنى بغضاء أو طعن قادح ، ويرى الحنفى يصير شافعيا أو بالعكس ،غاية الأمر ان كل متبع يراعى مذهب امامه الذى اتبعه ويجرى فى العمل عليه وهو لا ينكر على سواه جريه على العمل بمقتضى مذهب من تلك المذاهب غير مذهب امامه ٭

فهذه حالة المسلمين في مذاهبهم الاربعة الشائعة بينهم وهى الحال التى تنطبق على أصول شريعتهم فليعلم ذلك من لم يعلمه، ثم اذا نظر الى الشروط التى تقدم اشتراطها لنوال الشخص مرتبة الاجتهاد فى استنباط الأحكام الشرعية نجد انها لا يزال توفرها فى أناس ممكنا عقلا الى الآن وبعد الآن ، ولكن من عصر اربعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أزكى الصلاة والسلام . قال بعض العلماء الاعلام كما ينقل عن علماء الحنفية : ان باب الاجتهاد قد سد من ذلك التاريخ وربما يتخيل لبعض الناس ان هذا الحكم من اولئك العلماء غير موافق

للصواب إذ يقال مادام توفر شروط الاجتهاد التى تقدم ذكرها لا يستحيل عقلا وجوده فى شخص الى الآن وبعد الآن ، فما المانع أن يوجد مجتهد بعد ذلك العصر حتى الآن ؟ لكن اذا دقق النظر يظهر أن ماقاله اولئك الاعلام هو موافق للصواب وعين الحكمة وهو ناشىء عن دقة انظارهم ومعرفتهم فى أحوال الزمان وتقلباته وأسرار الله تعالى فى شؤون هذه الامة المحمدية، وبيان ذلك ان هؤلاء العلماء القائلين بسد باب الاجتهاد من عصر الاربعمائة نظروا فى شئون القرون الثلاثة ، وهم قرن الصحابة والتابعين وتابع التابعين فوجدوا ان الله تعالى قد وفقهم الى الانكباب على تحصيل علوم الشريعة والحرص على مواد الاجتهاد واستنباط الاحكام من القرآن الكريم وتفاسيره المنقولة عن الرسول عليه الصلاة والسلام والأحاديث النبوية وآثار الصحابة وفتاويهم وأمثال ذلك مما أهل علماء تلك القرون ان يبلغ كثير منهم درجة الاجتهاد فى الدين لاسيما وعصرهم قريب من عصر الرسول عليه الصلاة والسلام أو عصر من رآه أو رأى من رآه، وقد ظهرت عناية الله تعالى بتأهيل أهل تلك العصور لذلك حيث قد تم فيها جميع مايحتاج اليه فى أمر الدين فجمع القرآن وحفظ وحصن من طوارق التبديل والتغيير وجمعت أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ودونت وضرب فى تحصيلها بطون الابل من أقصى البلاد وانصب المجتهدون من علماء الأمة على استنباط الأحكام من ذينك الاصلين العظيمين حتى أفرغوا الجهد فى ذلك ولم يبق من احتياجات الأمة فى أحكام دينها الا النادر الفذ الذى لايتفق وقوع حادثته الا فى أجيال، وتم أمر الدين على أحسن منوال وأقوم منهاج كل ذلك كان فى القرون الثلاثة. فلم يبق لمن بعدهم وظيفة الا تدوين تلك الأحكام ونشرها وتبليغها للامة ، وقد ظهر من هنالك

فتور الهمم عن ذلك الانصباب فى تحصيل علوم الدين،ولم يزل ذلك الفتور بازدياد حتى بلغ الغاية فى الازمنة المتأخرة لاينكر ذلك من له أدنى اطلاع على تاريخ هذه الأمة الاسلامية فنحن نرى أكبر علمائها اليوم ان برع فى بعض العلوم التى تقدم اشتراطها فى المجتهد فهو مقصر فى البعض الآخر فمن هو الذى نراه منهم محيطا فى هذه الازمان بعلوم القرآن من معرفة معانيه اللغوية والشرعية وبالعلوم العربية التى تلزم لفهمه كالنحو والصرف والمعانى والبيان وباقسامه التى تقدم ذكرها من الخاص والعام الى آخر ما مر،وبتمييز كل واحد منها وتمييزه عن الآخر وبناسخه ومنسوخه وبوجوه القياس وبما أجمعت عليه الأمة وبعلوم الأحاديث النبوية متنا وسندا كما تقدم تقريره فى بيان شروط المجتهد،ومن ادعى استيفاء ذلك كله فعليه أن يثبته بالبرهان — كل من يدعى بماليس فيه ٭ كذبته شواهد الامتحان — وأظن ان كل من يعلم أن مثل أبى يوسف . ومحمد . وزفر . والحسن أصحاب أبى حنيفة رضى الله تعالى عنهم أجمعين لم يدعوا مرتبة الاجتهاد المطلق يخجل أن يدعى هو تلك المرتبة وهو من أهل هذه الازمان وان قيل ان هذا الزمان قد توفرت فيه كتب تفاسير القرآن والحديث وشروحها وكتب أسباب النزول والناسخ والمنسوخ ونحو ذلك مما هو الركن الأعظم لمرتبة الاجتهاد فما المانع أن يتقن شخص فى هذه الأزمان تلك العلوم التى تقدم اشتراطها ويعتمد على هذه الكتب التى تقدم ذكرها وهى متكفلة بالركن الأعظم لتلك المرتبة وعلى ذلك فالذى يتراءى أن الاجتهاد فى هذا الزمان أسهل حصولا من الاجتهاد فى صدر الاسلام قبل أن تدون تلك الكتب قلت نعم قد وجد جميع ذلك ولكن فى السطور لافى الصدور وان لم يشترط للمجتهد أن يحوى جميع ذلك فى صدره ولكن لابد أن يعلم مرجع

كل شيء من ذلك بحيث لا يخفى عليه مرجع حكم عند احتياجه الى مراجعته ووجود شخص بهذه الصفة فى هذه الازمان هو أيضا غير حاصل اذا رجع إلى الانصاف . فمن الذى فى هذا الزمان مستعد لاستنباط كل حكم باستيفائه تلك الشروط وقدرته على مراجعة مرجع كل حكم من تلك الكتب بحيث يصل بذلك الى معرفة كل آية ناسخة وآية منسوخة وكل حديث ناسخ أو منسوخ بآية أو حديث. ومعرفة مراتب الاحاديث من التواتر والشهرة والآحاد. ومعرفة المجمع عليه الى آخر ما مر، وبالجملة إن تشييد البراهين على صحة قول من قال بسد باب الاجتهاد من عصر الاربعمائة يطول شرحه ويحتاج إلى تأليف مخصوص : ولكنى أنقل هنا ما وجدت من كلام العلامة ابن الحاج فى المدخل مما يوضح هذا المقام ويقتنع به كل منصف منزه عن العناد، وقد اختصرته بعض الاختصار لدفع التشويش من التطويل قال : رحمه الله تعالى وأرضاه فى الكلام على قوله ﷺ : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث هذا الكلام منه عليه الصلاة والسلام فى القرون المذكورة يعنى فى غالب الحال منهم ماذكر والا فقد كان منهم قوم لا يقتدى بهم وانما نعنى أهل العلم ، ثم قال وانظر الى حكمة الشارع صلوات الله تعالى عليه وسلامه وكيف خص هذه القرون بالفضيلة دون غيرهم وان كان غيرهم من القرون فى كثير منهم البركة والخير ولكن اختصت هذه القرون بمزية لا يوازيهم فيها غيرهم وهى ان الله تعالى خصهم لاقامة دينه واعلاء كلمته فالقرن الأول خصهم الله تعالى بخصوصية لا سبيل لاحد أن يلحق غبار أحدهم فضلا عن علمه لأن الله تعالى قد خصهم برؤية نبيه عليه الصلاة والسلام ومشاهدته ونزول القرآن عليه غضا طريا وبحفظهم آى القرآن الذى كان ينزل نجوما نجوما فأهلهم لحفظه حتى لم يضع منه حرف

واحد فيجمعوه ويسروه لمن بعدهم وحفظوا أحاديث نبيهم عليه الصلاة والسلام في صدورهم وأثبتوها على ماينبغي من عدم اللحن والخلط والسهو والغفلة ، وقد كان مالك رحمه الله تعالى اذا شك في الحديث تركه البتة فلا يحدث به وهو ليس من قرنهم بل من القرن الثاني فما بالك بهم وهم الخيار ووصفهم في الحفظ والضبط لا يمكن الاحاطة به ولا يصل اليه أحد فجزاهم الله تعالى عن أمة نبيه خيرا ، لقد أخلصوا لله تعالى الدعوة وذبوا عن دينه بالحجة قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : من كان منكم متأسيا فليتأس باصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فانهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما واقلها تكلفا وأقومها هديا وأحسنها حالا اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم واقامة دينه فاعرفوا فضلهم واتبعوهم في آثارهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم اه *

فلما مضوا لسبيلهم طاهرين عقبهم التابعون لهم رضى الله تعالى عنهم فجمعوا ما كان من الأحاديث متفرقا وبقى أحدهم يرحل في طلب الحديث الواحد وفي المسألة الواحدة الشهر والشهرين وضبطوا أمر الشريعة أتم ضبط وتلقوا الاحكام والتفسير من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم مثل على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه وابن عباس رضى الله تعالى عنهما كان على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه يقول : سلوني مادمت بين أظهركم وقال عليه الصلاة والسلام في ابن عباس : ترجمان القرآن فمن لقي مثل هؤلاء كيف يكون علمه وكيف يكون حاله وعمله فحصل للقرن الثاني نصيب وافر أيضا في اقامة هذا الدين ورؤية من رأى بعيني رأسه صاحب الشريعة صلوات الله تعالى عليه وسلامه فلذلك كانوا خيرا من الذين بعدهم ، ثم عقبهم التابعون لهم وهم تابعو التابعين رضى الله تعالى عنهم فيهم حدث الفقهاء المقلدون المرجوع اليهم في النوازل الكاشفون الكروب فوجدوا

القرآن والحمد لله تعالى مجموعا ميسرا ووجدوا الأحاديث قد ضبطت وأحرزت فجمعوا ما كان متفرقا وتفقهوا فى القرآن والأحاديث على مقتضى قواعد الشريعة واستخرجوا فوائد القرآن والأحاديث واستنبطوا منها فوائد وأحكاما وبينوها على مقتضى المنقول والمعقول ودونوا الدواوين ويسروا على الناس وبينوا المشكلات باستخراج الفروع من الاصول ورد الفرع الى أصله وبينوا الاصل من فرعه فانتظم الحال واستقر من الدين لأمة محمد عليه الصـــلاة والسلام بسببهم الخير العظيم فحصلت لهم فى اقامة هـذا الدين خصوصية أيضا بلقائهم من رأى من رأى صاحب العصمة صلوات الله تعالى عليه وسلامه، ومع ذلك لم يبقوا لمن بعدهم شيئا يحتاج أن يقوم به كل من أتى بعدهم، انما هو مقلد لهم فى الغالب وتابع لهم، فان ظهر لهم فقه غير فقههم، أو فائدة غير فائدتهم فمردود كل ذلك عليه أعنى بذلك أن يزيد فى حكم من الاحكام التى تقررت أو ينقص منها فذلك مردود بالاجماع وأما ما استخرجه من بعدهم من الفوائد غير المتعلقة بالاحكام فمقبول لقوله عليه الصلاة والسلام فى القرآن: « لا تنقضى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد» — يعنى التكرار — فعجائب القرآن والحديث لا تنقضى الى يوم القيامة كل قرن لا بد له أن يأخذ منه فوائد جمة خصه الله تعالى بها وضمها اليه لتكون بركة هذه الأمة مستمرة إلى قيام الساعة ؛ قال عليه الصلاة والسلام: « امتى مثل المطر لا يدرى أيه أنفع أوله أو آخره » أو كما قال عليه الصلاة والسلام: يعنى فى البركة والخير والدعوة إلى الله تعالى وتبيين الاحكام لا أنهم يحدثون حكما من الأحكام، اللهم إلا ما يندر وقوعه مما لم يقع فى زمان من تقدم ذكرهم لا بالفعل ولا بالقول ولا بالبيان فيجب إذ ذاك أن ينظر الحكم فيه على مقتضى قواعدهم فى الاحكام الثابتة عنهم المبينة الصريحة فاذا كان ذلك على

مقتضى أصولهم قبلناه فلما مضوا لسبيلهم طاهرين ، ثم اتى من جاء بعدهم فلم يجد فى هـذا الدين وظيفة يقوم بها ويختص بهـا بل وجد الأمر على أكمل الحالات فلم يبق له إلا أن يحفظ مادونوه. واستنبطوه واستخرجوه وأفادوه فاختصت إقامة هذا الدين بالقرون المذكورة فى الحديث ليس إلا ، فلأجل ذلك كانوا خيرا ممن أتى بعدهم ولا يحصل لمن يأتى بعد هذه القرون المشهود لهم بالخير خير إلا باتباع من شهد له صاحب العصمة صلوات الله تعالى عليه وسلامه بالخير فبقى كل من يأتى بعدهم فى ميزانهم، ومن بعض حسناتهم فبان ماقاله عليه الصلاة والسلام: «خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» انتهى كلام ابن الحاج فى كتاب المدخل، ومن يتامل كلام هذا الحبر الجليل وينظر اليه بعين الانصاف يظهر له صحة القول المنقول عن علماء الحنفية أن باب الاجتهاد قد سد من عصر الأربعمائة ويفهم سر ذلك وحكمته الالهية، والحمد لله تعالى على تصريح هؤلاء الاعلام بهذا القول المؤيد باوفى بيان، وعلى توفيق سلاطين آل عثمان وفق الله تعالى دوانهم إلى مافيه رضى الرحمن الى انفاذ هذا القول بين رعاياهم المؤمنين، والالكنت ترى فى هذه الازمان التى قل فيها الورع وكثرت فيها الدعاوى الباطلة كثيرا من المتجرئين على الله تعالى، المغرورين بانفسهم بسبب حصولهم على بعض من مواد الاجتهاد وهو أقل من القليل وغير كاف لبلوغ درجته، يدعون هذا المنصب الجليل ويتبعهم بعض الأغرار ويحدثون فى الدين مايسمونه أحكاما وما هو إلا بدع وضلالات تخالف ماكان عليه السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم الذين استوفوا أمر الدين على أتم مايرام ، وكنت ترى كل برهة من الزمان يتغير الحال فى الدين كما تتغير السياسات بحسب مقتضيات الزمان — والدين الاسـلامى قد جعله الله تعالى ثابت الاحكام الى يوم الحشر

والقيام — فكان الأمر يصل الى حالة تضل فيها الامة عما كان عليه نبيها عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام عليهم من الله تعالى الرضوان ونعوذ بالله من ذلك . فجزى الله تعالى العلماء الأعلام خير الجزاء فيما أبدوه من البيان وأدام الله سبحانه وتعالى الدولة العلية العثمانية موفقة لحماية هذا الدين من اعدائه المضلين اللهم آمين .

﴿ هذا ﴾ وانى قد سمعت عن بعض القاصرين المتطاولين على منصب العلماء المحققين انهم يقولون: ان الأولى لنا الأخذ بما يصرح به القرآن الشريف ليس إلا ، يعنون أنهم لا يأخذون بما جاءت به الأحاديث النبوية ، وهذا الرأى فاسد باطل فى نظر علماء هذه الأمة الأعلام لاننا معشر الأمة المحمدية كما اننا مأمورون فى نص القرآن والأحاديث التى ثبتت عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالتمسك بما يرد فى القرآن الشريف . كذلك مأمورون بالتمسك بما يرد فى الأحاديث الكريمة الثابت ورودها عنه عليه الصلاة والسلام ، وقد انعقد الاجماع على ذلك والآيات الدالة على التمسك بالسنة المطهرة والاتباع للرسول ﷺ فى اقواله وأفعاله كثيرة جدا وان لم يكن من ذلك إلا قوله تعالى: (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه أولئك هم المفلحون) وقوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحى يوحى) الآية لكان كافيا فى بيان وجوب الأخذ باقواله عليه الصلاة والسلام ، وهل لنا كمال فهم القرآن إلا من أحاديثه

الكريمة ، وقد صرح هو عليه الصلاة والسلام فيما ثبت نقله عنه بأن علينا الأخذ بما جاء به من الأحاديث وان الاقتصار على القرآن الشريف يستلزم اننا نكون قاصرين في أحكام الدين ولا نصل الى فهم جميعها من القرآن فقط ، فمن الأحاديث الثابتة عنه عليه الصلاة والسلام في ذلك ما جاء في سنن أبي داود عن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه أنه قال : « صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ، ثم أقبل علينا بوجهه فوعظنا موعظة بليغة ذرفت فيها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل : يارسول الله كأن هذه الموعظة موعظة مودع فما تعهد الينا ؟ قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان كان عبدا حبشيا فانه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الأمور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار » وما في أبي داود والترمذي عن المقداد رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ : « الا اني اوتيت الكتاب ومثله معه الا يوشك رجل شبعان — كناية عن المغرور الغافل المنهمك بشهوته فتقييده بالشبع اشارة الى أنه الحامل الى هذا القول المردود ، وفيه تنبيه أن الشبع سبب الحماقة والغفلة ولهذا لم يشبع ﷺ على ما في الشفاء عن عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبيها « لم يمتلىء جوف النبي ﷺ قط — على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فاحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه وان ما حرم رسول الله كما حرم الله » الحديث وما في ابي داود عن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه « قام فينا رسول الله ﷺ فقال : ايحسب أحدكم متكئا على أريكته يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئا الا ما في هذا القرآن الا واني قد امرت ووعظت ونهيت عن أشياء انها مثل

القرآن أو أكثر وان الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب الا باذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم اذا أعطوكم الذى عليهم» وكثير من الأحاديث الثابتة عنه عليه الصلاة والسلام تفيد ذلك يطول بنا الشرح ان استوفينا نقلها وفيما نقلناه كفاية، فان كان شبهة هؤلاء القاصرين فى هذا الحكم الباطل والرأى الفاسد من الزام الأمة بالاقتصار على مايفهم من القرآن وترك مايفهم من الأحاديث هى أن الأحاديث المنسوبة الى الرسول عليه الصلاة والسلام يوجد بينها الضعيف الذى لم يثبت وروده عن النبى ﷺ ثبوتا معتبرا لأخذ الاحكام ويوجد بينها الموضوع أى الذى هو مكذوب عن النبى عليه الصلاة والسلام، وهذا أمر على زعمهم يرفع الثقة بالأحاديث قلنا لهم : أن هذه شبهة ساقطة اذ من المعلوم ان علماء الدين المحمدى الاعلام أهل التحقيق والتدقيق الموثوق بهم فى رواية الأحاديث ومعرفة تراجم رواتها لم يدعوا شيئا منها إلا بينوا منزلته من الثبوت عن الرسول عليه الصلاة والسلام وأحاطوا بصفاتها وأقسامها وأحوال رواتها على أتم وجه وأكمل تبيان حتى أفردوا لذلك فنا مخصوصا يسمى فن مصطلح الحديث. فألفوا فيه الكتب والرسائل ونظموا الاراجيز والقصائد وكذلك فعلوا فى تراجم رواة الأحاديث فافردوا لذلك فنا أيضا يسمى فن التعديل والتجريح، ثم بعد ذلك نبهوا على منزلة كل حديث يذكر فى كتب السنة وعلى حكمه فى الاعتماد عليه فى الاحكام أم لا، وبالجملة بينوا الأحاديث المتواترة والمشهورة التى يعتمد عليها فى الاعتقادات الاسلامية وفى الاحكام الشرعية والأحاديث الآحادية الصحيحة والحسنة التى يعتمد عليها فى الاحكام والأحاديث الضعيفة التى لا يعتمد عليها فى شىء مما تقدم ولكن قد يؤخذ بها فى فضائل الأعمال ـ اعنى أنها اذا كانت واردة فى فضل

عمل لاشيء في الشريعة يمنع منه فلا مانع من العمل بها - والأحاديث الموضوعة التي لا يعتمد عليها في شيء من جميع ذلك بل يجب على تاليها أن يبين وضعها وأنها مكذوبة عن الرسول عليه الصلاة والسلام ولا يؤخذ بها البتة والكتب المؤلفة في استيفاء هذه البيانات وتمييز منزلة كل حديث هي منتشرة بين علماء الأمة حتى لا يخفى عليهم شيء من حقائقها فأي ضرر بعد ذلك في الاعتماد على الأحاديث النبوية كما يعتمد على القرآن كل منهما على قدر منزلته من الثبوت، هذه اخبار الناس وأحاديثهم يوجد بينها الصادق الكاذب أيسوغ لنا أن نقول: لا يجوز لنا أن نصدق خبرا ونعتمد عليه لوجود الأخبار الكاذبة بين أخبار الناس؟ كلا والله لا يقول بذلك إلا كل جاهل بل الصواب أن نقول: إننا نبحث عن الاخبار الكاذبة حتى نعرفها ونردها ولا نعتمد عليها ونبحث عن الاخبار الصادقة حتى نعرفها ونأخذها ونعتمد عليه وهكذا فعل علماء الأمة بالأحاديث المنسوبة الى الرسول عليه الصلاة والسلام بحثوا ودققوا عنها حتى وقفوا على ما صح نقله عنه عليه الصلاة والسلام فنبهوا على ثبوته واعتمدوه ووقفوا على ما كان بخلافه فنبهوا على قيمته فانزلوه منزلته من عدم الاعتماد عليه في الأحكام أو رفضه البتة، وأن قال هؤلاء القاصرون: من اين لنا الوقوف على منازل الأحاديث ومعرفة ما يعتمد منها وما لا يعتمد؟ قلنا: فاذن انتم من قسم العامة فان علماء الدين يعرفون ذلك ولا يخفى عليهم شيء منه فعليكم أن لا تتجرموا بمثل هذه الجراءة وارجعوا في دينكم الى أهل الذكر والمعرفة الذين يعرفون ذلك حق العرفان وأن كان شبهة هؤلاء القاصرين أنه يوجد في الأحاديث المنقولة عن الرسول عليه الصلاة والسلام ما ظاهره المخالفة لقانون العقل وما قام عليه الدليل العقلي القاطع والاكتشافات التي اكتشفتها فنون هذا الزمان

والخلاص من ذلك على زعمهم الاقتصار على القرآن واهمال جميع الأحاديث النبوية فاقول: وهذه شبهة أوهن من بيت العنكبوت وتشبثهم بها يدل على تمام قصور فهمهم فى حقيقة الدين المحمدى المكين ، وذلك أن القاعدة فى الشريعة المحمدية كما تقدم بيانه فى هذه الرسالة نقلا عن علماء الاسلام الاعلام أنه يجب علينا معشر المسلمين الأخذ بظواهر القرآن والحديث الثابت عن رسول الله ﷺ مالم يقم دليل عقلى قاطع ينافى ظاهر شىء من ذلك فان قام دليل كذلك ينافى ظاهر آية أو حديث فعلينا أن نؤول ذلك الظاهر ونرده الى معنى محتمل وان كان بعيداً يحصل به التوفيق بين ذلك النص وبين ذلك الدليل العقلى القاطع، ومن تتبع القرآن وجميع الأحاديث النبوية الثابتة عن الرسول ﷺ لا يجد شيئاً من ذلك يخالف ظاهره الدليل العقلى القاطع إلا ويمكن تأويل ظاهره والتوفيق بينه وبين ذلك الدليل، واما النصوص التى لا تقبل التأويل ومعانيها متعينة فلا شىء منها يخالف الدليل العقلى القاطع ولا يمكن ان يقام دليل عقلى على مخالفتها البتة ومن يزعم خلاف هذا فعليه البيان*

فهؤلاء القاصرون كان من الصواب لهم انهم عوضاً عن قولهم بترك الاخذ بالاحاديث النبوية لهذه الشبهة ان يسألوا علماء الامة عن تطبيق كل حديث منها قد وجدوا ظاهره مخالفاً لدليل عقلى قاطع وهم يبينون لهم التوفيق على اقوم طريق ويظهر لهم عند ذلك ان الدين الاسلامى لا شىء من نصوصه مخالف للعقل فى الحقيقة ونفس الامر، وانما يتخيل المخالفة ظاهراً فى بعض نصوصه اما لقصور الفهم او لقلة العلم او ان النص ورد على ما يظهر فيه من المخالفة لحكمة من الله تعالى اما لابتلاء العلماء وامتحانهم فى فهم نصوص شريعتهم واجتهادهم فى تحرى الحق والوصول الى الصواب واما لغير ذلك، وانى شارع فى تأليف كتاب اذكر فيه ما يوفقنى الله تعالى

اليه من النصوص القرآنية . والاحاديث النبوية مما ظاهره مخالفة الدليل العقلي والاكتشافات الجديدة المقطوع بها وأطبق كلا من ذلك على قانون العقل بتأويل مناسب جريا على تلك القاعدة المتقدمة اسأل الله سبحانه وتعالى ان يتفضل علي ويوفقني لاتمامه خدمه لهذا الدين هدانا الله تعالى جميعا الى مافيه الحق وثبت قلوبنا على الايمان وألسنتنا على الصدق ووفقنا لما فيه رضاه ومسرة مصطفاه . وختم لنا بخاتمة السعادة بجاه سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم صاحب السيادة اللهم آمين ٭

﴿ واما التنبيه ﴾ فانى ارجو ممن يطلع على هذه الرسالة ان لايبادر بالانتقاد لما يتبادر فيه فهمه انى مخطىء فيه قبل أن يستوفى فهم المقام الذى اكون آخذا فى تقريره بل ينظر الى السابق واللاحق والى المقصد الذى الفت لأجله الرسالة والكيفية التى رتبت عليها ثم ليحكم بما يظهر له من الحق فانى لم أدع السلامة من الخطأ مادمت من جملة البشر غير المعصومين وقد أبى الله العصمة لغير كتابه . وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، غاية ماأقول : انى تحريت الصواب بقدر جهدى وطاقتى فما كان حقاً فبتوفيق الله تعالى اليه هديت وببركة رسوله المصطفى ﷺ الذى كنت من بعض خدمة شريعته المطهرة ، وما كان خطأً فهو من قصور فهمى وقلة علمى وضعف فكرى وأرجو الله تعالى أن لايؤاخذنى بزللى ، ومن رام أن ينتقد فله الاختيار ولكن عليه أن يقدم على ذلك بنية خالصة فان تأليفى ماهو إلا خدمة للدين الاسلامى فلينظر المنتقد الذى هو من أهل هذا الدين ماذا يرضى الله ورسوله وليفعل ٭ ثم انى فى هذه الرسالة وأن خضت فى بعض المواضيع الفلسفية فليس قصدى من ذلك التفلسف فى الدين بل ذلك لاقناع عقول المتفلسفين ولبيان أن الدين الاسلامى لايكلف اتباعه إلا

بالعقائد الحقة المنطبقة على قانون العقل الصحيح وبالأحكام التى ترجع عليهم بالخير عاجلا وآجلا ، هؤلاء علماء الكلام خاضوا ماخاضوا مع الفلاسفة من شرح المباحث الفلسفية لبلوغ تلك الغاية فلست فى ذلك سالكا طريقاً لم تسلكه علماء الأمة الاسلامية، ومن يعلم شيوع فنون الفلسفة الجديدة وكتبها بين أهل هذا العصر لاسيما منهم غير المتمكنين فى معرفة حقيقة الدين الاسلامى يستحسن سلوك هذا الطريق للمحافظة على العقائد الاسلامية من شوائب تلك الفلسفة الجديدة التى اشتملت على مكتشفات لم تكن فى عصر المتقدمين من علماء الأمة الذين لم يتركوا شيئاً من المحافظة على العقائد من شوائب الفلسفة القديمة، ثم انى فى بعض المواضيع أرخى العنان للخصم وأجعل له الخيار فى الاعتماد على بعض أقوال علماء هذه الأمة غير جمهورهم وما كان ذلك منى إلا لتسهيل الطريق عليه وتيسير الدخول فى الدين لأن دخوله فيه ولو على قول ذلك البعض من العلماء الاسلاميين يجعله فى عداد أهل الملة المحمدية ولا يحرمه صفة الايمان فيكون سبباً انجاته مما عليه من المخالفة المهلكة ، هذا الامام الغزالى رضى الله تعالى عنه فى كتابه تهافت الفلاسفة يكتفى بالزامهم الحجة ولو على قول بعض أهل الاعتزال لأن المعتزلة لم يخرجوا عن كونهم من عداد المسلمين وكلامهم على قانون الاسلام كما فى المواقف ومآلهم النجاة على المعتمد هذا الحق سبحانه وتعالى قد أذن لرسوله عليه الصلاة والسلام فى القرآن المجيد أن يخاطب الكفار بقوله : (وأنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) وهو صلى الله تعالى عليه وسلم ليس شاكا فيما هو عليه وانما هو أسلوب خطابى لجلب الخصم الى الدخول فى المباحثة والاصغاء الى الحجة فتتلى عليه فيفهمها فتقنعه بالحق وبذلك يحصل المقصود ، وأما اعتقادى فى الدين الاسلامى

الذى ألقى الله تعالى عليه وأسأله سبحانه وتعالى أن يحسن خاتمتى به فهو انى اعتقد بجميع ماجاء به سيدنا ومولانا محمد عليه الصلاة والسلام اعتقاداً جازما على وفق مايعتقده السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم باحسان طبق مذهب أهل السنة والجماعة، وانى على مذهبهم فى التفويض فى اعتقاد النصوص الشرعية فاعتقد أن كل نص جاء منها هو حق لايخالف العقل الصحيح ولا يستلزم محالا وأومن به على ماأراد الله تعالى منه وأفوض علم تعيين معنى المتشابه اليه تعالى ولكنى عند الانتصاب لمحاججة المعترضين على شىء من تلك النصوص أو المعتقدين منها خلاف ماتفيده أصول الدين أجرى على طريقة الخلف رضى الله تعالى عنهم من التأويل للنصوص التى يخالف ظاهرها العقل بما يحصل به التوفيق بينها وبين العقل كما تقدم من القاعدة وذلك لاقناع الخصم واحتجاجه بانه يمكن له فهم النص بهذا التأويل وترك المخالفة المهلكة، وحقيقة الاعتقاد هو ان النص ذو معنى صحيح طبق العقل الصحيح وتعين معناه مفوض الى علمه تعالى كما تقدم هذا مذهبى الذى ألتزمه واختاره فلينزل عليه كلامى فى كل مقام والله ولى التوفيق. ثم انى فى هذه الرسالة قد التزمت فى تحريرها طريقة تناسب افهام العوام على قدر الامكان حتى انى كنت اكرر بعض عبارات واضع الظاهر موضع المضمر اذا بعد مرجعه اودخل فى نوع خفاء واستعمل بعض الفاظ عامية اوغير ذلك مما تخلو عنه تآليف العلماء المتأنقين فى التأليف كل ذلك منى لتسهيل الفهم وتوضيح المقام لعل الله تعالى ينفع بهذه الرسالة بعض اخوانى فى الدين واخوانى فى الطين، وانى اتضرع الى الله سبحانه وتعالى بانكسارى وضعفى وعجزى واتوسل اليه بصاحب الشريعة المطاهرة والملة المنورة سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ان يتقبل عملى وينفع به عباده وان يخلص نيتى لوجهه

الكريم وان يوفق وينصر ويؤيد دولة مولانا امير المؤمنين وخليفة رب العالمين ، ويحرسه بعين عنايته وحرز وقايته ٭

انه مفيض الخير والجود آمين ، وقد وفقنى الله تعالى لاتمام هذه الرسالة صبيحة نهار الجمعة المبارك قبيل طلوع الشمس من يوم عيد الفطر السعيد الذى جعله الله تعالى ترويحا لعباده المؤمنين بعد ادائهم فريضة الصيام وابتهاجا بدخول اشهر الحج المبارك من كل عام سنة الف وثلاثمائة وست من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة واتم التسليم وعلى جميع اخوانه من الانبياء والمرسلين وعلى آل كل وصحبه اجمعين والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ٭

﴿ تمت ﴾

تم طبع هذه الرسالة الميمونة بعون الله تعالى وحسن توفيقه فى ادارة الطباعة المنيرية بمصر المحمية سنة ١٣٥٢ الهجرية على صاحبها اكمل صلاة وافضل تحية بعد ان علق عليها بما يبين لبعض الضالين طرق الهدى ويوضح صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والصالحين فجاءت خير رسالة أخرجت على هذا الشكل الأنيق والحمد لله رب العالمين ٭

فهرست

الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية
وحقية الشريعة المحمدية

صحيفة

صحيفة	
٧	وطائفة استدلوا بالنظر فى قوانينه هل انها نافعة ومرضية لملكهم وبانه هل أوامره راجعة لصالحه الخصوصى أم للصالح العام؟ فظهر لهم صدقه فصدقوه
٧	وطائفة تربصوا الى أن يبلغ خبره الى الملك فان اقره صدقوه وإلا فلا ، وحيث لم يجدوا شيئاً من الملك ضد ذلك الرجل صدقوه
٨	وطائفة استدلوا باتفاق الطوائف المتقدمة على تصديقه وان ذلك لايكون بوجه الصدفة ولا يتركون عوائدهم وبعض قوانين الملك السابقة لدليل ضعيف او هوى نفس
٩	وطائفة لايعلمون أن للناس ملكا فضلا عن العلم برسوله، لكن استدلوا على صدقه باتفاق الطوائف عليه وشهادتهم بتحقق العلامات فيه وبما احضره من التحف التى لاتوجد إلا عند من له سلطة الملك فصدقوا بوجود الملك وبرسالة ذلك الرجل
١٢	ذكر بعض ممن أخذتهم عزة النفس عن الاقرار بصدق ذلك الرجل وهم يصدقون له باطنا فاخذوا يؤولون أدلة صدقه بتأويلات واهية والرد عليهم بان اتفاق تلك الأدلة يعطيها قوة تمنع التأويل
١٣	ذكر طائفة يتمسكون بتكذيب ذلك الرجل تمسكا اعمى بدون حجة والاحتجاج على خطائهم وانهم يستحقون انتقام الملك ولا يعذرون

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صفحة

﴿ تمت والحمد لله رب العالمين ﴾

اشهر مؤلفات صاحب هذا الكتاب المطبوعة .

١ — الرسالة الحميدية فى حقيقة الديانة الاسلامية فلسفية توحيد
٢ — الحصون الحميدية لمحافظة العقائد الاسلامية توحيد
٣ — العلوم الحكمية فى نظر الشريعة الاسلامية الدين والطبيعيات
٤ — البدر التمام فى مولد سيد الانام قصة المولد الشريف
٥ — مهذب الدين اجتماعيات
٦ — هدية الألباب فى جواهر الآداب أخلاق واجتماعيات
٧ — تربية المصونة اجتماعيات ٨ — التوفير والاقتصاد اقتصاد
٩ — حكمة الشعر أدب وحكمة
١٠ — اشارة الطاعة فى صلاة الجماعة دين وسياسة
١١ — علم تربية الأطفال سعادة النساء والرجال أدب وتدبير المنزل
١٢ — تعدد الزوجات فلسفة دينية ١٣ — الأدبيات شعر الحكمة
١٤ — كلمات لغويه لغة ١٥ — مختارات طرابلس من الشعر أدب
١٦ — حكمة الشعر أدب
١٧ — رياض طرابلس الشام (مجموعة مقالات) دين وأدب واجتماع وفلسفة وتاريخ ظهرت فى جريدة طرابلس فى عشرة أجزاء
١٨ — نزهة الفكر فى مناقب الشيخ محمد الجسر تاريخ

اهم المؤلفات التى لم تطبع

١ — العقيدة الاسلامية والعقيدة النصرانية والمناظرة بينهما بالاستدلال من كتبهما } دين وفلسفة
٢ — القرآن الكريم وعدم اقتباسه شيئا من التوراة والانجيل وعصمة الأنبياء } دين وتاريخ

٣ - بنات الافكار فى كشف حقيقة الكيميا مشارق الأنوار فلسفة قديمة

٤ - الذخائر فى الفلسفة الاسلامية — فلسفة وتصوف

٥ - خديجة وبثينه — تاريخ واجتماعيات

٦ - الكواكب الدرية فى العلوم الأدبية — بيان وشعر ومعانى وانشاء

٧ - رسالة فى صدقة الفطر — فقه

٨ - ذخيرة المعاد فى فضائل الجهاد — حديث

٩ - رسالة فى آداب البحث والمناظرة — فن البحث والمناظرة

١٠ - مجموعة فى خطب الجمعة — مواعظ وحكم

١١ - مجموعة من الشعر وهى ما نظمه فى حياته ما بين أخلاقيات وحكميات . وغزل . وتاريخ . وتهانى وما شا كل ذلك ويبلغ الموجود منها ١٣٧٥٠ بيتا من الشعر فى ٧٠٠ صفحة

(وفاته) انتقل صاحب الترجمة الى الملأ الأعلى بعد غروب الشمس بساعة واحدة من ليلة الجمعة فى ١٧ رجب سنة ١٣٢٧ هجرية وقد بلغ من العمر ٦٥ عاما وتسعة أشهر و ٢٤ يوما تغمده الله برحمته ورضوانه